متلازمـــة فريجولي

الـــجـــزء الـثـانـي

منال معشي

حقل التفاح

APPLE FIELD

حقل التفاح

(متلازمة فريجولي الجزء ٢)

منال معشي

𝕏 Mnowolita_M

mnowolita_m

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

لا يَستَوي أبدًا ميزان الله وميزان البشر..
ألَمْ يبلغ إلى سمعكَ، وقلبكَ، أنه في ميزان الله السيئةُ بمثلها، والحسنةُ بعشرِ أمثالها؟!

أما في ميزان البشر..
فأحسِن وقد يُحسَن إليك..
أحسِن وقد يُساء إليك..
أحسِن وقد يُفرض عليك المزيد..
أحسِن وقد يُعرض عنك..
و..
و..

نعم..
فلِكُل بشر ميزانه..
المعوج منه والمستقيم..
وقد يغدو المعوج مستقيمًا يومًا والمستقيم معوجًّا!!
متقلبون كتقلب الليل والنهار..
وجميعنا سنُمتحن بميزان بعضنا بعضًا..

ولكن
ميزان الله ثابت على مدى الزمان..

وبين صفحات حقل التفاح قد يختبر عقلك وقلبك كل ما هو شبيه بتلك الموازين المتغير منها والثابت.

(١) نُزل السنابل

٢٤ سبتمبر - ٥ فجرًا

لم تُبصر عينا (ياسر) إلا الظلام حين تحرر جفناه أخيراً من الغيبوبة التي سقط فيها منذ يومين، بلغ سمعه صوت أنفاسه المتعبة والثقيلة، فيما أحسَّ ظهره بقساوة الأرض وبرودتها من أسفل منه، هو على غير العادة يرقد فوق سطح عارٍ من كل شيء وليس فوق سريره الوثير!

احتل الألم فجأة ذراعه اليمنى فأصدرت شفتاه الجافتان أنين تألم عاليًا، حاول رفعها إلا أنه مع ثقلها مقارنة بقوته الخائرة لم يتمكن من تحريكها لإنش واحد.

«أين أنا؟!»: قالها أخيراً بجزع بعد أكثر من عشر دقائق من إفاقته الكاملة، ليشعر بالشاش الملتف حول رأسه، وتلك الجبيرة التي أثقلت ذراعه من الكتف وحتى الأصابع.

وازداد عقله حيرة وتشوشًا حين انتبه للأغلال الملتفة حول ساقيه، والمنتهية بسلسلة ثُبت طرفها الحر في جدار الحجرة المحتجز هو فيها، فاتسعت عيناه بفزع.

غموض ما هو فيه أخذ ينقشع رويداً رويداً إِثْر تلك الشقوق في الجدران التي تسلل منها بعض الضوء من الخارج..

وزال ارتباكه أخيراً حين أدرك أنه داخل سقيفة التخزين المعدنية الملحقة بحديقة قصر (فاضل) الضخمة، الغبار من حوله وأسفل منه،

سعل عدة مرات وهو ينظر لتلك الرفوف المتسخة والحاملة لأدوات معدنية قديمة وصدئة، واستقر إلى جواره أكياس ممتلئة بالسماد المستخدم للعناية بالحديقة، فيما بهتت عيناه لمرأى العربة اليدوية القديمة المستقرة في الزاوية والتي ملأ سطحها رسومات قبيحة من طفل في الثامنة من عمره.

هو يعرف هذا المكان!

يعرفه جيداً ويحفظه عن ظهر قلب فهو من احتجز فيه الطفل (فارس) لعام بأكمله بأمر من (فاضل)، قبل أن يتخذ (فاضل) قراره الأخير بنقله إلى مستشفى الأمراض النفسية، وزور له شهادة تخرج في تخصص الطب النفسي ثم ألحقه به كي يُبقياه تحت نظرهما وسيطرتهما.

ولكن.. ما الذي يحدث الآن؟! وكيف انقلب الوضع؟! لِمَ هو في هذا المكان القذر بالذات؟! لماذا ليس في المستشفى يتلقى العلاج فوق سرير وثير بعد أن فجر ذلك (الحثالة نادر) في جسده وابلًا من اللكمات والضربات الوحشية التي لم يسعفه الوقت للرد عليها؟!

«لِمَ أنا هنا؟! (كاظم) أيها الوغد!! لِمَ أنا مُقيد؟!»

صحب صراخه صوت سعاله الحاد إلا أن الحارسين الواقفين بالخارج بسكون تام لم يفكرا بالرد عليه..

«فاضل أيها السافل.. كيف تجرؤ؟!»

صدى صوته فقط من أجاب صرخاته.. (شيء ما غير صحيح!).. هذا ما فكر به.. هل تم نبذه بعد كل تلك السنوات؟! كيف يجرؤ

فاضل وحارسه كاظم على احتجازه وإبقائه يعاني الظلام والغبار الخانق إضافة إلى آلام ذراعه ورأسه ووجهه؟!

شهق بذعر لتذكره أن وجهه قد ناله النصيب الأكبر من تلك الضربات، فرفع كفه السليمة المرتجفة لتحسسه، فشعر بتلك التورمات المنتشرة على كامله، بل أنفه المغطى بلاصق ضخم بدا وكأنه انحرف قليلاً عن استقامته.. إذًا وجهه قد تشوه!

أطلق صرخة غريبة جازعة مُلئت غضباً وانهياراً: «لا.. لا.. ليس وجهي.. لا.. لا.. سأقتلك.. سأحرقك.. أيها اللعين!».

وكاد يبكي وهو ينوح على نفسه: «ذلك الجشع شوه وجهي أمام فاضل وحارسه كاظم دون أن يحركا ساكنًا لإنقاذي منه.. لم ينقذا وجهي الثمين!.. بل قيداني في هذا المكان المُهْمَل والمُوحِش الممتلئ بالجراثيم!».

وصمت فجأة لتعلو وجهه الصدمة ثم: «مستحيل.. هل صدق فاضل أنني من اختطفت قريبه؟!».

هذا هو التفسير الوحيد الذي اهتدى إليه عقله.. فاضل صدق اتهام نادر الظالم له، ولهذا احتجزه، وبالتأكيد هو الآن برفقة حارسه ينتظران إفاقته فقط كي يستجوباه حول موقع (فارس) الوريث المفقود لأموال بسام ثروت.

****

٢٥ سبتمبر

كانت السابعة والنصف صباحاً حين غطت طرقات العاصمة أنواع متتابعة من سيارات الشرطة مرت إلى جوار العديد من السيارات المدنية التي تصاعد من داخلها صخب الركاب لهذا الازدحام المروري الذي تسبب في تأخرهم عن مقر أعمالهم، ولا تكاد إحدى تلك السيارات المدنية تتجاوز إحدى نقاط الشرطة المتمركزة حتى تتفاجأ بأخرى لتبدأ معاناة جديدة ودقائق أخرى مهدورة من تفحص الأوراق الرسمية للسائقين والركاب، ثم تفتيش كل إنش من سياراتهم مما بعث بحالة من الاهتياج وتكدير المزاج مع نسمات الصباح الأولى.

إلا أن ذاك الانزعاج لم يطل ذلك الرجل السمح الوجه، وهو يوقف سيارته في الصف، مدركًا أنه قد تمر نصف ساعة أخرى قبل أن يصل إلى دوره، وللمرة الثالثة، فاستغل ذاك الوقت بإخراج محفظة نقوده وبدأ بعد ما لديه فيها، ثم علا وجهه الارتياح فما زال لديه ما يكفيه لوقود سيارته في الغد..

«حمداً لله.. بعد الغد سيعطيني مدير المطعم أجرة مساعدتي له.»

قالها بارتياح وإن اهتز أحد حاجبيه بامتعاض؛ فليس من الجيد أن يستمر بأخذ المال من والد الفتاة التي يخطط للزواج منها!

«ليس وكأن فقيرًا مثلي يملك خيارًا آخر بعد ما فعله ذلك الوغد.»

تذمر بعبوس، ومع تذكره للمتسبب بفقده لمصروفه تسلل القلق ليملأ قلبه، فقد مر يومان على حادثة تهريبهم لفارس دون أن يتلقى معلومة واحدة تطمئنه على سلامة وصولهما للقرية!

نظر لهاتفه: «لِمَ لا يرد على اتصالاتي؟! هذا المزعج.»

واتجه أصبعه نحو هاتفه ليعاود الاتصال بـ (نادر) مراراً وتكراراً دون أن يدرك أن مفهوم (مزعج) بحاجة إلى التحديث في قاموسه.

ومرت نصف الساعة، لتبلغ سيارته أخيراً موقعها أمام رجلين من رجال المرور اللذين تفحصا بطاقاته وأوراقه الرسمية بدقة مبالغ فيها، فيما انشغل اثنان آخران بتفتيش السيارة، بدا الأمر له مريباً فجميعهم لم يتخلوا عن هواتفهم النقالة، ينظرون لشيء ما على شاشاتها ثم يقارنونه بأوجه راكبي المركبات.

هل يبحثون عن هارب أو مجرم ما؟!

تساءل في نفسه وقلبه ينقبض خوفاً من أن تكون حادثة هرب فارس هيَ المعنية، ولكن عقله طمأنه بأن خطتهم كانت محكمة كما أنه من المبالغ فيه أن يكون هذا التشديد من أجل مريض نفسي مفقود!

«لعل مسؤولًا من الخارج سيزور العاصمة.»: حدث نفسه وهو يستلم أوراقه منهم، فيما ألقى لسانه نحوهم بضع كلمات شاكرة إخلاصهم في العمل، كانت ذات أثر في التخفيف من ضيقهم وبعثت بابتسامة إلى شفاههم.

«الكلمة الطيبة صدقة.»: تمتم (أحمد)، وهو يبتسم بدوره، وسيارته تتجاوزهم إلى حيث مقر تدريبه بأحد مستشفيات العاصمة، دون أن يفطن أحد من حوله أن هذا الشخص أحد المتسببين بعذابهم الصباحي.

ذاك العذاب الذي بدأ منذ يومين، وبالتحديد في ٢١ من سبتمبر حين اختفى أحد المرضى المهمين من أشهر مستشفًى للأمراض النفسية

بالعاصمة، كان في طريقه لتلقي العلاج العضوي من أجل التهاب الزائدة الدودية، ولكن بمجرد وصول معالجه النفسي نادر عبد المجيد ورئيس الأطباء سالم وحيد للمستشفى بعد ثلاث ساعات من وصول سيارة الإسعاف التي تقله وجدا أن الفتى مفقود.. بحثا عنه، ولكن لا أثر.

تبادل الوصي عليه فاضل بسام ثروت الاتهامات مع مدير مستشفى الأمراض النفسية حول المتسبب في فقدانه، ومن يجب أن يُلقى عليه اللوم، ليحدث شرخ في علاقتهما التي استمرت لثماني سنوات، وانتهى ذلك النقاش بإلقاء اللوم على الطبيب النفسي المساند ياسر.

دون أن يعلم أحد أن السبب الحقيقي لهذه الكارثة لم يبدأ في هذا اليوم، بل بدأ في الخامس من مايو أي قبل ما يقرب من خمسة أشهر حين قُبل المعالج النفسي نادر عبد المجيد عن طريق الخطأ ليكون مسئولًا عن حالة الفتى (فارس) مريض متلازمة فريجولي الذي يتوهم جميع الناس شخصًا واحدًا، ولكنه متنكر في هيئات مختلفة.

ولم يكن ذلك الشخص الذي يتوهم فارس وجهه في كل من يراه إلا المجرم ياسر الذي قتل أخته ذات السنوات الخمس أمام عينيه، وعبث بجسدها، ومن ثم رافقه لتسع سنوات يحيي تلك الذكرى في عقله المضطرب مرة كل عشرة أيام، وينتهز دومًا الأيام والليالي العاصفة لتعذيبه جسديًا ونفسيًا، مما جعل سلوك الفتى إثر اضطرابه غاية في العنف والعدوانية وهذا ما حدث في أول لقاء له مع معالجه النفسي نادر عبد المجيد.

كلاهما، (نادر وفارس)، أخفى ماضيًا وتعامل بسوء فهم وعنف مع الآخر، حتى أزاح مرور الأيام ذاك الغموض لتتشكل علاقة بين الاثنين دفعت نادر عبد المجيد ليستعين برفاقه من السجن، زيد مخترق محترف في مجال الحاسوب، وتميم سائق شاحنات، وحاتم المحتال، إضافة إلى أحمد صديق طفولته وهو العضو غير المرغوب به في عملية تهريب الفتى فارس من عمه فاضل الذي يسعى لنقله إلى مصحة للأمراض العقلية كي يدمر ما تبقى من اتزانه النفسي بهدف الاستيلاء على ورثه الذي أوصى له به جده بسام ثروت، ومن ثم سيقتله.

إثر هذه الحادثة فقد المعالج النفسي نادر عبد المجيد وظيفته، ولكنه نجح بإنقاذ الفتى، ووعده بترتيب لقاء له مع أخته مايا بعد شهر.

وقد قرر نادر قضاء هذا الشهر في قريته بعد أن بلغه تدهور صحة والده، فأخذ فارس برفقته، رغم تحذير أحمد له من عودته لمنزله القديم المقابل لمنزل الأسرة التي حاول نادر قتل ابنهم وتسبب له بإعاقة جسدية حُكِمَ عليه بسببها بِالسِّجْنِ لعامين.

****

٢٦ سبتمبر - ٤ عصراً

أرض خضراء شاسعة، استقام فوقها صف متراص من الصناديق الخشبية الكبيرة، وإلى جوار أحدها ثُبت عمود طويل اعتلته لوحة مُضيئة ومضت بـ: (نُزل السنابل).

توقفت سيارة زرقاء إلى جوار ذاك العمود ليطلق قائدها تنهيدة عميقة، لقد وصل، بعد أكثر من ثلاثة أيام من القيادة المتواصلة والحذرة، ها هو الآن على بُعد أقل من ساعة عن مشارف قريته التي تحوي منزله وعائلته الوحيدة.

«فارس.. سننزل هنا»

قال (نادر) وهو يطفئ محرك السيارة، بينما لملمت كفه الأخرى محفظته وهاتفه ليضعهما في جيب معطفه.

«قلت سننزل هنا».

تحدث بنبرةٍ أعلى، ولكن لا صوت، أو أدنى استجابة من المسجى بالخلف ببطانية لا يكاد يظهر مع حجمها الكبير جزء من جسده.

«نومه ثقيل بالرغم من أنه لم يتناول الدواء منذ ثلاثة أيام!»

تساءل باستغراب، وهو يستدير للخلف بنصفه العلوي، ثم راح يهزه من كتفه صائحاً بضجر: «فارس.. انهض!».

واحتدت عيناه لخاطر قفز إلى تفكيره فجأة، فسحب البطانية بغلظة ليفاجئه (فارس) بسحبها هو الآخر في الاتجاه المعاكس، بل وزاد من تكومه وتقوقعه حاشراً جسده في لين المقعد الخلفي.

زفر في سخط.. هو يتجاهله إذاً!.. بل ويبدو أنه لم يكن نائماً أبداً!.. وعندها هتف ببرود: «لا بأس.. يمكنك أن تُكمل نومك في السيارة ككل مرة».

عاد إلى مقعده، ثم فتح بابه، وبالفعل غادر السيارة صافقاً الباب

خلفه.. عشرون دقيقة قضاها في اختيار وحجز أحد تلك الصناديق ثم عاد مجدداً للسيارة، فتح حقيبتها الخلفية، حمل الحقائب وبعض مستلزماته ولا يزال فارس تحت البطانية!

تحرك ليدخل ذلك البيت، وضع الحقائب والأكياس فوق أرضيته.. كل ما ينقصه الآن هو الاستحمام بماء دافئ، طعام، ومن ثم النوم لعدة ساعات يزيل به إرهاقه قبل مقابلة والديه ووداع أيام راحته.

«تلك العجوز.. أرجو أنها نسيت ما قاله أحمد عن ضرب مريض لي!: تمتم بها بِهَمٍّ، وعقله مندهش؛ فكيف لها مع عمرها ذاك أن تنجو من الخرف؟!

أزاح معطفه، وعلقه فوق مشجب صغير، سحب من فوق الطاولة كومة من الأوراق لعدد من المطاعم القريبة وبدأ يختار ثم..

«سُحقًا.. وبُؤسـًـا!..»

صاح بغضب متأجج وهو يقذف بالأوراق، ثم نهض ليغادر النزل، وقف أمام سيارته وقد احتقن وجهه.. وتبّاً! لو كان غيره لتركه يتعفن في السيارة.

«انهض!..»

بلهجة عنيفة أطلق أمره وهو يفتح باب المقعد الخلفي ليهب فارس جالساً بارتباك، ومع سقوط البطانية ظهر وجهه المصفر خوفاً من غضب نادر.

أسرع يطوي بطانيته وعيناه الزرقاوان اللتان أحاط بهما لون الغروب ترميان عسلي العينين ما بين ثانية وأخرى بنظرة عاتبة.

ولاحظ نادر فركه الشديد لعينيه بسبب تأذيهما من أشعة الشمس، وبالتأكيد هذا سيحدث ما دام قد بقي تحت ظلمة البطانية من الخامسة فجراً وحتى الرابعة عصراً.

أراد فارس النزول فحرك جسده باتجاه الباب، ولكن بقي نادر يقف مغطياً الفرجة بأكملها بقامته المنحنية قليلاً وهو يحدق فيه بصمت.

«سأنزل.»

قال بإذعان، ولكنه لم يبتعد وظل يتأمل أطراف أذنيه وأرنبة أنفه المحمرة وقد كان الجو باردًا، فسأل: «أنت لم تصب بالزكام؟!»

حرك رأسه بـ: (لا) ولكن نادر لم يكتف بها كإجابة وهو يمد يده ليلمس جبينه وقد كان بدرجة حرارة جيدة، فابتسم فارس بلطف: «أخبرتك أنا لستُ مريضًا».

(كيف له أن يبتسم فجأة وقد كان غاضباً منه قبل قليل؟!).. فكر نادر بتعب، ثم سأله بانزعاج: «ألم تنم؟!».

«لا».

أجاب بهدوء فأغمض نادر عينيه محاولاً تمالك أعصابه.. إذًا لم ينم.. ولم يذق طعاماً طوال بقائه أسفل البطانية.. هل ينتقم منه بصحته؟!

«هل تسعى لإغضابي مجدداً؟!»

عاد ذاك الاحمرار يغزو تينك العينين الزرقاوين وصاحبهما لا يفهم ما يعنيه بسؤاله؛ هو أراد النوم، ولكنه لم يستطع فقط!.. ثم عن أي غضب يتحدث؟! بل العكس.. هو من تسبب بإغضابه.

رفع يده ليمسد شعره المقصوص قائلاً بعينين ملؤهما الخيبة: «لقد سخرت مني.. قام مصفف الشعر بقصه بناءً على رأيك متجاهلاً رأيي تماماً، بل وحرك المقعد عكس المرآة حتى لا أُدرك خداعكما لي إلا بعد انتهائه».

«بالتأكيد سيمتثل لأمري فأنا من أدفع له المال».

«أنا الآن أصلع.. الجميع سيسخرون مني».

«لا تُبالغ.. لقد اعتدت عليه طويلًا وكثيفًا فحين قصصته صُدمت من منظره».

«كلا!.. هو ليس جميلًا أبداً».

«فارس.. توقف عن التباكي كالفتيات لأجل بضع خصلات صغيرة فقدتها».

«أنا لا أبكي».

رد بحرج وغضب وهو ينحني ليثبت الحذاء في قدمه.. نعم ذاك الحذاء الرياضي الواسع الخاص بنادر، لثلاثة أيام ظل منتعلًا له!

«سأنزل، ولكن لن أستبدل ملابسي المتسخة».

قال بعناد وعيناه تجولان بعيني نادر المتعبتين.. ويبدو أن نادر قد ارتكب الكثير والكثير مما أغضبه خلال رحلتهما إضافةً إلى قصه لشعره.

عض نادر على شفته السفلى في نفاد صبر وهو يذكر تمرده الأول عليه بعد مغادرتهما صالون الحلاقة:

كانت الأجواء ممطرة بشدة وقد حلّ الليل وخلا الطريق من أعمدة الإنارة.. (فشل ذريع لبلدية تلك المنطقة!).. وفي تلك الأجواء العاصفة كانت القيادة خطرة فاضطر نادر لإيقاف سيارته أمام صالون للحلاقة، وقد رآها فرصة سانحة للتغيير من هيئة فارس تحسبًا إذا ما تم نشر أي ملصق له، وإن كان بداخله متيقنًا تمامًا أن فاضل لن يجرؤ على ذلك، كما أن طول شعر فارس لا يتناسب مع هيئة فتًى بعمره؛ خاصة مع كل ذاك النقاء واللين اللذين عكستهما ملامحه، والتي لم يكن ليغفل عنها الناس وستنطبع ملامحه في ذاكرتهم دون عناء.

وبالفعل تعمد خداع (فارس) بأنه سيقصه ليطابق شعره، ولكنه خفف جانبيه ليريحه من شعره الطويل المحتك برقبته دومًا، فيما أبقى أعلاه كثيفاً وطويلًا نسبيًّا ومنسدلًا بتموج على جبينه كهيئة مراهقي هذه الأيام، ثم غادر صالون الحلاقة رغم اعتراض (فارس) المستميت، وعند واجهة المحل كانت الأمطار قد توقفت فأغلق نادر مظلته، وقال آمراً له: «فارس تجنب السير على برك المياه الموحلة حتى لا تتسخ السيارة بالوحل الذي سيعلق بالحذاء و..».

كان يُحذره ويسير في الوقت ذاته حين جذب سمعه صوت خطوات فارس من خلفه، فالتفت ليصدمه سيره متعمداً وسط بركة موحلة وقد أطبق شفتيه في غضب ساخط.

فعله ذاك استفز نادر وفاجأه، وبدلاً من الصراخ عليه ومعاقبته صعد إلى السيارة ثم أقفل بابها تاركاً إياه في الخارج وسط الجو البارد.

ورغم اعتذار فارس وطرقاته المتواصلة للباب لم يسمح له

بالدخول، إلا بعد أن رآه ينزع الشال مُضطرًا لينظف به الحذاءين وطرفي البنطال المتسخة!

ولكن هل اختياره لقصة شعره -بدلاً منه- يستحق أن يتجاهله ويختبئ تحت ظلمة البطانية كل ذاك الوقت؟!

تأفف بشدة فهو بالتأكيد برفقة طفل ليس إلا!!

«إن أخذتني لشراء ملابس أخرى جديدة فسأعيد لك هذه».

قاطع شروده صوت فارس المتوسل، فأومأ برأسه رافضاً ببرود، فتنهد فارس بضيق: «لماذا؟! لماذا؟! لم أخرج من السيارة مُنذُ ثلاثة أيام.. ننام فيها.. نأكل فيها.. وحين أنام تشتري الملابس دون أن تجعلني أختار بنفسي.. تفعل كل شيء ممتع وأنا نائم».

«لا تكذب».

ألقاها نادر بهدوء ليعبس فارس: «أنا لا أكذب».

«ألم أُنزلك أكثر من عشر مرات أمام عدد كبير من محطات الوقود؟».

احتقن وجه فارس: «هذه لا تُحسب».

«لماذا؟! أليست نزولًا كما تريد!! أنا رأيتك بنفسي تنزل وتركض نحوها كالمجنون».

زاد احتقان وجه فارس ومُلئ حرجاً، فقضاء حاجته في دورات المياه ليس ممتعًا على الإطلاق، تحركت شفتاه بهمس لم يسمعه (نادر) ولم يستبعد عقله أنه كان يتمتم بعدة شتائم ضده، ولكن ما أسفر عنه

هذا النقاش أن فارس قد سئم الجدال الذي انتهى به لنقطة نسي ما يسبقها وتلاشى غضبه تماماً.

ابتعد نادر عندها عن الباب فحرك فارس قدميه ليقف جواره، ولم تكد تقع عيناه على تلك المنازل الخشبية والمساحة الخضراء الشاسعة المحيطة به، حتى اتسعت شفتاه بفرحه، واختنقت رئتاه بشهقته العميقة، وعيناه تجوبان ما حوله بذهول.

نظر.. ونظر.. ونظر.. دون صوت، وكأنه فتّى استعاد بصره للتو، وزاد من ذهوله أنه طوال السفر كان يصحو ليلاً وينام نهاراً.

النهار السعيد الوحيد الذي حظي به، حرك قدميه لتخطوا فوق العشب المجزوز بعناية.. كاد يصرخ.. يركض.. ولكنه تذكر وعده لنادر في السيارة ألا يكرر ما فعله أمام المنزل الأول.

التفت إلى نادر فرآه يحمل أكياساً أخرى باتجاه أحد تلك المنازل فلحق به.. وسُحرت عيناه بمظهر وتنسيق أثاث المنزل الريفي الذي استأجراه.

«أغلق الباب خلفك».

«حسناً». أغلقه ثم اتجه يركض إلى إحدى النوافذ الضخمة ليتأمل الطبيعة الخضراء خلفها.. تقسيمات المنزل الخشبي من الداخل أثارته هي الأخرى فراح يتنقل في أرجائه ليجد حجرة نوم بسريرين منفصلين وإلى جوارها دورة مياه وصالة صغيرة أُلحق بها كل سبل الراحة ومطبخ و.. و..

«أين نحن؟!»

ولأول مرة يسأل مُنذُ مغادرتهما العاصمة.

«في أرض السنابل الواقعة جنوب العاصمة».

«لم أرها.. ولم أسمع بها من قبل».

قال ذاهلاً، وهو يجلس على أريكة مقابلاً لنادر الذي انشغل باختيار أصناف الطعام التي سيطلبها.

«هذا لأن يد العمران والاهتمام لم تطل هذا المكان فقد كان تركيزهم الأكبر على العاصمة وما حولها فبقيت كالريف بالنسبة لسكـ..»

وصمت ليرفع رأسه، ثم نظر إلى فارس الذي حدقت عيناه بأوراق الأطعمة على الطاولة.. هكذا هو حين يكون الشرح طويلًا ومملًا بعض الشيء.. يتجاهله تماماً!

«أريد أن أختار أيضاً».

صاح متوسلًا، وهو يسحب عددًا من الأوراق، فامتقع وجه نادر، كيف لم ينتبه لذلك ويخفِها مسبقاً..

«أريد هذا.. وهذا.. وهذا.. و..».

«اختر صنفين فقط».

«أربعة».

«واحدًا».

«لا.. ثلاثة أرجوك».

«لا شيء إذًا.. سننام فحسب».

«اثنين.. اثنين فقط.. أقسم على هذا».

صاح بلهفة قبل أن يغير نادر رأيه، فهز رأسه بالموافقة، واستغرق الاختيار منه خمسَ دقائق ثم سلمها لنادر وقد هاجت في نفسه رغبةٌ بعدد آخر من الأصناف، فيما أضاف لها نادر صنفًا آخر واتصل بخدمة النزل ليطلبها، ثم نزع قميصه مزمعًا الاستحمام.

«فارس.. لن أتأخر.. إياك ان تعبث بشيء».

«حسناً».

رد بصوت ممدود، وعيناه تنظران إلى أكياس الملابس التي أحضرها له نادر، ويبدو أن ذلك لم يغب عن عيني نادر الذي ابتسم فرغم عناده لم يستطع مقاومة رغبته برؤية ملابسه الجديدة، تنهد بارتياح، يمكنه أن يأخذ وقته بالاستحمام ففارس سينشغل بالتأكيد بالملابس وتجربتها.

ولم يكد يختفي داخل دورة المياه حتى قفز فارس نحو الأكياس، وراح يخرج الأطقم الواحد تلو الآخر.. قمصان متباينة الألوان والتصاميم مع بناطل تناسبها، منها الطويل، والقصير، وعدد من الأحذية الرياضية.. لم يكن نادر بذاك البخل معه.. وعدد من التيشرتات الثقيلة.. بل وحتى مناشف و. و.

«لماذا لم يصطحبني معه؟!». تمتم منزعجاً.. وبحق لو اصطَحَبه معه فهل كان سيكتفي بما في يديه الآن؟

نهض لتجربتها وأذناه تلتقطان فجأة صوت دندنة للحن ما صادر عن دورة المياه.. ضحك وهو يقلد دندنة نادر بصعوبة، على عكس

نادر الذي حمل صوته استمتاعه الكبير بالمياه بعد ثلاثة أيام من تعب القيادة.

كان فارس منشغلًا بترتيب فوضى الملابس التي صنعها حين فاجأه صوت طرقات خافتة على الباب، التفت نحوه، وبدا متردداً للحظة قبل أن يبتسم..: (لا بد أن الطعام قد وصل.).. قفز واقفاً ثم أسرع ليفتحه ليظهر من خلف الباب طفلة صغيرة حدقت فيه بعينيها الخضراوين، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة بريئة وهي تعتصر بين ذراعيها دمية أرنب. «مرحبًا».

قالت بضحكة مفعمة، وهي تنظر للأعلى حيث الزرقاوان اللتان ظلتا محدقتين بها بدهشة، لم يغلق فارس الباب ولم يرد تحيتها.. ظل صامتاً ينظر للأسفل، إلى ملامحها البريئة، وقد شعر بشيء غريب يغزو قلبه المبتهج قبل ثوانٍ.

«عيناك زرقاوان جميلتان.. كعيني أرنوب!». صرخت وهي ترفع الدمية نحوه لتريه عينيها.. ولقصرها لم تصل إلى رأسه، ولكنها أفلحت في إيقاظه من وجومه لينحني بجسده للأسفل منتصباً على إحدى ركبتيه، واستطاع ملاحظة كم كبِر مقارنةً بالطفلة التي لم تتجاوز طوله حتى بعد انحناءته.

«لقد رأيتك حين خرجت من السيارة الزرقاء.. لقد قُلتُ لماما إن عينيك تشبهان عيني أرنوب ولكنها لم تنظر إليك».

أردفت، ولكنه مجدداً لم يُجبها، وعيناه الزرقاوان تجوبان عينيها الخضراوين وابتسم للطافتها وهي تمد له دميتها ليحملها.. وفجأة..

«أخي فارس انتظرني!».

«لمى تُريد اللعب مع فارس».

«أخي يؤلم.. لا تشد شعري».

«أين الدبدوب؟!».

«لمى لا تستطيع النوم بدون دبدوب».

«هل أخذت دميتي؟!».

تانك الزرقاوان احمرتا بشدة، واندفع الدمع الغزير ليبللها، وذاكرته لا تتوقف..

(«ذاك هناك هو أخي».

سمع صوتها.. رأى صورتها وهي تقف أمام أسوار مدرسته، مشيرة بذراعها كلها نحو ملعب كرة البيسبول الذي يلعب فيه، صارخة بين جمع من فتيات الروضة مفتخرة به.. بأخيها فارس.. التصقت بالسور الذي انطبعت قضبانه على وجهها، وصرخت ببهجة: «أخي فاااارس.. لمى تُحبك».

غطى وجهه الحرج، فيما تضاحك رفاقه من حوله، فجر خطواته نحوها ليخرسها بكلمات قاسية ثم وبخها لمغادرتها مبنى رياض الأطفال فقد كانت في الخامسة.. رأى الدموع بعينيها وسط رفيقاتها وهي تجر خطواتها مبتعدة..)

«لا تبكِ.. لا تبكِ أرجوك!»

استفاق من ذكراه على صوت الطفلة التي راحت تمسح وجنتيه،

فقد سالت دموعه دون وعي منه.. رآها تبكي هيَ الأخرى وتسحب مياه أنفها بقوة فقد ظل لوقت أمامها مغيب الوعي، دموعه فقط من استمرت بإيذاء مشاعرها.

أمسك يدها يبُعدها عن وجهه برفق، فيما رفع يده الأخرى ليمسح عينيه وفجأة..

«أيها الوغد القذر!»

ارتعب فارس، وسقط أرضاً أمام المرأة التي صدحت صرختها، وهي تختطف ابنتها من أمامه لتضمها إليها..

«ماذا فعلت بها؟! هل آذيتها؟!»

لم ينطق، فقط ارتسم فزع مضاعف في وجهه وهو يحرك رأسه بـ (لا)، ولكنها لم تصدقه؛ فوجه طفلتها محمر ودموعها لم تتوقف، بل ودميتها بين يديه!

«أيها اللعين!»: صرخت وهي تنحني لتسحبَ الدمية من ذراعه بخشونة، ورفعتها لأعلى امتداد لتضربه بها على رأسه، وعادت لتكرر ضرباتها، فرفع ذراعين متقاطعتين حمايةً لنفسه منها، وهو يصيح بخوف وألم: «لا.. لا.. لم آخذها.. هي من أعطتني.. توقفي أرجوكِ.. أنا لستُ المخطئ أمـ...»

«ماذا يحدث؟!»

صرخة عالية بصوت رجولي ارتفعت من خلف فارس جمدت ذراع المرأة العالية، بل وانتفض جسدها وهي ترى صاحبها يسرع نحوهم لا يغطي جسده سوى منشفة كبيرة التفت حول وسطه.

«هذا الفتى آذى طفلتي وسرق دميتها».

قالتها، وهي تشيح بوجهها عن النظر إليه فيما لم يظهر على نادر أي حرج، وهو يقف أمامها ناظراً لفارس الذي بقي مغطيًا لوجهه بذراعيه، فصمت لثوان ثم نطق: «هل رأيته يسرق الدمية؟!»

أطبقت المرأة شفتيها ورفعت عينيها لعينيه، ولكنها حقًا لم تره، فأجابت: «الطفلة.. من أخبرتني».

رفع نادر أحد حاجبيه فيما قالت الطفلة: «ماما.. أنا من أعطيتها له لأن عينيـه تشبهان عيني أرنـــو..».

أسكتت باقي كلماتها يد أمها المتوترة التي غطت شفتيها، فيما أظلمت عينا نادر وقال: «هذا ما ظننته..»

ثم حرك كفه طاردًا لها: «سحقًا!.. كم أكره رؤية أمثالك.. تُهملين مسئوليتك تجاه طفلتك ثم تكذبين ملقية خطأك على الآخرين.. إن كانت ترهقك مراقبتها فتوقفي عن الإنجاب وأريحي الناس منكِ ومن مشكلا..».

أوقف ذمّه لها ركضها السريع مبتعدة عنهما، ولسانها يشتم طفلتها التي أوقعتها في هذه المشكلة، فصفق الباب بقوة شاتماً بدوره، واستدار ينظر لفارس الذي ظل على حاله، فقال محنقاً:

«ألم أخبرك ألا تتصرف دون سؤالي؟! لماذا فتحت لهما الباب؟!».

واكتسح وجهه القلق فجأة، حين انتبه لارتجاف كفي فارس، وذهاب لونه.. ذلك لم يكن طبيعيًا!.. انحنى نحوه ليربت على كتفه ثم سأله: «هل كانت ضرباتها موجعة؟!».

رفع له عينين قد بلغ احمرارهما أقصاه، وبأنفاس ثقيلة همس: «لم أقصد إيذاءها.. كُنتُ غاضباً.. أردت أن أكون لطيفاً معها، ولكنها دائماً ما كانت تتجاهلني حين يكون وَالِدَايَ موجودين».

انقبض قلب نادر لفكرةٍ ما قفزت لرأسه وهو يتأمل وجهه الشاحب، فيما أردف فارس ببطء: «لم أعاملها كأخ.. ولم أستطع حمايتها.. كُنتُ فظًّا معهـــا..»

وشهق بعنف قاطعًا حديثه حين شعر بذراعي نادر اللتين أنهضتاه بالقوة بعد تيقن ظنونه، مغمغماً بقلق:

«كلا.. كلا!.. ليس الآن وقد وصلنا إلى هذا الحد من العلاج؟!».

أسنده ليجلس على الأريكة ثم نظر في عينيه مباشرة قائلاً: «فارس تلك الطفلة ليست أختك».

جالت عينا فارس بعينيه، ولكن تلك العبارة لم تُفلح في انتزاعه من ذكراه، فهمس نادر بضيق: «أثرها أعمق مما ظننت.. لم يتحرر من سجن تلك الصدمة بعد».

أحسّ بالانزعاج لتهاونه، وتأخير علاجها إلى حين تعافي فارس من اضطراب المتلازمة، ولكن لم يظن أن ضررها قد يطاله قبل وصولهما إلى منزله بالقرية، ففارس لم يُحدثه أو يصارحه حول تفاصيل مقتل أخته لمى، وكل ما توصل إليه نادر كان محض استنتاجات وتحليل منه ليس إلا..

ولا سبيل لتحرر فارس من ذكراها إلا بمشاركة شعوره مع شخص آخر يتفهم ما مر به.. لا دواء.. ولا مستشفى قادر على علاجه.

وإن لم يُسرع بعلاجها فقد يغرق فارس مجددًا في عقدة الشعور بالذنب الباعث للاكتئاب الذي ظل تحت وطأته لسنوات يدفعه للانتحار والذي بالكاد توقف عنه قبل أقل من ستة أشهر فقط.

وهذا ما جعل نادر يحدثه برفق: «أنا أصدقك».

فتح فارس عينيه على اتساعهما فيما كرر نادر بهدوء: «أنا أصدق أنك لم تأخذ دميتها.. بل هيَ من أعطتك إياها.. أعني الطفلة الغريبة المتطفلة».

كان سيُنزل رأسه للأسفل محاولاً تجاهل نادر بعد أن شتت تفكيره ويدد ذكراه المظلمة، ولكنه تجمد حين قبض نادر بكفه على ذقنه لتتقابل أعينهما: «فارس.. أنا متيقن أنك لم تكن سيئاً.. فقط أخبرني بالذي حدث؟!».

أراد الابتعاد، ولكن لم يخفف نادر من قبضته وهو يزعجه بأسئلته محاولاً جر تفكيره لاتجاه آخر: «أجب هيا.. ماذا حدث؟!.. ومتى جاءت هذه المرأة؟! ولماذا جاءت؟! وما الذي تحدثت عنه معها؟!.. والطفلة هل أنت من فتحت لها الباب؟!.. أنت.. هل خالفت أوامري؟!.. فارس».

سيل من الأسئلة لم يتوقف، والذي دفع فارس تحت ضغطها الكبير، ليُسرع محاولاً الإجابة: «لم أرد فتحه.. ظننت الطعام قد وصل.. كانت الطارقة طفلة..».

وراح يحكي بنبرة متلعثمة متوترة ما حدث ولم يكد يُنهي قصته حتى عادت له أنفاسه مجدداً ليسأل بانكسار: «هل صدقت أني آذيت طفلتها؟!».

«أصدقها؟! هل أنت أحمق؟! هما من تقفان أمام بابنا وليس نحن.. فكيف تعمدتها بالأذى؟!».

ابتسم فارس ببلاهة لهذه الحقيقة وابتسم نادر بدوره: «الآن تيقنت كم أنت أبله».

«لستُ أبله».

«بل أبله وجعلت امرأة قبيحة تتطاول عليك وتضربك بدمية».

«لم تمنحني الفرصة لأُجيب أو أدافع عن نفسي».

«ادفعها هيَ وابنتها وأغلق الباب ما دامت وقحة».

«هذا سيئ.. سأكون أشد وقاحةً إن فعلتُ ذلك».

تمتم بها فارس مصدوماً، فيما نهض نادر حين رآه استعاد توازنه، ليجفف شعره، وانتبه فارس لتلك الندوب المغطية لجسد نادر، وقبل أن ينطق كان قد رن جرس الباب فالتفت نحوه ثم نحو نادر بأعين مترقبة، فقال نادر بهدوء: «إنه الطعام.. افتح الباب».

لم يتردد فارس وهو يسرع ليفتحه بحماس متناسياً تماماً ما حدث سابقاً، فيما وقف نادر يراقب تعابيره قبل أن يبتسم براحة وهو يراه يأخذ الطعام من الرجل دون خوف أو تردد.

تلك الأيام الثلاثة التي مرت منذ مغادرتهما للنزل في العاصمة لم يقضها نادر بقطع مسافة السفر، بل كان تركيزه الأكبر هو مراقبة فارس، فلن يخاطر بجلبه إلى منزل أسرته ما لم يثق أولاً أنه لن يكون خطرًا عليهم..

تجنب في سفره منحه أي فرصة للاختلاط بعدد كبير من الناس لذا لم يصطحبه إلى مراكز التسوق الكبرى ولا أي موقع به صخب عالٍ وتجمهر للناس..

واكتفى بأن تعمّد إنزاله عند كل محطة وقود ليدرس تعابير وجهه عند لقائه بعدد قليل من الغرباء أمام دورة المياه..

راقبه عند تعبئة العامل للسيارة بالوقود، عند شرائه من أكشاك الطريق، وفي جميعها بدا سعيدًا وهادئًا..

الأدوية كانت ذات أثر بالغ وناجح في تهدئة اضطرابه وازداد نادر يقينًا عندما اصطحبه إلى صالون الحلاقة ولم يرتبك أمام الرجل، بل لم يثر على الأم وطفلتها، وأخذ الآن الطعام دون أن يكون لما فعلته به الأم أثر سيئ على تحسنه من المتلازمة..

ذلك كان أكثر من كافٍ بالنسبة له ليأخذه في الغد معه دون أن يقلق من أنه قد يكون عنيفًا ويؤذي أسرته.

ابتسم وهو يرتدي ملابس مريحة، فيما ارتفع صياح فارس السعيد: «الطعام». ووضعه على الطاولة وامتدت يده نحوه، ولكن نظرة واحدة من نادر جمدته، فصاح برعب: «ماذا؟!».

«لا طعام حتى تستحم».

فتح شفتيه يريد الاعتراض، ولكن تجعد وجه نادر، وتغطيته لأنفه بتقزز، جعلاه يمد شفتيه ممتعضاً لولا تذكره أن لديه العديد من الملابس الجديدة وقد كان في ذلك مواساةٌ له، تحرك ليدخل دورة المياه فيما أخرج نادر أقراص الدواء من إحدى الحقائب الصغيرة..

«من الجيد أن الليلة هو موعد الدواء.. وإلا فماذا لو عاودته هذه الذكرى المؤلمة أثناء نومي؟!».

نقلها إلى جوار سرير فارس، وقد قرر أنه عند وصوله إلى منزله سيجعله يتكلم معه عن تلك الحادثة، حتى لو اضطر للضغط عليه..

«تبًا.. ما هذا الشعور؟!»: وضغط على جانبي رأسه فجأة، وعيناه القلقتان تتجهان تلقائيًا نحو قريته الضامة لوالديه، فأردف بتوتر: «مهما تحسن لن ينفي ذلك حقيقة أنه يظل كالعبء الثقيل.»

فتح التلفاز وراح يقلب قنواته محاولًا إلهاء عقله عن تلك الفكرة المقلقة، هو بحكم القانون مجرم اختطف مريضًا عقليًا وإذا ما تم القبض عليه فقد يواجه حكم السجن لمدى الحياة.. شفقته المبالغ فيها على (فارس) ماذا لو تسببت بتكرار ذاك الماضي المؤلم أمام والديه فيتسبب بتدميرهما مجددًا؟!

«أنت انتظرتني لنتناول الطعام معاً.»

اخترق شروده صوت فارس المبتهج وعيناه الزرقاوان تعكسان امتنانه الكبير، أراد نادر أن يخبره أنه لم يكن ينتظره، ولكنه شعر فجأة بعدم تهيؤ مزاجه للجدال ففضل الصمت.

حرك فارس المنشفة فوق رأسه يجفف شعره بسرعة، فيما جلس نادر أمام المائدة وراح يتناول الطعام، وللحق فقد كانت الملابس الجديدة تُناسب فارس تماماً بألوانها الباهية والمتناسقة.

وعند التاسعة مساءً كان فارس مستلقيًا على سريره بعد ابتلاعه لأقراص دوائه، عبس بوجهه قليلاً وهو يذكر المستشفى وما لحقه فيه من أذى فقال: «هل لديك مستشفًى هنا ستعالجني فيه؟!».

اتسعت عينا نادر، وانتبه إلى أنه لم يحدثه من قبل عن المكان الذي سيأخذه إليه..

«لا.. ما تحتاجه لعلاجك ليس مستشفًى.. وإنما أناس تتحدث معهم وتخالطهم.. لذا فأنت ستعيش معي ومع والديّ لبعض الوقت».

قالها وهو يتفحصه منتظراً ردة فعله التي بدت بوجوم وصمت لثوانٍ قبل أن تتسع شفتاه بابتسامة تنم عن فرحة كادت تمزق قلبه سعادةً.. أن يبقى مع نادر.. الشخص الوحيد الذي تغلب على مرضه الذي لزمه لأكثر من ثمانِي سنوات، بل ويكون جزءًا من أسرته في هذا المكان الجميل.

ضحك سروراً ثم غلبه فضوله: «كيف هو شكل والديك؟! ومنزلك؟! وهل هو خشبي مثل هذا؟! و..».

راح يثرثر بتساؤلاته، فيما تجاهله نادر تمامًا، وهو يجلس على طرف السرير الآخر، والنعاس يداعب عينيه العسليتين حين التقطت أذناه فجأة صوت أخبار التلفاز القادم من صالة الجلوس.. شيء ما جذب انتباهه.. (مريض عقلي!).

ترك السرير وقلبه ينقبض لهاجس مخيف، اتجه للصالة ليصدمه منظر ذاك الرسم المتقن والمطابق تماماً لوجه فارس يعتلي شاشة التلفاز بأكملها ومن أسفلها عدة معلومات ومبلغ مالي ضخم لمن يدلي بمعلومة ولو صغيرة عن المريض العقلي الذي فرّ من المستشفى.

«لماذا؟!»

كان يثق أنهم لن يعلنوا عنه.. لن يخاطر فاضل بفضح نفسه ونشر اسم فارس!

وظهر فجأة على الشاشة حيلتهم الذكية فالاسم المسجل تحت الصورة: (سامر عبد الرحمن).. إذًا لن تنتبه أسرة فارس للصورة ما دامت باسم غريب..

ولأن الصورة ليست إلا رسمًا تقليديًا بقلم الرصاص فلن ينتبه أحد منهم لمدى شبهها بفارس الذي فارقهم في سنته الثامنة من عمره..

«ذلك المبلغ سيثير انتباه أغلب الناس».

قالها، وقد ازداد انقباض قلبه، هو الآن في معضلة كبيرة جعلت التوتر يسيطر عليه، لقد جلب مصيبة لنفسه ولوالديه أيضاً.. وفي قرية هو في الأصل منبوذ فيها..

عاد بنظراته القلقة إلى فارس الذي بدأ أثر الدواء يسري في جسده، وقف أمامه ينظر إليه.. هل ستتكرر المأساة ويُسحب إلى السجن أمام والديه كالسابق؟! هل هناك مجال للتراجع؟!

«أسف».

انتبه من أفكاره المتوترة على ذاك الصوت الضعيف المثقل لينظر للعينين الزرقاوين اللتين علاهما شعور كبير من الذنب..

«أسف». كررها فارس مجدداً.

«من أجل ماذا؟!»

سأله نادر بصدمة.. فهل فطن فارس لما يفكر به؟! وأنه سيجلب له مصيبة إن لم يتخلص منه؟!

«أسف لأني ضربتك بالمقعد في أول لقاء لنا.. لم أكن أعلم أنه أنت.. أنا أسف».

أسدل جفناه واسترخى جسده لتكون هذه هي كلمته الأخيرة قبل غياب وعيه في الظلام تاركاً نادر خلفه صامتاً متفاجئاً من تذكر فارس للقائهما الأول فجأة..

وظل على صمته دقائق قبل أن يهمس: «أنت كالعلقة كلما دفعتك بعيداً وجدتك ملتصقاً بي أكثر..».

****

(٢) حقل التفاح

«مريض جديد!»

تمتم أحد عاملي التنظيف باستهجان كبير، وهو يكنس حجرة فارس القديمة في مستشفى الصحة النفسية الأشهر بالعاصمة، فيما راحت امرأة في عقدها الرابع تُدلك زجاج النافذة بمنشفة صغيرة متابعة ثرثرتها: «يقولون إنه هو الآخر غني جدًّا».

«إذًا مسكين آخر».

«أرجو ألا يكون عنيفاً كسابقه». قالتها بوجل مما جعل العامل يتنهد، وهو يذكر معاناته مع فارس في تنظيف حجرته، ثم راح يسحب الفراش لينفضه و.. سقط كراس قديم!

التقطه بلا اهتمام ليرميه في سلة المهملات، وقبل أن يُسقطه فيها سمع من خلفه صوت رئيس الأطباء (سالم) يسأله باستغراب: «ما هذا؟!».

«يبدو أنه للمريض السابق.. فارس»

قال وقَلَبه بين يديه ليتحقق، فيما بدت صدمة ذاهلة في عيني سالم، وهو يسحبه منه لينظر إليه مستنكراً؛ فأوراق الكراس مثبتة بسلك حديدي، ومن المستحيل أن يمنحوا أحد مرضاهم مثله فقد يكون وسيلته لإيذاء نفسه، وبالأخص مريضهم فارس!

غلبه فضوله ليفتحه ويقلب صفحاته فازدادت صدمته أضعافًا..

ولم يكن الرسم المتقن ما صدمه!

بل كنه ما رُسم فيه..

الممر..

الحجرة المشتركة..

حجرة نوم نادر..

جميعها رسومات لأماكن مُنع فارس من أن تخطو قدماه نحوها.. بل والأسوأ أعقب هذه الرسومات رسومات جعلت سالم يشهق بعنف..

فهي رسومات لنادر.. بمعطفه الطبي.. عينيه العسليتين.. ووجهه المبتسم!

كان ليشكك بأنها من المستحيل أن تخص سجينهم المعزول (فارس) لولا معرفته الأكيدة برسوماته.. فهو مريضهم الذي لطالما ذُهلوا من موهبته الدقيقة بالرسم..

والذي لم يتقبل بشرًا واحدًا طوال السنوات الثماني التي قضاها بمستشفاهم!

****

٦ صباحًا ٢٧ سبتمبر

هبت نسائم دافئة مع اللحظات الأولى لمولد الشمس فوق سماء قرية السنابل، وعلى بقعة صغيرة من إحدى أراضيها ترجل فارس من السيارة لتتلاعب تلك النسمات بخصلات شعره السوداء التي تمايلت أمام عينيه الزرقاوين اللتين انعكست عليهما صورة منزل ريفي قديم امتدت أمامه أرض شاسعة استقام فوقها عدد وفير

من أشجار التفاح التي فاحت رائحتها في الأجواء وقد أحاطت بها أسوار حديدية عالية.

تأمل ما حوله بانبهار وقد جذبه كل شيء، أوراق الخريف اليابسة المتطايرة بفعل الرياح، المنازل المتباعدة وقد ضم كل منها حديقته الخاصة وإن اختلفت بمساحاتها، المبنى الحجري البعيد وقد حمل لوحة أعلى طابقه الثالث تُشير إلى كونه مدرسة إلا أنه خوى من الدارسين، والمسجد المتهالك القديم والذي توسط هذه المنازل بمئذنته الخضراء المنيرة.

لا مراكز تسوق قريبة.. لا ضجيج لأعمال البناء أو السيارات القادمة والراحلة، بل وخلت أجواؤها من دخان المصانع.. هيَ قرية بدت للاستجمام وإعادة الراحة للنفس أكثر من كونها قرية يستطيع الناس التأقلم والعيش فيها مع كل التقدم والتقنية الموجودين خارجها.

افتر ثغر فارس عن ابتسامة رائعة، وذراعاه تحتضنان عددًا كبيرًا من القبعات والأوشحة المنسوجة من خامات خفيفة، غطت إحدى هذه القبعات الضخمة شعر رأسه بالكامل فيما التف وشاح عريض حول رقبته وصولاً إلى شفتيه.

رؤية عينيه لهذه الطبيعة الخلابة بمنازلها الريفية القديمة دَفَعَت ذاكرته لتقارن بينها وبين الحجرة التي حُبس فيها لثماني سنوات.. جدرانها الباعثة للاكتئاب.. نافذتها المُطبق عليها سياج حديدي.. وسادته الرمادية.. غطاؤه الأسود.. و.. و..

ما هو فيه الآن لم يكن حتى حلماً قد يراوده في سجنه قبل ستة أيام.. فقد كان أقصى ما يتمناه هو الخروج فقط.

ارتطمت إحدى أوراق الأشجار المتطايرة بعينيه مفزعةً له فحنى رأسه فوق ذراعيه المثقلتين ليحك عينيه فوقها بألم، ثم التفت ينظر من أسفل قبعته البيضاء للواقف جواره بصمت، وقد عكست عيناه تعبيراً يراه لأول مرة.

رآه يستند بظهره على السيارة من خلفه، وقد أخبره قبل النزول أن هذا هو المنزل الذي سيمكثان فيه، ولكن ومُنذُ أن ترجلا خارج السيارة، لربع ساعة بأكملها، ظل واقفاً بجمود وقد غلف عينيه شيء لم يفهمه فارس.. ولن يفهمه!

فنادر الآن لا يرى سوى ماضٍ حمل أحرج لحظات حياته وأشدها بؤساً، اللحظة التي خسر فيها شعوره تجاه كل شيء.

في هذا المكان فقد إيمانه بالأشخاص من حوله.. وعلى الرغم من فشل تلك الحادثة في جعله يفقد إيمانه بذاته إلا أن ذلك لا ينفي حقيقة أنها هزته ولو قليلاً.

وتفاجأ فارس حين تحركت عينا نادر لتمنحاه نظرة طويلة ذات معنًى تسللت رويداً إلى أعماق قلبه وأكسبته شعورًا قلِقًا..

«لو أفقت ووجدت نفسك بمفردك في النزل دوني.. فماذا ستفعل؟!»

سؤال نادر الغريب زاد من قلقه إلا أنه أجاب دون تردد: «سأبحث عنك في السيارة».

«وماذا لو تركتك ورحلت؟!».

«أنت لن تفعل ذلك». بابتسامة واثقة أجاب.

«لماذا تثق أنني لن أفعل ذلك؟!».

التقى حاجبا فارس، وفتح شفتيه ثم أطبقهما محاولاً الإجابة، ولكن تينك العسليتين الجادتين جعلتاه يجيب بانفعال: «لأنه أنت.. نادر».

اتسعت عينا نادر، ومالت شفتاه بابتسامة فيما تابع فارس فجأة بابتسامة مرتجفة: «هل فعلتُ شيئًا خاطئًا ؟!».

واحمرت عيناه مما جعل نادر يثق أن إثارة مثل هذا الحديث قد أزعجته..

تأمل حاجبيه المنعقدين ووجهه المحتقن!.. ماذا لو علم بالحقيقة؟! حقيقة أنه تخلى عنه هو الآخر، ففي الساعة الثانية ليلاً، وبعد ليلة عصيبة قضاها تحت وطأة مشاعر مضطربة قائمة اتخذ قراره؛ خوفاً من ذلك الإعلان المنشور.. هو أراد مساعدته شفقةً به.. ولكن ليس على حساب حياته..

أو حياة والديه.. وهما الأهم بالنسبةِ إليه.

ولهذا عزم على تركه فحمل حقيبته ليرميها في سيارته، وعقله يصارع عدة أسئلة: ماذا لو أفاق فارس ووجد نفسه وحيداً وسط اللامكان.. كيف سيتصرف؟!

أي رهبة وخوف سيتملكان قلبه حين يُفيق ليجد من وثق به وعقد آمالاً عليه قد اختفى هو الآخر وتخلى عنه كما تخلى عنه والداه وعمه ومايا؟!

ووجد نادر نفسه بعد نصف ساعة من مغادرته يركن سيارته أمام

أحد المحلات ليشتري القبعات والأوشحة، ولسانه يطلق شتائم لم يوقفها إلا عودته إلى النزل مجدداً.

(هل أبحث بسؤالي عن سبب يسَوِّغ لي تركه؟!) تساءل نادر في نفسه وهو يتنهد بتعب واستسلام، فيما بقيت تانك العينان الواثقتان به تهتزان لثوان، ثم نطق: «أسف».

بدد أسف فارس المفاجئ شروده، فسأل: «أسف! من أجل ماذا؟!».

«لأني دفنت البارحة بذور دوار الشمس في حوض أزهار النافذة وحين نهضت صباحًا ولم تنبت نفضتها ثم أعدتها للكيس».

حلّ الصمت ثوانِيَ وقد عكست عينا نادر تفاجؤه واستهجانه.

«أسف.. أسف.. أسف.. أقسم إنه الشيء الخاطئ الوحيد الذي فعلته اليوم».

كررها فارس خوفاً، ولكن نادر لم يُجب، فقط تصاعدت دماء الغضب لتكسو وجهه وهو يذكر قضمه لبعضها وحين لم يستسغ طعمها تركها، تذكر الحمامة الراقدة فوق ذلك الحوض مع بيضها وفضلاتها و.. ملأ الأرض ببصاقه.

«لم تكن تعلم؟!!». صرخ فارس مفزوعاً؛ فقد فضح نفسه.

«أيها القذر.. أنت من سيُدفن الليلة!»

«أســـف»

عاد يصرخ، وهو يركض بحمله خلف السيارة، ووقع خطوات

نادر اللاحقة به يتصاعد من خلفه، وقد بلغ غضبه أقصاه وهو يصيح بتقزز:

«كان علي أن أرحل.. تبّـــاً!.. ما الذي يجبرني على تحمله؟!».

قطع شجارهما نباح كلب ارتفع صوته من خلف أسوار المنزل الريفي، فتوقفت خطوات نادر ليلتفت نحوه، واقترب الصوت أكثر دون أن يظهر صاحبه، فيما غشي قلب فارس الخوف وهو يطل برأسه من خلف السيارة، وعندها رآه يخرج من بوابة المنزل راكضاً وقد ازداد نباحه قوة مما جعله يقطب حاجبيه فقد آذى أذنيه صوته العالي و.. اندفع الكلب الضخم نحوه.. نحو فارس الذي أطلق صرخة رعب عالية، ثم أسقط القبعات والأوشحة ليركض مبتعداً، والكلب يتبعه.

أراد اللوذ بنادر، ولكن وجهه الذي لم يزايله الغضب بعد جعله يفزع أكثر ففتح باب السيارة الخلفي وقذف بنفسه داخلها مغلقاً الباب على نفسه..

ولم يتوقف نباح الكلب وهو يثب لتستند قائمتاه الأماميتان على زجاج نافذة السيارة فتراجع فارس ليلتصق ظهره بالباب الآخر وقد اتسعت حدقتاه ذعراً وهلعاً.

«لا.. لا.. لا.. ابتعد!»

صرخ وكفاه تضغطان على أذنيه مانعاً صوت نباحه المزعج من التسلل لسمعه، وقد زادت نبضات قلبه تسارعًا.

«برونو!»

توقف نباح الكلب وأنزل قائمتيه ليبتسم نادر وهو يراه يعود

راكضاً نحوه وراح يدور حوله دون أن يلمسه، فانحنى نادر ليربت على رأسه موقفاً حركته وزادت ابتسامته الودود اتساعاً.

«هل أتيت لترحب بي؟!»

نبح الكلب بنبرة منخفضة وكأنه فهم ما يعنيه فحملت ملامح نادر تعبيراً دافئاً وهو يداعبه.. وبعد دقائق من ترحيبهما بعضهما ببعض متجاهلاً المرتجف هناك، أطل نادر برأسه من النافذة قائلاً بابتسامة غامضة: «لم أكن أعلم أنك تخاف من الكلاب».

أزاح فارس كفيه عن أذنيه لسماعه صوته وبدا الأمان يغزو عينيه الخائفتين، ولكن تينك العسليتين لم تحملا أي تعاطف وهو يُعيد سؤاله عليه، فأجاب فارس بنبرة مرتجفة: «نعم.. إنها مخيفة وشرسة».

«أوه.. هذا سيئ»

حملت عبارته المتهكمة تهديداً مبطناً فسيكون وسيلته إذًا لترويضه إذا ما واصل مشاكسته معه.

«اطرده!»

همس فارس بصوت بالكاد يُسمع لنادر الذي انتبه فجأة لكومة القبعات والأوشحة التي أسقطها على الأرض.

«حتى متى سأبدد أموالي عليه؟!»

تمتم بها وهو ينحني ليجمعها.. (فهي وسيلة التنكر التي سيُخفيه بها على أعين الناس).

«نا!!!!!!در!»

صرخ فارس فزعاً ووجه الكلب يطل عليه من النافذة، فأطل نادر بدوره وقد بدا جاداً جدّاً، وهو يقول: «هيا عدد ما اتفقنا عليه سابقاً».

لم يكن الوضع مناسباً، ولكن جدية نادر الشديدة نبأته أنه لن يُبعد الكلب حتى ينفذ ما أراده، وفي إذعان اعتدل جالساً بعبوس ثم أزاح الوشاح عن فمه، وعيناه متسمرتان على المخيف هناك، وقال: «لن أُزيل الساعة من معصمي الأيسر».

«و؟»

«لن أغادر منزل والديك أبداً إلا برفقتك».

«وأيضًا؟!».

«لن ألمس أغراضك الشخصية مجدداً». قالها بتبرم ثم تابع بانزعاج: «ولن أبكي أمام أحد غيرك».

«جيد جدّاً.. فلن يتفهم أحد ذلك مثلي».

«حسناً». قال فارس وهو يخشى عدم قدرته على ضبط دموعه، ثم أردف بخفوت: «وإن شعرتُ بأي تعب أو تشوش فسأخبرك فوراً».

«على عكس ماذا؟!» سأل بحنق وعيناه تضيقان بشدة.

«أخبرتك لن أخفي مرضي عليك كما فعلتُ في النزل وإن توهمت رؤية المجرم متنكرًا أو بهيئته الحقيقية فسأخبرك».

«وإن كُنتُ بعيداً عنك؟!».

«سأغطي عيني».

«رائـع.. رائـع.. لقد حفظتها كلها». ثم احتدت ملامحه: «وإن خالفت أحدها؟!».

«لن أخالفها أنا أعدك».

«سيكون من الخير لك ألا تفعل».

هتف بابتسامة تنم عن استمتاعه الكبير، وذراعه ترصف بثقلها فوق رأس برونو الضخم مضيفاً: «فعضة برونو أسوأ من عضاتك عشرات المرات».

شحب وجه فارس ذعراً لتهديده الصريح، فيما قال نادر بعد ثوانٍ: «حسناً.. برونو.. اسبقني للمنزل».

عاد الكلب راكضاً إلى حقل التفاح، ومع اختفائه ترجل فارس من السيارة وقد عكس وجهه غضبه.

«فارس.. إن سألك أحد عن اسمك فبمَ ستجيبه؟!»

«لا شأن لك»: بعبوس وحدة أجاب.

«جيد» تمتم بها نادر وأحد حاجبيه يهتز مردفاً: «ولكن لِمَ تقولها وكأنك تقصدني بها؟!».

حرك فارس عينيه بعيداً، وإن حملت شفتاه ابتسامة متورطة، فقال نادر بهدوء: «لا أظن برونو ابتعد كثيراً».

«لا!!!!!.. أسف»

صاح بوجل وهو يقفز خلفه، فكتم نادر ضحكاته، وهو يخرج حقائبهما ليحملاها معاً، وتجاوزا البوابة الرئيسة.

«نادر»

همسة أنثوية رقيقة جذبت الاثنين لينتبها إلى شابة تجاوزت منتصف العشرينيات من عمرها قد احتضنت أناملها سلة من القش مُلئت بالأزهار، فوقف نادر، ووقف فارس من خلفه ينظران للدموع التي ملأت عينيها.

«نادر.. حمداً لله على عودتك.. لقد افتقدناك كثيراً».

هذا الاستقبال الحميم المليء بالمشاعر قابله برود من نادر الذي ضاقت حدقتاه وهو يُبصر مساحيق التجميل التي اختفى وجهها تحتها.. بل ونبرتها المغنجة!!.. ففسح طريقاً إلى البوابة قائلاً: «غادري!».

«نادر»

بكل رقة نطقتها عاتبة عليه طردها فاهتز صوته حنقاً: «سحقاً.. ألن تدعوني أعيش بسلام؟!».

صرخته الغاضبة انتفض لها جسد فارس ودفعته ليبتعد عنه خطوات، فيما لم تتأثر المعنية وهي تقول: «شكراً لأنك فسخت خطوبتي من أحمد».. وغلفت صوتها بامتنانها العميق..

«لم أفعل ذلك لأجلك.. كان حادثاً وحسب».

فتحت شفتيها، إلا أنه رفع سبابته مضيفاً: «وحتى لا يختلط عليكِ الأمر.. لم يكن هدفي الزواج منكِ فلا تحلقي في تخيلاتك الغبية».

اعتصرت أناملها حبل سلة القش، واهتزت عيناها، دون أن تلحظ وجود ذلك الشخص المجاور لنادر، وهي تتلفظ متبرمة: «كن لطيفاً

معي.. فلقد ساعدتك.. ونقلتُ والديك إلى هذا المنزل في غيابك.. واعتنيتُ بهما حتى مجيئك و...»

«لم أطلب منكِ ذلك». وازدادت نظرته حدة، وهو يشير إلى البوابة آمراً: «ريم غادري.. وإلا فستضطرينني لجرك إلى الخارج».

أنزلت قبعتها القشية عن رأسها لتحرك الرياح خصلات شعرها البندقية أمام وجهها المتلألئ بالدموع، وقد أفلحت حقّاً في اكتساب شفقة ذلك الواقف إلى جوار نادر فقال: «دعها تبقَ معنا أرجوك.. إنها تبكي».

ذلك فقط ما كان ينقص نادر ليلتفت بحنق إلى فارس الذي لم تتغير ملامحه المتعاطفة، وهو يتوسل إليه بنظراته ليوافق، فنطق بسخط: «هل تريد أن أركلك أنت أيضاً إلى الخارج؟!».

ابتلع فارس ريقه بخوف وحرك رأسه بـ: (لا)..

«من هذا؟!»

سألت ريم بانفعال، وقد انتبهت فجأة لذاك الفتى الغريب الذي منحها نظرة معتذرة لعجزه عن مساعدتها.

«من هذا؟! وما الذي يعنيه بالبقاء معك؟!»

كررت سؤالها بنبرة عالية جمدت فارس الذي صُدم من وجهها الجاد، وقد اختفت تلك الفتاة الرقيقة والباكية.

«لا شأن لكِ» رد نادر بجفاء، وهو يُنزل حقيبته.

«هل سيعيش معك حقّاً في هذا المنزل؟!»

«ألن تغادري؟!».

«شخص وحيد مثلك، نبذ أصدقاءه القدامى لثماني سنوات، وعامل الجميع بجفاء يقبل بأن يعيش شخصٌ ما معه؟!».

«يا للإزعـــاج!»

صاح وقد استحالت عيناه حمماً.. تستميت من أجل تقبله لها! وحين ترى تقبله لإنسان غيرها تستغربْ وتستنكر مدَّعيَة أنه شخص لئيم وسيئ! ولم يصنع هذا الشخص الفَظّ والسيئ غيرهم.

اتجه نحوها سيجرها من شعرها إلى الخارج فحتى لو ساعدت والديه فهذا ليس مبررًا لتتجاوز حدودها معه! وفي داخل منزله أيضًا!

فيما ظلت هيَ تتفحص فارس، وقد نجحت القبعة في حجب ملامحه العلوية وشعره الفاحم، فيما أخفى الوشاح ذقنه وجزءًا من شفتيه، ولكن لم يغب عنها عمره الصغير.. هو مُراهق.. لماذا نادر يصحب مراهقًا مثله؟!

«عجباً.. أليس هذا أكثر ما تُبغضه؟! المراهقين بشتى أصنافهم؟!»

ذلك السؤال جذب انتباه فارس بقوة فانعقد حاجباه مستفهماً، هل هي تعنيه؟!.. فيما توقفت خطوات نادر فقد تمادت بشدة في التدخل في شؤونه الخاصة، وظل صامتاً لثوان قبل أن تتسع عيناها وهي تراه يربت بذراعه على كتفي فارس ليقربه منه قائلاً: «بالتأكيد سأتقبله».

وابتسم مُضيفاً: «فهو أخ لزوجتي المستقبلية».

صُعقت لقوله، وامتلأت عيناها بالدموع، وقد كُسر شيء بداخلها،

ولم يكتف بذلك، بل مال على فارس مانحاً له ابتسامة واسعة قائلاً بعبثية: «أليس كذلك؟!»

سؤاله أخرج فارس هو الآخر من صدمته ليضحك بعذوبة مؤيداً: «نعم.. وسأتكفل بكل شيء».

ارتفع حاجبا نادر ولم يلبث أن ضحك لتذكر فارس لحديثهما القديم.. رؤيتها لنادر يضحك بعد أن أشعل حزناً في أعماقها أغاظتها جدّاً فغادرت بسرعة لتغيب خلف أسوار حقل التفاح، فيما اعتدل نادر في وقفته، واستعاد بروده هامساً: «لا تعرف حدودها أبداً».

وكسا وجهه لثانية طيف من الألم والحزن المرير، ثم انتبه فجأة للمجاور له، وقد غشت السعادة عينيه، فنادر لن يفترق عنه بعد أن يجمعه بأسرته، بل سيتزوج أخته.

«شكراً لأنك لم تنسَ».

تمتم بها مبتهجاً، وهو يضع حقيبته ليهتز أحد حاجبي نادر، فقال بسرعة محاولاً تغيير دفة الحديث قبل أن يشرع فارس في سرد محاسن أخته:

«هل وجدت صعوبة في رؤيتها؟! أقصد المرأة التي رحلت».

«لا.. أنا بخير».

رد ببساطة وعيناه ترمقانه بنظرة ذات مغزًى جعلت نادر يتنهد، ثم قال: «حسناً.. افعل ما تشاء».

انطلق صراخه عالياً، وهو يزيح الوشاح ويرمي بالقبعة ليعدو

بين الأشجار، فيما أغلق نادر البوابة جيداً كي يمنع دخول أي متطفل آخر، ثم أخذ نفساً عميقاً امتلأت به رئتاه وهو يتجه ليقف بصمت أمام منزل والديه أخيراً.

«بُني».

جذبه صوتها فنظر نحو إحدى نوافذ المنزل الريفي فرأى عجوزًا تطل منها قد أخذ الزمن من شبابها ولم يُبق لها سوى تجاعيد بالكاد تظهر معها عيناها، فارتخت ملامح نادر وأطل من عينيه دفء مفاجئ، وهو يقول: «نعم إنه أنا».

أغلقت النافذة وسمع نادر صوت خطواتها المسرعة، وكاد يدخل من الباب لولا وقوفها أمامه بقامتها القصيرة لتحتضن ذلك الجسد بما تبقى لها من قوة.

«أيها العاق.. لماذا لم تتصل بي كثيراً؟!».

«أُمي أهكذا ترحبين بعودتي!؟».

تمتم بها في أذنها وذراعاه تحيطان بها برفق، ثم همس فجأة: «أوه.. لقد ازددتِ قصراً!».

شهقت لقوله، وتراجعت للخلف هامسة: «حقّاً؟!».

«بل ووجهك بالتجاعيد يبدو كأرض قاحلة لم تمسّها المياه مُنذُ قرون».

«هل تظنُّ والدك لاحظ ذلك؟!».

«بما أنه أكبر منكِ.. هل ما زالت عيناه تعملان؟!»

هنا فقط دق ناقوس الخطر حين تجرأ على والده فسحبت تلك العجوز عصاً كانت مسندة على ركن الباب وصرخت: «اذكر الله على والدك أيها العاق.. هل تريده أن يفقد بصره؟!».

ضحك وهو يتراجع للخلف والعجوز تحاول ضربه بعصاها: «أمي.. ما الذي بقي منه أصلاً؟!».

«يا لك من سيئ!».

«تخلصي منه، وسأحضر لكِ أفضل منه».

صرخت غاضبة وعصاها تضرب ساقه الطويلة.

«أوتش» صاح وكفه تدلك ساقه.

هذا الشخص.. بمعطفه الفاخر.. ووسامته المتأججة.. وملابسه المكوية بعناية.. وتصفيفة شعره الراقية.. لم يكن يشبه نادر إلا في شيء واحد فقط.. (المظهر).

«أبـــي!» صاح بها كالمستنجد لتكف تلك العجوز عن تعمّد ساقيه بضرباتها.

«ذلك الكهل.. هو من أفسدك..»

صاحت مغضبة فهذا الشاب لا يمنحها فرصة لترحب به ترحيباً لائقاً فدائماً ما يستفزها.

هدأت حركتهما حين سمعا صوت عجلات المقعد المتحرك المحتكة بالأرضية تقترب من باب الكوخ دون أن يعلما أنه كان يراقبهما من النافذة، وظهر صاحب المقعد أخيرًا وقد زينت شفتيه ابتسامة واسعة.

اعتدل نادر في قامته، فيما أخفت العجوز عصاها خلف ظهرها وشفتا الكهل تتحركان بـ: «هل تسعى لإفساد زواجي؟!».

«أُقدم لها خيارات أفضل ليس إلا».

استشاطت غيظاً، فيما ضحك الكهل، وهو يرى نادر ينحني نحوه ليمنحه عناقاً.. وقد كان عناقاً طويلاً.. طويلاً جدّاً..

ربت الكهل مراراً على ظهره، ومع تراجعه للخلف رأى عينيه المحمرتين تأثراً.. ولأول مرة بعد خروجه من السجن يرى ذلك بعينيه.

«توقف عن استفزاز والدتك مخفياً تأثرك على عينيها».

طيف من الحرج كسا وجهه لثوانٍ، وهو يتمالك نفسه ليهدأ، فيما قالت العجوز، وهي تسحب مقعد الكهل للداخل: «ستؤذيك الشمس؟!».

أوقفها صوت نادر: «أبي.. ما العمل الخيِّر الذي قمت به لتكسب حبها وعشقها لقرون؟! أخبرني بسرك أرجوك».

ضحك الكهل، فيما صاحت العجوز محرجة: «هذا الصغير لا يحكم كلماته».

وأخرجت عصاها، صائحة: «أبوك.. أنت تشبهه.. لم يكف عن الشجار معي وإغاظتي حتى بعد زواجنا وحين هدأ ابتليت بك».

«أُمي.. أشك أنه العكس».

«ماذا؟!»

وارتفعت عصاها لتضربه فرفع ساعده ليتلقى ضرباتها؛ فهي لم تكن بذاك الألم الذي يدعيه بتأوهاته العالية.. فقط سعى ليثير شفقة أبيه.

«لا!!!!!..»

صرخة مفزوعة من خلفهم جعلت الثلاثة يديرون بصرهم المتسع لينظروا إلى فارس الذي سقطت كومة من التفاح من بين ذراعيه وهو يعدو ليقف حائلاً بين العجوز ونادر.

«لا.. أنا أسف.. أسف..»

ظل يكررها وكفاه تدفعان نادر للخلف بعيداً عن عصا العجوز المتجمدة، فيما لم يخرج نادر من صدمته وعيناه تتسعان بتساؤل.. هل هو يحاول حمايته من والدته؟!

«لص!»

استفاق نادر على صوت أمه الصارخ وهي ترفع عصاها لتضرب فارس، ولكن تلك الضربات لن تكون خفيفة فهي ليست موجهة لابنها كالسابق، ومع إدراكه لذلك أسرع يشد على تلابيب قميص فارس الأمامية ثم سحبه خلفه رغم شهقته المتفاجئة قائلاً بانفعال:

«أمي.. إنه ليس لصًّا.. بل..»

وصمت مفكراً لثانية، ثم أردف: «إنه ضيفي».

«ضيف؟!»

نطقتها مصدومة في الوقت الذي حرك به الكهل شفتيه بذهول؛

فمُنذُ أكثر من ثمانِي سنوات لم يستقبل نادر صديقًا أو ضيفًا بإرادته الخاصة، حتى أحمد وريم كانا يزورانهم بالرغم عنه دون أن يمنحهما أي ضيافة أو ترحيب.

وتفهم عقله نظرتهما المندهشة وهو يعود ببصره إلى فارس الذي ظل خلفه وما زال الفزع يسكن عينيه فقال: «إنهما والداي.. اللذان ستسكن معهما».

حسناً.. كانت تلك أكبر من أن يحتملاها فما معنى أن يسكن معهما؟!

«أنت تمزح؟!»

قالتها العجوز في الوقت نفسه الذي نطقها فيه فارس بعبوس ظنًّا منه أن نادر يسخر منه؛ فهما عجوزان للغاية.. أحدهما قد تجاوز بعمره السبعين والآخر قد تعدى الثمانين!

.

.

مرت ساعتان بأكملهما على ذاك اللقاء الجماعي غير المتقبل من أطرافه، كان فارس مسترخيًا فوق أريكة في الصالة الرئيسة من كوخ العجوزين وعيناه تتابعان العجوز التي انشغلت بترتيب مائدة الطعام وعيناها تُحدقان فيه ما بين دقيقة وأخرى.. وكلما تقابلت أعينهما ابتسم فارس فيتجهم وجهها لتزداد تجاعيده أكثر.. وتغلبت على نفسها أخيراً لتقف أمامه سائلة بغلظة:

«أنت مريضه؟».

أومأ فارس برأسه إيجابًا، فتأملت جسده النحيل وعينيه الواهنتين وهي تتذكر حديث نادر معها حوله من أنه فتًى مريض وهو المسئول عن علاجه الذي يتطلب بقاءه في الريف لبعض الوقت للاستفادة من جوه النقي.

«بماذا تشعر؟!»: سألت وهيَ تراه يستلقي على الأريكة وقد ازدادت نظراته خمولًا.

«بالدوار ورأسي يؤلمني.. وبرد» أجاب فشحب وجهها، لمست كفه لتجدها متجمدة فصاحت بفزع: «سيفقد ابني وظيفته إن أصابك مكروه!».

أسرعت لتحضر لحافًا غطت به جسده، فيما رأى فارس توترها فنطق ببطء: «أنا بخير.. إنه الدواء.. دائماً يحدث لي هذا في اليوم الذي يلي تناوله».

«نم وارتح فحسب».

تمتمت، وهي تعود لمائدتها فيما تردد لحظة قبل أن يسألها: «هل أنتِ حقاً والدة نادر؟!».

سؤاله المستنكر أزعجها، ولكنها أومأت بنعم، فابتسم ليسأل بلطف: «هل يمكنني مناداتك جدتي؟!».

لم يكد يطبق شفتيه حتى اصفر وجهه إثر احتقان وجهها غضبًا وصرخت فيه: «لولا أنك مريض ابني لكسرت العصا على ظهرك.. من هيَ جدتك؟!».

وصمتت لجزء من الثانية سألته بعدها بريبة: «أنت من ضرب ابني؟!».

ابتلع فارس ريقه بتوتر وقد كشفت عيناه تورطه إلا أنه لم يجب سؤالها فهزت رأسها بحقد هامسة: «نم فحسب وحين تُفيق سأنتقم منك شر انتقام!».

عبس بوجهه فبالكاد يحتمل عقوبات نادر فلماذا أصبحا الآن اثنين؟!.. ومرت دقائق قبل أن يستسلم لنعاسه ويغيب في نوم طويل.

ومن إحدى حجرات المنزل خرج نادر وخرج والده من بعده على مقعده المتحرك أوتوماتيكيّاً، وقد ظهر على وجهيهما المحتقنين بشدة أن شجارهما لم ينته على خير.

لمح نادر فارس النائم بعمق فتحرك نحو حجرته الخاصة ليُبدل فيها ملابسه فيما تحدثت العجوز مخاطبة والده بعتاب: «هل تشاجرت معه من أجل المال الذي اشترى به المنزل وحقل التفاح؟! ألم تطق صبرًا حتى يرتاح قليلاً بعد سفره؟!».

«هو بحاجة للزواج فلماذا يُبدد ماله على رغباتنا؟!»

تحركت بها شفتا الكهل دون صوت، وأوقف مقعده أمام فارس النائم وظل شاردًا لدقيقة قبل أن يسألها: «هل تظنين ما أظنه؟!»

اتسعت عينا العجوز لوهلة قبل أن تلين وتومئ بـ (نعم).

وفي حجرة نادر الصغيرة التي ارتكن سرير على جانبها كان نادر يغالب غضبه وهو يرتدي قميصًا منزليًّا؛ فوالده يرفض العلاج.. يرفضه نهائيّاً.. بل والأسوأ أن والدته لا تعلم أن صحته في تدهور وأنه في آخر أيامه.

«وكأن عناده سيثنيني عما عزمت عليه!»

تمتم بها وهو يخرج ليشاركهما مائدة الطعام، ورن جرس المنزل فجأة.

«سأنظر من بالباب»

قال، وغادر المنزل متجهاً نحو البوابة، لتفاجئه سيارة الشرطة المتوقفة أمامها، خرج منها ضابط شرطة يعرفه جيداً، ولكن ترقيته لرتبة أعلى فاجأته.. بدا الكره في عيني نادر لهذا الشخص وبنبرة غليظة قال: «ماذا تريد؟!».

«أنت مقبوض عليك بتهمة السرقة.. أيها البديل».

أظلمت عينا نادر وغزا ألم شديد قلبه لكلمته الأخيرة.. وبحق هم لن يتركوه ينعم بهدوء أو سلام ولو لمرة واحدة.

****

(٣) اللقيط

ملأ الانزعاج وجه المحقق (أيمن)، وهو يتجول في ممرات مبنى مركز شرطة العاصمة يحمل في كفه اليمنى لفافة ورقية طُبعت عليها صورة للفتى المفقود، دلف إلى صالة واسعة انتثر فيها عدد كبير من المكاتب، اختار أحدها ليجلس خلفه، ثم وضع تلك اللفافة على مكتبه، وفردها لينظر بضجر لذاك الرسم بلون الرصاص الكئيب.

«جميعهم حمقى!».

«دون شك»

رد أيمن بسخط ثم انتبه لينظر بفزع للشخص الذي تجرأ على شتم رئيس الشرطة ونائبه، فهتف بوجل: «الرقيب نواف!».

تقدم نواف ليقف إلى جواره وقد كان يكبره بضعف عمره، عكس وجهه استياءه وعيناه تنظران إلى تلك الصورة الغريبة..

«لا تفزع يا أيمن لن أتحدث عنك بالسوء أمامهما..» طمأنه بهدوء.

«أنت تعرفني؟!».

«وكيف لا أعرفك؟! الجميع يتحدثون عنك وعن نجاحك في حل القضايا المعقدة واستئثارك الدائم بالمكافأة لنفسك».

ابتلع أيمن ريقه بارتباك، وأظهر ابتسامة خالية من الحياة مجاملة له، فيما سحب نواف تلك اللفافة، شيء ما في هذا الرسم بعث في أعماقه شعورًا غريبًا وخانقًا!

بينما تذمر أيمن فجأة بعصبية: «جميع العمليات أوقفاها بسبب البحث عن هذا المضطرب النفسي متجاهلين أن لدينا قاتلًا طليقًا، ومبتزًّا نسعى لإمساكه بجرمه، ومعتديًا على النساء، والكثير، والكثير، تم تأجيله بسبب هذا المراهق المفقود!».

- أليس غريباً؟

- بل منتهى الغرابة!

- ورغم استنكاري إلا أن رئيس الشرطة تجاهل اعتراضي؟

- ونائبه الوغد الذي كان رئيسنا بقسم التحقيق قبل شهرين فقط، قد ويخني أيضاً!

- من الجيد أن وجدتُ محققًا ذكيًّا مثلك يشاركني الرأي ذاته فقد بدأت أشك في عقلي لكبر سني.

(ذكي مثلك!) طبعت اصفرارًا باهتًا على وجهه، ولم ينتظر نواف رده، فقد خرج يمشي بهدوء إلى حيث قسم الشرطة الذي يتبعه.

فيما حك أيمن رأسه الأشعث وتنهد بتعب، فمن أين له الآن ثمن فساتين زوجته الغالية، ومجوهراتها الفخمة؟!.. فقد أقبلت إجازة الخريف وستكون مناسباتها بعدد شعر رأسه.

«أرجو أن ننتهي من هذه المشكلة خلال أقل من شهر».

قال بضجر، فالجيد في هذا الحدث بأكمله هو أن (نادر) ورقته الرابحة في حل القضايا، والخفي على الجميع، قد أخبره أنه لن يستلم

أي قضايا منه لمدة شهر بأكمله بسبب حاجته لرعاية والده المريض في قريتهما قرية السنابل.

****

١ ظهرًا

رمش بعينيه عدة مرات إثر أفاقته من النوم، وما زال جسده مندسًا تحت اللحاف، سمع صوت أوانٍ خزفية تحطُّ بالقرب منه، فأدار بصره المتسع نحوها، فرأى العجوز ترتب المائدة!.. مهلاً.. ألم ينم صباحاً وهي ترتب المائدة؟!

فكر بانزعاج، إذًا هو لم ينم لأكثر من دقائق معدودة!! وذلك يعني أنه لم ينل الوقت الكافي ليختفي الوهن الناتج عن الدواء.

ولكن رغم ذلك، هو لا يشعر بشيء.. لا صداع، ولا دوار ولا بردا.. لم يستطع تفسير الأمر، ولم يزعج رأسه بذلك.

استدار بجسده لينظر من تحت اللحاف للعجوز التي ظلت تُلقي نحوه نظرات ساخطة قبل أن تصيح: «إنها الواحدة ظهرًا.. إلى متى ستبقى مختبئًا تحت اللحاف دون فائدة؟!»

نهض جالساً بتعبير متفاجئ، هي ترتب السفرة للغداء إذًا، فابتسم براحة؛ لهذا هو بخير، فيما عبست العجوز وسحبت اللحاف من فوقه: «كفَّ عن التظاهر بالمرض.. لقد انتهى واجب الضيافة وعليك الآن أن تعمل».

«أعمل؟!»: سأل وعيناه الزرقاوان تتسعان.

«نعم.. أم تريد أن تأكل وتنام ويعالجك ابني وأنت كالأميرة؟!».

صرخت ليصدمها وقوفه مستعدّاً تماماً وقد حملت ملامحه حماسته فعقدت حاجبيها مستنكرة.. هي تعاقبه فلماذا يبتسم؟

«حسناً.. قفص الدجاج في الخارج.. خلف المنزل.. اذهب واجمع البيض».

شهق بصدمة، فلم يكن ليتصور أن أحدًا قد يربي دجاجًا في منزله!! ولكن ذلك لم يزده إلا حماساً فتحرك ليخرج، ولكن..

«الكلب في الخارج!» هتف بوجل.

«وماذا إذًا؟!»

«أنا.. أخاف منه».

«تخاف منه؟!» صاحت بها بصوت ممدود مستهجن، وكفها تشد على خصرها.. هيئتها هذه أشعرته بالحرج، ولكنه قد أفصح من قبل لنادر عن خوفه ولم يكن الأمر محرجاً كالآن! وازداد حرجه حين ضاقت حدقتا العجوز لتختفي عيناها وهي تسأله:

«كم عمرك؟!».

«أنا في السابعة عشرة، ولكن نادر قال إنه..»

قاطعته: «في عمرك هذا تزوجت من والد نادر وبنيتُ أسرة وتحملتُ مسئوليتها.. وأنا فتاة..» ثم أردفت باستقباح كبير: «وأنت تخافُ من كلب؟!».

زم شفتيه محنقاً، كم هي مزعجة، وزادت من ضآلته حين سألته: «ألست رجلًا؟!»

«بلى» صاح بضيق.

«توقف إذًا عن التشكي ولتبدأ العمل.»

ازدرد ريقه بتوتر، وخوفه ينهاه عن الخروج، ولكن نظراتها المزدرية له جعلته يتحرك للخارج بسرعة، ولم تكد قدماه تغادران عتبة الباب حتى شهق بقوة وصوت انصفاق الباب من خلفه يصمُّ أذنيه.

«جدتي!!» صرخ وكفه تطرق الباب بفزع.

«ستدخل إن أحضرت ثمانيَ بيضات»: قالتها، وسمع صوت إغلاقها للباب بالمفتاح، فملأ قلبه اليأس منها.

استدار بجسده إلى الأمام، والتصق ظهره بالباب من خلفه، ووقع خطوات برونو يقترب من المنزل، فازداد تراجعًا وعيناه المفتوحتان بالكامل تراقبانه، كان ينظر نحوه هو الآخر، ويمشي ببطء.. بطء شديد جعل قلب فارس يخفق بعنف.. واستمر الأمر لدقائق والاثنان يراقبان بعضهما بعضًا قبل أن يتثاءب برونو بوسع فكيه فصرخ فارس: «ناااادر!»

وأيضاً لا مجيب!

وعندها مشى على أطراف أصابع قدميه الحافيتين نحو زاوية المنزل اليمنى، وظهره يحتك بالحائط، ثم تجمد فجأة فبرونو توقف بغتة عن سيره، كانت ثوانِيَ كادت توقف قلب فارس قبل أن يراه يستدير ليجلس أمام البوابة ويغلق عينيه بانتظار سيده الغائب.. وانطلقت

ساقا فارس.. انطلقتا إلى تلك الزاوية وشفتاه ترددان بذعر: «ثماني بيضات.. ثماني بيضات فقط!»

التقطت أذناه صوت نقنقة الدجاج فدخل تلك الزاوية ليجد قفصاً كبيراً يصل طوله إلى خصره قد مُلئ بالدجاج، عشر، عشرون، وقد تكون ثلاثين حتى، ضحك ببهجة وقد نسي أمر الكلب تماماً، وانحنى ليحدق بها وبصيصانها.

«لم أرها على الطبيعة أبداً».

تمتم بها وألوانها المتباينة تجذبه، وريشها المنتثر فوق القش يأسره.. ورأى من أسفل كومة القش والريش بيضة، فارتسمت على ملامح وجهه الجدية فقد ابتدأ عمله.

ومرت نصف ساعة، يتبعها ساعة، وأخرى، قبل أن يعود راكضاً نحو المنزل وهو يصرخ: «جدتي.. افتحي الباب لقد جمعتُ البيض!».

«من هي جدتك أيها الأحمق؟!»

صرخت بها من خلف الباب، وحملت عصاها لتضربه، وهي تفتح الباب، ثم شهقت بقوة!.. فهذا ليس الفتى نفسه الذي غادر منزلها.. قميصه متسخ.. وجهه مليء بالغبار.. والريش مغروس بين خصلات شعره السوداء.. وصدره يعلو ويهبط في إرهاق شديد وقد احمرت وجنتاه من فرط إنهاكه.

«هل ذهبت لتحضر البيض أم لتتعارك مع الدجاجات؟!».

ضحك وهو يرفع أمام عينيها سلة مُلئت بالبيض فقالت: «أخبرتك ثماني فقط.. هل أحضرت كل ما بالقفص؟».

بدت القوة والانتصار في عينيه وكأنه عمل عملاً بطوليّاً، فوضعت كلتا كفيها على رأسها كناية عن المصيبة وصرخت: «أيها الساذج!.. نحن نترك بعضها ليفقس ونأكلـ..».

واختنقت بباقي كلماتها وصوت الدجاج يصل لسمعها من أماكن متفرقة فسألت بوجل: «هل تركت القفص مفتوحًا؟!».

استشعر فارس وجلها فغطت ثغره ابتسامة صفراء: «لا أظنني أغلقته.»

«أيها الغبي العديم الفائدة!» صرخت وهي تدفعه نازلة درجات السلم فوضع فارس سلة البيض ولحق بها ليجدا القفص لا يحوي سوى دجاجة واحدة وصيصانها الأربعة!!

«اذهب واجمعها.»

«لا.. إنها كثيرة.. وأنا أشعرُ بالتعب».

«وستشعرُ به أكثر إن كسرتُ هذه العصا على رأسك». ثم أغمضت عينيها: «من أين جلب ابني هذه الكارثة؟!».

«أين نادر؟!» سأل فجأة قاطعاً ولولتها لتصرخ: «تسأل عن الأخرق الآخر؟! لقد قال إن لديه عملًا مستعجلًا وقد مضى نصف النهار ولم يعد بعد!.. حين يأتي سأخبره أنك أضعت الدجاج وسأجبره أن يضيف هذا إلى تكلفة علاجك لـ..»

«لا.. لا!» صرخ فجأة ملوحاً بكفيه ثم أردف: «سأجمعها كلها.. ولكن لا تخبريه».

هل هو خائف من نادر؟! أم أنه لا يريدها أن تتحدث بالسوء عند أمامه؟!.. فكرت العجوز وهي تراه يركض إلى داخل الحقل متناسياً أمر الكلب، فتنهدت بتعب ثم نادت بأعلى صوتها: «برونو.. اجمع الدجاج!».

تحرك الكلب بسرعة في اتجاه آخر مغاير لاتجاه ركض فارس، وتمنت حقّاً لو يلتقيه ويخيفه بقدر ما أخافها على دجاجاتها، وفجأة سمعت البوابة تُفتح لترى تلك العجوز القصيرة التي أطلت برأسها قائلة: «السلام عليكم».

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» ردت العجوز تحيتها كاملة، وإن حمل صوتها جزءًا من تثاقلها من الزائرة التي لا تجلب إلا الأخبار السيئة.

«جواهر.. كيف حالك؟!».

«بخير..» وضاقت حدقتاها مستطردة: «أيُّ ريح طيبة ألقت بكِ في منزلنا يا سعاد؟!».

ظهر من خلف العجوز (سعاد) خادمة تحمل بين كفيها قفصًا معدنيًا كبيرًا استقر داخله زوجان من طيور الفيشر وقد تباينت ألوانها ما بين الأخضر والأصفر.

«ابني أحمد أرسل هذا»: وهزت شفتيها للجانبين باستحقار: «يقول إنها من أجل ابنك».

حمل وجه جواهر تعابير الاستهجان والتقزز: «ابني لا يهتم برعاية

مثل هذه الطيور.. احتفظي بها من أجل ابنك أحمد إلى حين عودته مع زوجته من العاصمة».

«ماذا؟!»: صرخت سعاد وقد قطبت حاجبيها استعداداً للشجار فابتسمت جواهر: «أوه.. لم يخبرك إذًا بأنه لم يفسخ خطوبته من ابنة العاصمة؟!».

حمل وجه سعاد تفاجؤها إلا أن بقية باقية من كبريائها جعلتها تنطق: «تتحدثين وكأن ابنك ملاك لا يُخطئ.. على الأقل ابني سيتزوج، أما ابنك المجرم خريج السجن فلن تقبل أي فتاة بالزواج منه».

«أيتها البغيضة!» صرخت جواهر وكفاها تمتدان إلى رأس سعاد، ستشد شعرها الأبيض وتدوسها تحت قدميها فلا أحد يؤذي نادر أمامها.

«جدتي!»

صرخة بصوت غير مألوف أفزعت الاثنتين فأوقفتا أيديهما الممتدة نحو بعضهما بعضًا لتلتفتا معاً نحو ذلك القادم جزياً من بعيد، وقد احتضن دجاجة بالكاد يحافظ على بقائها بين ذراعيه وهي تصيح وتحرك أجنحتها وسيقانها، ومن خلف فارس ظهر برونو ونباحه لا يتوقف راكضاً وراءه كي يفلت دجاجة سيدته.

«واحدة.. أمسكتُ واحدة!» صاح باتساع فمه واندس خلفها خوفاً من برونو.

«واحدة فقط.. كل هذا الوقت من أجل واحدة.. أيُّ حظ سيئ أصابني أنا وابني؟! ستدفع ثمن بقية الدجـ..»

استمرت بتوبيخه وقد نسيت تمامًا جارتها التي أخذت تحدق بدهشة في الفتى الغريب الذي لم تؤثر به كلمات العجوز أو تقلل من فرحته وفخره بنفسه فقد أمسك واحدة ولولا برونو لنجح في إمساك الأخرى.

«ما هذا؟!»

صمت حلّ على الجميع بعد سؤال فارس وعيناه تُبصران القفص، ثم صرخ فجأة بملء فمه: «طيور الفيشر.». وأسقط الدجاجة ليسحب القفص من بين يدي الخادمة بلهفة.

«إذًا فأحمد أرسل هذا القفص من أجلك أنت وليس من أجل ابني.. لقد علمتُ أن نادر لا يهتم لمثل هذه السخافات» قالت جواهر ثم انتبهت لتصرخ بغضب: «دجاجتي.. لقد أفلت دجاجتي أيها المعتوه!».

لم يكترث فارس لها، وعيناه تتلألآن تأثراً بمنظر الطيور الجميل.. لقد وفى أحمد بوعده وبعث له بمكافأته من أجل إنهائه لقراءة الكتاب.

«من أنت؟!»

استفاق من غمرة سكرته على صوت سعاد التي عادت تكرر: «ما هي صلتك بابني أحمد وبرفيقه نادر؟!»

تأمل فارس وجهها، وظل لثوانٍ مترددًا، واستجمع شجاعته أخيراً ليرد: «لا شأن لكِ»

شهقت سعاد مغضبة: «فتًى عديم التهذيب!». فيما ضحكت العجوز جواهر فقد فاجأها هي الأخرى برده.

على حين حمل فارس القفص وعاد راكضاً نحو المنزل، وهو يصرخ باسم نادر كي يُريه هديته التي جعلت قلبه يخفق حبوراً وابتهاجاً.

****

داهم نادر نعاس شديد، وملأ عينيه الضجر، وهو يجلس في مواجهة الضابط الذي استمر باستجوابه، ومرت الساعة تتلوها الأخرى، وما زال على صمته، فقد اعتاد طقوس قريته في الاحتفال برجوعه حتى ما عادت تَبهره أو ترعبه!

عليه فقط التماسك لمزيد من الوقت حتى يجدوا السارق الحقيقي أو يظهر دليل من اللامكان يُثبت براءته.

وللحق لا شيء يشغل تفكيره الآن سوى بقاء العجوزين برفقة فارس دونه، صحيح هو لم يُظهر أي إشارة ولو صغيرة على اضطراب تفكيره خلال الأيام الماضية، ولكن ما قلل من قلقه هو علمه بأن فارس قد أخذ أدويته بالأمس، ودائمًا ما يكون في اليوم الذي يليه أقل نشاطًا وإفراطًا في التفكير، وتمنى أن يظل على نومه إلى حين عودته.

وفي خضم ملله لم يفوت على نفسه فرصة التجول بنظره يمنةً ويسرة باحثاً بحذر عن ذلك البلاغ والمكافأة التي ظهرت على التلفاز بالأمس؛ خوفًا من أن تكون قد وصلت إلى مركز شرطة قريته التي لا يكترث قاطنوها لمشاهدة أخبار التلفاز فكل ما يهمهم ماشيتهم، محاصيلهم، والنميمة حول بعضهم وبعض.

وافتر ثغره عن ابتسامة ارتياح لعدم وجود أي ملصق مُعلق على الحائط أو فوق مكتب الضابط، حتى الممر المواجه له خلا من

أي ملصقات ورقية، وسقطت عسليتاه على تلك المقاعد القديمة والضخمة المستقرة في الممر فارتسم أمام عينيه مشهد قديم.

مشهد مضى عليه تسعة عشر عاماً..

(علَت شهقات باكية لطفل لم يتجاوز الثامنة من عمره، ونهر دموعه يستمر بالجريان من عينيه الحمراوين وقد أرجف قلبه الصغير الخوف، فتحرك الطفل المجاور له ليحيط كتفيه بذراعيه في إشفاق، وكفاه تربتان على ظهره مطمئنًا له: «لا بأس.. لا بأس.. لا تخف.. أنا سأتحمل كل شيء».

«هل سيضعوننا في السجن؟!»: همس الطفل الباكي بتساؤله ليبتسم الآخر قائلاً: «نحن لسنا سيئين.. السجن للسيئين فقط».

وأرجح قدميه - المندستين في حذاء جلدي فخم - من على مقعده دون أن تلامس قدماه أرضية مركز الشرطة المصقولة؛ لقصر طوله.

ومن حولهما علا صخب وضجيج رواد مركز الشرطة وقد تباينت ملابسهم بين الزي المدني وزي الشرطة.

وانقبض قلب الطفلين ذعراً حين مر من أمامهما رجل خمسيني قد كُبلت ذراعاه وقدماه بالحديد ومن خلفه رجل شرطة يدفعه بعنف نحو زنزانة كبيرة استقرت في الزاوية، فشهق الطفل الباكي ببكائه، وازداد التصاقاً برفيقه.

«أنت نادر؟!».

انتبه الاثنان للرجل الكبير السن بزي الشرطة والذي انحنى على ركبته أمامهما، فأومأ نادر برأسه إيجاباً فيما أطبق الباكي شفتيه بخوف.

«لماذا كسرت ذراع راجح؟!».

«لأنه آذاه» وأشار للطفل الباكي.

تأمل الرجل ملابس الطفل الباكي الرثة والممزقة من عند ركبتيه ومرفقيه، بل ومقدمة حذائه شبه المفتوح.. الفقر يسكن كل تفاصيله.. على عكس نادر الذي ظهر عليه الثراء بملابسه المتناسقة وحلاقة شعره المرتبة وحذاءيه الجلديين ثم قال: «إذًا فقد تدخلت في ما لا يعنيك فحسب».

عبس نادر بوجهه الطفولي مجيباً: «لقد تجاهلتهم كثيراً.. ولكنهم تحلقوا حوله وبدؤوا بضرب ظهره تتالياً ورغم بكائه وسعاله العالي لم يتركوه حتى تدخلت وخلصته من بين أيديهم..».

«وكسرت ذراع مترئسهم راجح ؟!» هتف الشرطي مستنكرًا قوته؛ فالطفل الذي أمامه لم يتجاوز الثامنة حتى.

«لم أرد كسرها.. هيَ من كُسرت حين لمستها بعصا أمي».

تمتم نادر زامّاً شفتيه، فيما وقف الشرطي لينظر للرجل المدني الذي اقترب منه، فقال باستعطاف: «انظر إليه.. هو في الثامنة ليس إلا!».

«ولكنه كسر ذراع ابني.. يجب أن يُعاقب».

«وابنك في الثامنة أيضاً.. ألا يمكننا حلها بشكلٍ ودي؟!»

استشاط الرجل غيظًا وعلا الجدال بينهما، فيما تجاهل نادر ما يراه ليسأل رفيقه بفضول: «ما هو اسمك؟!».

«أحمد» أجاب، وابتسم مستغربًا منه أنه ساعده دون أن يعرفه حتى!

«لدينا حقل تفـــاح كبيـــــر.. وإصطبل وخيول.. هل تريد أن تأتي لنلعب معاً؟!»

بحماس نطقها نادر ليعتدل أحمد وقد تبدد خوفه وقد فهم من دعوته له أنه يطلب صداقته، وبحماسته نفسها أجاب بـ: «نعم».

ثم همس برجاء: «هل يمكنني الجلوس إلى جوارك في الفصل؟!».

«أنت تدرس معي في الفصل نفسه؟!» صاح نادر متفاجئًا فقطب أحمد حاجبيه بانزعاج؛ فنادر يكشف لا مبالاة أخرى!، فهو لم يعلم أنه جاره إلا بعد اعتداء الأطفال عليه في الطريق وصراخه الباكي.

«هل هم يؤذونك في المدرسة أيضاً؟!» سأله نادر، وعيناه تتسعان بتأثر، فهز أحمد رأسه بحزن.

«حسناً إذًا.. يمكنك ذلك وســـ..»

وأطلق شهقة مفزوعة إثر يد مجعدة قبضت على أذنه وشدتها بقوة كي يقف ثم جره صاحبها بإهمال إلى خارج مركز الشرطة، وهو يقول بتأنيب: «بدلاً من مساعدة والدتك في جمع محصول التفاح تورط نفسك في مشكلات لا دخل لك بها.. ويعصاها أيضاً؟!».

مد نادر شفتيه بعبوس ولم يُبعد يد والده عن أذنه، بل رفع كفيه ملوحاً لأحمد وهو يهتف بمرح: «وداااااعاً صديقي».

رفع أحمد كفه ولوح له هو الآخر و...)

«أين كنت في الساعة السابعة صباحاً؟!».

أفاق نادر من ذكراه التي لم ترسم أي تعبير على وجهه، ثم نظر للسائل الذي اعتدل بجلسته خلف مكتبه ممسكاً بقلم وقد تراصت مجموعة من الأوراق أمامه.. ولا شيء مجدداً.. الصمتُ فقط ظل نادر يلتزم به، وقد وضع ساقاً فوق الأخرى مظهراً لا مبالاته.

عض الضابط شفته السفلى في غيظ، وعيناه تتفحصان ملابسه النظيفة ومعطفه الراقي وملامحه الباردة..

- ألن تعترف بجريمتك؟

- بلى.. لقد كسرت ذراع أحدهم قبل تسعة عشر عامًا.

زفر الضابط بعنف واكفهر وجهه، فهذا بالذات ما لم يرد سماعه وازداد غيظه حين أردف نادر وقد رسمت شفتاه أكثر ابتساماته استفزازاً:

- لقد شُفيت ذراعك.. ألم يأن الأوان لجرح كبريائك المكسور أن يطيب؟

- أنت تعلم أنني لم أجلبك إلى هنا من أجل حقد قديم.

- من أجل ماذا إذًا إن لم يكن بسببه؟

- لأنك حقير ووغد ومجرم.. ولا مكان لك بيننا.. لا يصلح لحثالة مثلك أن يشم رائحة الحرية بعد أن تسببت بالعطب لذراع صديقي ثابت.

- أووووف.. الموّال القديم.

تنهد بضجر، وبحق لولا ما فعله فارس لكان لديه الآن سيجارة يرفه بها عن نفسه.

- حدثت السرقة في السابعة صباحاً، مع تزامن قدومك لقريتنا، وأنت لا تملك حجة غياب.. لذا فأنت المتهم الأول بما أنه لا يملك أحد آخر غيرك في القرية سجلًا إجراميًّا مثلك.

قال الضابط راجح وقد بلغ غضبه أقصاه لتقليل نادر من شأنه، فيما ضاقت عينا نادر، وذاكرته لم تعد تحصي عدد المرات التي يتم استدعاؤه فيها إلى مركز الشرطة كلما حدثت جريمة في القرية حتى سرقة المواشي يجدون فيها حجة للتنكيل به وإيذائه واستفزازه بالكلام.

«كُنتُ برفقة ريم».

انفرجت شفتا راجح لعبارته فيما ابتسم نادر وهو يرى دماء الغضب التي احتقنت بها عيناه.

«مع ريم؟!» صاح راجح مستنكراً.

«نعم.. وفي منزلي»

بكل برود أجاب ليشتعل وجه راجح غضباً ثم أردف بتهديد: «وهذا ما سأردده أمام جميع رجال الشرطة إذا ما تم حبسي أو التحقيق معي!».

توتر عنيف سرى في وجه راجح واستقام واقفاً واضعاً القلم ومطبقاً الأوراق ليستقيم نادر بدوره قائلاً: «إذًا فقد انتهى حفلنا الصغير».. ثم أضاف ناصحاً: «ما دمت تقلق على سمعة أختك من مرافقتها لرجل مثلي فامنعها من زيارتي فلدي سمعة أيضاً».

«عن أيِّ سمعة تتحدث؟! سمعة قاتل»: بكل اشمئزاز نطقها ليلفظ نادر بدوره: «أن أكون قاتلًا ذلك رجولي أكثر من أن تكون جريمتي متعلقة بالنساء».

«أيها الدنيء.. لو آذيتها فسأقتلك!».

«بدلاً من تهديداتك الجوفاء أثبت مسئوليتك تجاه أختك واضبط تصرفاتها..».

فتح راجح شفتيه، ولكن قطع جدالهما صوت رنين هاتفه فنظر إليه.. وقد كانت ريم.. احتقن وجهه قهرًا وخزيًا وقد أدرك أن ما قاله نادر صحيح فها هي تهاتفه كي تثبت حجة غياب لنادر، ولو كان ذلك على حساب سمعة عائلتها.

منحه نادر ظهره وقد غطت شفتيه ابتسامة واسعة، ولكن ارتفع صوت راجح فجأة: «لماذا ما زلت تدفعهما بعيداً؟! أما زلت تعاني من تلك الصدمة؟!».

توقفت خطوات نادر، وقد فهم مراده ومع ذلك رد ساخراً: «هل أنت مهتم الآن بصحتي؟!».

«كلا.. أنا فقط أستغرب فقد نجحت بأن تكون معالجًا نفسيًّا، ولكنك لم تلحظ أن إبعادك لهما لثماني سنوات يوازي حجم ألمك وصدمتك والتي يظهر لي الآن أنها لم تشف ولم تنجح في علاجها!»

ضاقت حدقتا نادر وسكين الماضي يُغرس في قلبه مسبباً له ألمًا مريعًا، فيما تابع راجح بحقد:

«ألا تظن أن من كان عليك هجرهما والانفصال عنهما حقيقةً هما والداك؟!».

اتسعت عينا نادر وصرّ على أسنانه، ولكن راجح أضاف مستفزاً له: «أيها اللقيط؟!».

تحمل لسبع ساعات.. تماسك بشدة.. قاوم ألم قلبه المجروح.. ولكن كلمة راجح الأخيرة كادت تُفقده صبره، بل وروح راجح معها، لولا رنين هاتفه المفاجئ الذي عاد يدوي مجدداً..

نعم.. هما ينتظرانه.. أيًا كانا؟!.. لقد جرح قلبيهما بابتعاده مرة ولن يكررها مرة أخرى ولو على حساب كبريائه.

وبخطوات واسعة، ووجه لم يعكس ما أحدثت فيه الكلمات من فوضى، غادر نادر حجرة الاستجواب التي حفظ كل جزء منها، وهناك أمام بوابة مركز الشرطة رأى ريم تنتظره وقد حملت فوق رأسها مظلة، فتجاهلها تمامًا، فلحقت به معتذرة:

«دائماً ما يتسببون لك بالمشكلات كلما رجعت.. إنهم لا يملكون أي رحمة».

«فقط اخرسي وتوقفي عن كونكِ إحدى هذه المشكلات»: قالها بجفاء، وهو يغيب وسط أحد طرقات القرية عائداً إلى منزله.

****

الشيء الوحيد الذي تم الاهتمام به هو جراح (ياسر) فقط، أما طعامه وشرابه فقد تلقى الحد الأدنى منهما والكفيل بالإبقاء على حياته فحسب.. وبلغ بهم الأمر تركه يقضي حاجته في موقع نومه نفسه وقد يكون هذا المغزى الحقيقي من التقليل من غذائه..

أبقوا له يده السليمة حرة كي يتولى بها أمر نفسه فيما لم يقلقهم هربه لأن يده الثانية لم تكن ذات فائدة مع الجبيرة الضخمة المغطية لها، وتكفل قيد قدميه بإبقائه محتجزاً داخل مساحة السقيفة المعدنية الصغيرة.

رُمي أمام قدميه المكبلتين عشرات الصور الفوتوغرافية، وحارس فاضل ينحني على إحدى ركبتيه أمامه لتلتقي عيناه الأشبه بعيني سمكة ميتة بعيني ياسر الواهنتين، ثم قال بهدوء شديد: «أنت لم تنسَ هدفك الذي سعيت خلفه لعشر سنوات؟!»

«سبعة عشر عاماً.»

صحح له ياسر بنبرة أقرب إلى الهدوء، وإن عكست عيناه غضباً عميقاً، فيما أظهر وجه كاظم لأقل من ثانية اشمئزازاً لعدد السنين التي ذكرها.

«أين الفتى؟!» سأله كاظم.

«لا أعلم».

«لا يجرؤ بمفرده على الهرب».

«أنا خير من يعلم ذلك».

«أين أخفيته؟»

«وهل أجبرته على أن يدَّعي المرض؟!»

«أنت من آذيته لهذا تَلَوَّى ألماً وكاد يموت فأخرجوه ليتلقى العلاج.»

«إذًا هم من أخرجوه وأضاعوه.. فلماذا أنا من أتلقى عقابهم؟»

ارتفع أحد حاجبي كاظم، فيما كشر ياسر عن أسنانه التي فقد إحداها مكملاً: «لا شيء يبدو منطقيًّا.. صحيح؟!.. لِمَ قد أخطط لاختطافه وقد صبرت كل هذه السنوات؟!».

«لا بد وأنك ظننت أن فاضل لن يفي بوعده».

اتسعت عينا ياسر عن آخرهما، مما جعل كاظم يُخفي ردة فعله بصعوبة، فوجهه بدا وكأنه لم يفكر ولو للحظة واحدة أن فاضل قد يخونه.

فيما أنزل ياسر عينيه لينظر إلى تلك الصور عند قدميه.. وعقله يعتريه الشك فجأة.. فهل حقاً كان سيحصل على هدفه بعد إتمام المدة أم لا؟!

ظل صامتًا لدقيقة أطلق بعدها سيلًا من ضحكاته التي مزقت شفتيه الجافتين، وتخللها سعاله من الغبار الذي استنشقه أنفه وفمه فيما ظل كاظم على صمته وسكونه.

«لم يكن ليفي بوعده».

قال ياسر من وسط ضحكاته، نعم، فاضل لم يكن ليمنحه مبتغاه، واحتجازه وتكبره عن زيارته في هذه السقيفة الملاصقة لقصره خير دليل على استحقاره له.

«كنتما تخدعانني».

ردد وصدى ضحكاته يخفت رويداً رويداً لينظر لوجه كاظم الساكن، وابتسم فهذا الوجه شبه الميت يستحيل أن يستشف منه ما في أعماقه، فقال بشك: «هل اختطفتماه أنتما وخبأتماه كي تجدا مبرراً لإخلاف وعدكما معي؟!».

«لماذا قد أفكر بمشاعرك؟! أليس من الأسهل قتلك؟!»

قال كاظم، وأحس ياسر من نبرته صدقه، نعم، لمَ قد يحتجزانه إذا

كان الفتى معهما؟!.. أليس من الأيسر لهما أن يقتلاه هو؟!.. وعند حصول فاضل على الورث سيقتل الفتى هو الآخر، وهكذا سيكونان قد نجحا باستغلاله بالكامل.

ولكن مهلاً.. حتى لو كانا هما من اختطفا الفتى ففاضل بحاجة إليه لتسوء حالة الفتى أكثر وأكثر وخاصة قبيل المحكمة.. وهذا يدل على أنهما ليسا من اختطفاه.. ولكن ماذا لو أن خطتهما الحقيقية هي أنهما ينويان خيانته وقتله مع الفتى بعد انتهاء المحكمة؟!

تلك الحيرة والتشتت في وجه وعيني ياسر لم يعجبا كاظم، بدا وكأنه حبيس الفخ نفسه الذي وقعا فيه فسأل بانفعال مفاجئ: «في المستشفى.. قبل أن ينهال عليك ذاك الطبيب نادر ضرباً بدوت وكأنك تشك فيه!».

رمقه ياسر بطرف عينه المتسعة وكأنه ذكره بأمر مهم قد نسيه، وانهال على ذاكرته تلك الأشهر الخمسة فقال: «هو وغد لئيم من رأسه إلى أخمص قدميه، وقح لا يهتم برأي الناس فيه، جشع يحب المال أكثر من كل شيء.. ولكني سمعت الفتى ينادي باسمه في آخر مرة رأيته فيها كما أنه كان يحمل مدية مجرمين استخدمها في إيذائي؟!».

«هل بدا لك ذلك الشخص وكأنه سيختطفه؟!».

«من أجل فدية نعم».

«لقد مرت سبعة أيام دون أن يطلب أحدهم فدية.. والأهم المبلغ الذي كان ينتظره للشهادة بعدم أهلية الفتى سيجعله يعيش لعامين

قادمين إضافة إلى وظيفة دائمة رغم مؤهلاته المتدنية.. ولا أظنه من الغباء ليختار الحصول على المال بالطريقة الصعبة!».

لا شيء صحيح.. لا شيء منطقي.. هل يعودان للشك بعضهما ببعض؟!.. ولكن لا مصلحة للطرفين في الإخلال باتفاقهما قبل انتهاء المحكمة!

«هل فعل ذلك كي ينقذه؟!»

تساءل ياسر بنبرة هامسة يغلبها الرفض، ونظر الاثنان بعضهما نحو بعض، وكلاهما يحمل الجواب نفسه، لا يبدو ذلك الشخص الأناني وكأنه سيفعل ذلك!.. ليعودا مجدداً إلى نقطة الصفر..

من الخائن منهما؟! ولماذا؟!

****

(٤) بسكويت الجدة

٦:١٠ مساءً

غزا السماء الملبدة بالغيوم لون الشفق الأحمر إثر غروب شمس قرية السنابل، وأمام بوابة حقل التفاح المفتوحة ظل عبد المجيد يجلس بسكون فوق مقعده المتحرك وقد غطى وجهه الهَمُّ والتعب، وكفه تعتصر هاتفه النقال في انتظار ابنه الغائب مُنذُ الصباح.

كان قد أخبره قبل خروجه أنه طرأ له عملٌ ما، وعلى الرغم من أنه سمح له بالذهاب إلا أنه علم في سره أنه في مركز الشرطة ككل مرة لجريمة لم يرتكبها!

وظهر أخيراً..

ظهر نادر ليتنهد المسن بأسًى على ابنه، وقد رأى ظلمة وجهه، ومزاجه المتعكر، بعد أن كان بأوج بهجته برفقتهما، بل وفاحت في الأجواء رائحة دخان السجائر من معطفه وملابسه.

«أيها المسن.. لماذا ما زلت بالخارج؟! الشمس تغرب وستبرد الأجواء».

مجدداً.. وكعادته بعد خروجه من السجن..

هو لا يشاركهم همَّه ولا حزنه.. فقط يختزنهما في نفسه ليقتل روحه قتلاً بطيئًا، وحتى لو أساء يوماً بجريمته لهذه القرية فهو الآن مظلوم ومضطهد ولا يستحق كل هذا التعذيب.

«بُني يمكنك أن تُقدم شكوى.. فهذه المرةُ الثالثة والعشرون».

فهم نادر ما يرمي إليه فمر طيف ابتسامة مستخفة على شفتيه، وكأنهم سيكترثون لشكوى سجين سابق!

لم يقلها.. ولن يقولها.. فقط حرك مقعد والده حتى لا تتقابل أعينهما سائلاً: «دعنا من هذا.. وأخبرني.. ما رأيك بعد أن تتناول العشاء أن نزور المستشفى؟!».

أوقفت كفّا المسن تلك العجلات المتحركة وشفتاه تتحركان بالرفض، ولأن نادر يقف خلفه لم يستطع قراءة حركة شفتيه ليعلم جوابه، ولم يكن بحاجة لذلك فهو قد زار المستشفى قبل عودته إلى المنزل والتقى بطبيبه وقد رأى صور الأشعة والفحوصات.. وكان مفادها جميعًا..: (إجراء عملية جراحية يعني قتله داخل غرفة العمليات).. وعمره الكبير لا يُساعد..

ازداد وجه نادر ظلاماً قبل أن يشعر بكف المسن التي ربتت على كفه عدة مرات، ورأسه ملتف نحوه ينظر إليه، وحرك شفتيه بـ: «بُني.. دعك من صراعي مع المرض فأنا أُبلي بلاءً حسناً في التحمل.. وفك ذاك الصراع بين المجنونين في الداخل فقد أفسدا غفوتي وجعلاني أغادر المنزل هرباً من صراخهما».

«مجنونين؟!» تمتم بها نادر مستنكراً ودفع مقعد والده ليدخلا معاً الى المنزل.

«تباً.. ما هذه الرائحة؟!»

صاح بتقزز وأصبعاه تغطيان أنفه، وعيناه تتسعان من مرأى

الفوضى في المنزل.. حطام أطباق على الأرض.. مفرش المائدة مكوم أمام الموقد.. بذور غريبة منتثرة في كل زوايا الصالة وعجوز تركض بعصاها خلف فارس الذي راح يجري من زاوية لأخرى محتضنًا قفصًا غريبًا، وهو يصرخ:

«لن أضعه في الخارج.. سيأكلهما الكلب».

لم يفهم نادر ما يجري، ولكنه شعر بحاجته للخروج فهمس لوالده: «ما زال هناك وقت قبل اكتمال الغروب فلنخرج».

فابتسم والده، ولكن..

«ناااااادر!»

تصلب في مكانه والاثنان يناديانه معاً، والدته وفارس، فاستدار نحوهما ليتجهم وجهه من منظر فارس الرث بملابسه المتسخة، ووجهه الذي علاه بعض التراب، بل والريش لا يزال عالقًا في شعره!

«بُني.. هل تناولت فطورك وغداءك؟! هل أنهيت العمل الذي خرجت لأجله؟!»

ثرثرة متوالية من والدته جعلته يهز رأسه بسرعة مطمئناً لها و.. انتقلت للقناة الأخرى صارخة: «إما أنا أو هذا الفتى في البيت!».

قطب نادر حاجبيه ونظر إلى فارس الذي لم تختف ابتسامته السعيدة لرؤيته ثم قال: «أمي.. هل أنتِ تُخيِّرينني الآن بينكما؟!».

«نعم».

«سأختار والدي» قالها واستدار بالمقعد ليخرج مجدداً لولا

صرختها: «إن خرجت فلن تتناول العشاء.. ولن أفتح لك باب المنزل وستجمع محصول التفاح غداً بمفردك!..».

عبس بشدة، فليس من العدل أن يعاقب هو!.. ثم نظر إلى فارس بحدة، هو يعلم أنه مشاكس وقليل من تصرفاته لا يُحتمل.. تبّاً.. بل أغلب تصرفاته!!

«ماذا فعلت؟!»

اختفت تلك الابتسامة من على شفتي فارس، ولأول مرة يلحظ أنه على الرغم من غياب نادر عنه قد استمتع ولم يجد الوقت للبحث عنه.

«فارس.. ماذا فعلت؟»

قالها نادر بحزم ليرفع فارس قفص الطيور أمامه صارخاً بشكوى: «أحمد أرسلهما لي.. وجدتي تقول إنها لن تدعهما ينامان معنا في المنزل، بل تريد أن أضعه في الخارج حيث سيفزعهما الكلب وقد يأكلهما».

«أحمد؟!.. كان عليّ أن أعلم أنه هو.. فلا يطالنا من ورائه إلا المشكلات وصداع الرأس»

نطق بها جاحداً خيره السابق تماماً و.. لكن لحظة.. بمَ كان ينادي والدته؟!

«جدتي؟!» نطقها مستنكراً وعسليتاه تنتقلان بين والدته وفارس.

«لن تنام هذه الطيور الغريبة في منزلي».

صرخت فازداد اتساع عيني نادر.. هيَ حتى لم تشتكِ من دعوة فارس لها بالجدة!

تبادل هو ووالده نظرات متفاجئة قبل أن يضحكا.. وطالت ضحكاتهما.. فتلك العجوز حتى (خالة) لا تقبل بأن تُنادى بها فكيف (بالجدة)؟!

«لقد ظل يكررها حتى اعتادت عليها وانشغلت بمعالجة طيشه الصبياني بدلاً من ذلك»

تحركت بها شفتا المسن، وهو ينظر لنادر الذي واصل ضحكاته، ثم ابتسم برحمة؛ فهيَ المرةُ الأولى التي يجده يخرج فيها من قوقعته المظلمة سريعاً بعد مغادرته لمركز الشرطة.

وتلقى فارس ضربة على رأسه من كف نادر والابتسامة عالقة بشفتيه: «لا تزعج جدتك».

تجهم وجه فارس ثوانِيَ قبل أن يرفع القفص.. ماذا سيفعل إذًا؟!

«ضعه في الشرفة» رد نادر ليضحك فارس فتلك فكرة لم تخطر برأس الاثنين.. وثوانٍ وكانت الطيور في الخارج بينما ذهبت العجوز لترتب المائدة.

«أنا جمعتُ البيض» قال فارس وهو يقفز إلى جوار نادر على الأريكة، وقد بان من عينيه شوقه الكبير إليه.

«جدتي أعطتني عملًا.. إنها طيبة.. البيض الذي في العشاء أنا من أحضرته.. لقد تركت الدجاج يهرب وجدتي غضبت فأمسكتُ بواحدة، ولكن برونو..»

كان يثرثر ويثرثر بسعادة في الوقت الذي يهز فيه نادر رأسه مستمعاً له وكأنه قد اعتاد ذلك وسط ذهول العجوزين.. فهل جميع الأطباء يفعلون مع مرضاهم مثله؟!

بل فجأة قاطع ثرثرة فارس إدخال نادر يده في جيب معطفه ليخرج مشطًا جديدًا وعبوة صغيرة من كريم تصفيف الشعر الخاص به، هامساً: «لو وجدت أثر يدك في العبوة الجديدة الخاصة بي.. فأنت ميت!».

أخذها فارس مبتسماً بفرحة فقد اكتشف عبثه بعبوته وبدلاً من معاقبته اشترى له، وقبل أن ينهض حرك نادر كفه أمام أنفه: «استحم جيداً فقد جعلت رائحة المنزل لا تطاق».

«حسناً».

نطقها ونهض واقفًا إلا أنه تصلب فجأة محدقاً بنادر فسأله: «ما الأمر؟!».

«أنت أيضاً رائحتك لا تطاق؟!»

تمتم بها فارس ليهتز أحد حاجبي نادر فيما أطبق المسن شفتيه وحركت العجوز عصاها مهددة بأنه لن يجلس هو الآخر إلى المائدة حتى يستحم، فوقف عندها وتمتم بعدة شتائم وسط ضحكات فارس المستفزة وهو يسبقه إلى الاستحمام.

وبعد ساعة كان الجميع ملتفين حول المائدة وقد زيّنت ثغر فارس ابتسامة حبور كبيرة وهو يتناول من طبق البيض والخبز المُعَدّ منزليًا والحليب الدافئ وحساء الخضار المتنوع.. كان يأكل بنهم جعل نادر يسأله بعصبية: «هل جلبتك من مجاعة؟! لماذا تأكل وكأنك لم تذق طعاماً مُنذُ زمن؟!».

«أنا جائع جداً..»

قالها، وابتسم للعجوز المرتبكة، كاتمًا سرها بأنها اشترطت عليه ليأكل من الغداء أن يغسل الأطباق.. ولكنه بدلاً من غسلها كسرها وملأ المطبخ برغوة الصابون.

«جدتي.. لماذا طبق نادر أكبر من طبقي؟!».

«ولماذا قد أمنحك طبقًا مثل طبق ابني؟!»

أجابته بحدة، فأطلّت الغيرة من عينيه، وهو يحدق بطبق نادر، ثم قال: «بادلني».

«كلا!.. فقد اتسخ طبق حسائك بلعابك»: رد نادر ببرود، وهو يتناول حساءه بعد أن أنهى طبق البيض الخاص به.

«أريد طبقًا مثله» تذمر، وهو يعود ليتناول من حسائه، وقد غزا عينيه الحزن.

تجاهل الثلاثة رغبته تمامًا، وهم يتبادلون الحديث حول محصول التفاح، فسيصل العمال بالغد لحصاده وبيعه في السوق، وظل فارس يناوب البصر بينهم وخاصة على المسن الذي كان يحرك شفتيه دون صوت، ولكن نادر والعجوز يفهمانه.

وفي الخارج.. بعيدًا عن المنزل.. وبين عمال الحصاد وقفت ريم وقد عزمت أمرها، فإن كانت تريد الفوز بقلب نادر فما عليها سوى إبعاد جميع العوائق.. ومنها أخت فارس (زوجة نادر المستقبلية!).

وأقصر الطرق لإبعادها هو بإيذاء أخيها؛ فإذا ما تأذى وعلمت أخته فهي لن تقبل برجل لم يحم أخاها ويهتم به.

****

(تعالَت صرخاتهما الطفولية، وداست أقدامهما البرك الموحلة إثر أمطار البارحة، فانتثر رذاذها من حولهما، وهما يواصلان جريهما بين أشجار التفاح اليانعة.

«سأقبض على الأشخاص السيئين بهذه»

ردد، وكفه الممتدة أمامه تهز أصفادًا حديدية اشتراها من متجر قريب.

«دعني ألمسها.. أرجوك.. نادر لا تكن أنانيّاً» صرخ بها طفل يتبعه في ركضه.

«لا لا لا» تغنى برفضه، وضحكاته تعلو، ومن خلفه ظل أحمد يكرر توسله اليائس، فمُنذُ تلك الليلة حيث اجتمعا في مركز الشرطة وبدأت صداقتهما أصبح حلم كلٍّ منهما أن يكون (شرطيًّا)! لماذا؟! لا أحد منهما يعلم!!

ولكن قد تكون رؤيتهما لقوة رجال الشرطة ودفعهم لمجرم أمام أعينهما، ألهبت الحماسة في قلوبهما الصغيرة ورسمت لهما أمنيةً وحلماً قبل أن ينضج عقلاهما وأجسادهما.

تلاعبت الرياح بشعر نادر الكستنائي، ونثرته حول وجهه الذي ملأته ابتسامة مفعمة بالسعادة، وقف فجأة ليرفع ذراعيه على امتدادهما صارخاً: «سأُصبح محققًا!».

وبالكاد أوقف أحمد جريه حتى لا يصطدم به، وعبس معترضاً: «لا تتوقف فجأة.. ثم.. ثم ماذا تعني بأنك تريد أن تكون محققًا؟!! لقد اتفقنا أن نكون رجال شرطة».

تحول نادر بجسده نحوه قائلاً بوسع فمه:

«لقد تحدثتُ مع ذلك الرجل المسن من مركز الشرطة وأخبرني أن المحقق أعلى قدرًا منهم فهو يمكنه كشف المجرم بنفسه وفك ألغاز القضايا ولبس معاطف طويلة كشارلوك هولمز».

اتسعت عينا أحمد، فيما اهتز جسد نادر من فرط الحماس مردفاً: «أليس هذا مسلياً؟!».

«يبدو كذلك» تمتم أحمد بحيرة ثم تابع: «حسنًا.. سأصبح محققًا أنا أيضاً.»

تحرك نادر أمامه بخطوات كالآلي في تسلٍّ كبير كأحد أفلام الآليين التي يحبان مشاهدتها وعيناه تحدقان بكل ما حوله، الأشجار.. ثمار التفاح.. الأوراق المتطايرة.. وخيل والده.. ثم قال:

«ذلك الشرطي قال: لو أردتُ أن أكون محققًا فعليّ أن أراقب تصرفات الناس.. تحركاتهم.. طريقة مشيهم.. أكلهم.. أفكر في دوافعهم.. و.»

«ولكن جرنجر ليس بشرًا.. إنه آلي» قاطعه أحمد مستغرباً منه تقليده لمشيته!

«كلا.. أنا بطل كجرنجر الآن وسأقاتل المجرمين مثله وأول من سأراقبه هو أنت».

صرخ بالأخيرة ليضحك أحمد ويهرب صارخاً: «كلا.. لن أكون فأر تجاربك..».

«سأُكبل يديك بالأصفاد.. وأحدق بك». ولحق به، ومن خلفهما اهتز كتفا العجوز جواهر بتعب فنادر وأحمد أصبحا صديقين مُنذُ عامين ولا يكاد يمر يوم دون وجودهما معًا في الحقل يلعبان.. يصرخان.. ويحطمان أغصان شجر التفاح!

«مُنذُ ذلك اليوم غيّر نادر من ولد سعاد وجعل منه فتًى الكل يُقدرونه.. بل ويستطيع أخذ حقه بنفسه».. وتجهم وجهها مضيفة: «ما كان عليه تقديم هذه الخدمة لتلك البغيضة..».

ولم تدرك بابتعادهما عنها أنهما في هذه اللحظة كانا يرتطمان بأغصان شجر التفاح ويكسرانها هرباً من بعضهما بعضًا، وتعثر نادر فجأة لتسقط الأصفاد من يده فالتقطها أحمد وانقلب الحال ليصبح نادر هو الهارب وأحمد هو المُطارد.

واختبأ نادر خلف إحدى الأشجار، وهو يلهث منهكاً لتصطدم عيناه بغتة برؤية طرف ذلك الفستان الوردي الغريب البارز من خلف شجرة مجاورة له.

ترك مكانه وتسلل لينظر إلى خلف الشجرة فوجد طفلة تنتحب بصمت وعيناها تذرفان دموعًا لم تستطع قبضتاها الصغيرتان مسحها كلها.

«من أنتِ؟!».

شهقت ذعراً وقفزت واقفة، ليظهر وجهها الذي عَلَته الكدمات وبعض الجروح، وقد أحاط به شعر بندقي انسدل بخفة على كتفيها..

تانك العسليتان ملأهما إشفاق وتأثر لارتجافها وخوفها منه فابتسم قائلاً: «سأصنع لكِ أرجوحة.. فقط لا تبكي».

من أخبره أن الفتيات يحببن الأرجوحات؟!

هو نفسه لا يعلم.. ولكن ذلك نجح بطريقةٍ ما في إيقاف دموعها لتنظر له ببلاهة و.)

«نادر».

«همم».

«نادر».

«مـــاذا؟!».

«هل نمت؟!».

«أبله.. لو كُنتُ نمت فمن الذي يُجيبك الآن؟! عفريت».

«عفريت؟! ما هو العفريت؟!».

«طفح الكيل»

صاح بعصبية وقد تحلى بالصبر معه لخمسِ مرات، ولكن هذه المرة سيحقنه بمهدئ.. سيفقده الوعي بضربه.. المهم يُصمته وحسب فما يعانيه ليس بقليل.

استدار بجسده على الجانب الأيسر من سريره لينظر للأرض حيث يُفترض أن ينام فارس ثم..

«تـــبّاً!»

شهق بفزع، وعيناه تصطدمان بعيني فارس مباشرة، والذي ظل جالساً على الأرض ومرفقاه مرتاحان على سرير نادر، وذقنه يستند على حافته، هاتفًا: «أنت مستيقظ؟!».

ارتداد نادر الشديد للخلف! فزعه! شهقته! جميعها لم ينتبه لها وانتبه فقط لكونه مستيقظًا!

«هل كُنتُ شاردًا إلى الحد الذي لم أنتبه معه لصوته القريب؟!»

غمغم نادر مذهولاً، وهو يعتدل في جلسته، وكفه تقبض على موضع قلبه المتسارعة نبضاته.. وبحق فقد كان فراش فارس الأرضي مجاورًا للخزانة أي بعيدًا عن سريره مسافة متر ونصف المتر بأكملها!!

«لقد اقتربت لأنك لم تكن تسمعني»: قال فارس بابتسامة، وحاله كما هو، فاهتز حاجب نادر ووبخه: «توقف عن الاستناد على حافة السرير كبرونو».

عبس محنقاً وهو يبعد مرفقيه وذقنه عن حافة السرير، فيما أردف نادر بانزعاج: «عد لفراشك.. ونم».

«لا أشعر بالنعاس».

«إذًا استلقِ واخرس ودعني أنمْ».

«ولكنك مستلقٍ لساعتين تنظر للسقف دون أن تنام».

ساعتين؟! فوجئ نادر.. هل مر الوقت دون أن يشعر؟!.. نظر لساعته ليجدها الثانية عشرة والنصف صباحًا، هو ينجرف مع ذكراه دون وعيٍ منه.

رفع ذراعه ليضغط جانبي رأسه من صداع مفاجئ.

«اشش» خرجت من بين أسنانه الضاغطة بعضها على بعض، وكفه الأخرى تشد بألم على بطنه و. (تبّاً.. ليس مجدداً؟!).. فحين يُثقل الهَمُّ كتفيه يترجم جسده ذلك في صورة وخز مؤلم يسري في معدته.

«أنت بخير؟!»

التفت لتينك الزرقاوين اللتين عكستا قلقاً حقيقيّاً عليه فقال: «إنه لا شيء».

تحول كل ذاك القلق إلى ابتسامة غريبة لم ترح نادر فسأل بتوجس: «فارس.. ماذا فعلت؟!».

ضحك فارس بتورط وهو يخرج من خلف ظهره مغلفًا من البسكويت.

«إنه البسكويت الخاص بأمي» قال نادر بوجل.

«نعم.. لقد رأيتها تغلق درج خزانة المطبخ بهدوء شديد فعلمت أنها تخبئ شيئًا ما».

«إنه أحد طقوسها الصباحية، لو اكتشفت غداً أخذك لواحد فأنت ميت».

«لم آخذ واحدًا» بارتباك نطقها، لينعقد حاجبا نادر، فأخرج ذراعه الأخرى حاملة علبة أخرى وهمس: «جلبتُ لك واحدًا أيضاً».

ارتفع حاجبا نادر، اللئيم لقد ورطه هو الآخر، ولكن.. حسناً.. هو سيرفضه.. سيعيده و: «هاته».

«سيُعجبك.. إنه لذيذ.. لقد كُنتُ أشتري منه كثيراً في المدرسة»

تمتم بها فارس وهو يمدُّ له بالآخر ثم حشر عددًا من الخاصة به في فمه بعد أن فك المغلف قائلاً بحماس: «فلنشاهد التلفاز».

فتح نادر مغلفه وأومأ بـ (لا).. فأمه ووالده نائمان وقد يزعجهما الصوت.

«أرجوك لقد منعتني جدتي من مشاهدته وهيَ الآن نائمة.. ولا أشعر بالنعاس فقد نمتُ نهاراً لوقت طويل وقد نجد شيئًا مسلـ..»

سيل من الثرثرة المتوسلة أدرك معها نادر أنه إن لم يخرجه سيجعل منه هو وسيلته للتسلية.. لذا: «حسناً.. ولكن اخفض الصوت».

«تعال معي».

«لا..».

«أرجوك».

«دعها تضربك وحدك.. لا تورطني».

«لن تكتشفنا.. سنكون حذرين».

إنه ضعف.. ضعف آخر يمر به يجعله يستجيب لرغبات الآخرين كيوم تناول الحلويات مع ياسر..

يكره لحظته هذه.. ويكره ما تفعله به أكثر حين يقوم بما لا يريده.

ودقائق..

وكانا يجلسان على الأريكة في الصالة، نادر بلا اهتمام، فيما طوى فارس ساقيه أسفل جسده والحماس يشع من عينيه اللتين تتابعت

أمامهما قنوات التلفاز وأصبعه تدق أزرار الريموت المرة تلو الأخرى و.. (مباراة كأس العالم).

«مباراة مباشرة على الهواء» نطق بها مشدوهاً وفريقان يتباريان.

«لقد بدأت مُنذُ أيام»: قال نادر بلا مبالاة والبسكويت اللذيذ يذوب داخل فمه.

«أيُّ فريق سيفوز؟!»

سأله فارس بلهفة فقطب نادر حاجبيه.. هو لا يعلم المستقبل فالمباراة تُبث مباشرة، ولكن من مرأى تحرك أحد الفريقين مع الكرة نطق: «أظنه الأبيض».

«إذًا سأُشجع الأزرق».

اتسعت شفتا نادر بابتسامة متفاجئة: «هل تتعمد استفزازي؟!».

افترّ ثغر فارس عن ابتسامة جذلة دون أن يُجيب، بل بدلاً من ذلك ارتفع صوته مشجعاً الأزرق ليهز نادر كتفيه باستخفاف.. ولكن.. دقيقتان فقط وسجل الأزرق هدفًا فأظلم وجه نادر ووجد نفسه يشتم دون وعي.

وبعد دقائق أخرى ارتفع صوته فجأة مشجعاً الأبيض ليحفظ ماء وجهه، وبعد نصف ساعة اختلطت أصواتهما الصارخة بحماس.

«فريقك الأزرق فاشل».

«بل الأبيض.. هم حتى لا يجيدون التمرير».

«الأزرق.. بطيئون كالسلاحف».

«على الأقل متقدمون بهدف عكس أرانبك».

استحالت عينا نادر حمماً ووقف مشجعاً.. المتعة كل ما يشعر به الآن.. ارتفعت ضحكاته والأبيض يُسجل.. كل تلك الهموم نسيها.. آلام معدته اختفت.

«هدف آخر للأزرق»: صاح فارس قافزاً للأعلى..

بعد ساعة من الآن.. عينان عسليتان مشتعلتان غيظاً، وفارس يركض في الصالة صائحاً: «فريق السلاحف يفوز على الأرانب!..».

(هو كبير.. وبالغ.. ولن تستفزه مثل هذه الأمور).. فكر نادر وكفه تهز بعصبية مغلف البسكويت الفارغ.. على الأقل كسرة واحدة يفرغ فيها إحباطه!

«كسبتُ الرهان.. سأنام على السرير وستنام أنت على الأرض».

تصلبت كف نادر.. ما الذي يهذي به فارس؟!.. هما لم يكن بينهما رهان!!

ولكن فارس اتجه للحجرة فوقف نادر هامساً: «أنت.. هل فقدت عقلك؟!».

«لا.. ولكن حين نتبارى أنا ومايا يكون هناك رهان».

«أنا لستُ أختك.. وتوقف عن افتراء رهان من نفسك.. وهو في الأصل لا يجوز..».

«لا تتهرب.. لقد أومأت برأسك موافقاً».

شحب وجه نادر فهو يذكر أن فارس كان يثرثر أثناء انشغاله

بالمشاهدة فأومأ برأسه دون أن يعلم ما قاله كي يكف عن إزعاجه.. ومع ذلك دافع عن نفسه: «قلت لك لم أفعل».

«بل فعلت».

«أنا متيقن أني لم أفعل».

«لقد قلت إن الرجل يحفظ وعده..».

«وعده الذي يذكره.. ليس ما ينتزع منه بالغدر.. ثم لم أكن لأوافق على هذا النوع من الرهان الغبي.. فـ..».

بتر عبارته حين رأى فارس يتراجع إلى الخلف نحو الحجرة هامسًا: «من يسبق أولاً فالسرير له».

رهان جديد.. أيُّ استفزاز أكثر من هذا وهو أقرب إلى الحجرة!! وقبل أن يدخل فارس إليها كان قد أمسك نادر بقميصه من الخلف ثم جذبه ليغطي فمه بكفه الأخرى كي لا يصيح..

وبحق هو تزداد مشاكسته..

حاول فارس التملص، ولكن نادر لم يخفف من ضغطه، وهو يقول: «إن كنت تريد الرهان فعلاً فهو على شيء نعمله بأيدينا ويمثلنا نحن بدلاً من الرهان على أشخاص آخرين.. والخاسر ينام على الأرض».

اتسعت شفتا فارس بابتسامة وأومأ برأسه موافقاً، فأرسله نادر، وعندها فاجأه بركضه إلى الحجرة، ثم قفل راجعًا وبين كفيه كتاب (الرحيق المختوم) الذي أهداه له أحمد، وقال بحماس: «أحمد وافق على هذا النوع من الرهان، ولكن لا أظنه يمثل تحديًا لي أكثر منك».

ثم قفز فوق الأريكة، وراح يقلب صفحاته، دون أن ينتبه لنادر الذي كاد يغرق في عرقه وتوتره، هل يخبره أنه لم يقرأه من قبل؟!.. أنه لا يشكل ولا ذرة تحدٍّ مقارنة بأحمد!.. بالتأكيد لا.. فكبرياؤه في خطر أشد.

وجر نفسه ليجلس في مواجهته على الأريكة يغذي أمله بالفوز نسيان فارس المستمر وتشتته وتناوله للأدوية بالأمس.

«أين فُرضت الصلاة؟» سأل فارس.

«في مكة بالتأكيد» أجاب نادر بثقة ووجهه يتلون بارتياح.

انفرجت شفتا فارس بصدمة، فاهتز أحد حاجبي نادر واستدرك بارتباك: «في المدينة! كلا مستحيل لقد صلى المسلمون بالسر قبل رحيلهم إلى المدينة لذا بالتأكيد في مكة».

«فوق السماء السابعة»

صحح له فارس إجابته وما زال ذاك التعبير المصدوم على وجهه وناول نادر المصدوم أشد منه الكتاب ليبحث له عن سؤال ويسأله.

وفي عجلة قلب نادر صفحات الكتاب باحثًا عن أشد الأسئلة صعوبة فهناك راحة ظهر سيفقدها إن تساهل معه.

ومن خلفهما أغلقت العجوز باب حجرتها الموارب الذي كانت تتلصص منه طوال الوقت وقد حمل وجهها استفهاماً عميقاً.

«ما الأمر؟! ألن تذهبي لتطمئني على نادر؟!»

سألها المسن فرمشت بجفنيها في حيرة، دون رد، فحرك شفتيه بقلق أشد: «هل خرج ليدخن؟! أخبرتك أنه يكره منزلنا هذا، وموقعه هنا بالضبط بين هؤلاء الناس يُكدره.. لا بد أنه يشعر بالضيق والألم.. ما كان عليّ أن أخبره قبل عامين بأني اشتقتُ إليه ولأيامنا فيـ..».

«إنه يضحك.. ومستمتع».

اتسعت عينا المسن، فيما جلست العجوز على طرف السرير مُكملة بدهشة: «ليس مكتئبًا.. ولا متجهمًا.. بل ولم يغادر المنزل ليتجول في ظلمة الحقل مصاباً بالأرق وشارداً في أمور تزيد من ضيقه».

«هل أنتِ متيقنة مما تقولين؟!» حرك المسن بها شفتيه متشككاً.

«بل لم أسمع مثل صيحاته المتحمسة هذه إلا في آخر مرة شاهد فيها مباراة قبل سجنه.. ولعلّه لا يحتاج لأتحدث معه».

«حقاً؟! كيف حدث ذلك؟!».

«إنه برفقة ذلكِ المجنون.. فارس».

«المريض؟!»

وانعقد حاجباه مستغرباً، فيما ضاقت عينا العجوز قائلة بغير تصديق: «هل انتبه هذا الغريب لحديثي السابق معك حول أني سأزوره ليلاً لأني أعلم أنه لن ينام؟!.. أم أنه لاحظ بنفسه كآبته فأراد أن يرفه عنه؟!».

«لا أحد يستطيع معرفة ما يخفيه نادر غيرنا نحن والديه، حتى ولو كان مقرباً منه.. فذلك الشاب يكتم ما بداخله بمهارة مخيفة».

تمتم بها المسن وهو يعقد حاجبيه لألم هاجم صدره ومن الجيد أن العجوز لم تنتبه وهي تُجيبه: «صحيح.. المريض لم يبدُ لي ذكياً.. ولكن الآن بدأت أشك أنه ليس بذاك الغباء، فلا أحد استطاع أن يصل لهذا القرب من ابني بعد سجنه!».

انعكس على وجه المسن قلق شبيه بالذي ارتسم على وجه جواهر، والتي تمتمت: «لن أسمح له بأن يؤذي ابني».

لم يعارضها المسن ولم يؤيدها، فقط تنهد بعمق وارتفع بصره للسماء فدعاؤه لابنه طوال تلك السنوات يستحيل أن يخيبه الله له.

****

(٥) لا تخبر نادر..

٨:٠٠ صباحاً

«جدتي.. ما زلتُ أريد النوم».

جذبت العجوز الغطاء من فوقه ليتكوم على نفسه فوق السرير، وعيناه تُغلقان تلقائيّاً، فتلك الليلة قد طالت وتأخرا عن النوم.

«لماذا ينام ابني على الأرض؟!» نطقتها مصدومة وما تبقى من أضراسها يطحن بعضه بعضًا، وعيناها تحدقان بنادر الفاغر فاه، وشخير خافت يصدر عنه، وقد افترش بجسده الأرض، وكفه تحتضن ذاك الكتاب.. حاله لم يذكرها إلا به حين كان يستذكر دروسه قبل سجنه! ولكنه قد تخرج ولم يعد بحاجة لفعل ذلك!

«انهض!»

بعصبية همست بها كي لا توقظ ابنها، تلتها عصاها التي ضربت قدم فارس ليقفز جالساً يتأوه بألم.

«تعال ورائي أيها المتطفل.. لديك عمل».

فرك قدمه ومد شفتيه وأشار لنادر: «ولماذا أنا فقط من يعمل؟!».

«هل تقارن نفسك به الآن؟! وبعد أن سرقت سريره؟!» قالتها بصوت ارتجف غضباً وحنقاً، فيما نظر فارس بحنق لنادر النائم، وما لبث أن صمت وسار خلفها.

كان لا يزال يتثاءب حين وقعت عيناه فجأة على تلك الحجرة في

زاوية الصالة، المرةُ الأولى التي ينتبه لها، لاحظ أنه لم يدرك وجودها بالأمس بسبب ستار من القماش الخفيف كان يُغطي بابها، ولكن بدا وكأن رياح الشرفة المفتوحة قد وجدت طريقها لتزيح القماش عن بابها القديم، وما صدم فارس أكثر أنه كان مغلقًا بسلسلة متينة وقفل قديم بدا عليه الصدأ.

تحركت قدماه بفضول نحوها، محاولاً تفقدها، ولكن لم يكد يخطو بعيدًا عن العجوز حتى جذبته من كتفه بعصاها المعقوفة صائحة: «لا تتهرب».

وجرته معها للخارج، ثم ناولته كيسًا ممتلئًا بالبذور: «أطعم الدجاج».

«حسناً» أخذها وحك رأسه وسار نحو القفص، ومن الجيد أن نعاسه أنساه أمر الكلب، ودقائق وكان يقف معها أمام أشجار حقل التفاح، وقد تراص إلى جواره ما يقرب الخمسين من الصناديق الخشبية الفارغة، فقالت: «أمام كل خمس أشجار ضع صندوقًا واحدًا لنملأه بالتفاح».

بدا متململاً، وهالته كثرتها، فنطقت بخبث: «ألست رجلًا؟! حين تُتمها ستشعر بشعور جيد».

انعقد حاجباه وغلفت الحيرة زرقاويه.. عن أي شعور تتحدث!! الفضول وحده من وجهه ليقوم بالعمل، كان كالتحدي بالنسبة له، فحمل خمسة صناديق فارغة بعضها فوق بعض، وراح يوزعها والغريب أنه لم يخطئ كالأمس.

ساعة ووقف أمام حقل التفاح، وقد ملأت السعادة عينيه، وهو يراها متراصة في نظام.. هو وحده من فعل ذلك.. لقد تغلب على تردد نفسه، بل وانتصر على فشل ظنه الواقع مع كثرتها.

«نـادر» صرخ وركض نحو المنزل سيريه ذاك النظام الذي أنجزه بمفرده.

«إلى أين تذهب؟!» صاحت العجوز موقفة له، فنظر نحوها وصاح من بعيد: «جدتي.. لقد وزعتها وانتهيت».

نظرت بدورها، وحسناً، هيَ لم تتوقع نجاحه ولقد أحسن صنعاً، ولكن: «لماذا ذلك الصندوق مائل؟!».

اتسعت عيناه، ونظر إلى حيث تنظر، ثم صاح: «سأصلحه».

ابتسمت بخبث، وهيَ تراه يعمل، وعدة دقائق أخرى، ورأته يعود راكضًا مجددًا لمناداة نادر.

«تعال» صاحت وبحثت عن شيء تشغله به، ولكنها لم تجد، بينما وقف فارس أمامها وعيناه الزرقاوان تحدقان بها مستغربًا صمتها الطويل!

«آه.. جدتي هذا يؤلم»: واصلت شد أذنه سائلة بحدة: «ماذا تعرف عن ابني؟!».

اتسعت عينا فارس: «أنه طبيبي.. وهو.. شخص جيد».

ارتخت كف العجوز عن أذنه، ليدلكها بألم، فيما ظلت متعجبة من إجابته، قبل أن تقول بحدة: «أنت لا تعرف عن ماضيه شيئًا لتحكم عليه؟!».

تصلبت كف فارس ورمش بعينيه بصدمة.. صحيح هو لا يعرف عن نادر شيئًا!.. الآن أدرك ذلك فارتخت ملامحه حزناً.

«حين تعلم ماضيه أنت ستؤذيه كالبقية.. حين تُشفى من مرضك الذي لا أفهمه ستستغني عنه فتوقف عن التصرف معه وكأنك صديقه.. هو أكبر منـ..».

«أؤذيه!.. لماذا أؤذي نادر؟!»

صُدمت العجوز من رده المحمّل بنبرة غاضبة تراها بعينيه لأول مرة.. هذا الفتى يقدر ابنها حقيقةً.. وكلمة إيذاء قد استفزت فيه شيئًا عميقاً جعله يُكمل بنبرة عصبية: «صحيح أنا لا أعلم ماضيه، ولكني أعرفه الآن ولا يهمني شيء آخر.. ثم من هم البقية؟! من آذاه؟!».

واشتدت قبضتاه، فعقدت حاجبيها من جديته المفاجئة، ثم قالت بارتباك: «أنت.. ألم تجعله ينام على الأرض؟!».

زفر ببلاهة فهي تقصده إذًا: «جدتي لقد فزتُ عليه.. لقد أجاب على ثلاثة أسئلة من أصل سبعة فيما أجبت أنا أربعة.. وحين أردنا النوم قال إن الرجل يلتزم بكلمته، ورفض رغم عرضي عليه أنني سأتنازل».

ثم حملت نبرته لهفة غريبة، وهو يميل نحوها هامساً برجاء: «جدتي أقنعيه أن يكون طبيبي الخاص».

كانت العجوز ما زالت تحمد الله أن نجحت في إغلاق حديثهما الجاد السابق، ليصدمها بطلبه الآن.. هو يريدها أن تكون جزءًا من مخططه في الالتصاق بابنها!

«صندوق آخر مائل.. قم بإصلاحه»

صرخت بغيظ، فتأفف من تجاهلها لطلبه، إلا أنه ركض إلى حيث أشارت.

ومن خلفها سمعت فجأة صوت نادر يقول: «ماذا لو مال الصندوق قليلاً؟! أمي هل تحاولين افتعال مشكلة معه؟!».

التفتت نحوه لتراه مرتديًا ملابسه الرياضية، وقد انحنى يربط خيوط حذائه الرياضي، ثم ضغط على ظهره فجأة بألم؛ فالنوم على الأرض مزعج.. كان عليه التملص من هذا الرهان، ولكن الغريب هو أنه لم يقرأ الكتاب، ومع ذلك استطاع إجابة أسئلة، بينما لم يتفوق عليه فارس إلا بسؤال واحد فقط، فهل هو فاز على أحمد حقًا، أم أن الأخير تساهل معه؟!

ولكن لن يمر الأمر بسلام في المرة القادمة.. سيحفظ كل حرف من الكتاب، ومن ثم سيردها له ويفوز عليه برهان أشد.

وقف، ليجد العجوز تقابله وجهًا لوجه، مجيبة بحدة: «أبحثُ عن مشكلات معه؟! هل نسيت من كان يقوم بهذا العمل؟! إنها أعمالك أنت هل تريد..»

«هو لكِ بالكامل افعلي به ما تشائين..»

قاطعها متنصلاً بكل لؤم من مسئوليته وتحرك ليمارس رياضة الجري في الحقل؛ فقد أهمل جسده حين تولى الوظيفة فيما تنهدت العجوز بارتياح لعدم سماعه حديثها مع فارس.

«نادر».

صدح صوت فارس من خلفهما، وهو يجري ليلحق بنادر فصرخت

العجوز به أن يرجع حتى تُبعده عن ابنها فهيَ ما زالت لا تثق به.. فيما وازى فارس نادر بركضه قائلاً: «هل رأيت؟! أنا من رتب الصناديق».

«هذا جيد.. تلك العجوز لن تتركك تعيش بسلام حتى تُتقن كل شيء».

ضحك فارس، ولم يدر هل هو يمتدحها أم يذمها، ثم توقف لتوقف نادر عن الركض.. حدق به فارس مستفهماً إلا أن نادر اكتفى بتفكيره، وهو يقف قبالته يتفحصه، ففارس يبدو سعيداً، لم يذكر أسرته خلال الأيام السبعة الماضية، بل ويبدو أن مرضه بالمتلازمة لم يراود تفكيره مؤخراً، ولم يظهر عليه أي من أوهامها.

انشغاله بالعمل مع أمه ومجابهتها غطى تفكيره وحسن من نطقه كثيراً.

«أنت تتحسن بسرعة»

تمتم بها نادر ليفتر ثغر فارس عن أجمل ابتساماته وأكثرها بهجة، ثم استدرك بحزم: «ولكن هذا لا يعني أن يتوقف الدواء».

أنزل فارس رأسه في خيبة، لا يريد للدواء أن يُضعفه، فرغم أعمال جدته الغريبة إلا أنه مستمتع بالقيام بها.

«سأطعم قرين ويُلو» نطق بها فجأة كالمجنون تاركاً نادر خلفه وعاد راكضاً للمنزل فضاقت عينا نادر سخطًا.. فما أسرع أن أطلق اسمين على طيريْ أحمد الوغد.

وانعقد حاجباه وعقله يوحي إليه أنه لمح شيئًا في عيني فارس أشعره بالقلق، ولكن سرعان ما تجاهل ذلك ليتابع ركضه في الحقل دون أن يفطن أن فارس عاد ليسرق هاتفه ويشكر أحمد من أجل هديته وليخبره أنه فاز على نادر أيضًا.

وبعد ساعة من تناولهم لوجبة صباحية خفيفة، تحركت الأسرة إلى حقل التفاح ووصل في الوقت ذاته عشر عاملات من النساء ورجلان ليساعدوهم في جنيِ المحصول.. ولم يكن هدف نادر ربح المال من بيعه للتفاح، بل أراد لوالده ووالدته عيش واسترجاع ذاك الماضي الجميل حين كانوا يتعاونون معاً في قطفه، رغم أنه كان دوماً العضو الساخط والمتململ فيهم.

ويبدو أن ذلك العضو لا يزال موجودًا في الحاضر فها هو فارس يشد التفاحة مع غصنها ناطقاً بانزعاج: «جدتي.. عليكِ أن تثقي بي.. ألم تري كيف رتبتُ الصناديق جيداً؟!».

«تبّاً لتلك الصناديق!.. اسمع لا تقطع التفاحة مع الغصـ..».

وقطع واحدة أخرى بغصنها!

«ستُتلف الشجرة أيها الغبي.. لف الثمرة ببطء حتى..»

ومجدداً لا يصغي إليها، ويده تكسر غصنًا جديدًا، وعيناه الزرقاوان تتأملان العجوز الغاضبة بتعب.. هيَ تشرح كثيراً وهذا أكثر ما يزعجه.

أوقف الشجار تلك التفاحة التي رمى بها نادر ليتلقفها فارس بكلتا يديه، ثم قال: «اقطعها مثل هذه».

«حســـناً» هتف بها، وبالفعل حدق بتلك التفاحة ثوانيَ، ثم بيد نادر التي قطفت تفاحة أخرى ثم راح يطبقها عمليّاً دون خطأ.. فهو ذكي.. ولكن أسلوب العجوز العتيق بالشرح لا يتماشى معه.. هذا ما فكر به نادر مبتسماً.

كانوا يملؤون الصناديق في الوقت الذي يمشي فيه بينهم عاملان من الذكور يحملان الصناديق الثقيلة ثم ينقلانها إلى شاحنة في الخارج.

وانتبه نادر لتحديق فارس بهما، وقد ملأ عينيه شغف اللحاق بهما.

«إياك؟!» قال نادر فجأة وهو يقف أمامه ضاغطاً على القبعة المُخفية جزءًا كبيرًا من نصف رأسه العلوي فبالكاد عيناه ظاهرتان وتحقق من أن الوشاح يغطي رقبته وذقنه جيداً.. فمشكلاته في هذه القرية تكفيه، وهو ليس في حاجة لمشكلة أكبر بطبع ملامح فارس في ذاكرتهما إذا ما لحق بهما.

«لن أفعل.. لقد وعدتك»

تمتم بها، وأسقط عددًا من التفاح في الصندوق.. دقائق وانتقل إلى موقع آخر قريب كي يقطف التُّفاح الناضج، ومر أحد العاملين من أمامه.. لم يهتم، ولكن الرجل أسقط محفظته فاتسعت تانك الزرقاوان وأسرع ليلتقطها صائحًا: «أنت.. انتظر!».

ولكن الرجل واصل مشيه إلى الخارج باتجاه الشاحنة فعبس فارس: «اسمع.. لقد أسقطت محفظتك».

وضع الرجل الصندوق الممتلئ في حيز الحمولة الخلفية للشاحنة، فيما ظل فارس متردداً لحظة قبل أن يلحق به فالتفت الرجل ليظهر له وجهه الذي لوحته الشمس وحدق فيه بعينيه الجاحظتين.

شيء ما في نظراته أفزع فارس، وبدلاً من أن يعيدها له، وجد نفسه يتراجع للخلف ببطء مخفياً المحفظة خلفه.. (سيُسقطها في الحقل ثم يتظاهر بأنه لم يرها).

ولكن الرجل رآه، فلحق به ليباغته بقبضه على ذراعه مؤلماً له، وهامساً: «أيها اللعين.. لولا انتباهي لسرقتها».

«دعني!»

صرخ فارس، وكفه تزيح قبضة الرجل عن ساعده، إلا أن الرجل زاد من غرسه لأصابعه في جلد ذراعه حتى شهق فارس ألماً واحمرت عيناه وسقط جالساً على ركبتيه في قلة حيلة.

ارتجفت شفتاه من أسفل الوشاح ببكاء مكتوم، وشحنة قوية من الألم تتصاعد، والرجل يجره من ذراعه على تربة الأرض نحو العائلة.

«سأخبرهم أنك سارق».

اتسعت عيناه الزرقاوان بهلع وأرجف قلبه الخوف فقد يصدق نادر الرجل بأنه سارق؛ فهو دائماً ما يسلبه أغراضه الشخصية وآخرها البارحة (بسكويت أمه).

دميت ركبتاه فوق الحجارة الصغيرة وهو يزيد من معاندة الرجل كي لا يجره نحو نادر.

«لا.. لا.. أرجوك!.. أنا لم أقصد» بنبرة مرتجفة همس متوسلاً إليه ألا يتحدث عنه بالسوء.

«هم من سيحكمون».

«أرجوك.. سأفعل ما تريد.. لا تخبر نادر».

صوته المفزوع أثار دهشة الرجل فنظر إليه ليصدمه وجهه المحمر المنذر بالبكاء.. لو كان مراهقًا آخر متزنًا لتعارك معه.. لصاح بثقة أنه

التقطها فحسب.. لصرخ مستنجداً بالبقية.. ولكن هذا الفتى راح صدره يعلو ويهبط في ذعر قبل أن يتمتم بتأوه: «يدي.. أرجوك!!.. يدي تؤلمني».

أرسل الرجل ذراعه بغتة لينحني فارس على الأرض محتضناً ساعده المحمر، وقد أطبق شفتيه بتوجع، وبعض الدماء الصغيرة قد شكلت صفًّا حيث موقع أظافر الرجل الطويلة.

«احمل الصناديق للشاحنة وأنا لن أخبره»: قالها الرجل فجأة مستغلًّا له فقد قال إنه سيفعل ما يريد.

رفع عينيه الباهتتين نحوه وصوت أنفاسه الذي ازداد علوّاً يصك مسامع الرجل.. الفتى في نوبة هلع إلا أنه لم يكترث وكرر: «انهض هيا».

وبالكاد سيطر فارس على ارتجاف ساقيه ليقف ناظراً لما يقرب من عشرة صناديق جوار الشاحنة وجميعها ملأى بالتفاح.. ستكون ثقيلة.. وعضلاته الواهنة لن تحتمل، ولكنه سيحاول.. تحرك نحوها لترتسم ابتسامة جانبية بغيضة على شفتي الرجل.. فهو حتى لم يهرب.

حمل الصندوق الأول.. ظهره صرخ ألمًا.. وعضلاته الضعيفة تكاد تتمزق..

نقل الأول والثاني والثالث، ثم رفع الرابع لينسل بغتة من بين ذراعيه وينكسر خشبه على الأرض ناثراً التفاح من حوله.

ذراعاه تنملتا ولم يعد قادرًا على التحمل أكثر.. أدار عينيه لتتسعا هلعاً وقد أبصر الشر والغضب في عيني الرجل المتقدم نحوه سريعاً.

«أسف.. أسف.. أسف» رددها وانحنى ليجمع التفاح فوق بقايا الصندوق المحطم.. خوفه جعل عقله يضطرب حتى ما عاد يدرك ما يفعله.

«غبي..» تمتم بها الرجل وعيناه تنظران للخلف إن كان أحد قد رأى ما حدث، وحين اطمأن أسرع ليجلب صندوقًا آخر فارغًا ورماه ليرتطم بجسد فارس ورأسه مسبباً له كدمات جعلت عينيه تتسعان ألماً..

«اجمعها فيه».

ثوانٍ مرت قبل أن يتغلب على ألمه ويسحب الصندوق ويبدا منكسراً تماماً وهو يضعها الواحدة تلو الأخرى فيه وما بين لحظة وأخرى يعلو صوت سحبه لمياه أنفه.

شعر فجأة بثقل في رأسه وارتجاف أطرافه، ولم تعد ذراعاه تقويان على القبض على التفاح المتبقي..

نوبة الهلع في مرحله متقدمة إلا أن فارس جابهها فنادر قد يُبغضه ويُبعده إذا ما شك أنه يسرق الناس.

«إنها غالية الثمن»

انقبض قلب فارس لقول الرجل الذي جلس القرفصاء أمامه محدقاً بالساعة.

«يمكنك الذهاب إذا ما أعطيتني إياها ولن أخبر نادر بسرقتك ولن تخبره أنك أعطيتني.. ونكون بذلك متساويين».

أردف ويده تمتد إلى الساعة، لم يكن ذلك ضمن خطة ريم، ولا حتى استغلاله في نقل الصناديق.. فقط اتهامه بالسرقة كان كافيًا، وقد منحته مالًا وفيرًا من أجل ذلك، ولكن ضعف فارس ووهنه زادا من جرأة الرجل وأخرجا مكنون نفسه الخبيثة.

وبغلظة راحت كفاه تفكان الساعة، وقد حملت شفتاه ابتسامة جشع، وارتطمت قطعة خشب مكسورة بوجهه، وأحدثت جرحاً سالت منه الدماء.

تأوه ونظر بفزع إلى فارس الذي ظل ممسكاً بالخشبة.. هو وعد نادر بالحفاظ عليها.. هو يحبها..

وعاد لضرب الرجل، ولكن الرجل ثار هو الآخر ليقفز فوقه موجهاً ضرباته نحوه ونازعاً الساعة لتظهر تلك الندبات إثر محاولات فارس قتل نفسه في المستشفى.

«لا!» صرخ فارس، وأمسك قميصه كي يعيد إليه الساعة رغم عنف الضربات التي تلقاها منه في وجهه، فدفع الرجل ذراعه، ولكن فارس تشبث به وأسقطه مجددًا فما كان من الرجل إلا أن قفز فوقه و.. علا نباح الكلب.. ومن خلفه وقف مالكه صامتًا متجمدًا.

نهض الرجل عن جسد فارس ونظر للخلف نحوهما وما زالت الساعة في يده، فيما استند فارس بالكاد على أحد مرفقيه الداميين، ومد يده ليسحب الساعة فذلك كل ما يهمه.

ولم ينتبه لذلك المتقدم نحوهما ببطء، صامتًا، عيناه غشاهما الظلام،

قبضتاه مشدودتان.. كعادته حين يُقدم على فعل متهور.. حين يضرب.. يقتل.. يروي الأرض بالدماء.

وارتجف الرجل.. كان سيبرر.. ولكنه يعلم من هذا الرجل.. القرية كلها تعلم عن وحش قريتهم القاتل..

و..

«برونـــــو»

صرخة مذعورة بصوت العجوز ارتفعت من خلف الجميع، جعلت الأمور تنقلب، فتحرك ذلك الكلب وبقدرغضب سيده وبركانه الثائر سبقه نحو الرجل..

وعاث فيه فساداً..

سالت دماؤه وعلت صرخاته التي جلبت كل العاملين، ولكن لا نادر أوقفه ولا العجوز أوقفته فإن كان سيُهدئ من غضب ابنها وينقذه من سجن جديد فلا بأس.

فيما التصق ظهر فارس بالشاحنة من خلفه، وقبضته تشد على الساعة وعيناه الناعستان تتنقلان في ما حوله بلا وعي.

«نـــادر!»

نداؤه الخافت أيقظ المستمتع بمشاهدة جنون كلبه وشراسته لينتفض بغتة ويعدو نحوه وقد علا وجهه قلق شديد لرؤيته حاله وجروحه.

«أنا خائـ.. ـــف»

بالكاد فهمها نادر مع اهتزاز صوته.

«برونو توقف»

أمر ليبتعد الكلب الضخم عن الرجل بعد أن نهش لحم جسده في أماكن متفرقة، ثم أسرع ليسند فارس المترنح، عليه نقله إلى المنزل سريعًا ليعالج جراحه، ولكن ما كاد يوقفه حتى رآه يرفع كفه بصعوبة بالغة ليغطي بها عينيه.

اتسعت عينا نادر، واكتسح ملامحه الجزع، وقد فهم إشارته، بينما سقطت كف فارس إثر انهيار جسده.

أمسكه نادر وقد أدرك أنه على وشك فقدان الوعي ليس بسبب جروحه، بل إثر نوبة الهلع الملازمة لمرضه الغريب.

«انقله.. سأعتني بأمر الرجل».

سمع صوت أمه من خلفه فحمل فارس وعاد به سريعاً إلى المنزل فيما أشارت للعامل الآخر بحدة كي ينقل الرجل للمستشفى.. وستعتذر لاحقاً لأن كلبهم آذاه.

****

«تسعة عشر يومًا فقط ويُتم الثامنة عشرة من عمره».

صاح فاضل، وقدماه تتحركان جيئةً وذهاباً على البساط الفخم المفروش فوق أرضية جناحه الفاحش الثراء في الطابق الخامس والعشرين من شركة والده بسام ثروت.

التوتر.. الجزع.. اليأس.. جميعها اجتمعت في نبرته الصائحة: «اجلبه لي قبل أن أفقد عقلي».

انعكس توتره على حارسه كاظم الذي قال: «سيد فاضل.. لقد تفحصنا جميع سجلات الوفيات، والبلاغات الصادرة عن أي شبيه له وجميعها سلبية..»

وصمت قبل أن يُردف: «الفتى لا أثر له.. أرى أن نأخذ بما لمح له ياسر بعين الاعتبار».

استدار فاضل نحوه ليصرخ: «ذلك الصعلوك ما قاله كان محاولة لإنقاذ نفسه بعد تعذيبك له».

ظل كاظم على صمته دون أن يُلقي بمبرر لشكه!، فلقد مر يومان بأكملهما منذ اتجه لتعذيب ياسر جسديًا بعد أن تحاور معه بخبث وذكاء ليومين يسبقانهما دون أن يلتقط منه ولو خيطًا واحدًا يقوده إلى فارس، وكل ما حَصّل عليه من ذاك الحديث الشائك هو شكهما الواضح بعضهما ببعض، وحين يتجهان للشك معًا في نادر لا يجدان مبررًا لتهريبه له فيعودان إلى الطريق المسدود نفسه.

«لا أظن ياسر أحمقَ فقد اقترب من هدفه أخيرًا فلماذا قد يختطف الفتى؟!»: قال كاظم بقلة حيلة.

استنكر فاضل بشدة: «وتظن أن نادر قد يفعل ذلك؟!. الفاشل والمجرم!.. ما الذي سيستفيد من إخراجه له؟!.. بهرب الفتى فقد وظيفته الدائمة في أشهر مستشفًى بالعاصمة وفقد أيضًا المال الذي سأعطيه.. لم يعد له مكانة في المجتمع ولن يقبل أحد بتوظيف مجرم

مثله وسيُسجل في سيرته المهنية أنه تم طرده لإهماله لمريض.. لا منطق في ما قاله ذاك الجرذ! هو حاقد عليه بسبب ضربه لوجهه.. هل تظن غبيًّا ومتهورًا كنادر راح يضرب زميله في العمل أمام مدير المستشفى ورئيس الأطباء والوصي على مريضه سيكون قادرًا على التخطيط بمثل هذا الذكاء؟!».

ضاقت حدقتا الحارس أمام منطق فاضل الصحيح فحتى الفدية التي انتظر بفارغ الصبر أن يتم طلبها ليُصدق تخمينه أن نادر هو مختطفه لم تحدث.

ومع ذلك عارضه بهدوء: «ولكن ما زال حديث ياسر الغريب حوله يثير انزعاجي.. لقد قال إنه سمع فارس ينطق باسم نادر.. بل كان لدى الفتى مديَة حادة آذى بها ياسر رأيت أثرها في ذراعه ويستحيل أن يمنح المستشفى أي مريض مثلها!».

ارتخت ملامح فاضل وغرق في تردد عميق قطعه الحارس بقوله: «اسمح لي بالرحيل خلفه حتى أُنهي شكنا حوله على الأقل».

لم يرغب فاضل في إرسال حارسه وإبعاده فهو الوفي والمخلص الوحيد له، كما أن فكرة أن ذاك البائس نادر هو المسؤول عن فقد فارس لم تستسغها نفسه فقال: «حسناً.. ولكن ليس الآن.. حين نيأس من البحث عنه في العاصمة اسعَ خلفه، وعليك أيضًا أن تبذل جهدك مع ياسر مجدداً، فلو صدقته ورحلت فستُضيع الكثير من الأيام بلا طائل، وقد يكون فارس محبوسًا في مكانٍ ما بفعل هذا الجرذ فنحن كما

تعلم قد ماطلناه كثيراً.. ولا أظنه يثق بأني سأنجز وعدي القديم له لذا أراد إخضاعي بطريقته هذه».

بتر حديثهما الجاد صوت طرقات خفيفة على الباب، وبدون أن ينطق فاضل بالسماح للطارق بالدخول، كان قد فُتح الباب لتظهر من خلفه مايا التي غطى جسدها معطف بني خفيف يصل إلى ركبتيها، ومن أسفله بنطال أزرق واسع وانسدل شعرها المموج خلف ظهرها وقد زينت شفتيها ابتسامة صغيرة لرؤيتها عمها المصدوم، فقالت وهي تسير نحوه: «هل فاجأتك؟!»

وبصعوبة رسم فاضل ابتسامة وسط ما يعانيه، ليسألها بانفعال: «مايا.. متى عدتِ من لندن؟!».

«لماذا لا تبدو متحمسًا للقائي؟! لقد مر أكثر من ثلاثة أشهر على لقائنا الأخير».

«وهل أتيتِ بمفردك؟!»

أوقفت خطواتها المتجهة نحوه لتسأل: «نعم.. هل ينبغي أن يرافقني أحد؟».

لم يُجبها فاضل وإن بدا على وجهه ارتياح قليل لعدم مرافقة أحد لها، ومع ذلك فوجودها في خضم هذه المعضلة أورثه ضغطًا أكبر، فقال: «ومتى سترحلين؟!».

ارتفع أحد حاجبيها الرقيقين، ونقلت بصرها بين فاضل وحارسه قبل أن تُركزه أخيرًا على كاظم قائلة: «لهذا كان وجود حارسين أفضل من واحد.. تلك السيارة كان عليها أن تختار من تدعسه بعناية!».

اشتدت قبضة كاظم، فيما ارتبك فاضل أمام نظراتها الممتلئة بالحقد والغيظ، فاتجه نحوها ليحيط كتفيها بذراعه، وسحبها للخارج قائلاً برفق: «تظنينه حرضني عليكِ من أجل قدومك الأخير وشجارك معي ومعه من أجل الحارس إياد».

«لا.. أنا أُبغضه فحسب.. عمي استبدل به شابًا أفضل».

«إنه يعمل للعائلة منذ زمن طويل.. كان حارس جدك بسام ثروت».

«بسام ثروت» رددتها بنبرة حادة، وكأن هذا سبب كافٍ لكرهه، ثم قالت: «حين أكون محاميتك الخاصة لن أقبل بوجوده معي في المكان نفسه».

«حين يأتي ذلك الوقت سنجد حلًا».

«هذا الوغد كيف له أن يعيش لجيلين؟! ويريد أن يتطفل على جيلي أيضًا».

ألقتها بصوت مرتفع مُلىء باشمئزازها منه، غير مكترثة بسماعه لها، ولا لمحبة عمها الشديدة لحارسه، فيما غمز فاضل بعينه لكاظم فسيأخذها ليتناولا معًا طعام الغداء، وسيحرص على عدم مفارقتها حتى يطمئن لرحيلها؛ فوجودها في العاصمة سيكون عائقًا أمامهما عن البحث عن فارس بكل حرية.

ثم دفعها برفق إلى الخارج قائلًا: «لنتناول الغداء معًا ولتخبريني بما استجد عندك من قضايا كسبتها كعادتك».

أومأت برأسها بهدوء، وأسعدها أن أبدى اهتمامه أخيرًا بقدومها،

وتحركت للمغادرة برفقته حين لمحت عيناها الزرقاوان عددًا من الأوراق المنتشرة فوق مكتبه وقد حملت جميعها رسمًا بلا ألوان لفتًى وقد خُطّ أسفل الرسم أرقام مشيرة للمبلغ الذي يساوي الإبلاغ عنه، فسألت بدهشة: «هل هو شخص آذاك وتبحث عنه؟!».

فوجئت قبل أن تمتد يدها نحو إحداها بسحب عمها لجميع الأوراق من أمامها، وقد اصفر وجهه، وارتجفت كفاه.

«لماذا تبدو قلقاً؟!»

بريبة وتعجب نطقتها ليُعقد لسان فاضل، وتلعثمت الحروف بين شفتيه بشكل غريب، فنطق الحارس بغتة منقذاً له: «حسناً.. أنتِ لستِ بعد محامية خاصه بعمك، لذا لن يشاركك بمثل هذه المعلومات السريـ..»

«فهمت.. فهمت..»: قالتها مقاطعة له فلا أسوأ من أن يتبادل معها الحديث هذا الحارس، ولكنْ شيءٌ ما في أعماقها شدها للعودة للنظر لتلك الصور..

نبض قلبها المتسارع أشعرها بالألفة وكأنها لا ترى صورة غريبة..

ولأنها لمحتها فقط، ولم تملأ عينيها بالنظر إليها، تغلب عقلها على عاطفتها لتقضي يومها برفقة عمها أنهته بمغادرتها العاصمة إلى لندن.

****

تلوثت صالة المنزل ببقايا الطين العالقة بحذاء نادر، وهو يواصل عدوه السريع نحو حجرته وبكتفه دفع الباب الموارب، وما زال فارس ساكنًا فوق ذراعيه، أرقده على السرير ليغوص رأسه في الوسادة اللينة، وعيناه شبه مغلقتين، وتنفسه البطيء يصك مسامع نادر.

«نوبة هلع.. بلا شك»

تمتم وكفه تتفحص كفّيْ فارس ليجد راحتيه مبتلتين بعرقه، بل لا يزال جبينه يتصبب هو الآخر، وقد التصقت به بعض خصلات شعره السوداء.

«يجب أن يفيق» قال بحزم؛ فالأعراض التي ما زالت مستمرة دلت على أن هناك بعض الوعي لديه، ولم يغب عقله بالكامل، ولعل هذا الوعي المتبقي لا يزال يخوض ذاك العراك!

«فارس» بصوت مرتفع نطق، وكفه تمسك بكفه فيما اتجه إبهامه ليدلك راحة فارس مؤلماً له.

«فارس.. لا بأس.. لقد انتهى العراك.. وأنت الآن بخير..»

بصوت أعلى نطق وإبهامه يُغرس أكثر في راحة كفه، مما دفع فارس ليئنّ بخفوت، وحرك رأسه لا شعوريًّا معبراً عن تألمه.

«فارس عليك أن تفيق.. وإلا فقد يخلط عقلك بين الرجل وذاك المجرم»

قالها مهملاً جراحه وندبات ساعده الدامية إثر أظافر الرجل؛ فكل جروحه الخارجية قد تشفى، ولكن ما يحدث في أعماقه الآن إن لم يتوقف فقد يُدمر علاج ما يقرب من خمسة أشهر.

«فـــارس ذلك الرجل ليس المجرم»

بصوت أعلى وضغط أشد جعل فارس يشهق ألمًا، ويفتح عينيه الزرقاوين لتتدفق منهما الدموع.

«حمداً لله» تنهد براحة، وهو يترك كفه، ثم مد يديه نحو كتفيه ليسنده كي يجلس.

«لا.. لا.. لا!..»

صرخ فارس، ويده تصفع بخوف كفه بعيداً عنه، بل قفز جالساً، وازدادت دموعه انحداراً إثر تذكره للعراك، فتراجع للخلف ليلتصق ظهره بالحائط من خلفه.

تجمدت كف نادر وغشي عينيه الوجل.. فإن كان ما يظنه صحيحًا.. فعلاج فارس قد تدمر تماماً..

«فارس.. هذا أنا نادر.. أنت لا تظنني ذلك المجرم؟!»

لم يُجب وصوت لهثه يزداد، وأطرافه تهتز، بل رفع كفه المرتجفة ليقضم أصابعه بدلاً من أظافره في ذعر واضح.

«أنا نادر»

صاح مجدداً، ويده تمتد نحوه، إلا أن فارس زاد من ابتعاده عنه دون أن يجرؤ على النظر في عينيه.

«عاد.. لقد عاد»

همهمة خافته أطلقتها شفتاه فجأة، وعيناه الحمراوان تنظران للأسفل، وفهم نادر ما يعنيه تماماً، فأصغى بذهن أثقله القلق لصوته المنهار الذي تابع: «لم يمت.. لقد لحق بنا إلى هنا.. يريد قتلي كما قتل لَمى.. أنا غبي.. لم أستطع قتاله.. أنا جبان.. كان عليّ إيذاؤه.. لماذا تركته؟!.. لقد قتل لَمى.. لن تسامحني حتى أنتقم لها.. ستبقى غاضبة

مني.. كان عليّ أن أموت أنا وليس هيَ.. إنها حجرتي وسريري.. دمي أنا الذي يفترض أن يُراق وليس دمها.. لم أستطع حمايتهـــ..»

سيل من الجمل السلبية المحملة بكآبته تدفق من بين شفتيه، إلا أن نادر لم ينتبه إلا لكلمة واحدة فقط (بنا)؛ إذًا ففارس يُدرك من هو نادر، ولكنه لا يوجه شكواه إليه الآن.. هو فقط يتحدث مع نفسه ويتجاهله تماماً.. ولكن (لماذا؟!)

رأى شفتيه تواصلان تحركهما بكلمات خافتة ومبهمة، لم يسمعها، إلا أنه وثق أن فارس يجلد ذاته ويعذبها بكلمات لائمة تخص فتاة ميتة تسمى.. (لَمى).

تسلل قدر كبير من الإشفاق إلى قلبه فعذاب تسع سنوات يكفيه وعليه أن يسامح نفسه فلم يكن إلا طفلًا..

نهض نادر واقفاً عن طرف السرير وقد آذته تلك الدموع التي لا تتوقف ليربت على رأسه، ولكن وقبل أن يلمسه كان قد شهق فارس بخوف ورفع ذراعين متقاطعتين أمام وجهه في خوف واضح من.. نادر!

اتسعت عينا نادر وانعقد حاجباه مستهجناً فها هو يدفعه بعيداً مجدداً على الرغم من معرفته بأنه نادر.. بل وبحمايته لوجهه!! إنه خائف منه وليس من المجرم؟!

(لماذا فارس يخاف منه؟!)

تأمل نادر كدماته الزرقاء.. جروح ساعده.. على الأمر ألا يطول أكثر.. سيوقف مهزلة خوفه منه ليعالج جراحه..

تحرك ليفتح خزانة مغلقة في أعلى الحائط في حجرته، سحب منها صندوق إسعافات قديمًا للغاية، ثم عاد مجدداً نحوه، فرآه ينظر له بتوجس وخوف من أسفل ساعديه مما استفز نادر، وشهق فارس فزعاً وصندوق الإسعافات يُرمى على السرير إلى جواره.

«عالج جراحك»: بكل غلظة وجفاء نطقها نادر ليرمش فارس بعينيه عدة مرات بغير فهم للشخص الواقف أمامه مكتّفًا ذراعيه.

«تحـرك»

بحزم أشد نطق، ونبرة آمرة، يعرفها فارس جيدًا جعلته ينتفض ليسحب الصندوق ويفتحه بكفين مرتجفتين، بل بالكاد فتحه وارتفع فجأة صوت سحبه لمياه أنفه وهو يأخذ منه شاشًا أبيض ومعقمًا وقطنًا.

اندلق المعقم فوق القطن ليبلله بالكامل، بل وانسكب على السرير إثر ارتجاف أصابعه فرفع عينين خائفتين إلى حيث نادر، ولكن.. ذلك الشخص لم يعبس.. لم يتغير حاله.. فقط ينظر له بصمت..

وبدلاً من علاجه لجرح ساعده راح يمسح السرير بالشاش الأبيض منظفاً له وعيناه الزرقاوان تسترقان نظرات مرتعبة للواقف.. ولكنه أيضًا لم يصرخ.. لم يوبخه.. فقط ناداه بهدوء: «فارس».

توقف عن المسح ورفع عينين متسعتين فزعاً نحوه فأكمل: «لقد خاب ظني بك»..

ارتخت ملامح فارس وتصلبت كفاه قبل أن ترتجف شفتاه ببكاء ونظراته تعكس انكساره..

تلك الكلمات آلمّت قلبه أكثر من خوفه من أن يضربه..

أو يعنفه..

أو يشتمه.. لأنه خالف أمره ولحق بالرجل..

بل وقد يكون خاب ظنه به لأنه يظن أنه سرق محفظة الرجل، فزاد انكساره وتقوس شفتيه وهو يفكر..

نادر لم يسأله حتى عما حدث؟! بل ولم يمنحه فرصة ليبرر!!

حنى رأسه ونشج ببكائه طويلاً حتى بح صوته وسعل عدة مرات..

فدوماً هكذا.. الخطأ منه لا يغتفر.. ويقابل بكلمات موجعة تكسر قلبه..

وحتى لو كان خطأ شخص آخر فسيظن الجميع أنه هو المخطئ..

كيف يثبت لنادر أن الرجل هو من أخطأ وأنه لم يرد الحنث بوعده واللحاق به لولا إسقاطه لمحفظته؟!

هو فاشل تماماً في الدفاع عن نفسه..

كالماضي حين يحدث ما يحدث بينه وبين لَمى فيُلْقى اللوم عليه..

ولكن، أن يكون نادر من يلومه الآن! ذلك كان فوق احتماله فاشتدت شهقاته الباكية..

«لا تُشبهني بأمك».

رفع رأسه مصدوماً إلا أن العبارة لم تُفلح في إيقاف سيل دموعه فتابع نادر وهو يقف أمامه:

«تريد دومًا أن تطبّق ألعاب أختك المجنونة عليّ!!.. والآن بسبب مخالفتك لأمري تدفعني بعيداً لأنك تظن أنني سأضربك وأعنفك كوالدتك..».

وتنهد بتعب مضيفاً: «لا تسقط هراء عائلتك عليّ.. ألا يكفيني أنت؟!».

اتسعت عيناه المبللتان مستنكرًا علمه بماضيه مع أمه، ومع ذلك ما زال قلبه مجروحًا؛ فقد خدث ما يخشاه وعنّفه كأمه.. ألم يقل إنه خائب الظن به؟!

«مُنذُ حادثة النزل وحديثك مع تلك المرأة وطفلتها لم يهدأ عقلي عن التفكير عن سبب لتصرفك الغبي معها!.. لقد بقيت تعتذر للمرأة وكأنك المخطئ رغم أنه خطؤها هي بالكامل وخطأ ابنتها، بل وكدت تناديها بأمك!».

ثم بنبرة عصبية أضاف: «والأسوأ أنك ظننت وقتها أني لن أصدقك بأنك لم تؤذِ الطفلة ولم تسرق دميتها».

ومال نحوه سائلاً بسخط: «وهذا ما تظنه الآن مجدداً.. أنني لن أستمع لك أو أصدقك إن بررت سبب خروجك من الحقل؟!».

انعكس على وجهه الشاحب صدق ما قاله نادر، بل وبعد ثوانٍ أومأ برأسه حرجاً، ليزفر نادر مؤنبًا له بحنق:

«كم مرة أخبرتك.. أنا لستُ أختك المجنونة.. لستُ أمك.. أنا نادر.. نـادر.. لا تشبهني بشخص آخر.. وإلا فسيخيب ظني بك».

اتسعت تانك الزرقاوان لثانية قبل أن تلينا ويغشى ملامحه ارتياح لا حد له وبنبرة عكست انشراح قلبه نطق:

«لن أفعل».

تنهد نادر، وهو يرى تلك الابتسامة التي زينت وجهه اللامع، ولقد نجح أخيرًا بانتشال وعيه تماماً من حديثه السلبي السابق حول أخته.

«هل أنت غاضب مني؟!»

فوجئ نادر بسؤاله، فربت هذه المرة على رأسه، ولم يبتعد فارس عنه، ثم أجاب: «صحيح أن مغادرتك للحقل ولحاقك بالرجل أزعجاني.. ولكن حين تقول بذلك الوجه العابس إنك ستطيعني أعلم أنك ستفعل إلا لو كان هناك سبب قوي منعك».

تبدد ذاك الوجل من قلب فارس، وأشرق وجهه، فهمس نادر متعباً: «أهذا كل ما كان يقلقك؟!».

ضحك فارس وهو يسحب الساعة من على المنضدة القريبة ليلبسها..

وهذا الفتى قد جعل نادر يُشفق عليه أكثر فقبل قليل كلماته أبكته والآن تضحكه.. ما أسرع تبدل حاله..

«حين كنت أتعارك مع لَمى كانت أمي تضربني ولا تستمع لي، وتقول إنها تكرهني، وليتني لم أولد، ولم أكن ابنها»..

تمتم بها فارس بحزن موضحاً سبب تصرفه الغريب، مما جعل شفتي نادر تنفرجان بتفاجؤ.. هو يدرك أن علاقة فارس بأمه ليست جيدة، ولكن لم يكن يظنها إلى هذا الحد.

«أنت بخير؟!»

حلّ الصمت بعد سؤال نادر القلق لتتلاشى تلك الابتسامة، وتشتكي زرقاواه ألم ضرب الرجل له، واتهامه، و...، و...، وبلا تردد

رفع ذراعيه محاولاً عناق نادر، وعيناه تحمران، ولسانه يثرثر شاكياً وشارحاً ما حدث، وأنفه يسيل بغزارة.

«توقف.. لا توسخني بقذارتك»

صرخ وكفه توقف اندفاعة فارس بخشونة مما جعله يعود للجلوس بإحباط إلا أن ذلك لم يوقف ثرثرته حتى أنهاها بسؤاله: «هل صدقتني؟!».

«أنت ميت!» صاح نادر وهو ينظر لقميصه بتقزز فقد تلطخ بالمعقم من كف فارس حين لامسه.

«يؤلم» تمتم فارس وكفاه تشدان على رأسه حيث ضربه نادر فيما بدا نادر غاضباً حقّاً وهو ينطق: «لا أملك غير هذه الملابس للعمل في الحقل.. ولن أخاطر بملابسي الثمينة والراقية لتتسخ بالتربة وهذا لا يعني سوى أن تبقى قذارتك عليّ لآخر النهار».

«أسف»

نطقها فارس مبتسماً وهو يمسح وجهه وأنفه باللحاف الخاص بسرير نادر.. وعندها كانت تلك القشة التي قسمت ظهر نادر لنصفين..

لن يحتمله..

سيقتله..

سيكمل ما بدأه الرجل معه..

«هل هو بخير؟!»

انتزع الاثنين صوت العجوز التي جاءت مسرعة، وبين يديها علبة معدنية بها خليط من أعشابها الطبية..

نهض نادر واقفاً، قائلاً بقلق: «أمي لا تركضي.. ستتعثرين».

وقفت إلى جوار السرير لترى تلك الابتسامة التي اعتلت شفتي فارس، وهو يقول بانفعال: «جدتي.. أنتِ تستطيعين الركض!».

تلك العلبة المعدنية يجب أن ترتطم برأسه ليفقد وعيه مجدداً..

«هل قتل برونو المجرم؟!»

سألها فارس بتوتر، مما جعل العلبة المعدنية المتجهة نحو رأسه تتوقف في منتصف المسافة، وتوقف نادر عن نزع القميص، ونظر إلى فارس بصدمة؛ فإذًا ما ظنه صحيح.. لقد انتكس.

ذاك القلق في عيني نادر انعكس مماثل له في عيني فارس الذي سأل بصدمة: «لم يكن هو؟!».

فأومأ نادر برأسه مجيباً ليشحب وجه فارس.

«ولكنك عرفتني، وأيضًا عاملت أمي الآن بدون قلق من كونها المجرم» سأله نادر بحيرة فنظر فارس للعجوز المناوبة بصرها بينهما بغير فهم، ثم هز كتفيه بـ (لا أعلم).

«لماذا ظننت أن ذلك الرجل هو المجرم؟!»

حرك فارس رأسه بارتباك: «في البداية كُنتُ أعلم أنه ليس هو، ولكن بعد العراك وثقت أنه المجرم».

تضاءل ذلك القلق قليلاً في عيني نادر فشكّ فارس بأنه المجرم

لوجود سبب فقط، وهو معاملة الرجل له بعنف، وهذا يعني أن هناك مثيرات محددة مرتبطة بمرضه قد تتسبب بانتكاسته.

تنهد براحة.. إذًا العلاج ما زال ينجح وكل ما عليه هو أن يجعل فارس يُدرك أن العالم ممتلئ بالأشخاص السيئين غير ياسر.. فماذا لو صادف يومًا ما عمه وحارسه وعاملاه بعنف!، عندها ستعود إليه المتلازمة وبدلاً من التعامل معهما بعقل متزن يميز أنهما شخصان آخران سيئان، سيعاملهما بعنف ظنًّا منه أنهما ياسر..

ما حدث سيئ، ولكنه شعر بمدى فائدته كي يتنبه مستقبلاً، ويجنبه أي موقف عنيف مشابه..

****

(٦) البديل

«ما الذي فعلته به؟!»

تمتمت العجوز مندهشة، فيما اتسخت يد نادر ببقع صغيرة من الدم من ساعد فارس، وهو ينظفه بقطن معقم، ثم أنهاه بلفات من شاش أبيض أحكم ربطه حوله.

«إنها ضمن علاجه احتجت إليها لأجعله فقط يرتاح»: أجاب فازداد وجه العجوز تجهماً، وهي تراه يفقد قوى جسده بالتتالي، وقد سلمهما نفسه ليعالجا جراحه كيفما يشاءان.

أخذ نادر نفساً عميقاً أطلقه في صورة زفرة طويلة مفرغاً بها بعض الغيظ المكتوم داخله، فالرجل لم يكن متساهلاً معه رغم أنه يصغره في السن.

«هذا الفتى (كارثة) غير طبيعية»

تنبه من تفكيره على صوت العجوز، وهي تزيح شعر فارس المنتثر على جبينه، لتضع لطخات من عجينة أعشابها الطبية فوق كدماته الزرقاء.

«حين يُشفى سأضربه بالعصا مئة مرة.. كيف يتعارك مع رجل أربعيني، بل وعامل اعتاد الأعمال الشاقة؟! هذا الفتى مجنون بحق! ألم يفطن لنحول جسده؟! إلى كونه مريضًا؟! كان عليه أن يهرب نحونا..».

تابعت تمتمتها الساخطة، وعينا فارس الناعستان تُغلقان ببطء، بينما فرقت على النصف العلوي المكشوف من جسده لطخات أخرى من عجينتها.

ابتسامة جانبية ظهرت فوق شفتي نادر، وهو يسأل متعجباً: «أمي.. أنتِ قلقة عليه؟!».

«قلقة؟! من القلقة؟! أنا وعلى هذا المجنون؟!» صاحت بانفعال، وهيَ تغلق العلبة، وتنهض منزعجة.

زادت ابتسامته اتساعاً، غير مصدق، فانفعالها المبالغ فيه فضحها، وبصعوبة كتم ضحكته، وهو يراها تسحب اللحاف لتغطي به جسد فارس النائم، ثم اتجهت لتغلق النافذة، وتسدل الستائر عليها.

شعر فجأة بكفها التي ربتت على رأسه عدة مرات قائلة: «لا عليك.. سيكون بخير..».

اتسعت عيناه، ولم يقو على النظر إليها، وقد لامست كلماتها شعوره المخفي بمهارة، فزادت من ربتها وبعثرتها لشعره متابعة: «ولا تقلق بشأن وظيفتك ورئيسك في المستشفى فأنت تعلم قوة أعشابي الطبية.. لن يظهر أي أثر للعراك على جسده».

«شكراً أمي لمساعدتك لي» تمتم بها ساخراً، وما زالت العجوز تمسد شعره فنظر للأعلى قائلاً: «أمي.. لم أعد طفلاً».

تحول ربتها لضربة آلمته: «ماذا أفعل؟! كلما كبِرتَ كبِرتُ معك أيضاً.. لذا لن أراك إلا طفلًا».

فرك رأسه حيث ضربته بحنق، فيما غادرت الحجرة مغلقة الباب خلفها.

ثوانٍ فقط تفصل بين مغادرتها وكل ذاك التعب الذي ملأ وجهه، وهو ينهض ليتفحص الراقد هناك، نظر لكمّ الأدوية الخاصة بالمتلازمة والتي أجبر فارس على أن يتناولها وقد قرر أنها ستكون يومية لعدد من الأيام.

«انتظار موعد الدواء بعد يومين سيكون مخاطرة.. يجب أن أحافظ على اتزانه النفسي من أجل لقائه بأسرته» قالها، وقد أثقل عينيه الهمّ، وعلا اهتزاز هاتفه فجأة للمرة، ربما، فوق العشرين..

«تباًّ!»

صاح بها، وهو يخرجه من جيب قميصه المتسخ.. وكما توقع تماماً.. (أحمد).. لِمَ يُصِرُّ على إزعاجه دوماً؟!

أغلق الخط في وجهه، وصرّ على أضراسه، وهو يبحث عن خِيَار من قائمة الهاتف و(حظر).

صمت الهاتف.. وعاد السكون.. وابتسم..

«كان عليّ فعل ذلك مسبقاً»

بكل برود نطقها، واتجه إلى حاسوبه الشخصي لاستشارة بروفيسور الطب النفسي -المُحب للظهور- بما استجد عبر البريد الإلكتروني.. دقائق فقط، وتلقى رده ليتيقن تمامًا أن ما اعتقده صحيح، هناك

مثيرات أخري للاضطراب، ولكن ما أثار دهشته هو السطر الأخير الذي ذيل به رده..

(ولكن هل أنت متيقن أنه لا يوجد مُعيق آخر قد يعرقل انتفاع جسده بالدواء؟!).

حول نادر نظره نحو فارس الساكن، وذاكرته تُلقي له بتشخيص أحمد له بسوء التغذية، ولكن ذلك كان قبل ما يقرب من خمسة أشهر!

صحيح قد تحسن كثيرًا منذ ذلك اليوم، ولكنه بالتأكيد لا يزال بحاجة للعناية بصحة جسده أكثر.

«العناية بغذاء عجوزين وطفل؟!»

تذمر، وهو يقف، بعد أن جدد وعده للطبيب الجشع بأنه سيضعه في صورة الحدث يومًا ما.

قرر شراء الكثير من الأطعمة لأسرته، ولكن بعد أن يُنهي أولاً جمع المحصول، فأغلق الحجرة على فارس، وهمَّ بالعودة إلى الحقل، وقلبه يعتريه الضيق، أراد أن يُبهج والديه، وبدلاً من ذلك أثقل كاهلهما بهذا العراك.

اتجه ليستبدل قميصه المتسخ أولاً قبل خروجه، توقف في منتصف صالة الجلوس، وعسليتاه تتنقلان بين ثلاث حجر، الملابس الراقية في حجرته خيار غير مطروح على الإطلاق، ونظر إلى الحجرة الثانية المستقرة في الزاوية، والمغلقة بقفل قديم وصدئ، وأيضًا ملابس هذه الحجرة ليست بخيار.

وبكل هدوء اتجه إلى حجرة والده ليأخذ أحد قمصانه، ولتتسخ

بتراب الحقل فهو على أي حال يستمتع بمثل هذا العمل الشاق، ويجد اتساخ ملابسه شيئًا يستحق الفخر لأنه دليل على الجهد والسعي من أجل الرزق.

انتهى من استبدال ملابسه، ثم لحق بالجميع إلى الحقل، وعندها رأى والده يقود كرسيه المتحرك نحو المنزل، وكأنه يريد الاطمئنان على الاثنين، ولكن لم تكد تقع عيناه على نادر حتى ضاقت عيناه، وعكس وجهه غضبًا كبيرًا.

«ما هذا الذي ترتديه؟!»

تحركت بها شفتا المسن، وهو يوقف مقعده أمامه، وملامحه ممتلئة باستنكاره الشديد للقميص الأبيض الشاحب الذي غطى جسد نادر.

تصلب نادر في مكانه، وكلا الاثنين يقفان قريبًا من الشاحنة التي سمعا من خلفها صوت العجوز تشتم العامل الآخر، وهو يعتذر لها مراراً لسوء سلوك رفيقه، ودقائق وتحركت الشاحنة فقد انتهوا من قطف التفاح، وقد كان للعاملات دور كبير في ذلك.

«انزعه»: بفم متسع أمره المسن، فيما ظل نادر واقفاً يرقبه قبل أن يسأل: «هذا القميص ليس لك إذًا.. بل له هو».

أومأ المسن برأسه بحدة فيما اشتدت قبضتا نادر؛ فدائماً ما يكون والده عصبياً حين يلامَس شيء يخص ابنهما الأكبر (نادر)، كما فعل من قبل عندما كان في الثامنة، حين تجرأ ودخل إلى تلك الحجرة المحرمة على غفلة من والديه..

(صور فوتوغرافية معلقة بكل مكان لشاب في نهاية العشرينيات،

شهادة معلقة كشكر لتفوقه وحصوله على المركز الأول في الطب النفسي.. جدران مطلية باللون الأزرق الفاتح.. سرير بأغطية وملاءات بيضاء.. خزانة مليئة بالمعاطف الطبية وبدلات عمل قديمة.. طاولة رصف فوقها كتب طبية وصندوق صغير به نظارة شمسية وساعة قديمة لطختها بقع من الدماء..

سحب نادر الصغير الساعة ليلبسها.. ووضع النظارة الشمسية على عينيه.. وعلَت ضحكاته الطفولية وهو يزيح الستائر الخفيفة عن النافذة لينظر للشمس..

تلك النظارة الشمسية رائعة للغاية..

ارتمى فوق السرير.. لتنتشر سحب الغبار من حوله..

غرفة قديمة لم تمسها يد التنظيف أبداً بعد موت صاحبها..

نظر بعينين راغبتين بكل ما في الحجرة.. فقد مات نادر الكبير مُنذُ أكثر من تسعِ سنوات.. أي قبل مولده بسنة.. وهو حتى لا يعرفه..

جذبت عينيه بطاقة قد علتها النقوش فسحبها ليقرأها.. (دعوة زواج).

مط نادر شفتيه، إذًا أخوه الأكبر مات في يوم زفافه.. عبس بشدة فوالده لم يخبره بذلك وكل ما أخبره به أنه هو وجواهر قد تزوجا حين كانت هيَ في السابعة عشرة وهو في الخامسة والعشرين وقد أنجبت جواهر بعد خمسِ سنوات نادر الكبير ولم يرزقا بغيره..

وقد كان شاباّ موضع فخر لهما.. ذكيًا.. بهر رجال القرية بحبه للعلم، بل وأصبح طبيبًا يعتزان ويتباهيان به، وحين بلغ الثامنة والعشرين من

عمره اختار عروسه من القرية.. وجهزا للزواج ويبدو أنه في صبيحة زواجه وقع له الحادث المروع الذي مات فيه..

كانت والدته في الخمسين حين نقلت لها سعاد والدة أحمد خبر موته، لتنهار جواهر وتصاب بصدمة بذل معها والده عبد المجيد كل السبل كي يعالجها، ويخرجها منها، حتى أنه خضع أخيرًا لنصيحة صديقه بنقلها لمستشفًى في العاصمة لتتلقى العلاج..

وهناك في العاصمة، بعد موت نادر الكبير، قُدر لها أن تحمل مجدداً، وهي قد تجاوزت الخمسين وقد كان في ولادتها لنادر الصغير عزاءٌ لها عن مصيبة الفقد التي مرت بها..

بل وبدأت تتماثل للشفاء..

فعادت للقرية تحمل هذا الطفل بين ذراعيها مفجرة استغراب الجميع.. فكيف لامرأة تجاوزت الخمسين أن تُنجب مجدداً؟

«لماذا لا ينسيانه فحسب؟! أنا موجود»

تمتم بها نادر الصغير وكفاه تمزقان دعوة الزواج، هو نفسه لا يعلم لِمَ فعل ذلك؟!.. ولكن لعلها غيرة طفولية من رؤيته لمدى تعلقهم بهذا الشاب الذي لا يعرف منه سوى أنه كان لديه أخ أكبر!!

ولم يُفق نادر الصغير من شروده إلا على صفعة قوية ألقته على السرير المغبر، واحمرت لها وجنته، فرفع عينين دامعتين إلى حيث والده، فرأى الغضب يملأ عينيه، وهو يصيح به:

«ننساه؟! هل تظن بوجودك أننا سننساه؟! من ينسى ابنه ليس

بأب!! ومهما حملت اسمه أو أسماك أهل القرية بالبديل فلن تحلّ محله ولن تكون بمكانته يوماً».

ثم سحب النظارة والساعة بغلظة من ذراعه وجره إلى الخارج مكملاً: «ستسوء صحة أمك إن رأت هذه الأشياء القديمة وذكرتها به.. فلا تفتح الحجرة ولا تقترب منها أبداً».

وعلى الرغم من إيذاء تلك الكلمات لقلب نادر الصغير إلا أنه نطق بغيظ: «ارمِ ما بداخلها.. لماذا تحتفظ بها ما دامت تؤذي أمي؟!».

توقفت خطوات المسن، ونظر لقصير القامة تحته، ثم قال بعجز: «ليت الأمر بهذه السهولة». واحمرت عيناه: «لا أريدها أن تراها فتنهار ولا أجرؤ على رمي شيء عزيز على قلبي خاص بابني».

«ابني؟! ابني؟! وكأن ليس لديكما ابنٌ آخر»

صاح نادر الصغير بغضب، مستفزّاً مشاعر المسن، فرماه خارج الحجرة، ثم أغلقها بالمفتاح، وظل يصارع غضبه المكبوت للحظة، قبل أن ينفجر قائلاً:

«أنا ليس لدي سوى ابن واحد فقط وقد مات».

شحب وجه نادر الصغير، وارتجفت شفتاه، وقد انفطر قلبه لما سمع، وسببت جرحًا غائرًا في صدره لم ينسَه طوال حياته رغم أنها كانت العبارة الجارحة الأولى والأخيرة التي تلقاها من والده ذي الحلم ورجاحة العقل..

ودخلت أمه فجأة مع جمع من جاراتها، مرددة بابتسامة: «نعم.. هو أخبرني أنه سيكون كنادر.. سيصبح طبيبًا نفسيًّا مثله و..».

هو لم يقل ذلك.. هما يحاولان جعله نسخةً فقط من شخصٍ فقداه..

بديلًا له..

بديلًا لن يمنحاه حبًّا يماثل حبهما للأصل..)

انضمت العجوز إليهما فجأة لترى تلك النظرات المحتدة المتبادلة بين الاثنين، وانتبهت أخيراً لضيق نادر، وهو يرفع أصابعه ليفتح أزرار القميص كي ينزعه..

ذاك القميص..

قميص ابنها الأكبر الميت.. (نادر)..

تغيرت ملامحها، وغشاها الحزن، ووقع ما خشيه المسن؛ فالآن ككل مرة ترى فيها شيئًا يخص ابنها الميت ستنهار.

وملأ تينك العسليتين ألم كبير، وهو يعود أدراجه نحو المنزل ليستبدل القميص..

توقفت خطواته فجأة حين أمسكت العجوز بذراعه، فعاد بنظراته المتسعة نحوها ليراها تبتسم بدلاً من البكاء!

اتسعت عينا المسن صدمة، فيما جذبت هيَ جسد نادر لتضمه، بل وشدت ذراعها على رأسه لتُسقطه على كتفها.. كان منحنياً بالكامل لطوله مقارنةً بقصرها.. ولأول مرة في حياته يسمعها تحدثه عنه.. عن أخيه الأكبر: «لو رآك أو التقى بك لأحبك.. ولعاملك كأخٍ أصغر كما تفعل مع هذا المجنون».

الآن.. أي جنون يحدث؟!.. وما الذي تنطق به؟!..

عقله لم يصدق.. إلا أن هناك شيئًا تفجر في قلبه.. عيناه تحرقانه.. هل هيَ الآن تعترف بأنه شخص آخر مختلف عن نادر الكبير!!

ألم يعاملاه طوال حياتهما كبديل له؟!

حرك المسن مقعده، وقد غشى وجهه الخوف، يجب أن يُشغل العجوز عن ذكرى ابنها الأول فصدمتها ومعاناتها لم تكونا بالهينتين، وقد حذره الطبيب قديمًا من أي مثير قد يتسبب في انهيارها، وزاد فزعه حين رأى وجهها الذي تلألأ بالدموع، وهي تمسد شعر نادر مكملة: «كُنتُ أنانية.. أفكر ماذا لو عاد؟! ماذا لو عاش مجدداً بيننا؟! كيف سيكون؟! أتساءل عن قدر سعادتي بذلك؟!».

ثم شدت أكثر على رأس نادر باكية بحزن: «ولكني لم أفكر للحظة واحدة.. ماذا لو كان بيننا من أجلك فقط؟! ماذا لو كان لك أخ أكبر يسمع شكواك!! يرافقك إلى المدرسة.. يفهم متطلباتك مقارنةً بعجوزين مثلنا؟! بل وينام معك في حجرة واحدة ثم تسرقان بسكويتي ليلاً، وتتعاركان، وتتخاصمان، ثم تعودان تضحكان، وكأن شيئاً لم يحدث.. هل كنت ستشعر عندها بالوحدة؟!».

حديثها أزال قلق المسن بالكامل؛ فهي لا تتحدث عن ألمها، وإنما عن ألم الساكن بين ذراعيها، ولوهلة ظن المسن أنه رأى ارتجافًا بتينك الشفتين الجافتين..

شفتي نادر..

ولكنه لم ير ارتخاء جفنيه المختبئين فوق كتف أمه، فنادر يعلم أنهما قسوا عليه كثيراً.. ولكن ذلك لا يعني أنهما لا يحبانه..

صحيح بعد ولادته بعام من موت نادر الكبير لم يعاملاه إلا كطفل..

طوال سنواته التي قضاها برفقتهما، طفل، ومراهق، لم يشركاه في نقاشاتهما.. لم يطلبا رأيه في شيء.. فقط كان كالتابع لهما، يطعمانه، ويلبسانه جيداً، ويأمرانه بالعمل معهما في الحقل، بل ولم يبادرا أبداً لسؤاله عما يحبه؟! عما يكرهه؟! عما يحصل له في المدرسة؟!

بل ولم يرهقا نفسيهما لسماع أي من ثرثرته حول نفسه!!

هما من جعلا منه وحيداً بينهما!!

لذا مهما حدث له من سوء.. كان يخفيه في نفسه.. يكتمه في أعماقه..

فلماذا تصرخ حين لا يكون لصراخك صدًى؟!

«لو كُنتُ استمعتُ لطلبك ذلك اليوم وغادرنا القرية فهل كنت ستؤذي ثابت وتدخل السجن؟!».

عض نادر شفته السفلى بقوة، فيما ارتفع صوت بكاء العجوز، وعينا المسن تحمران أكثر، وهيَ تُتمتم:

«وحدتك بين عجوزين مثلنا لم ينظرا إليك إلا كطفل دفعتك لتتعلق بأحمد وريم وحين هجراك لأكثر من ثلاثة أشهر لم نكن نعلم حتى.. لم نسأل لِمَ هما لم يعودا لزيارتك؟!.. لماذا تتجول في الحقل وحيداً؟!.. لماذا تتغيب كثيراً عن المدرسة؟!.. كنت تجلس بيننا صامتاً ولم ننتبه حتى أنك أصبحت أكثر وحدة وبؤساً».

كلماتها لامست قلبه.. أحيت ألماً دفنه مُنذُ زمن..

«أسفة لأن لديك أمًا عديمة نفع مثلي».

اتسعت عينا نادر، ولم يُرضِ قلبه سماع مثل هذا القول منها، فتراجع للخلف ليظهر وجهه المتأثر، ولكنها وقبل أن ينطق أحاطت فكيه بكفيها المتجعدتين ناطقة: «أسفة لأني أمك».

انفرجت شفتاه غير متقبل، واحمرت عيناه، إلا أن العجوز ألقت نظرة نحو المسن، وكأنها تحثه هو الآخر على فعل شيء ما، وكأن ما صرحت به الآن من حديث نادم وكئيب لا يخصها وحدها، فنظر نادر نحو المسن لتصدمه عيناه المبللتان هو الآخر، وقد ملأ وجهه الانشراح لكون جواهر بخير، ثم تحركت شفتاه بـغصة: «تفوهتُ بالكثير من الهراء ضدك ولم أكن متكأً لك تعتمد عليه.. أسف لأني أبوك».

ما بال هذا الجو العاطفي؟!! هو يكاد ينجرف مع مشاعرهما الصادقة العميقة.. هو فرح بما يقولان.. سعيد جداً باعتذارهما لدرجة يجد صعوبة بكبت دموعه.. ولكن ألمهما الآن وندمهما يحزنانه ويكسران قلبه..

«إنه دوري الآن.. هل عليّ أن أعتذر أيضاً لكوني ابنكما؟!».

لم يكد يطبق شفتيه حتى تلاشى ذلك الحزن من وجهيهما وجفت دموعهما وحلّ محلها غضب لا حدود له ثم..

«ماذا؟!»

صرخت العجوز وتناولت عصاها لتضربه فيما تحركت شفتا المسن بكلمات ولم يدر نادر ما يتمتم به وهو يبتعد عن عصا العجوز يمنةً ويسرةً وهي تصرخ:

«لماذا تعتذر؟! أيها العاق الوغد.. أنت ابني شئت أم أبيت..».

ضحك نادر صائحاً بدوره: «وأنتما والداي شئتما أم أبيتما.. إنه قدرنا الذي سننال الأجر من أجل صبرنا عليه».

تجهم وجها العجوزين وقد حول كل ذاك الجو العاطفي إلى دُعابة طريفة مخفياً كعادته تأثره على أعينهما..

وفجأة نطق بابتسامة: «لا تعتذرا.. أنا حقّاً ممتن لأنكما والداي.. ولستُ غاضباً أو حاقداً عليكما».

عادت أعينهما للارتجاف، وقد أرضاهما قوله، ولامس قلبيهما حبه الصادق لهما..

«وبحق.. هل أنا غبي لأرجو شيئاً من عجوزين مثلكما؟! بالكاد تعتنيان بنفسيكـ..»: وصمت وتراجع للخلف نحو المنزل والعجوز تلملم حجارة لترميه بها فيما ضحك المسن فهذا الشاب يجيد استفزازهما والتلاعب بمشاعرهما..

أسقطت الحجارة بعد أن اختفى على نظرها، فيما حرك المسن مقعده نحو المنزل محركًا شفتيه بـ:

«جواهر أتعلمين؟!.. الآن أدركت.. طوال عيشنا مع نادر الكبير كنا نحن من نهتم ونعتني به.. بينما مع نادر الصغير هو من اهتم واعتنى بنا».

وشدت كفَّاه على مسندي المقعد متحسراً عليه: «أن يكون والداك عجوزين هو عبء ثقيل حمله على كاهله طفلاً ومراهقاً وشابّاً».

«هل قلت عني عجوز؟!»

أطبق عبد المجيد شفتيه، وكفا جواهر تشدان على جانبي خصرها، صائحة بحنق: «ما زلتُ قوية.. وأقوم بكل أعمال المنزل وأرعى الدجاج وأطبخ وأغسل و..».

توترت ملامحه وبحثت عيناه عن نادر كي ينقذه إلا أنه لم يجده..

ذلك الحدث المتلئ بالمشاعر أنساه أنها قد تتسامح مع الجميع حين يطلق عليها لفظ العجوز حتى فمها نفسه، ولكن ليس هو فحتى لو كانت عجوزًا فلا يجوز على الإطلاق لأي زوج أن ينتقص من جمال زوجته ويخبرها أنها عجوز.

انقضى النهار الذي لم يعكره إلا جرأة الرجل على ضيفهم الصغير بعراكه معه، وحلّ الليل، وانشغلت جواهر بالتحضير للعشاء فيما غادر نادر للخارج ليشرف على بيع محصول التفاح بدلاً من والديه، وتهرباً من مقابلتهما بعد ذاك الحديث العاطفي.

وقد كان الربح وفيراً يعادل ضعفي ما يقبضه والده قديمًا، والغريب أن الكثير من سكان القرية قد اشتروا منه!

وعلى الرغم من انتظاره قدوم رجال الشرطة ليقبضوا عليه من أجل ذاك الرجل الذي آذاه برونو إلا أنه لم يأت أحد، ولا حتى جيرانهم لم يزوروا جواهر بدافع الفضول للسؤال عما حدث، والأشدُّ غرابة أنها كانت فرصة مثالية لراجح لإيذائه، ولكنه لم يستغلها!

أراح نادر جسده على الأريكة من خلفه في صالة المنزل وقد غرق في حيرته فحتى والداه بدلاً من أن يعتذر لهما لتخريب يومهما بذاك العراك وجلبه لمصيبة تسمى (فارس).. هما ولأول مرة في حياته يعتذران منه.

«الجميع يعاملونني جيداً.. هل سأموت قريباً؟!»

حك رأسه ببلاهة، وعيناه تسترقان نظرات إلى العجوز التي تمر من أمامه جيئة وذهابًا، وكلما التقت أعينهما تظاهر بالضغط على شاشة هاتفه كالمشغول..

وتبّاً.. لِمَ هو يكاد يموت حرجاً؟!

«هل تمنحك أمك قبلة؟!»

قالتها العجوز بابتسامة منتشلة إياه من حرجه، ليقفز كالمصعوق وتراجع للخلف.

«ماذا؟!»

ضحكت العجوز: «لقد كسبت ضعفي ما يكسبه والدك.. وأنت تنظر لي من وقت طويل بانتظار مدحي.. أليس كذلك؟!».

لم يكن يقصد ذلك؟! هو فقط لم يعتد التعامل مع الأجواء العاطفية ويشعر بالحرج مما حدث سابقاً.

«لا.. لا!..»

نطقها بارتباك، والعجوز تتجه نحوه قائلة: «دع أمك تمنحك قبلة.. لقد كنت رائعاً بالفعل».

لعدة أمتار ابتعد عنها، وقد غطى وجهه الفزع، وقد اعتبر ما تقوله كابوسًا أكثر بألف مرة من عصاها..

«أمي.. لقد وصلتني مشاعرك.. توقفي أرجوكِ!»

لحقت به، فيما ابتسم المسن، وعيناه تتابعان هروب نادر، وأدرك أن العجوز تحاول تحرير هذا الصنم من حرجه.

تلك المشاعر التي بثاها له لم يكن مخططًا لها، صحيح هو وجواهر قد تحدثا من قبل عن ندمهما وتمنيا لو يعوضانه عن كل تقصير منهما في حقه، ولكن واقعة الحقل في النهار هي من أطلقت ما بقلب جواهر ومن ثم ما بقلبه؛ خوفهما من أن يرتكب جريمة في حق الرجل الذي آذى فارس أحيَا مشاعر فقدهما له حين سُجن إلى حد نسيان جواهر لابنها الأكبر..

وما أثار دهشة المسن أن نادر لا يزال يرتدي قميص أخيه المتسخ.. (فهل هو إلى هذا الحد سعيد بتنازلهما عن تقديس أغراض نادر الكبير كما لو أن ذلك سيثبت له أنه أكثر قدراً عندهما منه؟!).

«هل هذا منزل عبد المجيد أم أخطأت؟!»

توقفت العجوز، والتفت نادر، وحدق المسن بذلك الشيخ الكبير الذي اعتلت شفتيه ابتسامة، وهو يدلف إلى المنزل دون استئذان محييًا لهم: «السلام عليكم ورحمة الله».

ابتسم المسن عبد المجيد، وحرك شفتيه راداً تحية الشيخ، فيما اتجهت العجوز للمطبخ لتقدم واجب الضيافة بعد أن ردت التحية، في الوقت الذي وقف فيه نادر أمامه راداً: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. عم وليد».

ثم عبس بوجهه: «ألن تكف عن عادتك بدخول منزلنا دون طرق الباب أو الاستئذان؟!».

ضحك وليد: «من الصعب الكف عنها حين تكبر بالسن.. كما أنه قديماً قبل خمسين عامًا لم يكن لمنزلكم باب».

وربت على رأسه: «ومن الجيد أنه لم يفتني مشهد مطاردة والدتك لك، وحرجك منها، على عكس الماضي حين كانت تطاردك بعصاها حتى أنني شككت في المنزل!».

تنهد نادر وأبعد كفه.. (لِمَ الجميع يعاملونه اليوم وكأنه طفل؟!).. ودون أن يدعوه للدخول، دخل وليد بنفسه ليجلس على الأريكة سائلاً المسن عن حاله وصحته فهما صديقان مُنذُ ما يقرب من سبعين عامًا..

جلس نادر بينهما ينقل بالصوت لوليد ما يقوله والده فهو لا يفقه حركة الشفاه مثله.

«لقد قدتُ اليوم صباحًا تسعين كيلو مترًا من موقع سكني الجديد من أجل اتصالات نادر بي بالأمس ولتسع مرات»

قال وليد، فاتسعت عينا المسن، ونظر إلى نادر الذي هز كتفيه قائلاً: «أنت تعلم أنه طبيب.. أردتُ إطلاعه على صور الأشعة ونتائج التحليلات، والأخذ بنصيحته».

احتدت ملامح المسن فابنه أشد عناداً مما يتصور.. ألن يدعه يموت بسلام؟!

قطع نظراته الغاضبة كف وليد التي ربتت على كتفه، وهو يقول: «إنه ابنك.. لا تقسُ عليه.. هل ستحتمل أن تراه مريضًا دون أن تسعى لطلب العلاج له؟!».

زفر المسن مستسلماً، فيما قال وليد مبدداً هذا الجو المشحون: «قبل قدومي إليكم لقد مررت على مستشفى القرية الذي كُنتُ أعمل فيه سابقاً فوجدتُ رجلًا يصرخ باكياً من عضات كلبكم برونو وبالكاد استطاع الأطباء علاجه».

تجهم وجه المسن والعجوز ونادر وقد ظهر حقدهم على الرجل فضحك وليد متابعاً: «نادر.. لقد رأيتُ برونو في الخارج لقد كبر وأصبح ضخماً جدًّا».

لان وجه نادر قليلاً، فيما قال وليد، وهو يبتسم: «هل تذكر حين جئت به إليّ في المستشفى بعد خروجك من السجن مباشرة؟.. كان مليئاً بالجراح لصدم سيارة مراهق له وحين أخبرتك أنني طبيب بشري قلت: ما الفرق بين البشر والحيوانات؟! جميعها كائنات حية».

ارتفع حاجبا نادر وقد نسي ذلك.. ولكنه لا ينكر الآن أنه قد كان وقحاً معه، ومع ذلك فقد عالج الكلب.

«أما زلتما تعانيان من عادة ابنكما بجلب المساكين إلى المنزل؟!».

سأل بتهكم مما جعل نادر يحدجه بغيظ، فيما انتقلت عينا المسن والعجوز معاً نحو باب الحجرة التي يستقر فيها فارس، فعلى الرغم من قوله إنه مريضه إلا أنهما يدركان أنه يخبأ شيئًا ما كعادته!.. فهو لم يُقرب أحمد منه ويجلبه إلى المنزل إلا لحمايته من المتنمرين، وريم، والكلب أيضًا..

«بُني.. تعال وساعدني».

اجتذبت أمه انتباهه ليساعدها في المطبخ رغم كرهه لذلك، فوقف

دون أن ينتبه أن المسن هو من لمح لجواهر بأن تُشغله، في الوقت الذي أدار فيه بصره نحو وليد ثم أشار بيده له كي يلحق به إلى حجرته.

ومرت نصف ساعة قبل أن يخرجا، كان نادر يجفف كفيه بمنشفة سائلاً: «كيف صحته؟!».

تنهد وليد، وحمل حقيبته، وسلم له كل الملفات الطبية متمتماً: «كما هو مُسجل فيها.. مع كبر سنه فإن المستشفى ليس بخيار على الإطلاق».

عكست عينا نادر قلقه، إلا أن وليد أضاف بابتسامة: «ولكن إن استمر على أدويته ستخفف من مرضه وسيعيش طويلاً.. فلا ترهق جسده بالمستشفيات فهذا ما قد يُعجل بتردي مرضه».

تهلل وجه نادر سرورًا لجملته (سيعيش طويلاً)، فيما حرك المسن عبد المجيد رأسه مخبراً له أن قلقه لم يكن ذا معنًى، وبالفعل فوليد من أمهر الأطباء..

«تعال لتتناول معنا العشاء»

دعته العجوز، وهي ترتب المائدة فحرك رأسه كناية عن أنه مستعجل: «لقد تناولت العشاء في المستشفى مع زملائي القدامى قبل قدومي».

ثم عقد حاجبيه ليقول مستغرباً: «ولكن أين ضيفكم؟!».

«ماذا تقصد؟!»

سأله نادر متعجباً، فأدار وليد رأسه في الأنحاء مجيباً: «حين مررتُ

بالمستشفى كان رجال الشرطة يأخذون أقوال الرجل الذي هاجمه كلبكم، ولكن تجمع عليهم خمس عاملات صائحات بأن الرجل حقير ووغد فقد تعرض لفتًى صغير بمنزلكم وحاول سرقة ساعته فهاجمه الكلب».

توترت ملامح نادر خشية انكشاف أمر فارس، ولكن تابع وليد فجأة كالمتلهف: «يقلن إنه فتًى لطيف وقد أضحكهن كثيراً بشجاره مع والدتك كما أنه لم يخف منك وكنت تعامله جيداً.. يبدو أنك كسبت نقطة جيدة لمصلحتك وسط هذه القرية».

تبادل الثلاثة نظرات مذهولة متفاجئة..

فالكل ويلا استثناء نادر ووالده ووالدته كانوا ينتظرون قدوم رجال الشرطة، ولكن لم يُفصح أحدهم للآخر عن مخاوفه.. ولكن أن ينقلب الوضع ويتم الدفاع عن عائلتهم في غيابهم! هم لم يفكروا بذلك حتى!!

الآن علم نادر لماذا اشترى أهل القرية منه.. هم متعاطفون مع إصابة ضيفه الصغير ومقدرون أنه لم يقتل الرجل!!

حياهم وليد وغادر، فيما رتبت جواهر المائدة، في الوقت الذي عاد فيه نادر ليغرق في تأملاته، مستمتعًا قلبه بجمال وغرابة هذا اليوم الأشبه بالمعجزة!

ما الذي صنعه لتنقلب الأوضاع؟!

لينزاح همه؟!

هو كما هو.. سيئ كما يصفونه دومًا.. لم يتغير.. وقح..

وانفتح فجأة باب حجرته، فالتفت نحوه ليرى فارس يقف متكئاً بكفه على ركن الباب، وقد بدا مرهقاً قليلاً إثر الأدوية، إلا أن ذلك لم يُخفِ ابتسامته العذبة الجذلة وهو يخبره: «لقد استيقظت».

ارتخت ملامح نادر وكأنه قد وجد إجابة تساؤلاته السابقة..

فهو الشيء الوحيد الذي أضيف إلى حياته بعد سجنه..

هل هو الآن ينال جزاء إحسانه له؟!

ألم يقل أحمد إن الله لن يضيع أجره؟!!

انعكست ابتسامة مماثلة لابتسامة فارس على شفتي نادر، وقبل أن يسأله عن صحته نطق فارس ببهجة: «أنا أراهما.. جدتي وجدي.. أنا بخير».

وقف نادر متجهاً نحوه، وقد اتسعت ابتسامته بتعب، فعينا فارس تنبئانه أنه بصدد العودة لجنونه، وبالفعل فقبل أن يصل إليه أسرع ليحتل مقعد نادر على المائدة صائحاً: «جدتي.. أنا جائع جداً.. أريد الطبق الكبير».

لم يكن قد أتم صياحه بعد حين انتبه أن الطبق الكبير كان مستقرًا أمام مقعده.. (تلك العجوز أشفقت عليه).. وقبل أن ينتقل لمقعده كان قد جلس نادر عليه قائلاً باستفزاز: «لا علاج لسوء حظك».

«جدتـــي»

صرخ مشتكياً إلا أنها تظاهرت بالبرود.. وبحق فسوء حظه من أجلسه في المقعد الخطأ.

وارتفع فجأة رنين هاتف نادر فترك ملعقته الممتدة نحو الحساء الدافئ، والتي لم تلمسه بعد، نظر للاسم المدون على شاشته، وكسا وجهه تعبير جاد ينم عن أهمية هذا الاتصال، فغادر المقعد، وابتعد عن الجميع ليسمع صوت زيد المتذمر: «لقد بحثتُ عن كل معلومة عنه كما طلبت، ولكن لم أجد شيئًا قد يقود إلى ماضيه، حتى أنه لا يوجد معلومة ولو صغيرة حول مواقع دراسته بالمرحلة الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية.. فقط اسمه والجامعة التي تخرج منها كطبيب نفسي».

ملأ الانزعاج وجه نادر: «يستحيل أن يكون خريج هذا التخصص فقد بدا لي وكأنه لم يدرس حتى! ألم تجد ولو جريمة تافهة قد ارتكبها من قبل؟».

«سجله نظيف بالكامل.. ولكن لماذا أنت مهتم فجأة بالبحث حوله؟! كان عليك ألا تضربه ما دمت قلقًا من مطاردته الآن لك.. لهذا أكره أن أتورط في مثل هذا العنف».

«أنت متورط من رأسك إلى أخمص قدميك.. هل نسيت أنك من قاد سيارة الإسعاف أثناء تهريبنا للفتى؟».

تناهى لسمعه صوت نشيج خافت حزين، فاللئيم يتحدث وكأنه ليس هو من ورطه بعد أن ابتزه بسرقة المرأة المقتولة..

فيما شردت عينا نادر في اللا شيء، وذاكرته تلقي له بكل لحظة

قضاها برفقة ياسر، يستحيل أن يكون هدفه المال كفاضل، ذلك البغيض كان مسرفًا لدرجة الفقر ولم يبدُ وكأن المال يشكل قيمة ذاتية في حياته هو.. ولكن ما هو هدفه الحقيقي؟!

«ابحث عن علاقته بفاتن أو.. راكان عبد السلام..».

«ماذا؟!» سأل زيد باستغراب.

«تمزيقه لجسد طفلة بعد موتها أشدُّ غرابة من قتله لها!!.. فموتها منذ البداية لم يكن يصب في مصلحة فاضل ولا علاقة له بالورث».

«تبًّا!.. إن لم أهاتفك خلال أسبوع فاعلم أنه قد تم القبض عليَّ بسببك»: بنبرة ملئت بكآبته أجاب، وأغلق الخط متمنيًا أنه آخر طلب له.

فيما تساءل عقل نادرعن هدف ياسر، وبصره يعود إلى الخلف، ليرى فارس قد استولى على مقعده، وراح يأكل بنهم من طبقه الكبير.

الأشياء التي تبدو غامضة، وغير مفهومة، دائمًا ما تؤرقه وتزعجه، ولا ينفك عقله يلقي له بالسؤال تلو الآخر حولها حتى يُريحه بإجابة مقنعة وشافية..

فماذا لو أن ما جهله وغفل عنه أشد خطورة مما عرفه حول الفتى في الأشهر الماضية؟!

****

(٧) أخي

٧ أكتوبر

(حاول التماسك.. الثبات على رَبَاطَة الجَأش، ولكن ألم نفسه المكبوت بلغ درجة استعصى معها إظهار القوة، وانكسر أخيراً فخره الرجولي لينفجر باكياً بكاءً مريرًا..

«زوجتي.. طفلتي.. كيف هما؟! هل لديهما مأوًى يؤويهما؟! هل يتضوران جوعاً؟! كيف يحتملان برد الشتاء؟! بؤسًا لي!.. لا شيء أعلمه عنهما.. كم أنا رجل عديم الفائدة..».

سالت دموعه الغزيرة لتبلل كفيه الملتفتين حول قضبان السجن الحائلة بينه وبين المُنصت إليه، ولم يكن هذا المستمع بأفضل حالاً منه، فقد رافقت دموعه دموع صديقه، وهو يراه لأول مرة بهذا الحال من الانكسار، بوجه شاحب، وجسد نحيل قد دكه وباء السجن وأضعفه، وكل ما يكترث له الآن هو عائلته فقط!

فنصحه بقلب مُحب له:

- أمجد توقف أرجوك عن قلقك عليهما.. لقد أخبرتك أنهما كعائلتي وسأرعاهما وأحميهما بحياتي إلى حين خروجك.

- راكان.. لا أظنني سأعيش.

- توقف عن تشاؤمك هذا.

صرخ راكان محنقاً وقلبه ينقبض خوفاً عليه.

- إن أنجبت فاتن الطفل فلا أظن والدي قد يُبقيه لها.. لقد أبقيتُ خلفي وحشاً يريد أذيتها.. إنه يحقد عليها وقد يمتد أذاه لأخذ طفلتي مايا منها.

- اهدأ.. اهدأ.. فكر بنفسك الآن وبصحتـــ..

- أبي لم أعد أعرفه.. لقد أبقاني في السجن رغم علمه بالوباء المنتشر فيه.. لم أعد ذا قيمة لديه.

وانتحب بنشيج خافت مواصلاً بث حزنه لصديقه راكان، وقلبه يبكي أضعاف وأضعاف أثر طعنة القسوة والجور نحوه من والده).

تلاشت الذكرى عند هذا الحد، وكأنها تمنح صاحبها الفرصة لعدة دقائق ليفرغ فيها بكاء سنوات عدة أمام قبر رفيق فشل في الوفاء بالوعد له بحماية أحد أطفاله من مخالب الدنيا وبؤسها.

«أسف أمجد.. ذلك كان فوق طاقتي»

ظل يكررها كثيراً، ولم تشفع له نفسه اللائمة كونه فقد ابنته أيضاً في تلك الحادثة.

«أرجو أن يكون فارس رفيقك الآن في الجنة.. فقد كنت ذا قلب طيب محب للخير.. وسامح أرجوك قليل حيلةٍ مثلي.. فقد سلبه المرض منا كما سلبك منا».

قالها وعيناه المشتتة رؤيتهما بالدموع تتحركان لتحدقا بحرج بقبر ذي مساحة صغيرة - ملاصق لقبر أمجد - استقر فوق شاهده اسم: (فارس أمجد بسام ثروت).

ولنصف ساعة بقي داعياً ومعتذراً وباكياً قبل أن ينهض بجسده المكتنز نافضاً التراب العالق بمعطفه، ثم اتجه إلى خارج الأسوار المحيطة بقبور أحباء مفقودين.

خف احمرار وجهه إثر الرياح الشديدة، ووقف إلى جوار سيارته، لتستقبله من خلفها تلك النبرة الغاضبة لشابة قائلة: «مايا لا تذهبي للعاصمة، مايا لا تزوري قصرنا، مايا يجب على الفتيات عدم زيارة القبور، مايا.. مايا.. مايا..».

تنهد براحة، فقد خففت عنه عناء البحث عنها بعد مغادرتها لندن منذ يومين، التفت نحوها فصرخت محرجة وهو يأخذها في حضن كبير قائلًا: «أنتِ كل ما بقي لي من أمجد».

«راكان.. دعني».

«لا.. ناديني بأبي».

«لا.. أبي ميت هناك».

«لأنه ميت فقط وإلا لو كان حياً لم يكن ليسمح بذلك ولقتلني بشتائم فمه قبل قبضته».

كلماتُه الساخرة شابتها نبرة مرتجفة حزينة، وقد هيج قربه من القبر ذكرى فقدانه له.

انتبهت لحزنه لتهدأ، وانتبه لهدوئها فحررها، ثم نزع معطفه وغطى كتفيها به: «يا ابنتي الجو بارد هنا».

عاد لطبيعته واستعادت رباطة جأشها فحزنها ليس أقل منه..

ولكن توزيع الحياة لقدرات الاحتمال لم يكن بالتساوي.. فما تفقده يمتلكه شخص آخر.. وما تملكه يفقده شخص آخر.. لتتكامل الحياة ولا يستغني الناس بعضهم عن بعض.

بدت متأففة فجأة حين لاحظت بوادر غضبه المكبوت تطفو على السطح وهو يقول: «أنتِ تعلمين أن تركي لعملي في لندن وقدومي إلى هنا هو بسببك». واشتدت نبرته: «لم تفعلي ذلك من قبل.. لم يمر أكثر من أسبوع على زيارتك لعمك وإذا بي أُصدم البارحة بأنكِ عدت مجددًا للعاصمة ودون أن تخبري أمك حتى».

«لديه قضية سأكون أنا محاميتها في الثاني والعشرين من أكتوبر لذا عدت لأسأل عما يتطلبه الأمر».

اتسعت عيناه صدمة: «لديه محاميه الخاص!»

«إنه اختبار لي قبل أن أكون محاميته الخاصة أيضًا».

تغيرت ملامحه ليرمقها بجمود، فيما تابعت: «لقد رأيتُ أن أخبرك.. فما زلت من اهتم بي بعد والدي..».

«وافقتِ على أن تكوني محامية شخصية لعمك فاضل؟!».

«نعم..».

استحالت عيناه ظلاماً، هل هو يرى الآن فقدانه لها كما فقد فارس قبل تسع سنوات حين سلمه لفاضل؟

«لا» قال آمراً لتقطب حاجبيها واستطرد: «أنت لم تلتقيه بعد لذا سنغادر معًا إلى لندن وابعثي له برسالة برفضك».

اتسعت عيناها، كيف علم أنها لم تلتقِه بعد؟! لا بد وأن خادمتها آن تخبره كل شيء عنها، فاحتدت نظرتها غيظاً.

فيما شعر راكان بالارتياح للحاقه بها، وشكه في تصرفاتها، فمنذ ذهابها في السابع من يونيو إلى العاصمة وهي لم تعد إلى طبيعتها، يغمرها الحزن وشرود الذهن وقد عزا ذلك لزيارتها لقصرهم القديم، ولكن ازداد صمتها أكثر بعد زيارتها الأخيرة لعمها قبل أقل من أسبوعين، وكأن هناك ما يمتصها في دوامته ويكدر استقرارها، إلى حد أن عادت مجددًا للعاصمة لتوافق على هذا الطلب غير المقبول إطلاقًا!

فيما لم تخبره هي بالحقيقة مهما ضغط عليها بأسئلته..

حقيقة أن حزنها في الثلاثة الأشهر الماضية بسبب الحادث الذي أودى بحياة الحارس إياد، وفقدت معه أي معلومة عن أخيها.

وعودتها قبل يومين من الآن لم تكن في نيتها لقاء عمها أصلاً، فما زال ذلك الاستقبال الجاف والغريب منه ورغبته الشديدة برحيلها يضايقها ويقلقها، وكأن هناك ما يخفيه عليها!

«لا تتجولي في العاصمة.. عودي إلى لندن أم تريدين لأولئك الحمقى أن يجتمعوا حولكِ؟!»

قال راكان وهو يستدير نحوها فرأى وجهها الذي احمر غضباً، فحمايته المفرطة لها تُزعجها، فردت: «أنا في السادسة والعشرين من عمري.. أصبحتُ كبيرة لأقرر بنفسي.. وأحمي نفسي..».

«والدك أيضاً كان كبيرًا ولم يستطع حماية نفسه.. كل من يعلق في هذه الأسرة لا يلبث أن يلحقه شؤمها».

«مثل أخي فارس»

ارتجف صوتها مع نطقها للاسم الأخير، وسحبت المعطف لتعيده إليه، فيما غشى طيف من الحزن والألم وجه راكان، واكتفى بالصمت.. الصمتِ فقط..

فحين تُثير هذا الحديث لا يتكلم، ويرتسم فقط شعور بالذنب يُغرق عينيه، لذا لن تتراجع، فما دام سيستمر بصمته فستستمر هي بما عزمت عليه.

****

ترجل رئيس الأطباء (سالم) من سيارته الفاخرة، وتردد عدة دقائق أمام باب أحد المنازل البعيدة عن العاصمة بيومين ونصف اليوم من قيادة السيارة.

نظر نحو سيارته، وكأنه يستجمع شجاعته من كراس الرسم الموضوع على مقعد الراكب المجاور لمقعد القيادة، ولم يكن هذا وحده ما دفعه ليُقدم على رحلته هذه، بل أيضًا بسبب تلك الأوراق الكثيرة المنتشرة جوار الكراس والتي أوصلها له صيدلي المستشفى.

هناك كمّ كبير من الأدوية قد تم طلبه خلال الخمسة الأشهر الماضية من قبل الطبيب نادر المسئول عن فارس، وجميعها تتعلق بالمتلازمة؛ كان يُعالجه دون علم الجميع، وهذا السبب الحقيقي لقدرة الفتى على رسمه في كراسه؛ لأنه كان يتماثل للشفاء.

أخذ نفسًا عميقًا بدد به تردده ثم طرق الباب، مستعدًّا للقائه الأول

بنادر بعد تلك المعركة الكلامية التي حدثت في آخر اجتماع بينهما مع عم فارس، والتي أسفرت عن طرد نادر من وظيفته.

ولحظات وفُتح الباب كاشفاً عن شاب في آخر عقده الثالث تمتم مستغرباً: «نعم.. هل يمكنني خدمتك؟!».

شدّ سالم قامته وقال معرفًا بنفسه: «أنا الطبيب سالم وحيد.. من مستشفى العاصمة للصحة النفسية.. قدمتُ للقاء الطبيب نادر عبد المجيد.. هل هو في المنزل؟!».

عقد الشاب حاجبيه: «لا بد أنك أخطأت.. لا يوجد رجل في هذا المنزل بهذا الاسم..».

انفرجت شفتا سالم مستنكراً، فأخرج هاتفه ليفتح قاعدة بيانات المستشفى، وقارن بينها وبين ورقة السيرة الذاتية المقدمة لهم من نادر وإذا العنوان هو نفسه!

أشار بأصبعه نحو العنوان ليراه الشاب، ثم قال: «انظر.. إنه نفسه عنوان هذا المنزل.. نادر بنفسه سجله في سجلاتنا».

غشى الضيق وجه الشاب لتكذيبه له، فكتف ذراعيه: «يمكنك سؤال رفيقك ذاك عن تزييفه للعنوان فهذا منزلنا مُنذُ أكثر من سبعين عامًا.. ثم إنه ليس لديّ وقت لإقناعك بالعكس.. وإن أردت التثبّت فتفضل بالدخول».

ابتسم سالم ابتسامة متوترة وهو يتفحص الرجل، بدا له صادقًا ومريبًا في الوقت ذاته، هل هو يستدرجه للدخول لفعل شيء ما به؟!

اعتذر بهدوء وسحب خطواته نحو سيارته.. وقد خامر عقله

الشك بأن نادر قد زيّف موقع سكنه.. ولكن لا يكاد يعود بنظره نحو الرجل حتى تستفزه ابتسامته الغامضة.. فهل هو كاذب في ادعائه؟!

ركب في سيارته ولم يتخذ قراره بعد.. هل يرحل أم يتيقن أولاً من حقيقة ما أخبره به هذا الرجل من أن العنوان مزيف؟!

****

٨ أكتوبر - ١١ صباحاً

دفعت خصلة من شعرها الأسود المتموج لتضعه خلف أذنها، وتنهدت متعبة، وهي تسير إلى جوار ذاك الجسد المكتنز في مطار لندن، وهو يمطرها بتأنيبه ونصائحه الأبوية: «بالكاد وصلنا إلى لندن وأنتِ تنظرين لهاتفك ما بين دقيقة وأخرى!.. هل تفتقدين عمك إلى هذا الحد؟!.. أيُّ عقل ناضج سيترك وظيفة دائمة هنا ليفكر بقبول وظيفة مملة مرتبطة بشركة واحدة فقط؟! هل تحبين فراقنا إلى هذا الحـ..»

«راكان.. كم مرة أخبرتك.. أنا لست على اتصال مع عمي فاضل..»: تأففت علّه يسكت، وهي تعود للتحديق بشاشة هاتفها.

«هل هم؟! هم؟!».

بشبه صدمة سأل، وهما يتوقفان خارج المطار بانتظار السيارة التي ستقلهما إلى المنزل، فيما تنحت خادمة مايا (آن) بعيدًا عنهما لأن مايا غاضبة منها لوشايتها بها، ومع ذلك لم يظهر على وجهها أي ندم.

«يبدو أن سائقك تأخر». ردت متجاهلة سؤاله، فوقف أمامها وقد اشتد غضبه: «ما زلتِ على اتصال مع أصدقاء والدك.. صحيح؟!».

«كلا!» قالتها وكتفت ذراعيها: «هم من يتواصلون معي».

عبس بشدة لتلاعبها بالكلمات، ورن هاتفها بغتة فخرجت من ضجرها، لتقول بحماس: «اسبقاني للمنزل.. سأذهب لموقع عملي أولاً».

«مايـــا»

ناداها محنقاً، إلا أنها تجاهلته تماماً تاركة له أمر حقائبها، وركضت نحو زاوية هادئة خلف المطار لترد على الاتصال بلهفة: «نعم.. نعم عم نواف أنا أسمعك».

همهمة خافتة تسللت لأذنها من محدثها فاشتدت أناملها على الهاتف وهي تستمع له قبل أن تسأله: «تقول إن تلك الصورة موجودة في كل قسم بالشرطة؟!».

«نعم يا ابنتي.. فحسب وصفك فتًى مراهق بالكاد يظهر وجهه مع شعره الكثيف.. إنها هي بلا شك الرسمة المزعجة التي أوقفنا جميع تحرياتنا لأجل أن نجد صاحبها..».

ثم تابع باستغراب:

«ولكن لِمَ تسألين عنها؟!».

اجتاح عقلها الكثير من الأفكار وقضمت شفتها الوردية بحيرة؛ فهي المرةُ الأولى التي ترى فيها عمها فاضل بذاك التوتر والارتباك، وكأنها بالغباء الذي ستفوت معه أن تعرف سبب خوفه من معرفتها لقصة هذه الصورة!!

«عم نواف أرسلها إلي».

«حسناً يا ابنتي»: أجاب ببرود رغم تجاهلها الرد على سؤاله.

«شكراً» وهمت بإغلاق الهاتف حين سمعته فجأة يتذمر: «أرى مايا.. إنه ليس إلا مريضًا نفسيًّا هرب من إحدى المصحات النفسية!! لا أعلم لمَ أنتِ مهتمة به ولكـ..»

أخرسته شهقتها القوية، مما أثار قلقه عليها فناداها إلا أنها لم تُجب والدموع تنهار من عينيها لتسيل على وجنتيها المحمرتين..

عبارته دفعت بقلبها النابض ليتسارع بجنون حتى كاد يحطم قفصها الصدري، وعقلها المصدوم لا يُخمن سوى شخص واحد.

«أخي» نطقت بها، وهي تغلق الخط في وجه صديق والدها نواف، ثم جرت بتعثر عائدة إلى المطار.. ما تفكر فيه ليس منطقيًّا.. هو الجنون بعينه.. ولكن قلبها راح يحركها.. ألم يقولوا إن أخاها قتل لَمى لأنه مريض نفسي؟!

ألم يُخفه فاضل في منزله كي يتلقى العلاج برفقة طبيب نفسي؟!

«طائرة.. طـ.. طـائرة»

لم تفهم الموظفة ما تريد قوله، ولم تسعفها شفتاها المرتجفتان ببكاء لتنظم عبارة مفهومة..

أخوها ميت! قبره الصغير في العاصمة! إلى جوار قبر والدها! ما الذي تفعله الآن؟! لم تعلم ولم تفهم أيُّ خيط واهٍ من الأمل هذا الذي تشبثت به؟!

«أريد حجز مقعد بالطائرة المغادرة لـلعاصمة *****»

«حسناً يا آنسة»: أجابتها الموظفة وهي تتنهد فأخيراً قد نطقت الباكية أمامها.. ثم أردفت مبتسمة: «هناك رحلة بعد أسبوع من الآن ولحسن الحظ يوجد مقاعد».

«الآن؟! الآن ألا يوجد واحدة مغادرة الآن؟!»: صرخت مفزعة لها.

«أسفة.. إنها رحلة دولية وليست محلية.. إن أقرب رحلة بعد ثلاثة أيام، ولكن جميع المقاعد تم حجزها، سأسجل اسمك في مقاعد الانتظار إن لم يكن لديكِ حل آخر..».

ارتجفت أنامل مايا، وهزت رأسها متفهمة، لتتناثر خصلاتها السوداء حول وجهها الذي عمته الفوضى..

هيَ مجنونة.. مجنونة بالكامل.. فلا أحد يعود من الموت إلى الحياة، ولكنها على استعداد لاتباع جنونها هذا، حتى لو كان الثمن موتها هيَ الأخرى..

ثوانٍ وصدح صوت نغمة عن هاتفها، وبأصبع مهتز لمست شاشة هاتفها لتظهر على سطحه تلك الرسمة وارتفع صوت بكائها..

من حولها تأسفوا لأجلها وتساءلوا هل مات حبيب عليها؟!

لكنهم لم يعلموا.. أن بكاءها لحبيب عاش..

عاد من الموت..

ورفعت الهاتف إلى صدرها لتحتضنه بقوة.. لتُلصق شاشته الحاملة لصورة ذاك الفتى فوق قلبها المجنون حبّاً واشتياقاً..

****

١١ أكتوبر - ٨,٣٠ صباحاً

حملت (ريم) بين كفيها حافظة كبيرة مُلئت بالطعام، وتمايل فستانها الحريري حول جسدها، وهي تتجاوز البوابة الرئيسة المفتوحة لتقف أمام واجهة منزل عبد المجيد.

أعادت خصلة متمردة من شعرها البندقي خلف أُذنها، وابتسمت بخبث: «لا بد أن علاقته بفتاة العاصمة قد انتهت».

الآن - بعد إزالتها لعقبة (زوجة العاصمة المستقبلية) - يمكنها مواساته من أجل مرض والده العضال وكسب وده..

أرادت أن تدفع باب المنزل لتدخل، ولكنه كان مغلقًا من الداخل!

«لا بد أنه نادر»

زفرت بغيظ، فباب عبد المجيد دائماً ما يكون مفتوحًا ومُرحبًا بكل الزوار وخاصةً بها، ولكن حين يعود نادر يحرص دوماً على إغلاقه متعمّداً؛ كي لا يلتقيها داخل المنزل برفقة والديه.

«افعل ما تشاء.. فلن تلبث أن تضعف أمام مرض والدك وتشعر بالوحدة فتحتاج لمواساتي كالسابق..»

وضعت الحافظة فوق طاولة قديمة مجاورة للمنزل التَفَّ حولها عدد من المقاعد الخشبية، وتحركت بين أشجار التفاح بدلال وتغنج، قاصدة شجرة بعينها، داست أقدامها فوق أوراق الخريف المتناثرة وضحكت بأمل كبير وعيناها تُبصران الأرجوحة ما زالت معلقة، إذًا نادر لم يُزلها.

جرت نحوها وكأنها طفلة، وعلَا صوت ضحكاتها وهي تجلس

فوق لوحها الخشبي، وتأرجحت بقوة ومن حولها راح يدور برونو نابحاً بشدة، وكأنه يشاركها فرحتها المتأججة؛ فما دام نادر لم يزلها فهو بلا شك يحمل مشاعر مخفاة نحوها.

حرزت إحدى كفيها ملوحة للكلب فهو قد اعتاد عليها؛ فثماني سنوات ترددت فيها على أهل هذا المنزل - في وجوده - ليست بالقليلة.

صحيح هي تجد في كل مرة الترحيب بها والقبول من العجوز والمسن، ولكنْ حقيقةُ الأمر والجميع يعلمون.. أنها لا تسعى إلا لترحيب ذلك الشاب بها..

(نادر).. صديق طفولتها.. ومنتزعها من ألم ماضيها.

حركت الرياح شعرها للخلف بعيداً عن وجهها، وابتسمت شفتاها، وذاكرتها تستشعر يديه الصغيرتين اللتين كانتا تدفعانها دوماً من الخلف ليزداد ارتفاع تأرجحها.

«نادر»: همست بها مُغرمة، وصوته قديماً يداعب أذنيها.

«لا تخافي.. ثقي بي.. لن تسقطي» وواصل دفعها، وضحكاتها الصغيرة تعلو، فيما اتكأ أحمد ذو الأحد عشر عاماً على إحدى الأشجار عابساً؛ فهذه الطفلة قد سرقت انتباه صديقه.

«تلك الأيام هي الأجمل»

أوقفت تأرجحها وتأملت ما حولها.. ففي كل ركن من هذا الحقل كانوا ثلاثتهم يلعبون، يضحكون، يتنافسون بالجري والألعاب.

نظرت للإصطبل القديم فارتخى جفناها تأثراً، هناك اختبأت من

زوجة أبيها - الباحثة عنها - بمساعدة نادر حين التقاها أول مرة باكية خلف شجرة في حقل التفاح.

هناك منحها جواده الصغير قائلاً إن عليها أن تعتني به وهو سيحميها من زوجة أبيها، كذب، وكانت تعلم أنه يكذب، وكلاهما أراد سبباً لوجودها في هذا الحقل.

هيَ تريد ملجأ آمنًا تهرب إليه حين تغضب زوجة أبيها منها وتسعى لضربها، وهو استسلم لعطفه وشفقته أمام دموعها وجروحها وفستانها الرث.

«كان لطيفاً معي»

همست بها وكأنها تُسمع الكون كله، فلقد قرّبها هيَ الأخرى منه بعد أحمد في صفه المدرسي ليصبحوا ثلاثيًّا.. نادر وأحمد وهيَ.

قوِيت علاقتهم مُنذُ الصف الخامس وإلى الصف الثاني الثانوي، علّمها ركوب الخيل، تناولوا الطعام كثيرًا في منزله، بل وتشاجر مع والده حتى أنه اضطر لقطع وعدٍ له بأنه لن يدخل حجرة نادر الكبير ولن يعبث بأغراضه، إن تحدث مع والد ريم وطلب منه أن تعمل لديه برعاية الخيل والعناية بأشجار التفاح.

اختلق سبباً أمام الكبار لوجودها وإنقاذها من ظلم وسطوة زوجة أبيها، ولأن والدها يعاني من شجارها المتكرر مع زوجته وافق سريعاً فحُلّت أزمة ريم وقبضت زوجة أبيها المال دون أن تعلم أن ريم لم تكن تعمل حقّاً.

«طفولتي الحقيقية عشتها هنا»

تمتمت بها وذاك الماضي الجميل يتشكل أمام عينيها، فهناك قرب الطاولة الخشبية كانا يستذكران معًا..

وهناك تعاركت معهما وكأنها صبي..

نضبت دموعها، وأصبحت فتاة أشد تأخذ حقها بيدها حتى راجع أخوها من والدها لم يعد يستطيع الوقوف أمامها.

«نادر لن يكون إلا لي..»: قالت وهي تعاود التأرجح على الأرجوحة التي صُنعت بيديه من أجلها..

وهناك.. على بعد عدة أمتار منها.. داخل منزل عبد المجيد..

تثاءب عسلي العينين بوسع فكيه، وهرش رأسه المشعث، ويده الأخرى تُزيح القناع عن عينيه ليحلّ الضوء عوض الظلمة في كل ما يحيط به.

اعتدل جالساً ووجهه يُشرق بارتياح.. (التاسعة والربع صباحاً).. لقد استغرق بالنوم لوقت طويل حتى أنه لم يمارس رياضته الصباحية، ولم يبدُ عليه أي انزعاج لتفويته ذلك؛ فجلسته وحديثه الليلة الماضية وللثانية فجراً مع فارس كانا يستحقان.

لقد مر اثنا عشر يومًا على حادثة عراك فارس مع الرجل، وقد كانت أيامها خالية من أي حوادث أو إصابات، ولم يُظهر فارس خلالها أي مؤشر جديد على عودة المتلازمة إليه، مما قلل من قلق نادر، وزاد من ذلك أن برفسور الطب النفسي قد طمأنه بأن نسيان المريض للمتلازمة إشارة جيدة لاتزانه وانشغال عقله بأشياء أهم.

ولكن (تلك الأشياء الأهم) تجعله يستيقظ ساخطًا وثائرًا في كل

صباح على صوت شجاره مع والدته ويبدو أنه إن لم يتصرف فسينتهي به الأمر هو فاقدًا لصوابه واتزان عقله.

مطّ ذراعيه للأعلى محاولاً بث النشاط في جسده حامداً الله أنه اليوم الأول الذي يستيقظ فيه بنفسه دون ذاك الشجار.

«بالتأكيد لا يزال نائمًا لتأخرنا في النوم البارحة». تمتم بها وهو يُرخي ساقيه للأسفل لينتعل حذاءه المنزلي ثم: «سحقاً!».

شتم بأعلى صوته، وهو يقف باحثاً عن حذائه الخفيف وقد خمن عقله سارقه فاتجهت عيناه بغضب لفراش فارس البعيد عنه ليجده فارغًا تماماً.

«لِمَ لا أسلمه فحسب إلى فاضل الوغد وآخذ المكافأة؟!»: وسحب منشفة على طريقه رماها على كتفه، ثم دفع الباب ليصرخ باسم فارس.

وسرعان ما أطبق شفتيه لتتسع عيناه وهو يراه يتوسط صالة المنزل منتصبًا على ركبتيه وذراعاه مرتفعتان للأعلى وراحتا كفيه المبسوطتان قد احمرتا بشدة والعجوز تواصل هز عصاها قائلة بغضب:

«لا تتعارك مع رجل أكبر منك سناً إلا إن كنت تثق أنك من ستهزمه.. وإن ظننت أنك ستُضرب وتتأذى فاصمت وحرك عقلك الغبي ولا تستفزه..».

ثم ضربت كفيه المبسوطتين بعصاها ليتأوه، وتابعت بحنق: «ثم ما معنى قولك إنك أطعته وحملت له الصناديق.. هل أنت أحمق؟! كيف تُظهر ضعفك له؟!.. بفعلك هذا زدته جرأةً لاستغلالك.. هل تظن جميع الناس طيبين كابني؟!.. لا تُظهر ضعفك أيها الساذج لأحد.

وكادت ترفع عصاها لولا صياحه: «جدتي.. لستُ أفهم.. تريدين ألا أبدو أمامه ضعيفاً وفي الوقت نفسه لا تريدين أن أتعارك معه!!».

«لقد وصلنا للضربة المئة والعشرين ولم تفهم بعد؟!»

صرخت بها راجة المنزل ليدرك نادر أن هذا اليوم لم يكن مُستثنى، هو فقط استيقظ مبكرًا قبل احتدام الشجار فيما انتفخ أنفها بثورة غضبية قاتلة وعصاها تضرب للمئة والحادية والعشرين: «إن كُنتَ قوياً كفاية فتعارك معه، ولكن لا تسبب له عاهة تُدخلك السجن.. وإن كُنتَ أضعف منه فهذا لا يعني أن تُظهر ضعفك له، بل حرك عقلك الفارغ وانسحب بهدوء وبطريقة تحفظ بها ماء وجهك، ولو استطعت لاحقاً أن تجمع رفاقك ثم عد إليه ودس كرامته ومرغ رأسه في التراب حتى يُفكّر ألف مرة قبل أن يقترب منك».

«الآن فهمت»

صاح بانبهار، وعيناه تتألقان إعجابًا بذكائها، فيما تنهدت العجوز بتعب فقد استنفد كل الطاقة المتبقية لها بحياتها القليلة، ولم تتوقف، بل عادت لتضرب ضربةً أشد من سابقاتها.

«لا تستهزئ بجدك»

صرخت بها بغيظ فحين أفاقت صباحاً وجدته يجلس قبالة المسن ويحرك شفتيه دون صوت محاولاً التحدث معه بمثل طريقته في الحديث.

«أردتُ فقط أن أتحدث معه فقد كان وحيداً»

بكل براءة قالها، وهو يسحب كفيه ليفركهما بعضهما ببعض بألم، وبحق هو لم يكن يقصد سوءاً.

«ومن قال لك إنه أصم؟!، أو إنه قادر على قراءة حركة شفاهك؟!.. لا أنت تفهمه ولا هو يفهمك ولساعة بأكملها كدت تعيد له الجلطة مرةً أخرى».

مط شفتيه باستياء لشعوره بالعجز فجميعهم يفهمون المسن عداه، وصرّ على أضراسه لشحنة قوية من الألم شعر بها في كفيه مع ضربة جديدة.

علقت دمعتان جانبيتان بأطراف عينيه المحمرتين اللتين حركهما نحو نادر - الواقف - تبثانه استعطافاً شديداً أن ينقذه من هذه العجوز المتسلطة.. فضربها مؤلم..

«أُمي»

توقفت العجوز عن ضربه وتقوست شفتا فارس تأثراً وامتناناً.

«لقد سرق البارحة خمس علب من بسكوتك».

«ماذا ؟!» صرخت وقد ازداد غضبها، فيما اصفر وجه فارس وصاح: «لا.. أُقسم لم آخذ إلا ثلاثًا فقط..»

وعلقت بقية الكلمات بحلقه لغبائه، فقد اعترف وفضح نفسه فصاح بنبرة المغدور به: «لماذا أخبرتها؟! لقد كان هذا سـرًّا بيننا وعليك أن تحفظ الوعـ..».

«لم أعدك بشيء» بكل لؤم قاطعه وعيناه مركزتان على حذائه بقدميه.

وكادت العجوز تعود لضربه لولا صياحه فجأة: «جدتي.. نادر البارحة كسر الزهرية في الشرفة وخبأها في الدرج أسفل المغسلة».

تجمدت قدما نادر المتجه نحو الحمام، والتفت نحو فارس بعينين متسعتين، ليجده عابساً ومشيحاً بوجهه للجانب الآخر بعد أن ورطه بالكامل، فيما أسرعت العجوز لتجد زهريتها العزيزة مكسورة.. فولولت وشتمت وحملت بقاياها فوق كفها.

«أمي.. إنه يكذب هو من كسرها»

قال نادر محاولاً إنقاذ نفسه، ليعلو صوت فارس مدافعًا عن نفسه بصدق: «بل هو من كسرها».

احتقن وجه نادر والتفت نحوه، ودقائق وكان الاثنان يقفان خارج المنزل، والباب يُصفق من خلفهما محدثاً ضجة.

تحركت تانك الزرقاوان إلى الجانب لينظر بوجل إلى كتلة النار المشتعلة جواره..

«لماذا وشيت بي؟!» صاح نادر وهو يقف فوق التربة بقدميه الحافيتين ومنشفته المتدلية على كتفه وملابس نومه.. (هو لم يستحم حتى!!).

«كانت ستضربني أكثر بعصاها من أجل البسكوت ولا يجوز أن أتعارك معها فهي عجوز.. وقد ظلت طوال الوقت تنصحني إن لم أستطع رد الضربات أن أحرك عقلي الفارغ..».

«فدفعت بها نحوي كي تنجو أنت».

«أنتِ بدأت أولاً.. لقد أخبرتها بأخذي للبسكويت، بل وقلت خمس بالرغم من أني لم أسرق إلا ثلاثًا!» قال فارس وقد تجهم وجهه فلماذا يلومه بالرغم من أنه من وشى به أولاً؟!

«بل أنت بدأت أولاً لقد انتعلت حذائي رغم اتفاقنا بأنك لن تلمس أغراضي الشخصية».

اتسعت عينا فارس، ونظر للأسفل للفردتين.. (إذًا هذا ما أغضب نادر منه).. فقال بحزن: «ولكن أنا ليس لدي حذاء للمنزل وجدتي ترفض أن أتجول بحذائي الرياضي المتسخ داخله».

ذلك الحزن لم يحرك قلب نادر وعيناه تضيقان.. هل هو الآن يُحمله كامل المسئولية لأنه لم يشتر له حذاء منزليًّا؟!.. (هل هو والده دون أن يعلم؟!)

«برونـــو»

صاح بأعلى صوته ليعلو الفزع وجه فارس وتراجع للخلف راميًا بالحذاءين نحوه: «لا.. لا.. أقسم لن أفعلها مجدداً».

انتعل نادر الفردتين، ونظر للباب المغلق، وفمه يهيل بالشتائم لسوء حظه؛ فهناك نسخة شيطانية تُصَنَّع في منزله بيد العجوز اسمها (فارس).

«لم أعد أعرفه حتى»: تمتم بها متعباً، وهو يجر خطواته ليرزح بثقله فوق أرضية الواجهة الأمامية للمنزل.. نظر لساعته بغيظ.. (ساعة وستفتح الباب).. هل عليْه الانتظار كل هذا الوقت؟!

زفر بملل وقد شد انتباهه رأس فارس البارز من خلف ركن المنزل ينظر إن كان برونو قد انضم إليه أم لا..

غالب نادر ابتسامته، وهو ينظر له بغضب، ولكن سرعان ما فشل حين همس له من بعيد بصوت ممدود: «آسف».

تلك الابتسامة شجعت فارس ليتخلى عن اختبائه، ويجري نحوه بلهفة ليشاركه الجلوس، ومعاناة العقاب معاً..

وبعد دقائق سمعه نادر يتأفف، وهو ينظر للحقل مردداً بتذمر:

«دائماً تطردني إلى الخارج.. وتعاقبني..» ولوح بكفيه المحمرتين: «عقاب.. عقاب.. عقاب.. تلك العصا يجب أن أُخبئها..».

ومط شفتيه مردفاً، وسط ذهول نادر: «ولولا أنك معي لكُنتُ فتحتُ قفص الدجاج وجعلتها جميعاً تهرب».

زاد اتساع عيني نادر ورمقه بنظرة جانبية غير مستوعب ما قاله، ثم نطق: «هل أنت أحمق؟!».

توقفت همهمة فارس الساخطة ورمش بعينيه بغير فهم: «لماذا؟!».

«لو أطلقتها فلن ننام الليلة إلا في الحقل مع دجاجاتها الهاربة».

«ستغلّظ العقاب إذًا؟!».

«وهل ظننتها ستكف عن عقابك خشية أن تنتقم منها؟!.. أنت لا تعرفها.. هذه الأفعال لا تُجدي معها أبداً».

هز فارس رأسه بفهم والجالس أمامه ينصحه عن خبرة وتجربة.. ثم ضاقت حدقتا نادر فجأة: «ثم ماذا تعني بقولك لولا أني معك!! هل تجد المواساة في مشاركتي لك العقاب؟».

ضحك فارس وبدا مستمتعاً جدًا: «نعم.. جميل أن نعاقب معاً».

صمت نادر ثوانيَ بغيظ قبل أن يبتسم: «أنت محق».. ثم بسط كفيه أمام فارس مردفاً: «كالأصدقاء».

أشرق وجه فارس ورفع كفيه ضاحكاً ليصفق كفَّيْ نادر فتفجر الم كفيه مجددًا وندّ عن شفتيه أنين توجع عالٍ..

ضحك نادر شامتاً، فيما راح فارس يفرك كفيه بعضهما ببعض بعبوس؛ فحماسه البالغ جعله يضرب بكل قوته ناسياً أنهما لم تطيبا بعد من ضربات عصا العجوز.

وفجأة سمع الاثنان نباح برونو، وظهر راكضاً نحوهما، وقبل أن يقفز فارس هارباً كان قد أمسك نادر بذراعه قائلاً: «ألم تقل البارحة إنك ترغب بأن تكون صديقه؟».

حاول فارس التملص من قبضته والكلب يقترب منهما أكثر، فحديث الليل يمسحه النهار وخاصة مع ضخامة برونو.

وكاد يُفلت لولا أن نادر وقف فجأة ليقيده من الخلف بكلتا ذراعيه وجعله في مواجهة برونو.

صاح فارس بخوف ورفس بقدميه، ولكن متحجر القلب واصل ضحكاته المستفزة، وهو يحث برونو للاقتراب منه، وبالفعل لم يخالف برونو أمر سيده وقائمتاه الأماميتان ترتفعان لتستندا على صدر فارس ووجهه يقترب من وجهه.

«لا.. لا تلعقني.. هذا مقرف.. جدتـــي!»

صرخ، ولكن صراخه ذهب مع الريح وسط اثنين بلغ استمتاعهما حدّه.. نادر بثأره منه وعقابه له لأنه وشى به..

والكلب بطاعة سيده..

وارتفع صوت ضحكات نادر وسط توسلات فارس اليائسة، وجسده لا يقوى على مجابهة قوة نادر، والكلب يحك رأسه في وجهه.

ومن خلف أشجار التفاح وقفت ريم وقد أرجف قبضتيها الغيظ والغضب، فتلك الضحكات والمزاح والاستمتاع الشديد من نادر بحاله الرث ذاك، لم تره أبداً يفعله مع أحد مُنذُ خروجه من السجن..

ألا ينبغي أن يكون ذلك لها هيَ؟!

بل لِمَ لم يرحل هذا الفتى بعد أن تجاوزت خطتها الحد لدرجة إصابته وتأذيه؟!

ضاقت حدقتاها وحقدت أكثر على هذا الفتى الذي انتزع ما لم تستطع انتزاعه لثمانِي سنوات.. (ضحكة نادر وتقبله).

ولم ينتبه نادر لوجودها، ومراقبتها لهما، وهو يتذكر ما حدث في الليلة الماضية حين أخبره فارس أنه يريد صداقة برونو.

(«سيعيشُ طويلاً»

تلك العبارة من الطبيب الكهل وليد صبغت ما تبقى من ليالي نادر - برفقة والده - ببهجة وسكون مريح..

قلبه لا يزال يرددها مستمتعاً بصداها.

راحت شفتاه تقرأان من سورة الرحمن على مسمع والده الذي غالبت عيناه النوم، كعادة ليلية واظب عليها قبل سجنه وبعده، ودائماً

ما كانت تربطه بوالده أكثر، وتبعث ثقةً في داخله يُضاعفها رؤيته لانشراح أسارير والده لقراءته العذبة التي لا يشوبها خطأ..

فيما ابتسمت العجوز وهي ترى وجه نادر الذي يزداد مع الأيام إشراقًا وارتياحًا بشكل جديد على عينيها بعد تلك الليلة التي باحت له فيها هي ووالده بمكنون نفسيهما..

ولم يعلم الاثنان أنه في يوم سجنه قد أدرك دون اعتذارهما أنهما يخبئان حبّاً عميقاً له.. ومع هذا فذلك لا يقلل من أثر اعتذارهما الذي غمر قلبه بشعور أكثر دفئًا وزاد من مودته ورحمته بهما.

وبعد نصف ساعة كان الاثنان قد ناما فنهض واقفاً، ثم بهدوء شديد جر خطواته إلى خارج حجرتهما، أغلق بابها جيداً ونظر للساعة المعلقة بجدار الصالة فوجدها تشير إلى الحادية عشرة والنصف مساءً.

دائماً قراءته للقرآن تعكس بهجة على وجهه وتخفف من ثقل همّه وفجأة.

«قرين، يُلو.. كُلا ببطء.. ستصابان بعسر هضم..»

تغيّر وجه نادر وقد التقطت أذناه صوت فارس القادم من الشرفة.. إذًا لم يخلد للنوم كما وعده!

تحرك نحوه وقد قطب حاجبيه، دفع باب الشرفة الزجاجي فتحركت الستائر الخفيفة من حوله مع اندفاع الرياح التي تلاعبت بخصلات شعره الكستنائية وجمّدت ذراعيه.

«برد»

تمتم برجفة خفيفة، ولكن المحنيّ هناك أمام القفص لم ينتبه له وهو يضع المزيد من البذور داخل القفص للطائرين اللّذيْن واصلا النقر بنهم شديد.

ضاقت حدقتا نادر، فلا يزال إرهاقه من تناوله للأدوية في البارحة يظهر عليه.

«فارس.. الجو بارد عد للداخل».

رفع عينيه المتسعتين: «هل انتهيت؟!».

«نعم».

ضحك: «صوتك جميل للغاية ذكرني بسماعي له أول مرة في المستشفى».

«هل كنت تتنصت علينا؟!».

ابتسم بارتباك فأدرك نادر أنه كان يفعلها حقّاً..

«أسف» قال فارس ليتنهد نادر بتعب، ففارس لا يكف عن اللحاق به أينما كان كظله ثم قال بتذمر: «ليومٍ واحد أتمنى ألا أسمع أسف منك».

«لمــــاذا؟! حين أخطىء عليّ أن أعتذر».

«لا تُخطئ فحسب وحينها لا حاجة لأسفك».

تراقص شبح ابتسامة صفراء على شفتيه، وكأن ما طلبه منه عسير، فزفر نادر مستسلماً وهو يقف لينظر للطيور قائلاً باستخفاف: «مُزعجة

وألوانها غريبة ولا تكف عن الصياح وتستهلك الكثير من البذور.. ما الذي يعجبك فيها؟!».

عاد فارس بنظرته الشغوف نحوها، وأدخل كفه ليمسد ظهر واحد منهما مجيباً: «كل ما قلته».

نظر نادر باستهجان لعينيه المسحورتين بهما ثم همس: «ذلك الوغد أحمد يعرف دوماً كيف يختار هداياه!».

«حين نمتُ اليوم طويلاً بعد الغداء لم تطعمهما». فاجأه فارس بقوله الحزين وهو ينحني ليملأ إناء المياه.

«أنت المسئول عنهما لا أنا»

رد نادر وهو يزرح بثقل جسده فوق مقعد من قصب الخيزران استقرت أمامه طاولة دائرية التف حولها ثلاثة مقاعد أخرى، وتوسط الطاولة زهرية مُلئت بزهور النرجس.

«تلك العجوز تحمل شابة في أعماقها»

تمتم بها ضاحكاً وكفاه تلامسان الزهور وتذكر شتم أحمد الدائم له بـ (نرجسي).

تأمل الغيم المتكدّس أمام ضوء القمر وزادت الرياح حدّة حاملة معها رائحة أشجار التفاح وتطايرت الأوراق اليابسة..

فصل الخريف هو أحب فصول السنة إلى قلبه ورغم جمال المكان تهيأ نادر للنهوض..

«فارس.. نومك بالنهار لا يعني أن تهمل جسـ..»

صمت وعقد حاجبيه وهو يسمع ركضه في الصالة.. متى ذهب؟!

وفجأة دخل إلى الشرفة حاملاً لحافين رمى بواحد لنادر، والآخر أبقاه لنفسه واستقر فوق كفيه ثلاث من بسكويت الجدة رمى إحداها لنادر.

«لن تغريني برشوتك هذه.. أنت ترغب بالسهر».

قالها وأبعد اللحاف عن جسده، ولكن فارس قفز جالساً على أحد المقاعد وتدثر باللحاف الآخر حتى لم يظهر منه سوى رأسه، ومن فرجة بسيطة مع عنقه راح يخرج حبات البسكويت لتتكسر بين أسنانه ناظراً له بابتسامة واسعة.

نهض نادر واقفاً: «ادخل».

عبس بشدة وتأمل جمال ما حوله: «أرجوك فقط قليلاً».

«هل تريد أن تُضاف أدوية الزكام لأدوية المتلازمة؟! جسدك لن يحتمل أكثر.. ولا يمكنني إيقاف أدوية المتلازمة.. هل نسيت تشتت عقلك حين تعاركت مع الرجل منذ أيام؟!».

غطى وجهه الحزن، وتصلبت كفه الحاملة للبسكويت نحو فمه، وحنى نظراته للأسفل، ولعلّ هذا ما أراد عقله الباطن الهروب منه ببقائه هنا، ذكرى المتلازمة والخوف من عودتها إليه مجدداً إذا ما صادفه عنف جديد.

وارتفع صوت جرس خفيف من الصالة لحلول الساعة الثانية عشرة منتصف الليل.

«حسناً.. سأسبقك إلى الحجرة.. لا تتأخر كثيراً» قذف نادر عبارته

مُكرهًا أمام تلك النظرات الحزينة، ولكن لم يكد يتحرك حتى رأى فارس يقف وقد علا وجهه الضيق.

«ماذا؟!» قال نادر باستغراب.

«ابقَ معي».

«أنا متعب.. فقد اعتنيت بما تبقى من حقل التفاح واستلمتُ أعمال والدتي بمفردي، بل وتسوقت لجلب ما ينقص المنزل في الوقت الذي زلزل فيه شخيرك المنزل».

لم يكد ينهي عبارته حتى رأى فارس يطوي اللحاف استعداداً للحاق به فاتسعت عيناه.. هل هو يحب البقاء في هذا الجو الجميل أم يرغب بصحبته فقط؟!

ومجدداً يستسلم لرغباته..

«حسناً.. سأبقى فقط قليـ..».

قاطعته ضحكات فارس السعيدة وهو يعود للجلوس وقد تعلقت عيناه به فزفر: «كما قلت.. قليلاً فقط».

وجلس ليغطي نفسه هو الآخر باللحاف..

جابت عيْنا نادر الجالس أمامه.. مفكراً.. عشرة أيام تبقت على عودة أخته مايا للعاصمة من أجل القضية التي أخبره حاتم عنها وعليه خلال الثلاثة الأيام القادمة تهيئة والديه لرحيله.. ولكن.. ماذا لو كانت مايا في صف عمها فاضل؛ فقد رآها بنفسه في شركته؟!

قرار بسام ثروت بأن يَخصّ فارس بالورث دونهما هي وعمها بالتأكيد له سبب؟!

وتنهد لإدراكه أنه لا يدفعه للقاء مسخ الموضة إلا حب وتعلق فارس المجنون بها وثقته الغريبة فيها..

«سأصبح صديقاً لبرونو»

انتشلت هذه العبارة الغريبة نادر من شروده، لينظر للزرقاوين اللتين عكستا جدية كبيرة، فقال ساخراً: «مع خوفك منه.. لا أظن».

«بل سأفعل.. هو لم يؤذني، ولكن حين هاجمني الرجل آذاه من أجلي.. إنه جيد».

(هل يخبره أن العجوز من أمرته بذلك؟! بل ما مفهوم الجيد عنده ليطلق مسماه على كلب؟!).. فكّر نادر وهو يصغي له مبتسماً، فيما ضمّ فارس طرفِي اللحاف أكثر متابعاً: «لو كان لدينا كلب في المنزل لم يكن ليدخل الرجل ويؤذي أختي».

تلاشت ابتسامة نادر وقد فهم الآن ما يعنيه بأن وجود الكلب جيد، اعتدل في جلسته، وتانك العينان المرتجفتان تعكسان ألماً وحزناً عميقين..

وأدرك نادر عندها أنه في كل لحظةٍ فارغة من وقت فارس لن يستجلب تفكيره إلا كآبة وألم تلك الحادثة وفشله في حماية أخته..

«فارس».

«نعم».

«أخبرني عن حادثة مقتل أختك لَمى».

اتسعت حدقتاه الكئيبتان وشدت أصابعه على اللحاف حتى ابيضت، وثوانٍ وابتسم ثم فتح شفتيه، ولكن نادر انتهره: «لستُ مغفلًا.. لا تُغير الموضوع كعادتك..».

اختفت ابتسامته المزيفة أمام حدة نادر وجديته، ولم يرد حقاً الحديث حول الأمر، فتوترت ملامحه..

«لا أريد»: قالها بعد صمت دقيقة جعل عرق غضب نادر يتضخم.

«لماذا لا تريد؟!».

«لأنك ستكرهني.. فقد كُنتُ ضعيفاً وجباناً» وارتجفت شفتاه: «ولا أستطيع.. فالحديث عنها سيجعلني أتألم».

ارتخت ملامح نادر وأدرك معاناته فسأله برفق: «الحديث عنها؟! هل تحدثت مع أحد عن الحادثة من قبل؟!».

ارتفع حاجباه وأجاب مصدوماً: «لا».

«إذًا لا تقل إن حديثك عنها سيؤلمك، بل حزنك وألمك سيكونان أخف إن تشاركت القصة معي».

جابت الزرقاوان تينك العسليتين المشجعتين وقد وجد في منطقه ما يُقنعه.. وضع البسكويت فوق الطاولة ورفع ساقيه على المقعد ليضم ركبتيه إلى صدره وجسده مندس تحت اللحاف وكأنه يلتمس منه دفئاً وأماناً أكثر..

ولم يظن نادر للحظة أن جلستهما هذه قد تنحو هذا المنحى وتتحول لجلسة نفسية رغب نادر بفعلها منذ وقت طويل..

- أُمي اسمها فاتن.. إنها جميلة.

قال فارس بابتسامة مثيراً استغراب نادر فكيف يبدأ بحديثه عن أمه بدلاً من لَمى؟.. ولكن هو ممتن لكونه تغلب على نفسه وبدأ بالكلام فلم يشأ مقاطعته فأومأ له برأسه بإصغاء، فتابع:

- حين كُنتُ في الثالثة أنجبت أُمي أختي لَمى وقد كانت طفلة لطيفة وقد تعلّق بها والدايَ كثيراً، ورغم حب أبي للَمى فقد كان يعاملني جيدًا.. إلا أن أمي دائماً ما كانت تتجاهلني وإذا ما اشترت هدايا فإنها دوماً ما تجلب للَمى ولا تعطيني شيئًا.. حتى أنها في إحدى المرات حين غضبتُ عليها وطلبت منها هدية قالت إنها لا تعتبر وجودي هدية كي تقدم لي الهدايا.

- أستغفر الله العظيم.

همس نادر مذهولاً فصحيح هو قد يحتمل وقاحة الناس ويوجهها إليهم، ولكن أن تكون وقحة إلى حد معارضتها لقدر الله وجحدها لنعمته!

لم يسمعه فارس وعيناهُ اللتان بدأ يغزوهما الاحمرار راحتا ترمشان بقوة:

- لا أعلم لماذا؟! ولكن أنا أشعر أن أُمي لا تُحبني..

حديثه هذا جعل نادر يثق أنها لا تُحبه، ولكنه لم يقل ذلك علانية، فيما برر فارس ظنه بها:

- فهيَ لم تأتِ معي للروضة يوماً ولم تزر مدرستي أبداً ولم تشترِ لي الملابس أو الألعاب.. مايا فقط من تفعل ذلك.. وأبي دائماً ما يأخذني لجولات معه.. وكانت لَمى ملتصقة بوالديَّ، وكثيراً ما تقضي وقتها باللعب مع أمي.. وإذا ما لعبنا مرةً أنا ولَمى معًا، ويكت، حتى إن لم أكن أنا السبب كانت تغضب مني وتتهمني بإيذائها ولا تستمع لي.. لذا كرهتُ لَمى..

وصمت وعيناه تشتدَّان احمراراً محدقاً بوجل بوجه نادر الهادئ إن كان كرهه لقوله إنه يكره أخته.. ولكن ابتسامته التي ظهرت فجأة خففت من خوفه وقلقه فتابع:

- لقد أدركت بعد موتها أني أحبها، ولكن كرهي لها في ذلك الوقت لأنها إن صرخت ستغضب أمي مني وقد تضربني.. كما أن ألعابها كثيرة وذلك أثار غيرتي فكُنتُ آخذها وأرميها في البحيرة القريبة من منزلنا.

- أنت مشاكس مريع مُنذُ صغرك.

تمتم نادر قاطعاً حديثه، فابتسم فارس متحرراً من ثقل هذا البوح المؤلم.

- الآن حين أذكر ذلك أرى كم كُنتُ سخيفاً.

ضحك فارس وهو يقولها وحك رأسه ببلاهة.

- كُنت؟!.. ألا تشك أنك ما زلت كذلك؟

عبس بشدة فضحك نادر وهو ينتبه إلى أنه الحوار الجاد الأول بينهما.. ثم استحثه برفق:

- حسناً.. بعد أن رميت بألعابها ماذا حدث؟!

تلاشى تجهمه، واندفع يُكمل:

- اشترت لها أمي ألعاباً أكثر وأكثر.. وبسبب ذلك ازدادت غيرتي من لَمى فتجاهلتها ولم أعد أعاملها جيداً.

وهنا شعر نادر بنبرته المثقلة بتأنيب الضمير وزرقة عينيه تهتز بلمعان طفيف، وشعره الفاحم يتأرجح أمامها بفعل الرياح فخفض رأسه أكثر غارساً إياه بين ركبتيه:

- كانت المرةَ الأولى التي تلجأ فيها إلي، وقفت أمام باب حجرتي خائفة بسبب الجو العاصف، وكُنتُ خائفاً أيضاً، ولأنها الأصغر لم أحتمل رؤيتها تبكي فأرقدتها على سريري لتبقى معي حتى تنتهي الليلة العاصفة، ولكن انطفاء الكهرباء وقبوعنا وسط الظلام أخافنا معاً فذهبتُ للمطبخ لأحضر قداحة لأشعل بها الموقد في حجرتي لننعم بالدفء والنور معاً.. وحين عدتُ لحجـ..

بتر عبارته وانحدرت الدموع تباعاً من عينيه وذلك المشهد يتفجر في ذاكرته:

- كان فوق جسدها رجل غريب يخنقها بكلتا ذراعيه وهي تمدُّ يدها نحوي وتناديني باكية أن أُخلصها منه.

شهق ببكائه فجأة والدموع تنفجر أنهاراً على وجهه حتى بللت اللحاف، ولم يشعر باقتراب نادر منه ليجلس على المقعد المجاور له ليربت فجأة على كتفه سائلاً:

- هل خلصتها منه؟!

هذا السؤال هو بالضبط ما لم يرد سماعه فازداد بكاؤه حدة وحرك رأسه بـ (لا) قبل أن ينطق منهاراً:

- لم أستطع.. ضربته بيديّ.. سحبتهُ من قميصه بعيداً عنها، ولكني لم أُفلح في تحريكه حتى.. صرخت.. بكيت.. ناديت والديّ.. أختي مايا، ولكن لم يأت أحد.. لقد حاولت، ولكني فشلت.

- كم كان عمرك وقتها؟

- ثمانِيَ سنوات.

- وكم كان عمر الرجل؟

- لا أعلم.. ولكنه كان كبيراً جدّاً وضخم الجثة مقارنةً بي.

لم يفهم فارس سرّ أسئلة نادر، وهو يستدير بجسده كله نحوه، لافظاً بنبرة حملت ألم قلبه ودموع سنواته التسع مُنذُ مقتلها:

- أنت لم ترها.. لقد شهقت وماتت أمام عينيّ وأنا عاجز عن فعل أي شيء، بل وأخذ مشرطي ومزق جسدها وأنا كالمتفرج.. تلوثتُ بدمائها وتلوث سريري بدمائها وأنا كالنفاية لا نفع لي.. سحبتُ مضرب البيسبول لأضربه به، ولكن بعد فوات الأوان.. بعد أن ماتت.. ومجدداً كُنتُ عاجزًا أمامه فحملني بذراعيه وضرب رأسي في زاوية النافذة لأفقد وعيي.

تحشرج صدره بباقي كلماته، وعلَا صوت أنفاسه مع شهيقه المتتالي ببكائه وناح:

- لَمى بائسة لأن لها أخًا مثلي.. أنا حتى بقيت سجينًا له لتسع سنوات دون أن أنتصف لهـ..

- فارس.

أوقف سيل حديثه المنهار، وتلك اليد تشدُّ أكثر على كتفه:

- هل لَمى وحدها من تأذت من ذلك الرجل؟!

تحركت شفتاه الغارقتان بدموعه ليستنكر: «كلا.. أخبرتك لقد ضربني أنا أيضاً».

- وستلوم من لتأذيك؟!

انفرجت شفتاه مصدوماً: «لا أحد».

- أنت حتى لم تستطع الدفاع عن نفسك فكيف تلوم نفسك لمقتلها؟!

- أنا.. رجل.. ومن واجبي كـ.

- أنت لست رجلًا وقتها.. كنت طفلًا.. طفلًا في الثامنة.

انهارت دموعه مجدداً وعيناه الحزينتان تغوصان بعيني نادر الذي اقترب منه أكثر قائلاً بلطف:

- لا أنت.. ولا أي طفل في العالم في هذا العمر قادر على إنقاذها.

- ولكني ما زلتُ أذكر استنجادها بي.. أنا أتألم حقًّا.

تمتم بها ويده تشد على موضع قلبه المقبوض حسرةً وألماً..

- في تلك الليلة كُتب موتها وحتى لو كانت مايا أو والداك

موجودين لم يكن أحد ليمنع موتها.. إنهُ قدرها أن تنتهي حياتها وألمها بليلة واحدة أما أنت فقد تغيرت حياتك لتسع سنوات بعدها فهل كُنتَ تُحب أن تعيش هيَ حالك الآن وتموت أنت بتلك الليلة؟

ارتخت قبضتاه لينسل اللحاف من بينهما ساقطاً وعقله مصدوم بهذا السؤال.. هو حقاً لا يريد للَمى أن تُصاب بالمتلازمة.. أن تعاني لتسع سنوات من ضرب الرجل لجسدها وتعذيبه لها بصور الجثة.. لا يريدها أن تسجن بحجرة واحدة.. تفقد تعليمها.. تفقد والديها.. تفقد بهجة الحياة..

«لا» أجاب بشفتين مرتجفتين.

- إذًا فهيَ أحسنُ حالاً منك.. ولقد رأت في تلك الليلة محاولاتك لإنقاذها وأدركت بإدخالك إياها لحجرتك وبقائك معها أنك تحبها وتشفق عليها كما هي تُحبك.. لم يكن الأمر سيئاً إلى هذا الحد.

أراد أن ينطق، ولكن تلعثمت كلماته أمام (أدركت أنك تُحبها).. نعم هو يحبها، ولكنه لم يوضح لها ذلك إلا في تلك الليلة..

هل هذا من حسن حظه؟! فكّر وثغره يفتر عن ابتسامة واهنة..

- والرجل لم يعبث بجسدها إلا بعد أن ماتت لذا فهيَ لم تشعر بأي ألم.. أنت الوحيد من تألم وأنت ترى ذلك بعينيك.

اتسع فمه لهذه الحقيقة فيما تابع نادر وكفه تمتد لتربت على رأسه برحمة: «فارس.. لا أحد يلومك على موتها..».

عبارته هذه زلزلت قلب فارس الذي ظل لتسع سنوات يلومه

على مقتلها فبكى الآن قلبه أسًى رافق مياه عينيه المتفجرة بسخاء وهو يغرس رأسه فجأة في كتف نادر القريب منه..

ولم يُبعده..

فقد كان القميص ذلك القميص، قميص نادر الكبير الذي يغسله ويعود لارتدائه في كل مرة من أجل العمل في الحقل وعلى أي حال فقد كان بطريقه لتغييره لذا فلا بأس..

بل من يخادع؟!! هو حقّاً يُشفق عليه ومسحه على ظهره وابتسامته المتسعة يحكيان نجاحه في تخليص فارس من شعوره بالذنب..

فيما ظل فارس يبكي وهو يكرر: «لَمى لن تعود.. لن تعود».

كان يبكي موتها وكأنه حدث منذ أيام ويعيش عزاءً حقيقيًا لأول مرة مُنذُ مقتلها.. والمواساة الأولى التي تلقاها بعد استسلامه لموتها من هذا الشخص..

هو حقّاً كيف يستطيع نسيانه يوماً ما؟!

مر وقت طويل قبل أن يسحب فارس نفسه ولم يكد يرى القميص المبلل حتى علَا عينيه الفزع وسحب طرف اللحاف ليمسح كتف نادر الذي وقف قائلاً بملل:

- ماذا ستمسح؟! وماذا ستترك؟! هذا ما سعيت إليه دومًا، أن توسخني بقذارتك وها قد نجحت.

لم يُجبه فارس وهو يرفع اللحاف هذه المرة ليمسح وجهه من

الدموع، ثم ندت عن شفتيه فجأة ضحكة خفيفة جعلت نادر يسأله مستغرباً: «ماذا؟!».

وقف وطوى اللحاف استعداداً للدخول وهو يجيب ببهجة: «أنت محق.. أشعر أن حزني وألمي اختفيا حين تشاركتهما معك».

ابتسم نادر بخفة وأراد منه الدخول فالجو أصبح أشدَّ برودة، إلا أنه تفاجأ بتينيك الزرقاوين اللتين حملتا إعجاباً شديداً به وصاحبهما يصيح بقوة: «أنت أَفضَلُ وأَعظَمُ شخص قابلته.. أريد أن أكون يوماً ما مثلك».

غطت الصدمة وجه نادر فهي المرةُ الأولى في حياته التي يُصرح فيها أحد باتخاذ مثله قدوةً له، وتسلل الحرج ليكسو وجهه، وهو يهمس له: «اششششش». فوالداه نائمان وتراجع للخلف بارتباك ليرتطم بالطاولة وتسقط الزهرية وتنكسر و.. شهق الاثنان معاً: «ستقتلنا العجوز!».

تحرك فارس لينظر من فرجة الباب إن كانت العجوز قد سمعت الصوت، فيما انحنى نادر يلملم قطعها المتناثرة، وظل يدور مكانه بارتباك قبل أن يجري نحو المطبخ، وفتح درفتي الدولاب أسفل المغسلة ليخبئها فيه..

ونظر للخلف فرأى فارس قد لحق به فهمس: «لا تخبرها.. هذا الدرج أُمي لا تفتحه أبداً».

هز فارس رأسه عدة مرات واعداً له بحفظ سره و..)

واستفاق نادر من ذكرى الليلة الماضية..

وعلى الرغم من صيحات فارس وضجيجه بسبب الكلب القريب منه، إلا أن أذنيْ نادر التقطتا ذلك الصوت المألوف للأرجوحة، فأرخى ذراعيه من حول فارس ليسقط أرضاً منهكاً بشدة، فيما راح برونو يدور حوله، ونباحه مستمر، وكأنه يحتفل بصديق جديد.

«قذر.. متسخ.. رائحة كريهة» تمتم بها فارس وساعداه يمسحان وجهه من أثر الكلب.

«أنت لا تختلف عنه» قالها نادر وهو يتحرك ليقف أمام حقل التفاح.

صاح فارس بغضب مدافعًا عن نفسه لمقارنته بالكلب إلا أنه سرعان ما أقفل فمه حين أشار نادر بيده نحوه قائلاً بصرامة: «لا تلحق بي».

بقي فارس مكانه وهو ينظر بوجوم لظهره المبتعد عنه والعجيب أن برونو كان يجاوره، ولكنه لم يكن خائفًا منه!!

****

١١أكتوبر - ١٠ صباحًا

توسطت الشمس كبد السماء ناشرة دفأها في أرجاء العاصمة، إلا أنها لم تنجح في السيطرة على نسمات الخريف الخفيفة التي بعثت قشعريرة لطيفة في أجساد سكان العاصمة الذين فضلوا الخروج إلى المنتزهات والمقاهي كي يستمتعوا بكل دقيقة منه قبل قدوم الشتاء الذي سيجبرهم على الاحتماء من سطوته في منازلهم.

وفي الجزء الغربي من العاصمة، حيث أقل السكان دخلاً وأكثرهم

فقرًا، كان هناك زقاق امتلأ بالنفايات الساقطة والقطط المشردة، مشت فيه شابة في منتصف العشرينيات، وقد أحاطت جسدها بمعطف خفيف والتف على شعرها وشاح من الحرير الخالص وأخفت عينيها الزرقاوين خلف نظارة شمسية شديدة القتامة.

مشت بخطوات واسعة قاصدة أحد المنازل في آخر الزقاق، وأمام بابه أخذت دقيقة للمت فيها شتات نفسها قبل أن تضغط جرسه مراراً وتكراراً.

دقائق فقط، وسمعت صياحًا عاليًا غاضبًا، اقترن بصوت خطوات تقترب من الباب الذي فُتح ليبرز من خلفه صاحب الصوت مواصلاً شتائمه للطارق الذي لم يتوقف عن ضغط الجرس، ولكن سرعان ما بتر بقية شتائمه حين رأى الشابة الغريبة التي نزعت نظارتها لتلتقي عيناه بعينيها وارتخت ملامحه في وجوم.

«السلام عليكم»: نطقتها موقظة الرجل من فكرة مستحيلة تسللت إلى عقله.

«وعليكم السلام ورحمة الله»: ولم يبتعد عن الباب، وعيناه تحدقان بها، ثم قال فجأة: «آسف يا آنسة.. لعلكِ صديقة ابنتي!.. هيَ الآن في وظيفتها.. حين تعود سأبلغها بزيارتك لها».

زفرت باستخفاف، وضاقت حدقتاها، فيما بلغ توتر الرجل وحرجه أقصاهما فقال: «لا أستطيع إدخالك، حتى لو كُنتِ صديقة ابنتي، فزوجتي ذهبت لجلب البقالة وأنا بمفردي هنا وسأنطلق منها بالتأكيد لو أدخلتُ امرأة غريبة».

«جبان كعادتك يا أكرم»: تمتمت بها الشابة وهي تنزع الوشاح لينتشر شعرها الأسود المموج فوق كتفيها ورفعت رأسها في شموخ مما جعل الرجل يقول بانفعال: «أنتِ هي.. أنتِ مايا أمجد بســ..»

«لا تُضف اسمي لمتحجر القلب بسام»: بهمسة غاضبة قاطعته مما جعل عقله يخرج من صدمته ويتيقن مما شك به سابقاً.. إنها مايا.. مايا ابنة أمجد بسام ثروت.

«تفضلي»: وفسح لها الطريق لتدخل وعيناه تلاحقانها فآخر مرة رآها حين كانت في التاسعة.

«ألن تتطلق من زوجتك إن دخلت؟!» قالتها ساخرة وهي تسير أمامه للداخل فيما ضحك راداً: «بل ستتطلق وقد تقتلني إن لم تدخلي».

توقف فجأة في منتصف المدخل حين توقفت واستدارت نحوه ثم أخرجت من حقيبتها ورقة اعتلاها رسم غريب مدتها إليه.

«ماذا ؟!» سأل بتعجب، وهو يأخذها منها ليتفحص ملامح الفتى والمبلغ المدون أسفله.

«رسم غبي! لا يكاد يُجدي نفعًا، ولكن مئة ألف دولار ثمن القبض عليه!!» ورفع عينين متحمستين: «هل تسعين لكسب مكافأة القبض عليه؟! بالتأكيد العم أكرم سيساعدك».

وابتسم، فيما لم تتغير ملامحها الجامدة أبداً قبل أن تتحرك شفتاها الكرزيتان بـ: «كلا».

«ماذا إذًا؟!».

«لا أريدهم أن يقبضوا عليه».

اتسعت عينا أكرم مصدوماً، وعاد ينظر للورقة قبل أن يسألها: «هل تعرفينه؟!».

«لستُ متيقنة».

قطب حاجبيه.. هذه الشابة ستصيبه بالجنون حتماً! إلا أنه لاحظ أناملها القابضة على حقيبتها بقوة وعينيها المحمرتين قبل أن تتابع بانفعال: «أريد أن ألتقيه أولاً وأتحقق مما أشك فيه».

طلبها ذاك يستحيل أن يرفضه وخاصة حين تهتز تانك الزرقاوان الأشبه بزرقة عيني رفيقه أمجد..

كما أن هذه الشابة يوماً ما كانت كابنته.

«بالتأكيد سأساعدك.. ولكن بعد ثلاثة أيام فلدي أنا وأصدقاء والدك جولة بالدراجات النارية تبدأ عصر اليوم ولمدة ثلاثة أيام سيسجلها العالم كله وقد أسميناها من أجل أمجد وبعدها سأتفـ..»

«جولتكم هذه لن تُسعد أبي ولن تنفعه»

صمت محنقاً أمام صراحتها، فيما تابعت وعيناها تحمران أكثر: «إن كنتم تريدون الوفاء لأبي ورد دينه»

وأشارت للصورة: «فجدوا ابنه».

ارتخت كف أكرم وسقطت الورقة لتستقر عند قدميه غير مصدق ما قالته.. هو يعلم أن هذه الأسرة مجنونة بالكامل بدءاً بابنها أمجد الذي

ركل أموال والده ليتزوج فاتن وانتهاءً بسجن بسام ثروت لابنه وموته في السجن دون أن ينِمَّ بهم أمجد أنهم كانوا رفاقه في السرقات..

تغيرت ملامح أكرم تماماً لتكتسحها الجدية وأخرج هاتفه مطمئناً لها: «لا تقلقي.. حتى لو كان مجرد شك منكِ سنتبعه.. لقد فرطنا مرة ولن نفرط مرةً أخرى».

ابتسمت مايا وهي تنظر له وهو يتصل بالرجال تتالياً.. أصدقاء والدها.. وشركائه بالجريمة.. ومجدداً كما جمعهم أمجد فها هي تجمعهم.

****

أزاح نادر الأغصان المتشابكة عن طريقه، وصرير الأرجوحة المتحركة يصك أذنيه، هي ريم بلا شك.

وبالفعل دقيقة فقط، وكان يقف أمامها وقد تبدّل حاله تماماً.. حاجبان معقودان.. قبضتان مشدودتان.. ووجه يعكس غضبًا عنيفًا، وشفتاه تنطقان: «هل تُهتِّ مجدداً؟!».

بادلته غضبه بغضب وهيَ ترى تعامله الفظ المغاير لتعامله مع فارس، إلا أن انجذابه لصوت الأرجوحة داعب أملًا جديدًا في قلبها، وهي تُجيبه: «لماذا؟! هل ستتصرف كشاب نبيل وتدُلّني على منزلي؟!».

«يكفيكِ برونو ليوصلك إليه فهو أنبل من لقيط مثلي».

احتدت ملامحها وغادرت الأرجوحة: «أتحقد عليّ إلى هذا الحد؟!».

«بل ما سرُّ تعلقك الشديد بي بعد خروجي من السجن؟!».

«لأني.. لأننا كنا صديقين لسبع سنوات.. هل نسيت؟!» قالتها دون أن تجرؤ على أن تصرخ بسببها الحقيقي بـ (أحبك).

انتفخت أوداجه وغضبه يزداد: «حقّاً؟! ألم أكن سوى لقيط يصعب على فتاة من أصل كَرِيم مثلكِ أن تسير معه؟! ألم تقولي إن تلك السنوات السبع عشتها مخدوعة بي، ظنّاً منكِ أنني أحمل اسماً، وأنني في الحقيقة لا شيء سوى لقيط سيلطخ سمعتك، ويدمر مستقبلك بالزواج».

اهتز كتفاها واستعبرت عيناها: «نادر.. ما قلته قلته حين كُنتُ في السابعة عشرة.. كُنتُ فتاة صغيرة يجب أن لا تحقد عليّ لنزوة صغيرة».

استحالت عيناه حمماً ووجهه يعكس استنكاره: «نزوة صغيرة؟! هذه النزوة الصغيرة دمرت حياتي بالكامل.. هل نسيتِ أنكِ من نشر في القرية بأكملها أنني لقيط؟!».

احمر وجهها وتلعثمت الكلمات فوق شفتيها الورديتين: «أنا.. أنا.. كُنتُ طفلة».

ثم احتدت نظراتها فجأة: «أنت تشاركني الخطأ.. لم يكن عليك أن تخبرني أن والدك قال إنه ليس لديه سوى ابن واحد وقد مات.. بل أنت بنفسك قلت إنك تشك بأنهما والداك».

تهدل جفناه، ليس وكأنه لا يعلم جرأتها، ولكن أن تلومه لخطئها!! نوعًا ما هي ذات قدرة عجيبة على إشعاره بالذنب، فافتر ثغره عن ابتسامة مريرة: «نعم.. والفضلُ لكِ فمُنذُ ذلك اليوم علمتُ كيف يمكن أن يكون السر خنجرًا يطعن قلبك حين تبوح به».

تشبثت كفها بحبل الأرجوحة وظلت نظراتها معلقة به: «أسفة».

تبسيطها لما فعلته فجر بركان غضبه، وكأن أسفها الأجوف - الخالي من أي ندم - سيمحو ما فعلته، فصاح بثورة: «أسفة من أجل ماذا؟! من أجل تَعَمُّدِكِ كشف السر لزوجة أبيكِ الثرثارة؟ أم لانتشاره في كامل القرية؟ أم نظرتك لي باستصغار؟ أم مقاطعتك أنتِ وأحمد للقيط مثلي لأكثر من ثلاثة أشهر.. أو أنكِ آسفة لأجل تسببك بمحاولة قتلي لثابت ورميِي في السجن لعامين كاملين و..».

«لستُ السبب في إيذائك لثابت ورميك في السجن» قالتها فجأة بانفعال مقاطعة ثورته.

خيّم الصمت عليهما ثوانِيَ، والرياح تتلاعب بأوراق الأشجار من حولهما حتى أن منشفة نادر سقطت عند قدميه.. مجدداً هيَ تدَّعي أنها ليست سببَ سجنه وما فعله بثابت!

«نادر.. أنا حقّاً أسفة.. فعندما سُجنت واختفيت من أمام عينيّ أدركتُ كم أنا مخطئة وكم أنا أفتقدك»

واقتربت منه أكثر: «على الأقل عندما سُجنت علمتَ كم أن والديك يحبانك فقد كُنتَ مستاءً بشدة لتعاملهما البارد معك».

هيَ الآن وأمام عينيه تختلق شيئًا إيجابيًا في ما حدث له! فهل عليه أن يكون شاكراً لها لأنها هيَ السبب؟!

وبدلاً من أن يُجيبها رأته يتحرك ليختطف فأسًا قريبة، شهقت برعب وتراجعت للخلف، ويداها مقبوضتان أمام صدرها.

رفع الفأس فأطلقت شفتاها صرخة مذعورة والفأس تحطُّ بقوة.. ليس على جسدها..

وإنما على تلك الأرجوحة المعلقة.. وجذع الشجرة الحامل لها..

عنف ضرباته، وبروز عروق يده، وصرير أسنانه، نبأتها بأنه لم يغفر لها ولن يغفر لها.. فها هو يحطم آخر ما يربطهما.

استحال ذاك اللوح الخشبي حطاماً، والتفت نحوها وصوت أنفاسه يُسمع: «والدي أصيب بجلطة وفقد المشي والنطق.. فقدنا هذا المنزل.. وفقد والداي مكانتهما وسط القرية واحتملا تعيير الشامتين بأن ابنهما مجرد حثالة ومجرم.. هل تظنين أنني لا أتألم لما سببته لهما؟! ما زلتُ أقاسي الذنب كلما حرك والدي شفتيه دون صوت.. كلما أصدر باب المنزل صوتًا بفعل الرياح فنظرت والدتي نحوه باستبشار ظنًّا منها أن إحدى جاراتها قد جاءتها لتتسلى معها.. حبهما الذي استجلبته بألمهما يقتلني ألف مرة».

واقترب أكثر منها حتى شحب وجهها والفأس تتأرجح بيمينه: «ماذا تعرفين أنتِ؟! لا تعلمين شيئًا.. فلا تتحدثي وكأنكِ تواسينني.. فأنا إن احتجتُ يوماً لمواساة أحد فلن يكون ذلك الشخص أنتِ».

أرادت أن تتكلم.. أن ترد عليه.. ولكن الفأس في يده أرجفت قلبها وانعكس خوفها على ملامحها فارتسم في عينيه قهر وضيق شديدان وهو يذكر وقوفها وسط جمع الفتيات الخائفات منه حين آذى ثابت..

لم يُدرك عظم ما فعله إلا حين رأى نظرة الفزع بعينيها وسقوطها على ركبتيها ترتجف والدموع تجري على وجنتيها وحين رأت نظرته

نحوها مشت حبواً مبتعدة عنه وكأنها تفر من وحش غريب جاحدة لطفه الذي ألفته منه من بين الجميع..

لم تفهمه يومًا ولن تفهمه..

رمى بالفأس بعيدًا، ثم قال: «نظرتك هذه أكثر ما أكرهه.. ذلك الماضي لن يُمحى من ذاكرتك.. وأنا أعلم أنه إذا ما تحققت رغبتك بامتلاكي لن تتواني عن وصفي باللقيط والقاتل والمجرم عند أول خصام بيننا».

اتسعت عيناها غير مصدقة.. هل بحمله للفأس وتقدمه منها كان يختبر ثقتها به، ولكنها فشلت!! كالماضي تماماً حين فشلت في حفظ سره!

«نادر.. لن أفعل أعدك».

دفعها في كتفها بهدوء إلى البوابة: «لستُ دميتك تهتمين بها وقت ما تشائين وترمينها وقت ما تشائين».

«لِمَ لا تفهم.. توقف عن دفعي بعيداً.. لن يتفهمك أحد مثلي.. ولن يتقبل ماضيك فتاة غيري» قالتها وهي تصفع كفه بعيداً بجرأة.

«وفري شفقتكِ لنفسك.. لستُ بحاجة لمثلكِ لتتفهم ماضيّ» صرخ فجأة وهو يكبح نفسه عن ضربها لما قالته.

«لماذا؟! هل أغنتك فتاة العاصمة عن باقي الفتيات؟! هل هيَ تعلم أنك سُجنت لعامين بتهمة محاولة القتل؟!».

ارتفع حاجباه لإدراكه أنها أخذت حديثه السابق على محمل الجد..

إذًا هذا هو سبب تشبثها الكبير به الآن.. هيَ لا تحتمل أن تعيش مع رفض شخص لها ما لم ترفضه هيَ أولاً..

بل وتُذكّره بأنه لن تتقبله أي شابة فاضلة لأنه خريج سجون بسببها؟!

«لستِ مخولة لمناقشة حياتي الخاصة معي»

بنبرة جافة غليظة نطقها وهو يتجاوزها تاركاً إياها خلفه.. ومبتعداً عن استفزازها.. فهناك وحش داخله يكبحه بالقوة.

إلا أنها لحقت به وقد شدت قبضتيها صارخة: «أيُّ شابة بليدة وحقيرة قادرة على أن تتسامح معك بعد أن أُصيب أخوها في وجودك؟! إنها عديمة الإحساس بحق؟!».

لم يفهم نادر ما تهذي به إلا أنه أدرك أن صمته وتجاهله لها أثارا غيظها أكثر، فيما صرخت بعصبية أشد: «ذلك الفتى لماذا لا يزال يصحبك؟! لمَ لا يعود إلى العاصمة؟! ألم يكفه تأذيه؟! هل يريد أن يتأذى أكثـ..»

وفجأة أخفى صوتها صفعة قوية تلقتها على وجهها نزف معها جانب شفتها وارتطمت إثرها بإحدى الأشجار لتسقط وهي ممسكة بفمها في ألم.

دقيقة كاملة من الصمت لم يستوعب كلاهما ما حدث..

خفض نادر كفه وحدق بها مصدوماً غير مصدق.. جسده تحرك تلقائياً دون أن يعي حتى..

إنها المرةُ الأولى له التي يضرب امرأة وبالتأكيد ليست مُشرفة..

دحرج عينيه نحوها ليراها تنظر له بعينين متسعتين، والألم يعقد حاجبيها بشدة، بل وفوق أناملها بقع من الدم من شفتها النازفة، وثوانٍ فقط حتى انتحبت وبكت أمامه غير مصدقة أنه تجرأ عليها.

«أنتِ من تسببتِ بأذاه في الحقل؟!»

وجّه سؤاله لها دون أن يعتذر.. أو يساعدها على الوقوف.. ولا حتى مسح دموعها ودمها.

«نعم.. أنا»: صاحت بكبرياء جريح فكل ما يهمه الآن أن يسأل عن ألم الغريب، ولكن ما كادت تطبق شفتيها حتى ولأول مرة تراه بهذا الوجه، وجه أثار الخوف في كل ذرة من جسدها الساقط، واتقدت عيناه بشَرّ: «بكشفي لسري آذيتِ والديّ بي.. وبما قلته عن أخته آذيته هو الآخر.. مجدداً تستغلين كلماتي لتؤذي المقربين مني دون أي شعور بالذنب».

اتكأت على الشجرة لتنهض متجاهلة عتابه، وكل ما استفزها وصفه لذاك الغريب بالمقرب فرددت بصدمة: «لم أكن أظنك حقيرًا وحثالة تضرب النساء؟!».

«ولا أنا» قالها وشيء من الضيق يغزو عينيه: «إلا أنكِ نجحتِ أخيراً بجعلي كذلك»..

«أنت حتى لم تلمسني من أجل والديك؟!».

«لأنكِ لم تمسيهما بأذًى مباشر.. أما فارس فقد مسّه أذاك.. بكارثة إصابته وعودة مرضه كانت بسببي لأنني منحت جزءًا من وقتي لسافلة مثلك لا يهمها إلا نفسها.. لقد جعلتِ مني مذنبًا في حقه هو الآخر».

صدمتها ظهرت بعينيها الغزيرتي الدمع فهو لا يزال يتحدث عن الغريب كالمقرب منه، دون أن يصرح عن خوفه من اكتشاف زوجته المستقبلية لتأذي أخيها!.. هو يتحدث فقط عن الفتى بأسًى، وصفعها لأجله!

«أنا لا أريد أن أراكِ أبداً»

قال، وهو يشير للبوابة وقد حمّل صوته حقدًا وغضبًا عنيفين نبأاها بعاقبة أشد سوءًا من صفعته إن لم تستجب له، فتحركت لتغادر دون أن تمنع نفسها من مواساة نفسها بشتمه كما تنبأ تمامًا عند نشوب أول شجار بينهما: «أنت لقيط مجرم غيرتك سنوات السجن لحثالة يضرب النساء وإن علم هذا الفتى الذي تعتزُّ به بماضيك فستندم عندها على تفضيلك إياه عليّ».

ومع آخر حروفها سمع نادر صوت تكسر أوراق جافة خلف إحدى الأشجار فالتفت بسرعة وقد انقبض قلبه.. ولكن ما لبث أن ظهر برونو فتنهد بارتياح لينعقد حاجباه فجأة..

هو لا يكترث لو علم أحد بماضيه، بأنه مجرم، خريج سجن، ما دام ذلك لا يؤذي والديه أو لا يُفقده مصلحةً ما كمال أو وظيفة!!

ولكن الشعور الذي هاجم قلبه الآن وزلزله فور ظنه أن فارس خلف الشجرة.. ما كان ذلك؟!

تسلل القلق إلى أعماقه..

هل فشل دون أن يعلم في حماية نفسه؟!

هل هو الآن يخاف من أن يرى نظرة الخيبة والإحباط في عيني فارس حين يعلم أنه مجرم وقاتل كياسر؟!.. وبالأخص بعد أن صاح البارحة أنه يعدّه قدوة له!

بل كفه التي تحركت لتضرب ريم دون أن يشعر! .. ما سببها؟!

الآن أدرك أن هذا الفتى قد احتل قدراً كبيراً عنده..

وهذا خطير..

تحركت ساقاه وانحنى ليلتقط المنشفة الساقطة عائداً نحو المنزل..

برز من بين أشجار حقل التفاح ليرى فارس يجلس فوق الطاولة عاقداً ساقيه وحاملاً فوقها حافظة مليئة بالطعام يأكل منها بيده وقد تلطخت شفتاه.

«نادر.. إنه لذيذ.. تعال وتناول منه لا يزال ساخنًا».

رمقه نادر بنظرة باردة قبل أن يتجه إلى الباب ليطرقه وثوانٍ وفتحت العجوز الباب وقد بان الغضب بعينيها، إلا أن وجهه العابس ونظراته المنخفضة جعلتها تدرك أن به خطبًا ما فابتعدت ليدخل ومن خلفه

حقل التفاح

دخل فارس وقد بان بعينيه الضيق فهي المرةُ الأولى التي يذوق فيها تجاهل نادر بدلاً من أن يفعل هو ذلك.

«هل فعلت شيئًا خاطئًا؟!»

سألت العجوز بتجهم ليهز فارس كتفيه وقد تسلل الخوف إلى قلبه وهو يجيب بـ: «لا أعلم».

****

(٨) تجاهل

١٠:٣٠ صباحًا

«هو بالتأكيد فعل شيئًا خاطئًا»

تمتمت العجوز وهي تنشر الملابس فوق حبل الغسيل المعلق بالشرفة، ومن بابها الزجاجي رأت جلوس فارس بهدوء وسكينة على الأريكة، وقد ضم ركبتيه إلى صدره دون أن يعبث بشيء.

دخلت إلى المنزل وأغلقت باب الشرفة ثم اتجهت نحوه: «ألم يفتح الباب بعد؟!».

«لا»

أجاب وهو يحك أنفه بظهر كفه فرائحتُهُ سيئة بعد عراكه مع برونو، وبقاؤه بالخارج لوقت طويل زاد من سوء الأمر، إلا أنه رغم طرقاته المتتابعة لباب الحجرة ليأخذ ملابس نظيفة، لم يفتح له نادر الباب ولم يرد على مناداته.

«إذًا لا تجلس هنا دون فائدة اذهب وأطعم طيريك؟!».

رفع عينيه الفاترتين نحوها بعد أن شتتت تفكيره: «ماذا جدتي؟!».

«صغيراك اللذان قاتلتني من أجلهما ألن تطعمهما؟!».

«صغيراي؟! من صغيراي؟!» صاح مفزوعاً لتعبس بشدة.. ألا يفهم الكناية؟! ما كُلُّ هذا الغباء؟!

«أقصد طيْريك.. قرام ولولو».

«قرام ولولو؟!» قال متعجباً قبل أن يصيح: «آه.. تقصدين قرين ويُلو».

وأطبق شفتيه ثوانِيَ مغالباً نفسه، متحلّيًا بالأدب، ثم انفجرت ضحكاته فجأة راجة ما حوله: «جدتي ليس قرام ولولو!! قرين ويُلو!»

«هل تسخر مني؟!» صاحت ليقفز عن الأريكة مبتعداً عنها وما زالت ضحكاته لم تتوقف.

«إنها أفضل من اسميك على أي حال».

«بل الأسماء التي أطلقتها هي الأفضل.. إنها تعني أخضر وأصفر كلوني ريشهما».

«لا تتسلفس.. أنا أكبر وأفهم منك».

زادت ضحكاته حتى كاد يسقط أرضًا: «تتفلسف.. جدتي توقفي أرجوكِ!».

«هل ستظل تصحح لي كلماتي؟!»

صرخت وهي تسحب عصاها فأسرع راكضًا ليغلق على نفسه باب دورة المياه ويستحم متنازلاً عن ملابسه في حجرة نادر.

«هذان الاثنان سيصيبانني بنوبة قلبية يوماً ما» وجرّت خطواتها نحو المطبخ لتحضّر الإفطار.

وثلث ساعة وخرج فارس لافاً حول وسطه منشفة كبيرة، ثم اتجه إلى الحجرة، ولحسن الحظ وجد بابها مفتوحًا.. دخل بسرعة وعيناه

تبحثان عن نادر، سيخبره بما سمّت العجوز طيريه، وزينت شفتيه ابتسامة متهكمة وهو يناديه..

ولكن الحجرة كانت خالية!

ارتفع حاجباه مستغرباً.. (هل غادر أثناء استحمامه؟!).. انحنى ليأخذ من ملابسه وارتداها على عجل، ثم تجمد فجأة لثواني أخذ خلالها يفكر بعمق..

كل ما فعله هو أنه أخذ حذاء نادر وقد عاقبه من أجل ذلك.. فهل هو غاضب منه من أجل شيء آخر؟! أم أنه يُخيّل إليه ذلك؟!!

غطى وجهه الحنق والتعب بعد مدة، فالتفكير مزعج.

«جدتـــي أنا جائع» صاح وهو يغادر الحجرة ليجدها ما زالت في المطبخ..

«هل أنا خادمتك؟!» صاحت هيَ الأخرى بسخط ليبتسم المسن، وهو يتخلى عن الصحيفة بين كفيه ليرى ركض فارس إلى المطبخ ولا يزال البلل يقطر من شعره الفاحم.

«هل أساعدكِ؟!» قال بحماس لتُضيق حدقتيها.. ألم يكن قبل نصف ساعة حزينًا لأن نادر لم يفتح له الباب؟!

«جفف شعرك وتعال لتغسل الصحون.. ولكن إياك أن تكسرها».

«حسناً» قال، ثم عاد إلى الحجرة ليجفف شعره ودقائق وكان يقف جوارها يغسل الصحون، بل وسمحت له بأن يسخن خبزه بنفسه إلا أنه لم تمر سبعُ دقائق إلا وقد امتلأ المطبخ بأكمله بدخان الخبز المحروق،

فأغلقت العجوز الموقد وضربت رأسه بكفها صارخة: «ألا يمكنك أن تميز متى يكون قد استوى؟!».

سعل بشدة ورآها تفتح نوافذ المطبخ لينقشع الدخان، فقال ضاحكاً: «إنها المرةُ الأولى لي بالطبخ؟!».

بدت الصدمة عليها، وصاحت: «وبقيت تُلح عليّ بثقة وكأنك لم تأكل يوماً إلا من يديك!!».

«لقد خدعتك».

«تبّاً!.. أنتَ كارثة متنقلة.. لا ألوم ابني لو سئم من أخطائك وثرثرتك فأغلق الباب على نفسه».

تلاشت ضحكته وبهت بريق عينيه وعقله يأخذ ما قالته بجدية..

«هذا الخبز المتفحم سيكون فطورك اليوم»: قالت، وهي تضعه في طبق طعامه قبل أن تلحظ هدوءه وسكونه التامين.

«لا تمثل دور المسكين.. أنت من جنيت على نفسك»

لم يُعلق عليها، وهو يحرك خطواته متجاوزاً لها، ليدور في أرجاء المنزل باحثاً عن نادر، وحين لم يجده جلس على الأريكة وقد أطلّ من زرقاويه مزيج من الحيرة والقلق.. هو حقّاً يرتكب الكثير من الأخطاء! ونادر دائماً ما يغضب منه ويوبخه.. ولكنه قبل قليل لم يوبخه أو يغضب منه بل تجاهله.. فهل هو سئم منه؟!

«ولكن أنا لم أفعل شيئًا خاطئًا فهل سئم مني لأني أتحدث كثيراً؟!»

أطلق أفكاره فجأة بصوت مسموع موقظاً نفسه من شروده، ورفع عينيه ليرى المسن يحدق به بصمت قبل أن يحرك شفتيه بـ : «جدتك طيبة.. هيَ فقط تغضب بسرعة وتسامح أيضاً بسرعة».

لم يفهم فارس ما قاله إلا أن تعابيره التي عكست مواساة أبوية جعلته يبتسم بلطف، وارتفع فجأة صوت تغريد طيريه بالخارج فتحرك بحماس نحو الشرفة ليطعمهما.

وفي الخارج، داخل السيارة الزرقاء القديمة استمرَّ نادر بإطلاق سحب الدخان لتملأ فضاء السيارة المغلقة، وعسليتاه تحدقان في ما أمامه بشرود.

سيارته هي المكان الوحيد الذي يُمثل مساحته الشخصية والتي لن يقتحمها أحد..

لا والداه..

ولا فارس الذي أخبره مسبقاً أن الخروج من المنزل ممنوع..

أغمض عينيه وأراح رأسه على مسند مقعده من الخلف، بدا هادئًا وساكنًا من الخارج إلا أن عقله عج بالكثير والكثير من الأفكار التي ازدحمت، وكل منها تولد الأخرى، كسحب الدخان التي تتابعت من فمه لتزيد من ضبابية ما قبلها..

إلى هذه الثانية لا يزال عقله يرفض تقبل أنه صفع ريم!!

هيَ تستحق ذلك، وقد علم مسبقاً أنه في يوم من الأيام سيفعلها..

ولكن حين أصبحت واقعاً لِمَ يشعر بكل هذه المرارة والضيق!!

ليس وكأنه لا يزال يعدُّها صديقة له كالسابق أو يخفي داخله قدراً كبيرًا لها.. لكن لعلّ كونها امرأة هو ما ضايقه فعلاً!

فمهما صدر عنه من سوء ووقاحة فهو لم يكن هذا الرجل الدنيء أبدًا..

«تلك الغبية.. لقد حذرتُها وأبعدتها كثيراً إلا أنها لم تتعظ». تمتم بها وهو يحدق بكفه اليمنى، فلقد نجحت في استفزازه!

لثماني سنوات تجاهلها، ولكنها استمرت بعناد في التنغيص عليه ومطاردته دون أدنى ذرة من حياء..

وحين علمت أنها لن تستطيع تحطيم سَدِّه الحامي له منها استغلته بوالديه، وبلغت بها وقاحتها وجرأتها أن تسأل عمال والده عما يطلبه نادر منهم أثناء سفره لتقوم به هيَ لوالديه مدّعية أمامهما أن نادر طلب منها ذلك، ووالداه تقبلاها دون أن يعلما بكذبها أو ما فعلته في الماضي.

عض شفته السفلى بمرارة، هو لا يفهم نفسه..

لماذا لا يزال يخفي على والديه أنها سبب من أسباب سجنه؟!

هل السبب لأنه لا يريد أن يرى بأعينهما ألم الخيانة والغدر من الفتاة التي استقبلاها بمنزلهما ورعياها معه لسبع سنوات؟!

أم أنه لا يريد أن يشعرا بالوحدة في غيابه؟!

تسليهما بالحديث معها في غياب الكثير من الزوار قد يكون السبب!!

رفع كفه ليغطي عينيه اللتين غشاهما الحزن.. هل هو بائس إلى هذا الحد؟!

هي تعلم جيدًا أنه يُدرك أنها تستغل بؤس ووحدة والديه للوصول إليه، ولكن لشدة رحمته بوالديه الواهنين تغافل عن ذلك وكأنه لا يراه.. وإلا فكيف سيقبل عاقل بأن يداوي جرحه من سببه؟!

بل ما مقدار تعاسته ليملأ قلبه الآن الخوف من أن هذه الصفعة قد تُفقد والديه اهتمامها بهما إذا ما رحل؟..

كم سيكون حرج وخجل والدته كبيرَين لو علمت بأن ابنها الذي ربته قد مَدَّ يَدَهُ على امرأة!!

تحركت شفتاه بابتسامة باهتة.. هذا إن لم يحدث الأسوأ، ويدفع ريم حقدها للشكوى إلى راجح منه..

ضحكة ساخرة صدرت عنه، لقد حذر راجح بأن يضبط أخته، ولكن ما أسرع أن تحقق ما خشيه، ستُمسح الآن قضيته السابقة بالقتل ليصبح معتديًا على النساء.. سيكون مدار حديث القرية من جديد ولوقت طويل..

فتح المسند الفاصل بين المقعدين ليسحب منه سيجارة جديدة، أشعلها ثم راح يخفف من ضغطه بنفس عميق أطلقه في سماء سيارته.. ولو رأته جواهر لأذاقته من خَبْطِ عصاها أكثر مما ضربت به فارس.. فهو في طريقه لإفساد رئتيه..

«بديل.. لقيط.. مجرم.. خريج سجون.. معتدٍ على النساء» ترنم بها مبتسماً بسخرية، فلقد تم إضافة لقب جديد له، وريم هي أول من سيعيّرهُ به..

تحركت عيناه المجهدتان لتنظرا لذاك المبنى القديم القائم من ثلاثة طوابق والمسمى بـ: (المدرسة).

«جمع الجنسين في سن المراهقة للدراسة في مبنًى واحد ليس بقرار حكيم على الإطلاق..» تمتم بسخط وذاكرته تذكرهُ بمدى غبائه..

رافقته ريم لسبع سنوات، تدرس معه هو وأحمد، تأكل معهما، ويلعبون في الحقل وداخل منزله، الفرق الوحيد بينها وبين أحمد أنها كفتاة لم يكن يُسمح لها بالمبيت في منزله..

ورغم بؤسها وعدم اهتمام والدها بها لم ينتقص من شخصها ونظر لها كصديقة مثلها كأحمد الذي لم ينتقص منه هو الآخر لفقره..

ولكنه لم يعلم أنه في غفلة منه كان يتسلل ذاك الداء إلى قلبها ليتملكه بالكامل، شعورها بأنه أفضل منها في كل شيء أشعل لهيب غيرتها منه.. النعيم الذي هو فيه من مال وجاه أعمى بصيرة قلبها وأنساها إحسانه إليها فلم تعد ترى سوى ما يملكه وما لا تملكه، وبالتأكيد كان الفرق عظيمًا فهو ابن شيخ قريتهم ومترئسها، ودون شك كل ما يملكه عبد المجيد سيؤول بالتالي إليه.

عاملها بلطف ولين في الوقت الذي نظرت فيه إليه بحسد، قربها منه حتى لم يعد هناك شيء لم تره من خير والده فزاد هذا من نقمتها على حالها وعدم رضاها عن مكتوبها.

مرضها أخفته ببراعة خلف ابتسامتها وضحكاتها ولم يكن يحتاج إلا لقشة واحدة ليطفو على السطح وتلك القشة كانت أمه جواهر.

نادتها في بداية سنتهم السابعة عشرة لتسألها عن صديقتها سمية ابنة الرجل الثاني في القرية بعد عبد المجيد، لم تُفصح جواهر عن نيتها، ولكن ريم أدركت أنها تنوي خطبتها لنادر بعد تخرجه من الثانوية، علمت أن كل ذاك النعيم سيؤول لصديقتها فتفجر جنون غيرتها، ولأنها علمت أنها لن تكون خيارًا مطروحًا أمامهم لنسب سمية مقارنة بها فلم يكن أمامها حل سوى الانتقاص من ابنهم، وهكذا لن تقترب منه أي فتاة أخرى وستكون هي الخيار الوحيد لديهم.

كان يضع السرج فوق ظهر جواده حين سألته من الجانب الآخر ممازحة إن كان يتخيل أنهما سيفعلان ذلك لعقود من الزمن كزوجين عجوزين، لم يدرك أنها تختبره فأفصح عن مكنون نفسه بعفوية.. (سيكون عليكِ مسح سبع سنوات من ذاكرتي عنكِ لأتخيل هذا).. وبقدر ما أزعجها رده بقدر ما أدركت أنه لن ينظر لها إلا كصديقة فقط.

استفزها رفضه لها كامرأة، واختلج في خيالها الكثير من الظنون بأنه قد يكون رفضها لأنه ينظر لنفسه كصرح عالٍ يستحيل وصول وضيعة مثلها إليه فأقدمت على خطتها دون أدنى شعور بالذنب، انتقصت منه بإفشائها لسره الوحيد كي يساويها قدرًا، ولكنها لم تظن أن ما أذاعته كان له تبعات غاية في البشاعة والقبح.

انتشرت الشائعة من فم زوجة أبيها في القرية كانتشار النار في الهشيم دون أن يدرك محورها الرئيس (عائلة عبد المجيد) أيًا من ذلك..

الشيء الوحيد الذي تغير على نادر هو هجران ريم وأحمد المفاجئ له في المدرسة، حتى منزله توقفا عن زيارته..

كان يلحق بهما في كل مكان يسألهما عن الخطأ الذي ارتكبه في حقهما ليهجراه لثلاثة أشهر فتجاهلا إجابته دون أن ينتبه أنهما لم يعودا هما الآخران يرافقان بعضهما بعضًا..

استمات لمعرفة السبب دون أن يعلم أنه بانتظاره لريم خارج أسوار المدرسة قد صنع شائعة أخرى تناقلتها ألسنة الطلبة والطالبات لوقت طويل حول قصة عشقه لها..

كانت تمشي بين جموع الفتيات مختالة بنفسها، متباهية بكم هيَ مرغوبة، وكيف لشخص لقيط مثله أن لا يكف عن اللحاق بها..

(أجمل فتيات المدرسة مُطاردة من أسوأ فتيان المدرسة وصفاً (اللقيط))!

لم يسمع ما الذي يتهامس به الناس من حوله.. ولا بمَ يصفونه.. طرق باب أحمد كثيراً وطُرد من والدته سعاد في كل مرة..

لا أحد أطلق في وجهه تلك الكلمة الشنيعة المتداولة بين سكان القرية؛ فوالده رئيس القرية وإمام مسجدهم، ولا أحد من البالغين تجرأ لينقلها لوالده، ولم تُذكر في مجالس الرجال خشية أن يُشاع أن فلانًا بعينه هو من أطلق الكلمة.

ومرت الأيام وذلك السد الذي صنعته مكانة والده وقوة شخصيته بين التلاميذ يمنعان الجميع من قذف هذه النميمة في وجهه علانيةً.

وحين ازدادت وحدته لحق بأحمد إلى دورة المياه في المدرسة، وسأله متلهفاً عن سبب تجاهله له وصدّه عنه، وإن كان أخطأ بحقه فهو سيعتذر منه مئات المرات، إلا أنه أخبره أن الأمر لا يتعلق بخطأ منه

وأن هناك ما يتناقله الآخرون عنه، وهو لا يريد أن تكون من لسانه هو فيجرحه، وحين ضغط عليه كثيراً ليخبره بها دخل أخوه الأكبر فجأة وأخبره أن أحمد قد منعه والداه من مقابلته أو مجالسته وسحب أحمد من قميصه بعنف للخارج حتى كاد يؤذيه، وحينها انتبه نادر لعدد الكدمات التي تعلو جسده تحت قميصه.

ومجددًا عادت صديقته (ريم) هيَ الخيار الوحيد..

لم يذهب لمنزلها لأنه من السيئ أن يذهب شاب لزيارة فتاة فقد يُساء إليهما بالقول لذا ظل يلحق بها في المدرسة يستجديها بالسؤال علّها تضعف وتخبره.

ما زال يذكر حينما غمر روحه اليأس والبؤس فعاد للمنزل طالباً من أمه أن ينتقلا من القرية، ولكنها استسخفت طلبه وأخبرته أنَّ هُنَا كل ما يملكون.. وليتها وافقت.. وهذا ما ظلت العجوز نادمة عليه طوال حياتها.

ومع رفض والديه للانتقال.. سئم من تلك الظلمة التي قُذف فيها فتجرأ ليخترق جموع الفتيات محاولاً الجلوس إلى ريم..

لم يكن يعلم ما يُحاكُ ضده..

ولم يدرِ أن هناك فتيات يحملن خبثاً يقتل رجالاً دون أن يستخدمن قبضاتهن..

وفي طريقه إليها اصطدم به أحمد خلسةً ليهمس في أذنه: «لا تثق بها».

لمَ حذره منها؟! لم يعلم وقتها وليته أطاعه.. بل اشتد إصراره أكثر

معاندًا له، وحين سألها تفجّر صوتها في ساحة المدرسة كألف قنبلة طاعنة شرفه وشرف والديه ومكانتهم: «توقف عن اللحاق بي.. لقد أسأت لسمعتي.. لا أريد أن يكون لي أي علاقة بلقيط مثلك.. وإن استمررت باللحاق بي فسيُدنس شرفي ولن يقبل بي أحد وساكون منبوذة مثلك.. توقف أرجوك فشخص مثلي باسم وعائلة سيتضرر على عكسك أنت و..».

لم يسمع باقي كلماتها.. هذا لأنه في تلك اللحظة توقف به الزمن..

وتوقف عقله عن العمل..

وتوقف وعيه عن الاستيعاب..

أهذا ما يقال عنه طوال الوقت؟! أهذا ما تظنه عنه في الوقت الذي عَدَّها مقربة منه؟!

بل ما كل هؤلاء الفتيان والفتيات الذين تحلقوا حولها كالمنقذين لها منه؟..

دمعاتها لماذا تُسكب؟!

هو فقط سألها.. وهيَ من آلمته وجرحته.. وأفشت سره..

لوت ذراعه بسره وجعلته أضحوكة للجميع..

شق الجموع بلا وعي مغادراً المدرسة.. انسكبت دموعه وهو يجري إلى المنزل..

لمن سيشكو؟!

ومن سينصت إليه؟!

سيغضب والده لأنه المتسبب الأول بإفشاء هذا السر..

ستتألم والدته..

لذا دفنه في قلبه مع ألمه وطعنة الغدر به.. تغيب عن المدرسة كثيراً.. وانعزل أكثر في المنزل وحقل التفاح..

ولكن جرأة ريم عليه في المدرسة ذلك اليوم جرأت الجميع عليه وأصبح يسمعها من أفواههم بكل وضوح..

ادّعى القوة أمامهم ثم أفرغها ليلاً وحده في حقل التفاح..

ولثوانٍ اهتزت عسليتاه، وكل تلك المشاعر تُثقل صدره وكأنه يعيشها مرة ثانيةً.. زفر والحسرة تتسلل إلى قلبه..

ليته ما جلب ريم إلى منزله ولا رأف بها.. ليته جعل بينه وبينها مسافة، فلو فعل لكان سرهُ محفوظًا بقلبه وما استغلته ضده..

ليته ما عرفها ولا عرف أحمد الذي لم يخبره هو أولاً وإلا لكان مستعدًّا لهذه الصدمة.. ليت وليت وليت..

ليته فقط اكتفى بنفسه ولم يقرب أحدًا منه ليذيقه مثل هذا السم..

صفعة خذلانهم له ما زال يكتوي بنارها وهو ليس مهيأ لصفعة أخرى، بل لن يمنح أحدًا فرصة ليتلاعب به..

فارس ليس إلا طفلًا.. بل ويصغره بعدة سنوات ومع ذلك اقتحم جزءًا من مسافة أمانه التي أبقاها بينه وبين الجميع..

ذلك الجزء عليه أن يستعيده مجدداً فيومًا ما سينظر نحوه بنظرات الخيبة والإحباط حين يكتشف أنه ليس إلا مجرمًا..

كل ذاك الالتصاق به سيتلاشى في لحظات، بل وقد يستاء أن شخصًا مثله هو من أنقذه..

كل ذاك التقدير سيتحول إلى النقيض..

كـ (ريم) تماماً..

سيصنع تلك المسافة..

سيعيد بناء الحاجز الحامي له بأشد مما سبق، وسينفذ ما هو مع المنطق والعقل، فقد بدأ بإنقاذه رحمة به وسيلتزم إلىٰ النهاية.. سيعالجه.. يُطعمه.. يوصله إلى أسرته ثم يختفي وكأنه لم يلتقِه لدقيقة..

«يوماً ما لن ينظر لي إلا باستصغار ودونية كالجميع»

تمتم بها وهو يسحق مقدمة سيجارته المشتعلة في درج صغير بالسيارة خُصص لذلك، وفتح باب السيارة لتتصاعد الأدخنة خارجة منها حتى ليُخيّل لأي شخص أنها تحترق..

تحرك وقد خرج من كهف أفكاره التي أرهقته، والتي لو اطلع عليها شخص آخر لغشاه التعب فتكرارها ومدارها حول شيء واحد فقط.. (لقد أحسن وكان جزاؤه الخذلان).

تجاوز البوابة الرئيسة المفتوحة ولم ينتبه مع دخوله إلى فارس الذي رآه من الشرفة فاستقام واقفاً تاركاً قفص الطيور وصائحاً: «نـــادر».

لم يسمعه نادر وهو يتابع خطواته فيما قفز فارس من على سيّاج الشرفة ليحطّ على أرضية الحقل، وبسوء تقدير منه لم تكن تلك القفزة

كافية ليتجاوز السياج، فارتطم كاحله به ليسقط على ركبتيه.. ودَمِيت إحداهما..

تأوه للحظات بألم ثم نهض عن الأرض لينفض الغبار عن ملابسه ولحق بنادر، ولكنه اختفى داخل المنزل.. توقف مكانه وقد كانت هذه المرةَ الثانية التي يذوق فيها تجاهل نادر، فأطرق مفكرًا بجدية في ما قالته العجوز وعقله لا يرى جرماً ارتكبه غير ثرثرته..

«لن أتحدث إذًا»

قال فجأة ضاحكاً وكأن المشكلة قد انتهت، سيتوقف عن ثرثرته حتى يتحدث نادر أولاً وهكذا لن يسأم منه..

جرى نحو المنزل ودخله ليرى نادر منحنياً على البراد المفتوح وقد كساه ضوؤه وهو يقول: «أُمي.. ألا يجب أن يحوي البراد ما يناسب عمريكما؟!».

تنهدت العجوز وقد تخلصت من فارس ليأتيها هذا الآن: «بني.. هل تراني بعمر مناسب للتسوق؟!».

«ولكنكِ تجدين الوقت لشراء البسكويت».

زفرت بحدة فيما حرك المسن شفتيه: «أنا آكله أيضاً».

«أبي توقف عن الدفاع عن زوجتك»: قالها وهو يخرج هاتفه ليسجل في مفكرته ما ينقصهم..

فيما رتبت العجوز المائدة متمتمة: «وأنا من ظننته حزينًا وقلقتُ عليه.. ها قد عاد لطبيعته».

ابتسم براحة بعد سماعه لتمتمتها؛ فعليه أن يكون عوناً لهما وقد أخطأ قبل قليل بإظهار انزعاجه وإغلاق الباب على نفسه مثيراً قلقها عليه..

فوجئ بظل علوي فرفع رأسه ليرى فارس منحنيًا على هاتفه يقرأ ما يكتب.. لم يتحدث نادر ولم ينطق فارس وشفتاه تتسعان بابتسامة..

وقف نادر وأدخل هاتفه في جيبه وتانك الزرقاوان محدقتان به بصمت ولثوانٍ شك نادر بعجزه عن تنفيذ ما عزم عليه.. ولكن ما أدهشه هو أن فارس لم يسأله عن سبب إغلاقه لباب حجرتهما!، ولا عن تجاهله لمناداته أول مرة! بل ألا يلحظ الآن معاملته له ببرود رغم رؤيته لركبته النازفة؟!

«هل أنت أخرق؟!»: قالت العجوز فجأة وهي تنتبه لركبة فارس المجروحة، أمسكت بيده وسحبته ليجلس على الأريكة، ولم يُظهر فارس أي اعتراض وعيناه تتابعان نادر الذي ذهب ليستحم متجاهلاً ما يحدث..

وضعت العجوز كومة أعشابها الطبية على جرح فارس ليشهق ألماً ويصيح: «إنها تلسع!».

فتح نادر باب دورة المياه ببرود وقد خمن أن هذا ما سيحدث..

«بالتأكيد تؤلم.. ولهذا هيَ مفيدة.. وذلك اليوم لم تشعر بها لأن نادر لا أعلم ماذا أعطاك وأظنه لم يكن يريدك أن تشعر بالألم.. فهو قد جربها كثيرًا».

تانك الزرقاوان اهتزتا تأثراً فتجهم وجه نادر وهو يغلق الباب خلفه منزعجًا؛ فهذه الأسرة بالتأكيد لن تساعده على إبقاء تلك المسافة..

ونصف ساعة وكان الجميع ملتفين حول سفرة الطعام وبالكاد كبح فارس نفسه عن إخبار نادر عن أنه هو من طها خبزه المحروق وعما سمّت به العجوز طيريه..

الاثنان كانا صامتين بطريقة جعلت العجوزين يحدقان بهما باستغراب، أخذا يأكلان بكل أدب وفارس لا يتذمر ولا يعبث بشيء، حتى أنه لم يشتكِ كعادته من كثرة حساء نادر مقارنةً به.

تناول العجوزان طعامهما، وهما يتبادلان النظرات المندهشة، قبل أن ينسكب جزء من الحساء من ملعقة نادر على المائدة، تنهد نادر براحة أنها لم تصب ثيابه ومدّ يده ليأخذ مناديل من كرتونها البعيد، واندفعت يد فارس قبله لتسحب كومة ناولها له مبتسماً فارتخت ملامح نادر وهو يأخذها منه ليمسح ما أمامه..

فيما انتظر فارس (شكراً) وسيطلق لسانه وثرثرته بعدها، ولكن نادر لم يشكره وذلك أحبطه كثيراً فهو بصعوبة يكبح نفسه عن الحديث..

«أنتما بخير؟!»

تحدثت العجوز فجأة شادة انتباه الاثنين لينظرا لها باستغراب.

«أنا بخير»: نطق الاثنان معاً وفي آن واحد.

ضحك فارس لتزامن ذلك إلا أن نادر التزم بهدوئه وهو يعود لتناول طبقه، والعجوزان يتفحصانه باستياء، فأردف: «ماذا؟!».

هز المسن كتفيه بـ (لا شيء) فيما زفرت العجوز قائلة: «طفل!».

اهتز أحد حاجبيه مستهجناً ثم انتبه لفارس الذي اتسعت شفتاه مصدوماً فهيَ المرةُ الأولى التي يُنعت نادر بالطفل بدلاً منه.

(سيضحك بالتأكيد) هذا ما ظنه نادر، ولكنه فوجئ به يتحلى بالأدب ويعود لتناول طعامه.

هذه العائلة بأكملها بضيفها المتطفل.. (مجنونة).

«سأغادر لأجلب ما ينقص المنزل»

قال نادر بعد إنهاء طعامه وانتعل حذاءه دون أن ينظر إلى فارس الذي وضع ملعقته وتعلقت عيناه به.. تمنى لو يدعوه بنفسه للخروج معه بدلاً من أن يتوسل إليه هو في كل مرة ويرفض، ولكن نادر غادر ولم يسأله حتى إن كان يريد شيئاً.. كحذاء يتجول به في المنزل.

تنهد بإحباط وتقوست شفتاه وترك ملعقته، وبعد دقائق من الصمت جرّ جسده ليرتمي على الأريكة على وجهه دون أن يغسل يديه وشفتيه.

«ما به؟!»: سأل المسن فجأة متعاطفاً معه.

وقفت العجوز لتجمع الصحون قائلة بتبرم: «ابننا وعادته الغبية.. يتجاهله».

اتسعت عينا المسن: «كما يفعل مع ريم وأحمد؟!».

«بالضبط»: ثم التفتت للمندس هناك بلين الأريكة وقد تجهم

وجهها قائلة: «ولكن هذا الغبي لا أفهمه.. لماذا هو لا يزعجه كعادته؟!».

لم يسمع فارس حديثهما وكل ذاك الإحباط والملل ينهشان روحه.. ومع مصارعته لأفكاره حول ما هو خطؤه ليعامله نادر بكل هذا البرود أسبل جفناه وغاب في نوم عميق.

وذلك كان أمرًا طبيعيًّا مع الأدوية التي أصبحت شبه يومية.

مرت ثلاث ساعات قبل أن يحرك جفنيه مستيقظاً، وأذناه تلتقطان تلك الأصوات المتداخلة، وميز صوت نادر من بينها فابتسمت شفتاه وهمَّ بالنهوض، ولكن: «لِمَ تتعاطفان معه؟!.. هل لأنه قضى وقتًا طويلًا معنا؟!.. أُمي.. أبي.. أنا أكره تعلقكما به.. وتبًّا!.. ذلك المزعج البغيض.. لا أرغب برؤيته ولا سماع صوته.. ضغطه عليّ بكما هو عبء ثقيل متى سيتسنى لي أن أتخلص منه؟!».

بهتت عينا فارس وبقي على استلقائه وارتجفت شفتاه وبالكاد تمالك زمام نفسه، والعجوز تنطق بضجر بعد أن سئمت من إقناعه: «لا بأس.. قاطعه كما تشاء وتجاهله كما تشاء ولن أتدخل مجدداً».

صوت أنفاس نادر الثائرة صكّ مسامع فارس وبالقوة كبح غصة بكاء وهو يُمثّل أنه نائم..

إذًا فقد سئم نادر منه.. لذا: (لم ينظر إليه صباحاً).. لأنه لا يرغب برؤيته.

(لم يتحدث معه أو يُجب مناداته).. لأنه لا يرغب بسماع صوته.

هو بالفعل عبء ثقيل.. دوماً ما يهتم بعلاجه وسماع ثرثرته وشراء ما يحتاجه من ماله الخاص..

بل وجعله يشاركه الحجرة..

وتعاطف والديه معه الآن سبب له ضغطاً إضافياً..

لقد صرح حتى بأنه يتحين الفرصة المناسبة ليتخلص منه نهائياً..

هو لم يكن يعلم بذلك أبداً..

نهض فجأة جالساً وقد احمرت عيناه بشدة وقلبه يؤلمه..

توقف الاثنان عن الحديث لينظرا نحوه، تأفف نادر وهو يمشي نحوه ليضع أمام الأريكة حذاء منزليًا جديدًا دون أن يتكلم معه أو ينظر لوجهه.

وكان فارس مساعداً له هو أيضاً في عزيمته بصنع تلك المسافة حين لم يناده أو يتحدث إليه أو حتى يُظهر فرحته بما اشترى له.

تأمل فارس ذلك الحذاء في الأسفل مفكراً.. هو يُحسن إليه ويتصدق عليه مُكرهًا.. بل وصياحه قبل قليل بأنه (بغيض) ذلك جرح قلبه.. أهذا قدره الحقيقي عنده؟!

لم يشعر إلا وقدماه تنزلان للأسفل ليدفع الحذاء بعيداً عنه.. لا يريده.. لا الآن ولا في ما بعد ولا أبداً..

وقف ووجهه يعكس معاناته متجهاً لدورة المياه لتُصعق العجوز من منظر وجهه، وشيعته بنظراتها حتى غاب، وفي الوقت ذاته خرج نادر من حجرته ليصدمه منظر الحذاء المرمي بإهمال.

بحثت عيناه عنه بكل اتجاه قبل أن تشير والدته إلى الحمام، لم يشعر بنفسه إلا وهو يتحرك ليجلس على الأريكة بانتظاره.

تجاهل فارس للحذاء الجديد لا يُذكّره إلا بتركه لشرائح البرقر في المستشفى حين كان غاضباً منه لأنه لم يعترف بوجوده معه أمام فاضل.

«هل كُنتُ قاسياً جدًّا معه؟!»

تساءل في نفسه وهو يراجع تصرفاته.. لم يتحدث معه.. تجاهل نداءه.. أغلق الباب في وجهه.. فقط هذا ما فعله!.. ذلك ليس قاسيًا على الإطلاق.. بل إن المرات التي تجاهله فيها فارس لا تكادُ تُعد.. ولم يكد يصل به تفكيره إلى هذا الحد حتى عاد للنهوض مجدداً..

«أُمي.. سأُخرج والدي للتجول في الحقل».

وسحب مقعد والده إلى الخارج، أمام عينيها الساخطتين، فتركت غسيلها لتنتظر هيَ فارس بدلاً منه والذي تأخر أكثر بدورة المياه، ومر وقت طويل قبل أن تراه يخرج وقد بان أثر البكاء بوجهه، تحرك قلبها وهي تقف أمامه موبخة: «لا تفعل ذلك في الحمام.. هو مليء بالشياطين وقد يدخل أحدها فيك مع نوبة حزنك».

بالكاد ابتلع غصة أخرى، وهو يتهرب من نظراتها لتسأله: «أخبرني فحسب بما فعلت كي يتجاهل النظر إليك والحديث معك هكذا».

«أنا لا أعلم» خرجت بنبرة مهتزة، ثم أردف بانكسار شديد: «أريد العودة لمنزلي».

«منزلك؟!» لفظتها بفزع فهيَ مُشفقة عليه، ولكن في الوقت ذاته إن عاد للمنزل فسيفقد ابنها وظيفته..

أمسكت بيده وقادته ليجلس على الأريكة قائلة: «اعتبرني أمك.. و..».

«لا لستِ كأمي»

قاطعها ليهتز أحد حاجبيها حنقاً، ولكن سرعان ما رأت حرجه وهو ينطق معتذراً: «جدتي أنا أسف.. ولكن أمي.. أنتِ لستِ مثلها أنتِ جيدة وطيبة وتجعلينني أعمل وأساعدكِ في المطبخ و..»

ولم يكمل وعيناه يُطل منهما حزن أدركت معه أنه ليس محظوظاً بأم لطيفة ولذا قد تقبلها وتقبل تأنيبها وتوبيخها..

«لا بأس.. جدتك معك».

تحركت شفتاه بابتسامة رغم احمرار وجهه الشديد، وقد أدركت أنه طوال بقائه بالحمام كان يبكي فحسب.. وأقسمت إنها ستضرب نادر من أجله..

أخبرها نادر أنه فتًى مريض بتصرف يقل عن عمره لأنه لم يخالط بشرًا لتسع سنوات، ولكنها لم تعلم أنه لم يختبر كل أنواع المشاعر ومنها خذلان شخص تعلق به وأحبه من كل قلبه ورغم بقائه معها بمنزل واحد لم تُدرك إلا الآن أن طمأنينته وأمانه يتمحوران حول شخص واحد فقط وهو ابنها.. وحين جفاه فكر بالرحيل.

عادت عيناه ترتجان ومع ذلك كبح دموعه وكلمات نادر تتكرر في نفسه متلذذة بتعذيبه ومعيدة الظلام لحياته..

«سأساعدك.. دعنا نفكر معاً بمَ أخطأت ونصلحه دون أن يظهر لنادر أني تدخلت فهو يكره أن يُجبر على شيء وسيصب غضبه عليك!

أبدى فارس انزعاجه وعدم رغبته بالتفكير ليتفاجأ بضربة خفيفة من عصاها على رأسه: «توقف عن كونك عاطفياً.. اخرج من هذا الحزن وإلا فسيلتهمك.. فكر ثم اعمل.. ما هو خطؤك؟!».

ضربتها وكلامها المنطقي أعادا له وعيه فجلس قبالتها فارداً كفه ليعد أصابعها قائلاً: «سرقتُ حذاءه صباحاً».

«ليس هذا السبب فقد اشترى لك حذاء».

«وشيتُ به لكِ أنه كسر الزهرية فعاقبته».

«ليس هذه أيضاً فقد رأيته من الشرفة يتحدث معك، بل وانتقم منك ببرونو».

قطب حاجبيه فهي كانت ترى معاناته ولم تتكرم بفتح الباب له ليهرب.. ضحكت من عبوسه واستحثته: «تابع.. هيا».

«لا شيء آخر».

«تذكر».

«آه.. كان هناك حافظة طعام بالخارج أكلتُ منها وحين ناديته تجاهلني».

اتسعت عينا العجوز ووقفت: «هذه هيَ بالتأكيد».. ثم تحركت لتخرج من المنزل فوجدت جوار الباب الحافظة وغطاءها المرمي بإهمال.. سحبتها ووقفت أمام فارس قائلة: «إنها لريم بالتأكيد.. لقد أحضرتها لنادر وأنت أكلتها.. إنه طعامه المفضل».

اتسعت عينا فارس وقد انقشع كل ذاك الغموض ليسألها بلهفة: «هل يُمكنكِ صنع طعام مثله؟!».

زاد ضيقها وحركت رأسها بعجز: «إنها أشياء غريبة تصنعها فتيات هذه الأيام ولا علم لعجوز مثلي بكيفية صنعها».

«إذًا هل يمكنني الذهاب لريم والاعتذار منها لأنني أكلتها وأطلب منها أن تصنع واحدة أخرى لنادر؟!».

«هذا ممكن» قالتها بابتسامة، وهي تعود للحجرة لتأخذ ورقة، ثم رسمت عليها الطريق إلى منزل ريم..

علت وجهه الدهشة والذهول: «أنتِ حتى تستطيعين رسم خريطـ..».

واختنق صدره بباقي كلماته حين لطمت وجهه بالورقة صائحة: «ماذا تظنني؟! أنا كُنتُ أفضل طبيبات البلد بالأعشاب».. وأكملت متجهمة: «ما كان علي مساعدتك».

التقط فارس الورقة وحمل الحافظة بيده الأخرى وتأجج وجهه المحمر بالحماس وقد لاح له أمل أن ما قاله نادر سابقاً مجرد غضب عابر بسبب أكله لطعامه..

وأمام الباب وقف ومنح العجوز أجمل ابتسامة قد تراها عيناها: «شكراً جدتي».

ثم انطلق مغادراً المنزل تاركًا العجوز خلفه متجملة بدهشة، ابتسامته تلك منحتها سعادة غريبة جعلتها تتفهم نوعًا ما تساهل ابنها الكثير معه والذي استنكرته أول قدومها.

مرت ساعتان أتمت فيهما العجوز أعمال المنزل فيما بالخارج أشرق وجه المسن، وتجوله في حقل التفاح يبعث الحنين في قلبه لماضيه فيه، وقضى وقتًا ماتعًا يُحدث نادر عن هذا وذاك دون أن يدرك أن أحد أسباب نادر للخروج هو تهربه من البقاء مع فارس.

كانت الشمس على وشك الغروب حين تحركت عسليتاه إلى الخلف، نحو المنزل، ولم تكن هذه مرته الأولى التي يتحقق فيها إن كان فارس قد لحق به أم لا.. ولكن رغم ثقته الكبيرة أنه لن يتركه بحاله وسيلحق به كعادته إلا أنه ولحسن الحظ لم يتبعه..

وغريب بالوقت ذاته!

شيءٌ ما دفعه ليقول: «أبي.. لقد أوشكت الشمس على الغروب لذا من الأفضل لو عدنا إلى..»

وأطبق شفتيه ليعلو وجهه السخط والمُسن يمدُّ له بهاتفه الخاص، ومن شاشته المضيئة علم أنه أحمد..

«لدي هاتفـ..»

«سترد يعني سترد». وعكس وجهه غضبه ولم يشأ نادر أن يكون سبب تأزم مرض قلبه ومن ثم وفاته فزفر محنقاً: «هل هو مُطارد؟!».

ثم سحب الهاتف وابتعد قليلاً حتى لا يسمع والده شجاره معه قائلاً بغلظة: «ماذا تريد؟!».

- لماذا حظرتني؟

- سئمتُ منك.. هل لديك مشكلة مع هذا؟

- وإن قلتُ نعم.. فهل ستفك الحظر؟

- لا.

- ألا يمكنني مكالمتك دون جدال؟!!.. تباً.. أنت مشكلة بالكامل!

- هذه المشكلة أنت من تلهث خلفها..

- يا رجل.. أنت دائماً ما تصرف بالي عن سبب اتصالي.. إنه أمر مهم.

- ما يهمك لا يهمني.

- حتى لو كان يتعلق بفارس؟

عبارته نجحت في إثارة جدية نادر الذي ابتعد أكثر عن والده ثم همس بخفوت: «ماذا تعني؟!».

- جميع منصات التواصل الاجتماعي باختلافها.. الشائع منها وغير الشائع.. وجميع حسابات المشاهير لا يتداولون إلا صورة واحدة لفتًى مفقود وبمكافأة قدرها مليونا دولار لمن يقدم ولو معلومة واحدة عنه..

بهتت عينا نادر وقد أدرك ما يعنيه فيما تابع أحمد بقلق: «بل وبصورة حقيقية مطابقة تماماً لوجه فارس».

انقبض قلبه وألجمت الصدمة لسانه فيستحيل أن يكون فاضل بهذه الجرأة لينشر صورة فارس على مدى البلد بأكمله فقد تصل لأحد أفراد أسرة راكان ويُفضح أمره.

عاد ببصره إلى الخلف نحو المنزل، وعقله يجري تفكيرًا شديد التعقيد، لينتهي بافتراض واحد فقط وهو أنه قد يكون هناك طرف آخر قد انضم إلى السباق للحصول على فارس.

طرف.لا يعلم ما هي نيته ولا هدفه!!

****

(٩) واجه خوفك..

عاد رئيس شرطة العاصمة بظهره إلى الخلف ليمتلئ ظهر مقعده بجسده الضخم وهو يجيب فاضل بقلة حيلة: «أخبرتك.. لسنا نحن من نشر صورة الفتى ولم نُعلن عن مكافأة المليوني دولار».

امتقع وجه فاضل وأثقل الكرب صوته وهو يصيح: «ما معنى هذا؟ لقد نشرتم رسمًا له مسبقًا وبمكافأة مئة ألف دولار! وبدلاً من أن يطلب خاطفوه الفدية، أو يسلمه لنا أحد طمعاً في المكافأة نجد أن هناك من يعرض مكافأة أكبر! أيُّ جنون هذا؟! بل وبصورة حقيقية له».

عقد رئيس الشرطة كفيه فوق مكتبه ليجيب بثقة:

«أخبرتك: مسألة صورة حقيقية ليست صعبة فما دام الناشر يملك صورة له وهو طفل قد يدخلها في الحاسوب وببرامج احترافية وبدقة محترف سيتوقع البرنامج هيئته في السابعة عشرة.. وهذا ما أكَّده العاملون عندنا».

اتسعت عينا فاضل وعقله لم يلتقط سوى عبارة واحدة: (يملك صورة لفارس وهو طفل؟!).

نهض واقفاً وقد ملأ الفزع وجهه، أدار بصره نحو حارسه كاظم آمراً بحدة: «أريدك أن تتيقن إن كان راكان وأسرته في بريطانيا وبالأخص مايا..».

«هل تشك بهم؟!»: سأل الحارس متفاجئاً.

«ومن غيرهم يملك صورة لفارس وهو صغير؟!»

رد بحدة وقد تضاعف قلقه فإن كانت أسرة فارس قد دخلت في صراعه للحصول عليه فهذا يعني أن أمله بامتلاك أموال والده لن يعدو عن كونه حلمًا فقط..

****

دفع نادر مقعد والده باتجاه المنزل وقد غطى الشفق الأحمر سماء قرية السنابل بأكملها، وكفه الأخرى تحمل هاتفه وبإبهامه راح يتنقل بين وسائل التواصل الاجتماعي وعيناه تتسعان لكمِّ التفاعل الجماهيري مع تلك الصورة التي اشتهرت، أيُّ مصيبة حلت على رأسه؟! لم تكن حتى صورة مزيفة، هيَ مطابقة لوجه فارس مئة بالمئة!، خطته بإرجاعه للعاصمة فشلت، يستحيل أن يتم إخفاؤه بعد الآن بوشاح أو قبعة أو بتغيير قصة شعره.. وجهه يجب أن يتم تغييره بالكامل وإن نجح في ذلك فثلاثة أيام من السفر ليست بالقليلة، عوامُّ الناس أخطر بعشرات المرات من نقاط الشرطة..

ما يحدث الآن ليس بمزحة، هو عالق في ورطة كبيرة، لا يستطيع نقله إلى العاصمة، ولا الإبقاء عليه أكثر في منزله، فهو بحاجة أيضًا للتفرغ من أجل البحث عن مصدر رزق آخر لنفسه ولوالديه.. وتحركت عيناه فجأة للجانب وقد غرق في تفكير عميق وشفتاه تتحركان دون وعي منه بـ: «مليونا دولارا.. منزل.. سنتان بلا عمل.. سيارة! مستحيل.. لن أجد أفضل من سيارتي هذه.. وقد..».

لاحظ والده انشغاله الكبير وتساءل في نفسه هل أخطأ بجعله يرد على أحمد؟!، كانا بالكاد قد دخلا إلى الصالة حين راحت عسليتاه تبحثان عن فارس هنا وهناك، وقد تذكر فجأة أن يتابع استغرابه السابق لعدم لحاقه به، وأدركت العجوز نظراته الفضولية لكنها لم تتكلم.

«أُمي.. أين فارس؟!» سأل بتعجب وهو لا يرى له أثرًا.

«هل أنت مهتم حقاً بمعرفة أين يكون؟!».

عبس، ما هذا السؤال؟! ثم أجابها بالمنطق الذي يروق لها: «بالطبع فأنا طبيبه.. هل هو يُطعم الدجاج؟!».

«لا».

«حقاً؟!» واتجه إلى الشرفة فهو بالتأكيد مع طيريه إلا أنه أيضاً ليس هناك.

«أين هو؟!» سأل مجدداً وقد بدأ صوته يحمل جزءًا من انزعاجه.

«وما شأني أنا؟.. ابحث عنه».

زفر بحدة وهو يرى لا مبالاتها فاتجه لحجرته، ولكنها خالية.. ما هذا الشعور الغريب الذي بدأ يداهمه؟، بحث في حجرة والديه، في المطبخ، ولكنه ليس فيهما أيضًا.. وتعاظم ذلك الشعور.. وقف في منتصف الصالة ينظر لدورة المياه.. وقد نسي تمامًا التفكير بتلك المصيبة التي أخبره أحمد عنها.. هو الآن لم يعد يريد سوى رؤيته والتيقن من أنه بخير بعد أن تجاهله.

«لقد ذهب إلى منزل ريم ليعيد إليها حافظة الطعام ويطلب منها أن تصنع واحدة أخرى كي يخفف من غضبك وتجاهلك لـ..»

بترت عبارتها واتسعت عيناها وهي ترى وجه نادر الذي اكتسحه الخوف والقلق.

«ماذا هناك؟!»

سألت بذعر إلا أنه لم يرد عليها وقد عمّ ملامحه قلق جنوني.. لم يسألها حتى عن هذا الهراء الذي تحدثت عنه حول تخفيف غضبه بطعام ريم!!

(ذهب إلى منزل ريم): جعلته يتحرك لا شعورياً راكضاً للخارج.. هذه المرأة آذته ظلمًا وهو بعيد عنها فكيف لو وُجد الآن قربها وفي منزلها بالذات بعد أن صفعها لأجله؟!

ستنتقم منه في فارس بالتأكيد..

هذه المرة لن يكتفي بصفعها.. ولا بضربها.. سيقتلها إن مسته بسوء..

قتله الفاشل سيحققه الليلة..

تابع ركضه إلى الخارج دون أن يسأل حتى مُنذُ متى خرج فارس وتوقفت به قدماه أمام سيارته، قذف بنفسه داخلها ثم حركها إلى منزل ريم..

وتخطت سرعته في القرية المسموح به، وعيناه تجوبان ما حوله باحثاً عنه ونبضات قلبه تتسارع بجنون..

«فـــارس»

ناداه علّه يسمعهُ ويُجيبه فهو يدرك أن فارس ليس جيداً بالاتجاهات بعد حبسه لسنوات في حجرة واحدة في المستشفى وقد يتيه قبل وصوله إلى منزلها..

وتوقف به عقله فجأة عند تلك المصيبة؛ ماذا لو كان أحد من القرية قد رأى الصورة المنتشرة له؟! هم بالتأكيد سيأخذونه فذلك المبلغ ليس بلعبة..

«سحقـــاً!».

خرجت من بين شفتيه وكل واجهات المنازل وزواياها التي يمر بها لا يراه فيها، وزاد الوضع سوءًا بسبب بدائية قريته الريفية في المساء، فالظلام يُخيم على كل مكان منها وبالكاد يوجد بها أعمدة إنارة..

«ذلك الغبي»: فقد حذره مسبقاً من الخروج.. من تجاوز عتبة بوابتهم الرئيسة..

ووصلت سيارته أخيراً لتقف أمام منزل ريم، فقفز خارجها وضرب بقبضته بابها صائحاً بأعلى صوته: «ريـــم.. ريـــم!».

هو جُنَّ بالفعل أو على وشك الجنون، ومن خلف سور المنزل رأته إحدى عاملات عائلة ريم، فتركت مقشتها وأسرعت إلى ريم..

صعدت إلى غرفتها فوجدتها تجلس فوق سريرها مكتئبة صامتة، وعدد كبير من الصور القديمة قد انتشر حولها ولا يزال أثر الدموع عالقاً بعينيها..

«ريم.. إنه ذلك الشاب الذي تحبينه.. إنه بالخارج يصيح باسمك».

اتسعت عيناها غير مصدقة فنادر لم يفعل ذلك من قبل!، لم يزر منزلها يومًا رغم عمق صداقتهما قبل سجنه!

غادرت سريرها وأسرعت إلى الشباك المغلق لتُزيح الستائر وشهقت بقوة..

إنه هو.. نادر نفسه..

لقد جاء بالتأكيد للاعتذار إليها بعد الصفعة..

ابتسمت ورتبت ملابسها استعداداً للخروج قبل أن تصيح بالعاملة بصرامة: «لا تخبري زوجة أبي ولا أبي أو راجح بقدومه ولا بخروجي إليه».

أومأت لها الخادمة بـ (نعم) فيما نزلت ريم درجات السلم راكضة وتجاوزت عتبة منزلهم لتقف أمام البوابة وتفتحها له وقد علَت شفتيها ابتسامة عاتبة..

«أين فارس؟!»

صُدمت من نبرة الواقف أمامها بعصبية، لم يكن وجهه يحمل أي حرج، قبضتاه مشدودتان وقد غطى القلق وجهه بدلاً من الندم على صفعته لها..

«عن ماذا تتحدث؟!».

«أين الفتى؟!»: صاح راجّاً ما حولها وهو يقترب منها أكثر مثيراً فزعها وخوفها..

«لا أعلم عمن تتحدث».

«لا تكذبي.. لقد آذيته في الحقل ولن أستبعد أنكِ ستفعلينها مجدداً».

«تقصد الفتى الذي يرافقك؟!»: قالتها متفاجئة فلِمَ سيكون عندها هي بالذات؟!

«نعم إنه هو.. لقد أرسلته أمي لمنزلك ليُعيد حافظة طعامك القذرة».

ارتخت ملامحها وكساها الإحباط.. كُلّ هذا القلق من أجل الفتى! هو تنازل ولأول مرة ليطرق بابها من أجله!

هو حتى لم يعتذر منها لصفعته لها بالصباح!

«لم يأت إلى منزلي»: قالتها وهي تتراجع للخلف لتغلق البوابة وقلبها ناقم عليه فيما دارت دموع الخيبة التي اندفعت لعينيها إلا أنه مدّ ذراعه مانعاً ذلك وهو يقول فجأة بنبرة أثقلها قلقه: «يجب أن لا يمر بعنف جديد.. لن يحتمل أكثر..».

وتشبث أكثر بالبوابة أمام نظراتها المصدومة غير المستوعبة، من هذا الذي أمامها وما الذي يهذي به؟!!

وازدادت ذهولاً حين صاح بها: «أتظنينني ساصدقك؟ أنتِ لم تتواني يومًا عن دس أنفك في حياتي والعبث بها.. أخبريني ماذا فعلتِ به.. أين خبأته؟!».

كان يسأل في الوقت الذي بدا وكأنه يتمالك أعصابه بالقوة عن دفعها والدخول للبحث عنه في منزلها.. وعلى الرغم من أن اتهامه لها

قد آلمها إلا أنها صاحت بكل صدق: «أُقسم بالله إنه لم يأت لمنزلي ولم أره بعد مغادرتي منزلك».

ثم دفعته بعد قسمها، وأغلقت البوابة، لتقف معه بالخارج: «نادر يجب أن لا يراك أحد هنا.. أنت تعلم أن الجميع وبالأخص أخي راجح يريدون سببًا لإيذائك..».

«تبّاً لكِ وللجميع!.. وتوقفي عن التصرف وكأنكِ قلقة علي.. لم يؤذني يومًا غيرك.. وكل ما حدث له اليوم أنتِ سببه أيضًا».

لم تتمالك حزنها وقلبها يستشعر نفوره العظيم منها..

عيناه الناقمتان سكبتا أمامها كل ما بقلبه دفعة واحدة..

منذ متى كبح نفسه عن إطلاق مثل هذا التعبير في وجهها؟! قلقه على الفتى أنساه هدوءه الذي استفزها به دومًا وكشف لها حقيقتها عنده.. هيَ لا شيء..

بكت عيناها وكأنها أدركت أخيرًا أنها فقدته للأبد..

لا فرصة لها معه..

كل تلك السنوات بعد سجنه كانت وهماً منها.. هو لا يراها سوى أذًى يؤذيه ويعكر حياته..

زادت دموعها استرسالاً وجرياناً أمام عينيه العسليتين ولأول مرة يراها بذاك الحال الباكي والصادق.. شهقت ببكائها وهي تحرك ذراعها: «اذهب أرجوك.. هو ليس هنا.. ولم يزر منزلي وتلك الحافظة اللعينة ارميها.. لا أهتم».

تحرك للخلف وقد شحب وجهه.فإن لم يكن فارس أتى إليها فهل أخذه الباحثون عن المكافآت والجوائز؟!

تركها باكية أمام واجهة منزلها وقفز لسيارته ثم حركها ليبحث عنه في موقع آخر دون أن يتنبه لتلك السيارة المتوقفة بالقرب من منزل ريم وقد أُطفئت أنوارها وصاحبها تطحن أضراسه بعضها بعضًا غيظًا وحقداً ويده الواحدة تشد على مقود سيارته..

فيما تجول نادر بسيارته في طرقات القرية القريبة من منزله وتوتره يزداد، ولكن لا أثر..

«كل ما يملكهُ هذا الفتى هو أنا فقط»: قالها وضميره يؤنبه وتفكيره يُعذبه.. ما كان عليه المساواة بينه وبين ريم..

ما كان عليه إسقاط ماضيه على شخص وحيد ومنبوذ لا يملك غيره..

بل بالكاد نجا فارس من عودة المتلازمة إليه حين تعارك مع الرجل في الحقل.. فكيف لو صادف عنفًا جديدًا وانتكس ليعود ذاك الشخص المنطوي البائس الذي لا يقبل أحدًا، ويسعى لإنهاء حياته؟!..

«سحقاً لي.. سحقاً.. سحقاً!»

ومرت ساعة ولا أثر له وازدادت السماء ظُلمةً وهبّت رياح الليل الباردة مجمّدة كل ما تلمسه..

«برونو»: قال فجأة وقد تهلل وجهه.. سيأخذ برونو معه وبلا شك هو سيتبع رائحة فارس ودون تأخير حرك سيارته عائداً إلى المنزل.. ومع وصوله قفز خارجها ثم تجاوز البوابة صارخاً: «برونو».

وثوانٍ وكان الكلب يقف أمامه بطاعة وكأنه استشعر أهمية الأمر، انحنى نادر نحوه بلهفة: «فارس.. أريدك أن تبحث عنه».

نبح الكلب عدة مرات فسأل وكأنه سَيُجيبه: «هل تحتاج لشيء من ملابسه؟!».

تحرك الكلب راكضاً فعلم نادر أنه فهم مقصده فجرى إلى البوابة، ولكن الكلب لم يلحق به فعاد صارخاً بغضب: «برونو» ولكن الكلب تجاهله تماماً وهو يشقُّ طريقه وسط حقل التفاح..

«برونوووووو!»

وبجدداً لم يستجب له فشق بخطواته حقل التفاح من خلفه، وقد بلغ غضبه أقصاه، وقد قرر جرَّهُ من طوق عنقه إلى الخارج..

غاب برونو في تلك الظلمة فوقف نادر بتشتت يبحث عنه، وسمع نباحه العالي فجأة من نقطة قريبة فاتجه نحوها..

تكسرت أغصان التفاح وهو يدفعها بعيداً عنه، وخدشت بعضها ذراعيه، وداس حذاؤه بقاياها، وهو يتقدم أكثر وحينها التقطت أذناه ذلك الصوت المألوف..

اتسعت عيناه مصدوماً وأسرع نحو الصوت ليراه هناك يجلس مستنداً بظهره إلى جذع إحدى الأشجار وقد تورمت عيناه من بكائه الطويل حتى ما عاد له دموع ليسكبها وهو يدفع برونو بعيداً عنه قائلاً بصوت مبحوح: «هو لا يريد أن أعود.. قال إنه لا يريد سماع صوتي ولا رؤيتي..».

وصمت ثانية عكس فيها وجهه كآبته أردف بعدها: «ولكن أنا ليس لدي مكان لأذهب إليه».

سحبه الكلب من كُمّ ذراعه فدفعه بيده الأخرى التي علاها أثر التراب: «لا يمكنني العودة.. فأنا لم أُرجع الحافظة لريم.. ولم أجلب له طعامًا.. سيبقى غاضباً مني ولن ينظر إلي وسيتجاهلني..».

وجذب ركبتيه ليحتضنهما لصدره وجسده يرتجف من شدة البرد وشفتاه تنطقان فجأة وظلام الحقل يزيد من وطأة غربته: «ولكن.. أنا أُريد أن أراه الآن.. أريد رؤيته والاعتذار منه..»

وغشى عينيه الحزن وشفتاه تتقوسان: «لا أريده أن يغضب مني..».

شهق بفزع قاطعاً شكواه للكلب حين أحسّ بشيء يتكئ على الشجرة أعلاه.. رفع رأسه ليرى نادر يُطلُّ عليه من الأعلى وقد علا وجهه التعب والإرهاق متمتماً بخفوت: «غبي.. أحمق.. غبي.. أحمق.. غبي.. أحمق!».

تراجع فارس للخلف صائحاً بفزع:

«أنا أسف.. أسف.. لن آكل طعامها.. لم أكن أظنك ستغضب كثيراً».

انهارت ساقا نادر ليحطّ بركبتيه على الأرض وجلس ملتقطاً أنفاسه، وما زالت شفتاه تشتمان نفسه الغبية..

هل كان حقّاً يفكر بتجاهله؟

كان عليه أن يرى نفسه الآن قبل أن يفكر بذلك، فهو بالكاد قادر على تهدئة اضطرابه وكبح فرحته برؤيته بخير وأنه لم يغادر المنزل.

سحب فارس مياه أنفه وهو يُضيق عينيه ليراه جيداً وسط الظلمة ومع رؤيته لحاله ذاك سأل بقلق:

«هل.. أنت بخير؟!».

«أنا بخير وأنت بخير والكل بخير» أجاب نادر مبتسماً لتنعكس أخرى على شفتي فارس فرحةً وسروراً لأن نادر رد عليه ولم يتجاهله.

دفع بنفسه ليجلس أمامه سائلاً بصدمة وهو يرى لهثه الشديد: «هل كُنتَ تبحثُ عني؟!».

لم يُكمل سؤاله بعد حين تلقى رأسه ضربة نادر المعتادة، والتي بالغالب يُنهي بها غضبه منه، تقوست شفتاه ثانية قبل أن يضحك عالياً وقد أدرك أنه هو سبب تعبه وعندها: «أســـف».

تنهد نادر بإرهاق ثم انتبه لكفه بعد ضربته لرأسه، كانت متسخة بالغبار من أثر بقاء فارس لوقت طويل بالحقل متلقياً الرياح القوية بجسده..

«مُنذُ متى وأنت هنا؟!» سأله نادر وقد بدا قلقاً.

«مُنذُ خرجتُ من المنزل قبل الغروب» قالها وهو يَفرك رأسه متألماً، والابتسامة تكاد تُمزق شفتيه فنادر يتحدث معه.

«إذًا طوال بحثي أنت كُنتَ هنا في المنزل.. أنت يجب أن تمو...».

قاطعه بعبوس: «لو كان معي هاتف لاتصلتَ بي وأخبرتك أين أنا».

كسا وجه نادر الغضب وهو يراه يستغل هذه الفرصة ليشمت بتعبه لأنه رفض من قبل شراء هاتف له..

«كُنتُ سأشتري لك، ولكنك ستركله كما ركلت الحذاء».

رد ليُشعره بالحسرة والندم، ولكن بدلاً من ذلك علا وجه فارس الحزن والألم فسأله نادر مستغرباً: «ولكن لماذا لم تأخذه؟!».

نظر فارس لعينيه وبدا انكساره واضحاً لنادر وهو يقول بألم: «لأنك قلت إنك لا تريد سماع صوتي ولا رؤيتي وإني بغيض وعبء ثقيل تريد التخلص منه».

اتسعت عينا نادر عن آخرهما وظل جامداً ثوانِيَ يحاول استيعاب ما يقصده، ثم تفجرت فجأة ضحكاته الساخرة منه..

تجهم وجه فارس فيما واصل نادر ضحكاته، وهو يتكئ بظهره على جذع الشجرة كي يرتاح قليلاً..

«ما المضحك؟!».

«غباؤك».

زوى ما بين حاجبيه بحنق، فيما وضح نادر من وسط ضحكاته: «كُنتُ أقصد ذاك الوغد أحمد وليس أنت.. حين حظرته على هاتفي ظل يتصل بهاتف أمي وطلب منها أن أكلمه لأمر هام».

انفرجت تانك الشفتان واصفر وجهه.. هل سكب دموعه للا شيء؟! ولكن سرعان ما ارتجت زرقاواه فرحةً، فيما ربت نادر على رأسه متابعاً: «لم أكن أقصدك أنت».

ثم عاد يضحك: «لهذا كنت تهذي كالمجنون هنا؟!».

«ولكنك تجاهلتني صباحاً!!».

جملته هذه جمدت يد نادر.. بماذا يرد؟! بأنه هو الآخر غبي أسقط ماضيه على فتًى مثله.. بل هو كيف فكر حتى بجعل مسافة بينهما؟! هو البالغ وعليه تحمل تبعات قراره بإدخاله إلى حياته على عكس مراهق مثله..

جلس فجأة وقد حملت عيناه عزيمة كبيرة وهمس:

«سأفعلُ الخير كالسابق، ولكن هذه المرة أستأمن نفسي إلى الله وهو كفيل بحفظها من أي خذلان جديد وحتى لو تعرضتُ له ما دمتُ سأفعله لأجله لن أخسر شيئًا وهو سيتكفل بجبر ما يصيبني».

لم يفهم فارس ما يعنيه فيما استغرب نادر نفسه من توفيقه فيما نطق به.. وثوانٍ وعزم نادر على أن يواجه مخاوفه بقوله: «فارس.. لقد كُنتُ سجينًا سابقًا ولعامين».

اتسعت عينا فارس وبدا مصدوماً لنصف دقيقة وهو يتأمله ثم نطق فجأة قلقاً: «هل أنت بخير؟!».

عقد نادر حاجبيه مستغرباً: «نعم.. أنا بخير».

«حمداً لله أنك لم تمت.. فأمجد والد أختي مايا مات في السجن».

ثم شحب وجهه وأطلّ تأثر وإشفاق كبيران من عينيه وهو يقول:

«تلك الندبات في جسدك من بقائك بالسجن؟!».

هدأت ملامح نادر والجالس أمامه لا يُجرّمه، لا يسأله عن سبب دخوله السجن.. فقط يُشفق عليه، بل وقلق من أجله..

«نعم» أجاب ولا يزال متفاجئاً من ردة فعله لتشتد ملامح فارس ويصيح: «هذا حرام.. لماذا يفعلون ذلك؟!».

«لأن السجن يحوي أشخاصًا سيئين وعنيفين».

«ولكنك لست كذلك» قالها بثقة ليسأله نادر بارتباك: «لِمَ تقول ذلك؟! أنت لا تعرف ما فعلت».

«أعرفك أنت.. أنت شخص جيد وطيب».

قالها وقد حملت عيناه جدية وثقةً عالية لتبهت تانك العسليتان غير مصدق ما يسمعه فيها داعب فارس رأس برونو مكملاً: «لقد أخبرتني مايا أنه ليس كل من يدخل السجن سيئًا.. فوالدها دخل السجن لأنه فعل شيئًا سيئًا، ولكنه هو في الحقيقة لم يكن سيئاً.. لقد سرق أموال والده لأن والده كان يعترض أي تجارة له ويُفسد مشاريعه لخمسِ سنوات متتالية كي يضطر للاحتياج له وإذلاله.. وحين سئم هو ورفاقه من اعتراضه المتكرر لتجارتهم قرروا سرقته.. هو من بدأ بأذاهم أولاً لذا ردوا إليه أذاه».

أطبق شفتيه لينظر لنادر الذي ظل محدق النظر به وقد علت وجهه ابتسامة غريبة يراها للمرةِ الأولى على شفتيه، وازدادت تلك الابتسامة اتساعاً.. فمن كان يظن أن فتى بمثل مرضه قد يتفهم ما مر به.. كل قلقه السابق من أنه قد يخيب ظنه به لا معنى له.

ثم قال: «حسناً.. ما دُمتَ تملك تجربة سابقة بمثل هذا الأمر.. سأخبرك بما حدث لي وأنت احكم بنفسك».

هز فارس رأسه مصغياً له بانتباه شديد وكأنه حديث بين متقاربين بالعمر.. المرةُ الأولى التي يبوح فيها نادر لأحدٍ ما بما مر به.. ولمن؟!.. لفارس الذي كان البارحة هو من يبوح بألمه له.. هل جزاء إحسانه يُرد بهذه السرعة؟!

معجزات الله تتجاوز الحدود، ولا يوقفها أحد، فإن كُنتَ مُحسنًا فهو أشدُّ إحساناً منك..

ومرت نصف ساعة قبل أن يصمت نادر وقد ارتخى جفناه.. ما حدث له حكاه بكل مشاعره وكأنه يحدث الظلام عن نفسه لا شخصًا أمامه..

وكأنه يحدث حقل التفاح الذي اعتاد التجول فيه والبوح بمكنون نفسه له.. ومع صمته انتبه للجالس أمامه وقد تلألأت عيناه فضحك ساخراً..

«ماذا؟!» صاح فارس وهو يمسح عينيه.

«حتى أنا صاحب القصة لم أبك فلمَ تبكي؟!».

«ليس وكأني أريد ذلك» قالها ساخطاً وبحق هو يرغب لو كان قوياً ومتزناً مثله.

فيما أخفى نادر نظرته الممتنة، فتلك هيَ المرةُ الأولى التي يبكي فيها فارس.. لا مفزوعاً.. ولا متألماً.. ولا حزيناً.. يبكي من أجله فقط.. من أجل ماضيه..

«أنت.. تصدقني؟!» سأله نادر وهو ينظر له ولم يكن بحاجة لإجابته فحال فارس ينبئه بأنه يصدق كل حرف نطق به، بل وفاجأه حين اشتدت قبضته بغيظ وهو يقول: «ظننتُ تلك المرأة طيبة.. أنا أكرهها» قالها بكل بساطة معبراً عن مشاعره بشكل صريح..

«وأحمد؟!»

سأله نادر فجأة، فارتخت ملامحه وضاقت حدقتاه وبدا حائراً للغاية..

«حسناً.. لا بأس علينا الدخول فأمي أظنها تكاد تجنُّ قلقاً فقد خرجتُ من عندها راكضاً».

لم يتحرك فارس وهو يميل نحوه سائلاً:

«أتذكر تلك الليلة في المستشفى عندما أخبرتني أنه عندما يخبرك الآخرون بأنك سيئ فأنت سيئ؟!»

تجمد نادر وضاقت عيناه.. هل سيخبره الآن أنه سيئ؟!

فيما تابع فارس بضحكة: «في تلك الليلة حين تحدثت عن المجرمين والسجن تذكرت أختي مايا حين كانت تتحدث عن والدها.. كانت تتألم لأنها لا تستطيع إقناع من بمدرستها بأن والدها ليس سيئًا ولم أكن أعلم ما ينبغي عليّ أن أقول لها كي لا تحزن فأخبرتها بسرعة: (مايا والدك أمجد ليس سيئًا) وعندها فوجئت بأنها فرحت وكادت تبكي.. أما أنت فمع صوتك الحزين لم أعرف من علي أن أوجه له هذه العبارة فقلتُ لك: (لست سيئًا)».

وصمت وعيناه تحدقان بنادر مربكاً له ثم صاح فجأة بابتهاج: «وقد كُنتُ مُحقًّا.. أنت لست سيئًا».

زينت ابتسامة كبيرة شفتي نادر وعكست عسليتاه دفئًا وودًّا كبيرين نحوه، وهو يتبع حركاته وتنقلاته من موقع لآخر في الحقل يلهو مع برونو بعد أن قذف بعبارته.

«أُمي محقة.. ما أنا إلا طفل».

تمتم بها ضاحكاً وشيء في أعماقه يُشرق، فهناك من تفهم ماضيه رغم سوئه..

وجبر قلبه المتلهف لسماع (لستَ سيئًا)..

ويدلاً من أن يتقبل ذلك اليوم فارس حين صاح بها في وجهه، هرب خوفاً من أن يعتاد عليها ويدمنها ثم تصفعه الحياة فجأة بحقيقته المُرة..

«سأتقبلها هذه المرة»

قالها وبدلاً من الابتعاد عن فارس وجعل مسافة بينهما نهض ليقترب منه و.. «تبّـاً!»: صرخ وقدمه تعلق في حفرة غريبة في الحقل.

«ما هذا؟!» انحنى مخرجاً ساقه وناظراً للحافظة المندسة في الحفرة..

أسرع فارس نحوه وقد بدا متوتراً فسأله نادر باستنكار: «لِمَ فعلت ذلك؟!».

حرك عينيه للطرف الآخر وقد ملأ وجهه الذنب: «لست أنا».

على من يكذب؟! لا أحد غيره بهذا الموقع والحافظة كانت معه هو أيضاً!

«أعلم أنه أنت»: بحدة قالها ثم رفع حاجبيه: «ولكن لماذا؟!».

وحين لاحظ فارس أنه ليس غاضبًا منه أجاب بارتباك: «أردتُ أن أُعيد الحافظة حتى تصنع ريم لك طعاماً، ولأني لم أذهب إليها خشيت أن تقول جدتي إنني فاشل فلم يكن أمامي خيار آخر».

اتسعت عينا نادر ونظر لكفيه المتسختين بالتراب من الحفر.. ثم نظر لوجهه المتجهم و: «هل أنت كلب؟!».

مط شفتيه بضيق: «ماذا أفعل إذًا؟! لقد كُنتُ سأذهب إليها، ولكني تذكرتُ أنك قلت ألا أخرج من المنزل وإن خروجي سيؤذيك ويرمي بك في السجن».

ارتفع حاجبا نادر مصدوماً.. لهذا إذًا لم يخرج رغم بكائه ومقاساته البرد في الحقل لأنه لا يريد لنادر أن يتأذى..

ابتسم وما لبثت أن تحولت لضحكات وهو يردد: «من أين تحضر أفكارك؟! تدفن الحافظة؟!».

انحنى فارس نحو الحفرة وواصل حفره وقد ذكره نادر بأنه لم ينه ما بدأه فعصا العجوز لا تمزح..

وظل نادر يضحك قبل أن ينحني هو الآخر ليحفر.. ارتجفت تانك الزرقاوان وبان بهما التأثر فيما أخفى نادر الحافظة جيداً متمتماً: «ما دمتُ سبباً فيما حدث لك سأساعدك كما أنني أكره هذه الحافظة».

«تخيّل مثلاً أن تنبت شجرة فوقها وتكون جميع ثمارها حافظات صغيرة» قالها فارس فجأة متهكماً بحماس ليعود نادر ضاحكاً بشدة.. ويحق هذا الفتى مجنون هو وأفكاره..

نفضا أيديهما بعد أن أنهيا جريمتهما واتفقا معاً على إخبار العجوز أن ريم استلمت حافظتها وانتهت المشكلة..

سارا معاً نحو المنزل، ثم توقف نادر فجأة، ليسأل فارس: «اليوم صباحاً.. هل أضربت عن الحديث معي أم كُنتُ واهماً؟!».

«نعم.. لقد قالت جدتي إنك قد تكون سئمت من ثرثرتي لذا سكت».

قالها بكل بساطة ليظهر استنكار شديد في عيني نادر: «أحمق.. إن كان هناك شيء تشكُّ به فاسألني مباشرة.. في البداية صدقت أمي ومن ثم ظننت أنني أتحدث عنك..».

أومأ فارس برأسه سائلاً: «أسألك؟!».

«بالتأكيد.. وضع هذه العبارة بعقلك ولا تنسَها.. صارح إن أردتَ أن تُصالح». تمتم بها نادر وهو يذكر وقوف فارس أمام البراد وفي أعماقه وثق أن فارس لو حدثه وسأله ذلك الوقت لكان لان له..

«حسناً» قال فارس ثم سأل فجأة: «إذًا لماذا تجاهلتني صباحاً؟!».

قفزت ابتسامة متورطة لشفتي نادر وفكر لثانية فقط قبل أن يرتدي ثوب الرصانة وهو يُجيب: «لأنك أكلت من حافظة ريم.. ليس وكأني أريد الأكل منها، بل لأني أريد رميها إليها بكاملها لتعلم أني لستُ بحاجة لطعامها».

صدق فارس تلك الكذبة تماماً وظهر ضيقه: «لم أكن أعلم أنك تُبغض طعامها.. لن أفعل ذلك مجدداً».

ثم حمل صوته أقصى نبرات الألم النفسي ليصارحه هو الآخر: «أرجوك.. لا تتجاهلني مجدداً وأخبرني بالسبب.. فهذا مؤلم!».

وعكست عيناه حالة اضطرابه وحيرته التي مر بها وهو يحاول فهم سبب تجاهل نادر له..

«حسناً.. أعدك» قال، وقد عكست عيناه تعاطفه وندمه، فيما ابتسم فارس برضًا قبل أن يصيح فجأة: «نسيت.. جدتي سمّت طيْريّ قريم ولولو.. هل تصدق ذلك؟! و.. و.. أنا طهوت خبزي اليوم وأحرقته و..»

زفر نادر محنقاً ما كان عليه أن يَعِدَه فهو الآن عليه سماع ثرثرة يوم بأكمله.

****

«كيف له أن يكون بهذا البرود؟!»

تمتم أحمد بخوف وعقله يتخيل عشرات السيناريوهات حول القبض على فارس!! حتى قريتهم البدائية والضعيفة شبكة الاتصالات لا بد وأن ينجح على الأقل الربع من سكانها في رؤية تلك الصورة لفارس، وعندها قد يُبلغ عنه أحد فيتم القبض عليه ومن ثم سيُجر نادر من خلفه إلى السجن.

كان يدور في شقته، مرة بالمطبخ يصنع له عشاء من (الأندومي) المحترق، وشايًا أسود كسواد الليل وتلك المصيبة..

ولكن أكثر ما أثار غضبه هو صمت نادر الطويل، وحين سأله: «أنت لا تفكر بتسليمه وأخذ المال؟!!».

لم يُجب، وحينها أدرك أن هناك خللًا ما بعقل صديق طفولته.. كيف ينقذه ومن ثم يفكر بتسليمه للحصول على المكافأة؟!

وارتفع رنين هاتفه فانتفض بفزع من شروده، ركض نحوه، لا بد وأنه نادر!! ولكنه تذكر فجأة أنه شتمه حين أدرك رغبته بالمال وأقفل الخط في وجهه وحظره هو الآخر، ثم زفر بتعب حين رأى اسم المتصل..

تردد قليلاً قبل رده عليها ليصله صوتها الباكي فقال بقلق: «ماذا حدث؟».

«لم أُطلق عليه سوى لفظ لقيط.. قلت ما قاله عن نفسه وما قاله والده له». وازداد صوتها اهتزازاً وهي تستطرد باستنكار: «فلم يكرهني كل هذا الكره؟!».

أغمض عينيه بتعب، هل عليه الآن سماع شكواها؟! ثم قال بهدوء: «بسبب أفكارك هذه يكرهك.. أنتِ لم تعتذري منه.. وتبررين دومًا لنفسك.. ألا تشعرين بأقل قدر من تأنيب الضمير؟!».

«هو من آذى ثابت وتسبب في دخوله إلى السجن».

«إذًا هو خطؤه».

«الجميع شتموه بلقيط في وجهه.. الجميع انتقصوا منه لشهر وأكثر بعد أن شاعت علانية في المدرسة.. وحين قالها ثابت فقط ثار عليه.. فما ذنبي أنا؟!».

تنهد بتعب، وما قالته قد أشغل تفكيره من قبل، ومع ذلك سألها: «ماذا تريدين؟!».

«أنت تعلم».

«ألم تدركي ذلك قبل أن تبوحي بسره؟!».

زاد بكاؤها حدة واستشعر أحمد من نبرتها صدقها وانكسارها: «لم أُدرك ذلك.. لم أكن أعلم أني أحبه إلا حين اختفى.. حين أخذته الشرطة.. حين علمت أنني لن أستطيع رؤيته لسنتين كاملتين.. الأيام التي قضيتها وأنا لا أراه كانت كالجحيم بالنسبة لي.. حين أزور منزله ولا أراه أفتقده وأفتقد ابتسامته وبشاشته حين يُرحب بي.. ظننت تقبله لي شيئًا مُسلمًا به بسبب السنوات السبع التي جمعتنا، ولم أظن أنه قد يتغير معي».

عكس وجه أحمد همّه، وحزنه: «أنتِ من غيرته».

سمع نشيجها، فأكمل بحزن: «وأنا من غيرته.. وزملاؤه بالمدرسة وجيرانه وقريته.. جميعنا.. ومهما كان معنا سيئًا لا يحق لنا أن نلومه».

وابتسم برفق: «اعتبري حبك له عقابًا لكِ لظلمك له ودعيه وشأنه.. ريم لا مستقبل لكِ معه».

جاوبه صمتها ولأول مرة لا تجادله، لم يكن يعلم أنها قبل محادثتها له قد كان هذا ما تيقنته نفسها إلا أنها لم تعترف بذلك، وبدلاً من التسليم قالت: «نادر صفعني».

نهض وقد اعتلى وجهه مزيج من الغضب والصدمة: «ماذا فعلتِ به؟!».

«أخبرك أنه صفعني وتسأل ماذا فعلت أنا؟!».

«لأني أعرفه، أعرف نادر مهما بلغت وقاحته فهو لن يلمسك وإن فعل فلا بد وأنكِ ارتكبتِ شيئًا آذاه بشدة فأنا أعرفكِ أنتِ أيضًا».

واشتد صوته: «ماذا فعلتِ به هذه المرة؟!».

«اسأله ما دمت تعرفه».

وأغلقت الخط في وجهه، بعد أن أثارت قلقه عليه، إلى متى سيبقى عالقًا بين هذين الاثنين!!

****

٩ مساءً

أغلقت النافذة الداخلة منها الرياح وقد ارتسم قلق شديد على وجهها المتجعد، ثم عادت نحو الباب لتفتحه ناظرة إلى الخارج إن كان نادر وفارس قد عادا.. ولكن لا أثر للاثنين!!

«ما الذي يخافه؟! إنها ريم ليس إلا» تمتمت بها العجوز وهي تلتفت للمسن الذي أشار إليها لتجلس بعد طول وقوفها محركاً شفتيه: «توقفي عن القلق.. نادر شخص كبير وريم تُحبه وكلانا نعلم أنها لن تؤذيه».

عادت نحوه لتجلس على الأريكة، وعصاها تستقر فوق وسطها قائلة بضيق: «لا أظن نادر يبادلها هذا الشعور».

«بالتأكيد فقد قاطعته لأكثر من ثلاثة أشهر فهل تظنين رجلًا سيتساهل مع امرأة أدارت ظهرها له وقت حاجته؟!».

«وأنا من كُنتُ أرغب بمفاتحته بأمر الزواج منها بعد فسخ خطوبتها من أحمد».

قالتها متبرمة ليتجهم وجه المسن:

«إياكِ أن تقولي له برغبتك.. إن كان يريد الزواج منها فسيتحدث بنفسه.. أنتِ رأيتِ بنفسك كيف أصبح بعد خروجه من السجن!.. أصبح ينفذ رغباتنا التي تمنيناها قبل سجنه حتى ما خالف منها رغبته وأخشى أن يطيعك وهو لا يرغب بالزواج منها».

أومأت العجوز برأسها مستسلمة: «فقط أردتُ الاطمئنان عليه قبل موتي».

«لا تختاريها لمجرد أنها هي المتاحة فقط.. اغمريه بدعواتك كما أفعل ولن يخيب الله دعاءنا..».

هزت العجوز رأسها متفهمة قبل أن تراه يسحب لوحًا خشبيًا، فانعقد حاجباها: «ماذا تفعل؟!».

«لقد اشتقتُ للعبها.. حين يعود نادر سنلعبها معاً».

ضحكت العجوز وهي تراه يضع لوح (الكيرم) فوق طاولة مستطيلة ونثر الأقراص فوقها..

«في كل يوم تتعلق بالماضي أكثر وأكثر» قالتها وهي تسحب عددًا من الخضروات لتقطيعها كسلطة للعشاء، فيما رد عليها وقد عكست عيناه حباً كبيراً: «على الرغم من أن صرفه لماله على شراء هذا الحقل قد أزعجني إلا أني ممتن له كثيراً».

«وأنا أيضاً» نطقت العجوز وهي تبتسم ثم أضافت: «وجلبه أيضاً لذاك المجنون..».

«علمتُ أنكِ ستحبينه.. أنتِ دائماً تتشاجرين مع من تحبين»: وصمت ثانية ليُردف: «كأول مرة التقينا.. أتذكرين؟!».

ضحكت العجوز: «لقد تشاجرنا وأسقطتك في البئر».

«كُنتِ مجنونة».

«كُنتُ صغيرة» قالتها عاتبة ومحرجة حين فُتح الباب فجأة ليبرز من خلفه نادر، لم ينتبها لدخوله وبقيا يتحدثان فنقل نادر بصره بين الاثنين ثانية قبل أن يقول بخبث:

«هل أعود إلى الحقل؟!».

حرك المسن لوح الكيرم في ارتباك مع سماعه لصوته فيما سحبت العجوز عصاها وقد احمر وجهها: «ماذا تقصد أيها القذر؟» والتفتت يمنةً ويسرة بقلق قبل أن تصيح: «أين فارس؟!».

دخل نادر المبتسم بلؤم إلى الصالة، ومن خلفه برز فارس، وهو يدفع برونو إلى الخارج كي يغلق الباب..

«أنت بخير بُني؟!»

سمع صوتها القلق فغطت شفتيه ابتسامة واسعة وهو يومئ برأسه بـ(نعم)، واقترب أكثر منها هامساً: «لم يعد يتجاهلني واعتذر لي.. لقد تصالحنا».

أطلّ من عينيها إشفاق كبير وهي ترى عينيه المتورمتين ثم.. «آآآآه!» صاح نادر وتلك العصا تطرقُ رأسه.

«لماذا.. ماذا فعلت؟!» أردف مستنكراً، وكلتا كفيه تشدُّ على رأسه، وعيناه تنبهانها كي تكف عن التقليل من قدره أمام مريضه.

«لو فعلتها به مجدداً.. فسأكسر جمجمتك».

«هي كُسرت بالفعل»

تمتم محنقاً وكفه تدلك موضع الضربة، وأليس من المفترض أن يُدافع عنه فارس كأول مرة التقيا بالعجوز؟!.. التفت نحوه ليجده يبتسم للعجوز ممتناً، وهي تبتسم له بلطف فتجهم وجهه أكثر.

ورأى الثلاثة ركض فارس المفاجئ نحو حجرته ثم عاد حاملاً صندوق إسعافات وجلس مجاوراً لنادر على الأريكة..

أطلّ الاستغراب من عيني نادر وهو يراه يُخرج المعقم والقطن والشاش وامتدت يده فجأة لتسحب ذراع نادر اليسرى ليرفع كُمّ ذراعه للأعلى..

اتسعت عينا نادر فهو حقاً لم ينتبه لجرح ذراعه الذي نزف ولوث ملابسه وقد يكون حصل عليه حين كان يدفع أغصان الأشجار ركضاً خلف برونو..

«أنا سأُعالجه» قال نادر بهدوء ويده اليمنى تمتد لتأخذ المعقم، ولكن فارس عارضه: «لا.. أنت دائماً ما تفعل ذلك لي ولا أمانع».

«لأني طبيب».

«طبيب نفسي وليس بشريًا» قال بجدية مفاجئة ليصمتا ثوانيَ قفز فيها لذاكرتهما ذكرى قديمة فضحكا معاً..

«كُنتَ أحمقَ» قال نادر.

«لستُ أحمق لقد قلت إنك طبيب نفسي وليس بشريًا.. بالتأكيد سيختلط الأمرُ علي».

«لا تبرر سذاجتك»

أعادها مجدداً ليعبس فارس ومع ذلك لم يتوقف عن سحب ذراعه راجياً: «دعني أعالجك».

أعاد نادر طيات كُمّه للأسفل.. وكبرياؤه يرفض.. (أن يعالجك من كُنتَ تعالجه!!.. بل ومراهق مثله.. فخره بنفسه وكرامته في خطر)..

«ابتعد.. ابتعد!»

صاحت العجوز، وعلبة أعشابها الطبية بين كفيها، بعد أن رأت جرحه، وبشكل مفاجئ شهق فارس، وذراع نادر ترتطم بصدره، معطياً له إياها بالكامل، وقد ارتسم رعب بعينيه، وهو يقول:

«عالجني.. رجاءً!».

ضحك فارس وهو يتولى الأمر بدقة كعادة نادر في علاجه، فيما انسحبت العجوز محبطة لينظر لها المسن ويضحك.. وبالفعل حتى هو يتهرب من علاجها اللاسع.

«هل أعدتما الحافظة؟!».

قشعريرة باردة سرت في ظهر الاثنين وقفزت لشفاههما ابتسامة صفراء..

«نعم أمي»، «أجل جدتي».

ابتسمت بسعادة لكونها سبب صُلحهما، فيما تبادل الاثنان نظرات متوترة قبل أن يبتسما وهو سرهما المشترك الأول.

«كُنتُ أعلم أنك ستنجح باتباع خريطتي عكس عديم الفائدة المجاور لك»

قالتها متباهية بنفسها لتتسع عينا نادر، وسأله هامساً: «هل أعطتك خريطة؟!».

كانت إجابة فارس بأن أخرج الورقة وأعطاها له، فشحب وجه نادر وهو ينظر لها: «لو اتبعتها لم أكن لأجدك أبداً».

«لماذا؟!» سأل فارس وقطنه يمسح الجرح.

«لأن ما تسميه خريطة سيقودك إلى خارج القرية».

اتسعت عينا فارس وهو يتذكرها ترسم بحماس، ثم ارتخى جفناه مشفقاً عليها: «سأعلمها الرسم.. مسكينة».

استغرب نادر ردة فعله ثم ضحك، ففي غيابه يبدو أن هذين الاثنين قد انسجما جيداً، وكونا بعض الارتباط القوي بعضهما ببعض.

«أوتش» همس متألماً، وفارس يلف الشاش على جرحه.

«ليس هكذا.. هل تغطي الجرح أم تربط يدي؟! أرخه قليلاً».

«لطالما ظننتُ أن يكون وثيقًا هو الأفضل.. فهمت.. لأنه يؤلم لهذا لا يشدونه» قال فارس بابتسامة متحمسة.

«هل تمارس حلمك بالطب فيّ؟!».

حدق فيه بزرقاوين مُلئتا بهجة، جعلته يثق أن ما ظنه صحيح،

فتنهد بحنق، وعسليتاه ترمقانه بنظرة غامضة.. هذا المشاكس طبيب؟!

ولولا أنه سبب ما أصابه الليلة لكان نهض وتركه، ولكنه واصل الجلوس ليُرخي فارس الشاش ويربطه مجدداً.

وبعد ساعة من تناولهم للعشاء، كان نادر يضحك، وهو يقابل والده على الجانب الآخر من طاولة الكيرم وعيناه تعكسان حنيناً لما مضى.

«أبي.. أنت واثق أنك لن تندم؟!.. لقد كبِرتُ الآن وأصبحت واعياً لكيفية ضرب الأقراص وإسقاطها في الفجوات».

«الرجال لا يتحدثون.. بل يفعلون» رد والده، وهو يُجمع الأقراص في المنتصف بيديه اللتين غيرتهما التجاعيد..

تأملهما نادر قبل أن يرتخي جفناه.. كيف يفعل مرور الزمن بالناس؟!

«حسنـــاً.. فلنبدأ»

وعلا صوت ضربات الأقراص وتعالى حماس الاثنين، وصخبهما الضاحك، فيما جلس فارس في الطرف الآخر من الطاولة يراقبهما دون فهم ويضحك مع هذا ويشجع ذاك.

ومر وقت طويل قبل أن يصيح نادر: «لقد فزت!».

«أنت لا تتساهل مع والدك حتى وهو شيخ كبير؟!» قالتها العجوز مستنكرة.

«أمي كوني مُنصفة إنها المرةُ الأولى التي أفوز فيها ضده ثم إنه جارح لكبرياء الرجال أن نتساهل لكونهم كبارًا فقط».

هز المسن رأسه مؤيداً، وعيناه تضيقان لخسارته، فقالت باستسخاف: «كبرياء الرجال؟!».

«أُريد أن ألعب» قال فارس فجأة موقفاً المسن ونادر اللذين كادا يبدأان جولة جديدة.

«لا نستطيع.. قواعد اللعبة تنص على اثنين أو أربعة» قال نادر، وهو يحدد الزاوية التي سيضرب باتجاهها.

«ولكن نحن أربعة؟!».

«أربعة؟!» نطق نادر متفاجئاً، وتحركت بها شفتا المسن مستنكراً، قبل أن يريا فارس ينهض ليقف أمام العجوز مُلحّاً عليها بالانضمام لفريقه.

«لن يستطيع إقناعها» قال المسن وهز نادر رأسه مؤيداً فهي لم تلعب هذه اللعبة أبداً.

وعشرُ دقائق وكان فارس يجرها من ذراعها لتنضم إليهم.. شهق المسن فيما انفرجت شفتا نادر وهو يراها تصيح بفارس: «توقف عن سحبي.. قُلتُ لك سألعب».

ضحك فارس وهو يُسرع ليتخذ موقعه أمام طاولة اللعب فيما ظل الاثنان مصدومين وهي تقترب لتحتل المكان الرابع.

«هل جلوسي يخيفكما من الخسارة إلى هذا الحد؟!»

قالت متهكمة وقد فهمت نظراتهما، ودارت حرجها منهما بما قالت، ثم وبحق ذلك المسكين الذي بكى في الحمام اليوم مطولاً ألا يحق له أيضاً أن يستمتع قليلاً؟!!

«بالطبع لا»

قال المسن وقد ازداد حماسه فيما ابتسم نادر وعيناه تسترقان نظرات لفارس..

كيف أقنعها؟!

بل ما كُلُّ هذا التغير الجذري في أسرته؟!

المرةُ الأولى التي يعود فيها إليهم والأحداث لا تتوقف والملل لا يزورهم وضحكاتهم لا تفارق شفاههم..

«سنسحقهما» قال فارس وعيناه تلتقيان بعيني العجوز لتتألق عيناها بحماس بـ «نعم».

وبدأت مباراتهم ولعبهم.. واستمرت معه متعتهم وضحكاتهم..

لحظة لن ينساها نادر طوال حياته فهيَ تعادل كل لحظاته الجميلة معهما والتي لم يحظ يوماً بمثلها..

وانتهت اللعبة أخيراً..

وفازت العجوز وفارس فانطلقت ضحكاتهما وصيحاتهما ترج المنزل..

ابتسم نادر والمسن وتبادلا نظرات ساخرة فهما من تساهلا معهما ليفوزا..

وقبل أن تنهض العجوز كان قد صرخ فارس: «ابقي مكانك.. لا أحد يتحرك.. يجب أن نُوَثِّقَ فوزنا عليهما!».

انعقد حاجبا نادر مستنكراً، وهو يراه يهرع لمعطفه المعلق ليسحب منه هاتفه ثم عاد نحوهم ليجلس على مقعده وصاح مبتسماً: «صورة عائلية».

لم يجرؤ نادر على فعلها يومًا ولم يفكر حتى.. ولم يكن ليظن أن والديه قد يحبان ذلك..

«كيف تفعل فتيات هذه الأيام؟!»

تمتمت العجوز، وهي تبتسم للكاميرا، وترفع يدها كي تشير بأصبعيها الوسطى والسبابة وعقدت البقية.. كانت كفها بالكاد تشبه ما تفعله الفتيات.. ضحك الثلاثة عليها، وتلك الصور تُلتقط مراراً وتكراراً..

ولم يُبدِ أحدهم استنكاره لقول فارس: (صورة عائلية).. فهو ليس من العائلة ومع ذلك راح الجميع يلتقطون صورة معه، وكأنه فرد من هذه العائلة..

الجميع مستمتعون، ومع ذلك لم يستطع نادر إيقاف عقله عن التفكير.. من الذي سيدفع مليوني دولار لأخذه؟!.. هل هم عائلته؟!.. أخته مايا؟!

تذكر ردة فعل أحمد عليه، فتحرك فمه دون صوت بـ: «مثالي بغيض!».

فما الخطأ في تفكيره بأخذ المال؟!.. لقد هرَّبَهُ من المستشفى وفقد وظيفته وعالجه.. ألا يستحق بعض المكافأة على جهده!!

حسناً.. ليست مكافأة.. بل مبلغ ضخم، الغبي فقط من سيفوته!!

هذا المال سيسمح له بالرحيل مباشرة ليشتري منزلًا له في العاصمة وقد يقنع والديه بالرحيل معه، سيبتعد عن هذه القرية البغيضة ويعيش بسلام ومنعماً لسنوات لا تعد.. حتى أنه قد يمتهن وظيفة محقق خاص على حسابه الشخصي..

وابتسم وهو يراه يشاكس العجوز.. سيأخذ المليوني دولار.. نعم سيفعل، ولكن فقط حين يعلم أنه لن يتأذى.. حين يتيقن أنه سيعيش بسلام يُعادل سلامه هذا مئة مرة..

وسحب هاتفه من يد فارس الذي عبس، دون أن يهتم به، وانشغل لدقائق بمراسلة زيد كلّفه فيها بتتبع عنوان أول بروتوكول ناشر لصورة فارس عبر مواقع الويب وشبكات التواصل الاجتماعي..

وكان وسط انشغاله حين ارتفع صوت سعال المسن فترك الهاتف، فيما أوقفت العجوز شجارها مع فارس ونظرت إليه بقلق، حرك كفه لهما أن لا يهتما إلا أنهما اتجها نحوه.

«لا بد أنه من رياح الحقل الباردة»

قال المسن وهو يرفع كفه ليغطي فمه.. تحرك نادر ليغلق الشرفة المفتوحة، وهو يسأله بقلق: «هل تناولت أدويتك اليوم؟».

«نعم» أجاب والعجوز تقف جواره مانحة إياه كوبًا من الماء شربه جرعةً واحدة.

نظر فارس نحوهم لا يدري أي مساعدة قد يقدمها بدوره حين ارتفع فجأة من خارج المنزل صوت برونو ينبح بقوة وتحول صوت نباحه لعويل غريب.

«سأذهب لتفقده»: قال فارس وهو يقفز عن الأريكة هاماً بالخروج إلا أن نادر استوقفه بحزم: «كلا!.. لقد بقيت في الخارج لوقت طويل.. أنا من سيخرج».

عاد للجلوس فيما خرج نادر، وبعد عشرين دقيقة عاد مخفياً كفيه في

جيبي بنطلونه ووجهه لا يحمل أي مشاعر تُذكر قائلاً: «لقد سحبته إلى الإصطبل القديم لينام فيه.. يبدو أن الجو بارد جدّاً بالخارج».

أومأت العجوز برأسها متفهمة وهي تدفع مقعد المسن لحجرة النوم ولحق بها نادر ليساعد بوضعه على السرير..

وخلال ساعة واحدة كان الجميع قد خلدوا للنوم حتى أن فارس بالكاد عيناه مفتوحتان، وهو ينظر لنادر الجالس على سريره، وقد نصب إحدى ركبتيه، وأحاطها بذراعه، وعيناه تحدقان بشرود بما خارج النافذة..

شيء غريب لاحظه فارس بوجهه..

شيء لم يره بعيني نادر طوال مرافقته له..

ولم يكد يغرق فارس في نومه حتى نهض نادر عن سريره، وغادر المنزل شاقّاً طريقه بين أشجار التفاح، ليصل أخيراً لتلك الجثة الممزقة ودمها يسيل من أسفل منها.

«برونو!»

تمتم بها وعيناه تحمران حزنًا، وقد خمن عقله أن أسرة ثابت قد تحركت بعد أقل من أسبوعين من رجوعه إلى القرية؛ لتنتقم منه لعودته إلى هذا المنزل المقابل لمنزلهم.

****

«لا شيء يسير كما أريد.. أيُّ سوء حظ أصابني؟! أيُّ شؤم حلّ بدياري بعد تسع سنوات من نجاحنا بالتستر على هذا الفتى؟!»

وضرب بقبضته نافذة سيارته، مفزعًا سائقه الخاص..

«سيد فاضل لقد أوقفتُ السيارة أمام منزلك»

قال السائق مرتبكاً، فقد مر نصف ساعة مُنذُ وقوفهما، وفاضل منشغل بشتم حظه العاثر، وانتقل ليشتم عائلة فارس بأكملها بعد تلقيه لمكالمة أكّدَت له أن مايا وراكان ما زالا في بريطانيا.

«من؟!.. من إذًا ناشر الصورة والمكافأة؟!»

تمتم بها حانقاً فذانك المليونا دولار قد سَرقا منه كل المعلومات والبلاغات المتدفقة حول الفتى، بل ورئيس الشرطة غير مساعد له كي يكتشفوا من وضعها.

«أموالي.. أموالي التي صنعتها بيديّ وضخمتها أكثر من والدي»: ناح متحسرًا على نفسه فإن لم يستطع محاميه تأجيل المحكمة قبل موعدها فسيُحكم بالورث للجمعيات الخيرية.

«ذلك المسن كان عليّ أن أقتله هو قبل أن يكتب وصيته» هتف، وحقده يزداد أكثر وأكثر على والده.. فهو لم يمنحه حتى منزلاً باسمه.. كلها لفارس فقط.. أو الجمعيات الخيرية..

ومع مصارعته لأفكاره، ارتفع رنين هاتفه ليلتقطه بسرعة، وقد ظهر على شاشته رقم أحد حرس منزله.

«نعم؟» أجاب بضجر ليرد محدثه: «سيدي.. ياسر فك قيده وهرب».

شهق فاضل، وخرج من السيارة راكضاً إلى السقيفة المعدنية المُلحقة بمنزله، ليجد الرجل يقف هناك ممسكًا بهاتفه وقد علا وجهه الفزع.

«كيف هرب؟!»

صرخ فاضل، وهو يدلف إلى الحجرة المليئة بأدوات النجارة، وعدة التصليح، ثم رأى القيد المرخى على الأرض وإلى جواره مفتاح لفك البراغي.. لقد استخدمه في التخلص من أغلاله.

«اللعنة.. يجب أن أُبلغ عنه لرئيس الشرطـ..»

وأُخرس تماماً لتهوره!.. يستحيل أن يُبلغ عنه؛ فلو فعل فسيجره ياسر معه للسجن فهو من دفعه لجريمته قبل تسع سنوات..

«انظر» سمع صوت خادمه المذعور من خلفه، فالتفت ليُصدم بالخط الذي نُقش بأداة حديدية على معدن الحجرة..

«سأقتل فارس.. ولتحلم أيها اللعين بالحصول على ورث والدك».

غطى وجهه الفزع، وقد تيقن أكثر أن ياسر هو من اختطف الفتى، لقد أهانه وسجنه بهذه الحجرة وبالتأكيد لن يتهاون معه، سينتقم منه بحرمانه من الورث ليذهب كله إلى الجمعيات الخيرية.

****

(١٠) اليد المعطوبة

١٢ أكتوبر - السادسة صباحًا

لملمت شعرها المنسدل بمشبك فضي، وظهر أسفل عينيها الزرقاوين هالتان سوداوان، وهيَ تقف أمام طاولة دائرية انتثر فوقها عدد كبير من الأوراق، أخذت تنتقل بقراءتها من ورقة إلى أخرى، وقد بان عليها التركيز العميق.

«مثلهُ تماماً».

قال رجل في أول عقده الخامس، هامساً في أذن رفيقه، وهما يجلسان على الجانب الآخر من الطاولة.

«أنت تقصد والدها (أمجد) حين كنا نخطط لسرقة إحدى خزائن والده بسام ثروت؟!» سأله رفيقه.

«نعم.. إنها ابنتهُ بالفعل.. أتذكر؟! كانت في الرابعة، تتنقل بيننا لاعبة بهذا وذاك، ووالدها غارق في التخطيط يقطع انشغاله بضع مرات ليداعبها قليلاً».

«أجل.. أجل وبقيت ترافقنا في حجرة التخطيط لخمس سنوات حتى أننا كنا نَعدها كابنة لنا» قال رفيقه بشيء من الأسف والحنان، وهو يتأمل وجهها العاكس همّها وضيقها.

«فقدت والدها صغيرة وصُدمت فيما بعد بحادثة أخيها» قال الخمسيني هازّاً رأسه بأسَى، ثم أردف وعيناه لا تفارقانها: «لقد كبِرت وأصبحت شابة يُعتمد عليها».

«نعم.. ماذا لو رآها والدها الآن؟!، لكان فخر بها، فلطالما ناداها بابنتي البلهاء فمن كان يظن أنها ستصبح محامية؟!».

«عم سامي.. عم سعد.. لم أجلبكما إلى هنا لتتهامسا كالعجائز بالنميمةِ عني.. تحركا هيا».

قالتها ووجهها يعكس غضبها الشديد فهبًّا معاً.. وتبّاً!.. هيَ نسخة عن والدها حتى في غضبه.

سحبا بعض الأوراق من أمامها، ثم تفحصا ما بها قبل أن يقول سامي: «أنا لا خبرةَ لي بما في هذه الأوراق، وكل ما أتقنه هو ما فعلته البارحة من صناعة صورة أقرب للحقيقة لأخيكِ فارس في عمر السابعة عشرة».

«تلك كانت مفيدة جدّاً» قالتها، وهيَ تسحب مقعدًا لتجلس عليه فيما ناولت سعد عدة أوراق أخرى متابعة: «هذه البلاغات التي وصلتنا خلال الساعات الست الماضية، استبعدتُ منها بعض التي أظهرت تناقضًا بمعلوماتها.. تيقن منها رجاءً».

استلم سعد منها الأوراق، وكاد يذهب، لولا أنه وقف فجأة، ليقول: «مايا».

رفعت رأسها عن باقي الأوراق ليبتسم لها بلطف أبوي مفصحاً: «يا ابنتي.. لا تعقدي أملاً كبيراً.. أنتِ من سيتضرر إذا ما خاب ظنك».

ارتخت ملامحها، وظلت للحظة تقاوم هيجان دموعها، ثم هدأت لتنطق: «إن كان هذا الفتى أخي وتجاهلته فأنا أثقُ أني سأكون أشدَّ ندمًا وبؤسًا لما تبقى من حياتي».

وارتجفت عيناها: «لقد تركته مرة ولن أتركهُ مرةً أخرى إن شاء الله».

صوتها المهتز حمل نبرة تأنيب ضميرها لها، فأرخى جفنيه مشفقاً عليها، ثم قال: «إن كان في ذلك ما يرضيكِ ويُريحك فنحن معكِ إلى نهاية شكك هذا مهما كانت نتيجته».

أومأت برأسها ممتنة، وهيَ ترى مغادرته، فيما جلس سامي مجاوراً لها ليلتقط بعض الصور، وقد أثار حماسها حماسته، وقال: «ما دمتُ خبيرًا في التقنية سوف أتيقن إن كانت الصور المرسلة من المُبلّغين مطابقة لصورة فارس، وإنِ كان أغلبها يظهر فيها التدليس والخداع بشكل مقزز.. إنهم يسعون خلف المليوني دولار ليس إلا».

سحبت مفكرة لتكتب عليها وهي ترد: «هذان المليونان جذباهم ليتصلوا بنا بدلاً من مركز الشرطة».

«نعم أنتِ ذكية»

قالها في الوقت الذي فُتح فيه الباب فجأة، ليدخل نواف، فوقفت وقد عكست عيناها لهفتها، فابتسم وهو يفتح الزر العلوي من رداء الشرطة الخاص به، قائلاً: «كما توقعتِ تماماً.. لقد خان رئيس الشرطة عملكِ فاضل؛ فبمجرد خروجه من مكتبه أبلغنا أن أيَّ معلومة تصل عن الفتى أن تُمرر إليه أولاً ليتيقن منها وألا نُبلغ فاضل بأي جديد».

وابتسم: «إنه يسعى خلف المليوني دولار».

اتسعت ابتسامتها فرحةً، فيما جلس نواف متابعاً: «الآن فهمت لماذا أوقف رئيس الشرطة كل العمليات لا بد وأن عمك قد أغراه ببعض المال، ولكن من المستحيل أن يكون أكثر من المليوني دولار».

«المال هو الوحيد الذي سيجعل القريب يخون قريبه». قالت، والحزن يظلل وجهها؛ فهو السبب الأول لكسر علاقة والدها بأبيه.

أومأ نواف مؤيدًا، ثم قال: «إن سعي عمك الحثيث خلف هذا الفتى يُثير الريبة بشدة».

ضغطت على جانبي رأسها من صداع تسبب به عدم نومها لليلة كاملة، وعادت للجلوس مجيبة: «وهذا ما أريد معرفته.. إن كان أخي فلماذا يُخفي الأمر علينا؟!».

«بل ما سرُّ شكك المفاجئ بأن أخاك حي؟!»

تمتم سامي، وهو يسحب حاسوبه الشخصي ليفتحه كي يعمل عليه، وفي الوقت نفسه عكست عينا نواف لهفته هو الآخر لإجابة هذا السؤال.

ورغم عدم رغبتها بالتحدث وجدت نفسها تنطق بنبرة عميقة: «لقد تركته باكياً أمام البحيرة.. توسل إليَّ أن أبقى إلا أنني رفضت لأنه طفل».

ثم واجهتهما بنظراتها مستطردة: «لم أره.. لم أودعه.. علمتُ بموته بعد أسبوع من قتله لنفسه فعدتُ للعاصمة لأقف أمام قبر ليس إلا.. أخفى الجميع علي حادثة مقتل لمى، واحتياج أخي لي في ذلك الشهر، وحين سألت عمي فاضل عن التفاصيل اكتفى بالقول إن اضطرابه النفسي دفعه لقتل نفسه بعد أن قتل أختي لَمَى».

وحركت رأسها: «أنا محامية.. والمحامي بطبعه شغوف بأدق التفاصيل وكل ما أردته شيء يجعلني أستسلم لموته، ولكن لم يمنحني

راكان ولا عمي فاضل إجابات تملأ فراغ قلبي وحين رأى الحارس إياد زياراتي الكثيرة لعمي فاضل وسؤالي الدائم له حول تلك التفاصيل، اتصل بي قبل خمسة أشهر مخبراً لي أن هناك أمرًا مهمًا يتعلق بأخي وأن عليّ القدوم للعاصمة بأسرع وقت وحين أتيت اختفى إياد دون أثر».

اتسعت أعين الاثنين صدمة فيما وقفت ثم مشت بهدوء لتقف أمام نافذة زجاجية ضخمة فانعكست أشعة الشمس على وجهها الشاحب إرهاقًا وتعباً: «لقد أردتُ الانضمام لعمي فاضل كمحامية له بهدف البحث أكثر عن حقيقة موت أخي، وعند زيارتي له لإبلاغه بموافقتي رأيتُ مصادفة تلك الصورة، ورأيت معها نفس أمارات الارتباك التي تعلو وجهه حين أسأله عن كيفية قتل فارس لنفسه».

ولأول مرة تبتسم مُنذُ لقائها بهما: «أردتُ معرفة ما يخبئه فقط، ولكن لم أظن للحظة أنني قد أشك بأن أخي حي.. وهذا لحسن الحظ».

أومأ نواف برأسه متفهماً، فيما تعمّد سامي الانشغال بعمله وإن رغب بقول ما قاله سعد لها من خفض سقف توقعاتها المرتفع.

«لماذا؟! لماذا؟! لماذا؟!»

راحت تُتمتم فجأة، وهيَ تدور في الحجرة مفكرة بعمق.. (إن كان أخي حيًا.. فلماذا عمي فاضل قد يخبأ الأمر؟! هل يخشى عليَّ أن أنهار إن رأيته في مصحة نفسية؟! هل فقد فارس ذاكرته؟! هل يخشى عليَّ منه أنه قد يؤذيني؟!)

أفكار لا تُعدُّ ولا تحصى تزاحمت بعقلها، يشحنها قلبها الذي أجبر عقلها ليتخلى عن فكرة واحدة فقط بأنه ميت.

وفي خضم ذلك فُتح الباب ليبرز منه أكرم صارخاً: «لقد عُدت».

انتبه الجميع إليه، وقد بدا متحمساً للغاية بمشيته المتبخترة، وقفز متوسطاً الطاولة، وهو يصيح: «ألن تسألوا ماذا جلبت معي؟!».

«وهل قضاؤك لقائمة تسوق زوجتك يخصنا بشيء؟!» قالتها، وحاجباها الرقيقان ينعقدان، فزفر بانزعاج: «أخبرتك أن شراء البقالة لا يستغرق سوى نصف ساعة، ولكني تأخرت لثلاث ساعات من أجلك ولن تخمني أين كُنت؟!».

تجاهلته، وهيَ تنهض لتطبع من البريد الإلكتروني عدة بلاغات أخرى، بينما تبادل الاثنان نظرات ساخرة، فهو يُعامل منها الآن بالطريقة نفسها التي كان يُعامله بها والدها، على حين نطق هو بضجر مُجيبًا نفسه: «كُنتُ في المصحة النفسية».

تساقطت الأوراق من بين أناملها، ولم تخطر لها هذه الفكرة أبداً، فيما قال نواف بغتة معتذراً: «لقد أجبرني هذا الغبي على أن أستدرج أحد المقربين من رئيس الشرطة حتى يخبرني عن المكان الذي كان فيه الفتى دون أن أعلم أنه يريد الذهاب إليه».

«على ماذا حصلت؟!»

سألت بكل لهفة مانحة نواف ظهرها، وهي تقف أمام أكرم الذي ابتسم لحماسها مجيباً: «لقد قابلتُ أحد المنظفين بتلك المصحة وادّعيتُ أنني أبحث عن وظيفة وتبادلتُ معه أطراف الحديث ثم أخرجتُ له الصورة التي صنعها سامي».

وصمت ليلهب حماسها أكثر فصرخ سامي بغضب: «أيها الوغد!.. إنها فتاة لا تتلاعب بأعصابها.. ألا ترى أنها مُنهك..»

«أكرم.. قضية الأرض المسروقة من عائلتك لن أتولاها» قالت فجأة، ليتجهم وجهه، فيما اتسعت شفاه نواف وسامي بابتسامة، وأطلق الأخير صفيراً معجباً.

«كلا.. كلا!.. لقد وعدتِ زوجتي بأن تدافعي في المحكمة عنها حتى قبل لقائنا، ثم إنني كُنتُ أمزح معك ليس إلا» رد منزعجاً.

«أنا أيضاً كُنتُ أمزح» نطقت بغضب متأجج رادةً استفزازه فحرك كفيه مهدئًا لها: «حسناً.. حسناً.. سأخبرك».

حماسته سُرقت تماماً، وهو يبوح بما عنده عابساً: «قال عامل التنظيف إن هذا الفتى كان يقطن في المستشفى مُنذُ ثمانِي سنوات، أطلق عليه الجميع خلالها لقب المريض الماسي بسبب الأموال المتدفقة عليهم من وصيه، وقد كان عنيفًا جدّاً بسبب مرضه.. وقبل شهر من الآن تلقى العلاج على يديْ رجل ظنه الجميع طبيبًا وهو في الحقيقة معالج نفسي مستجد امتلأ المستشفى بشائعة غريبة عنه».

«شائعة؟! ماذا تعني؟!».

«قالوا إن هذا الطبيب مزيف، وهو في الحقيقة مجرم سابق وخريج سجن، وإن الفتى كان يتعرض للعنف منه، وقد تمادى هذا المجرم وكاد يقتل الطبيب المساند له إلى حد أنهم أخرجوه من المستشفى محمولاً، وقد قابلت مسئولة التغذية أيضاً وسألتها عنه فقالت إنه أسوأ

شخص قد قابلته في حياتها وأخبرتني أيضًا أنها قد سمعت طرفاً من حديث غريب بين مدير المستشفى وأحد رؤساء قسمه يتجادلان حول شك بأنه هو من اختطفه، ولكن المدير أفصح عن عدم رغبته بخوض أي نقاش حول الفتى، وأنه ليس مهتمًّا باختفائه ولا موته».

شحب وجه مايا فيما وقف نواف سائلاً بانفعال: «مجرم؟! هل يوظف المستشفى مجرمين لرعاية المرضى؟!».

استشعر أكرم في نبرته حسّ المسئولية كونه شرطيًّا، فيما انقبض قلب مايا وهي تسأله: «هل أخبرك باسم هذا المجرم؟!».

«نعم.. اسمه نادر عبد المجيد.. وهو معالج نفسي تخرج حديثًا».

تهيأ سامي ونواف للوقوف هامين بالذهاب للبحث عنه، والتيقن من المعلومة، فقال أكرم بضيق: «ولكن لا أحد يعلم موقع سكنه إلا بسجلات سرية داخل المستشفى ولم أكن لأصل إليها لا أنا ولا عامل التنظيف».

«لا عليك.. دع الأمر لي»

تمتم بها سامي وهو يعود لحاسوبه الشخصي، اختار قاعدة بيانات المستشفى، واستغرق وقتًا طويلًا، قبل أن ينجح بالتنقل بين بطاقات موظفي المستشفى، ومايا من خلفه تستند على مقعده هامسة: «أقسم إن كان هذا الفتى أخي، ومسّه بسوء، أن أعيده للسجن مدى الحياة».

«وجدته»

صاح منتصرًا ليتفاجأ بالمعلومات القليلة أسفل الصورة فعقد حاجبيه، فيما أطلقت مايا شهقة عالية أفزعته بالكامل، ووجهها يزداد شحوبًا: «رجل المصعد!».

حدق الثلاثة بها دون فهم لتغطي شفتيها بكفها وما زالت تعاني صدمتها.. كان هناك.. في شركة عمها فاضل.. تقابلا وجهاً لوجه.. إذًا هو شريك عمها بشيء لا تعلمه.. بل وفوتت على نفسها فرصة لقاء أخيها في تلك اللحظة.

«إنه هو بلا شك.. رجل المصعد البغيض الوقح» قالتها للثلاثة وأردفت بثقة: «لقد رأيته في شركة عمي فاضل.. إنه الرجل نفسه».

تجمع البقية لينظروا لصورته، فيما قال سامي بتعجب: «المعلومات هنا موجزة ولا يوجد أي معلومات حول ماضيه سأبحث في مواقع أخرى».

ظل يبحث بجرأة في عدة مواقع حكومية محظورة، ثم قال فجأة بقلق: «هذا الشاب في سن السابعة عشرة دخل السجن لعامين بتهمة محاولة قتل فاشلة لرفيقه في المدرسة.. إنه خطير».

«الأخطر أن يكون أخي معه»

نطقت مايا بهلع، وهيَ تلملم الأوراق استعداداً للرحيل خلفه، آمرة سامي: «حدد موقع سكنه.. وتولَّ أنت والبقية تفقد بقية البلاغات التي تصلكم».

«أمرك يا رئيسة» قال سامي، فيما تبادل نواف وأكرم النظرات المذهولة.. هل ستذهب بمفردها خلف مجرم؟!

قال نواف بحزم: «سأطلب إجازة من عملي وأرافقك».

«وأنا أيضاً» هتف أكرم وهو يسرع للخارج ليستأذن من زوجته، إلا أنه توقف فجأة أمام الباب، وظل متردداً للحظة قبل أن يشد انتباه

مايا بقوله: «قبل لقائي بكِ الآن قابلتُ سعد ونصحني أن أكتم هذا الخبر عنكِ حتى لا تتفاءلي أكثر.. ولكن أنا أشعر أن من حقكِ أن تعلمي كما أنكِ كبيرة كفاية لتحتملي».

«ماذا تعني؟!» قالتها وعيناها تتسعان بوجل.

«مريضهم الماسي اسمه فارس».

تجمدت مكانها غير مستوعبة ما نطق به، ثم سقطت على ركبتيها بعد أن خانتها ساقاها وصوت أنفاسها يعلو وثغرها يفتر عن ابتسامة غاية في التفاؤل والأمل.

****

٧:٣٠ صباحاً

جلس فارس على فراشه ضامّاً ركبتيه إلى صدره، ومستنداً بذقنه عليهما، وعيناه الزرقاوان تنظران إلى النائم أمامه، وقد تسرب من بين شفتيه المنفرجتين شخيرٌ خافتٌ دليل إرهاقه وتعبه الشديد بعد ليلة البارحة.

تأمل ذلك القناع الأسود الملتف حول عينيه، فغمر قلبه شعور جميل، وذاكرته تستعيد مشهدًا قديمًا قبل اثنتي عشرة سنة حين كان يستيقظ ليجد وجه مايا أمامه والقناع ملتف حول عينيها.

المشهد نفسه يتكرر، ولكن الشخص اختلف..

الأمان الذي استشعره معها ها هو يشعر به الآن بعد انعدامه لسنواتٍ عدة.. مع من؟!

مع نادر!!

لم يستطع فارس تفسير ما يشعر به الآن من ودّ كبير نحوه، وخاصة بعد أن تشارك كلاهما الحديث بثقة بعضهما مع بعض حول ماضيهما، وترجم جسده شعوره هذا بابتسامة دافئة وعيناه ما زالتا معلقتين به.

جذب انتباهه فجأة صوت الرياح الهائجة بالخارج، فنظر إلى ساعة نادر الملتفة على معصمه، (السابعة والنصف صباحاً)، فاستقام بسرعة، عليْهِ أن يُدخل قرين ويُلو من الشرفة؛ فالرِّيَاحُ الشديدة قد تقلب قفصهما.

ألقى نظرة أخيرة على نادر المستغرق بالنوم ونصف لحافه ساقط على الأرض، فقفز إلى ذاكرته صورته قبل أن ينام.. لم تنبئه هيئته تلك بأنه بخير!

لماذا؟! لا يعلم!

تحرك ليرفع اللحاف الساقط، وغطاه به، ثم أسرع ليغلق النافذة جيداً، وأسدل الستائر عليها كي لا تنفذ الشمس للحجرة وتزعجه، ثم غطت ابتسامة حانية فمه وهو يغادر موصداً الباب من خلفه بهدوء شديد.

ومرت ساعة وأخرى، ولم يهدأ الطقس، بل ازداد هبوب الرياح شدة هازة معها أغصان شجر التفاح، ونثرت أوراق الخريف اليابسة في كل مكان، تبعها جوٌّ عاصف أرعدت السماء على أثره وأنارت ببرق مهول، كشف عن قطرات صغيرة من المياه الساقطة من الغيوم الرمادية المتراكمة.

ودقائق فقط حتى هطلت الأمطار بوقعٍ عالٍ جعل العجوز تُسرع

لإغلاق نوافذ المنزل صارخة بالمسجى هناك: «فارس.. هل تركت الشرفة مفتوحة؟!».

لم يُجبها فارس الجالس على الأريكة، مختبئًا هو وطيراه تحت بطانية غطتهما بالكامل، بل تابع احتضان القفص مقاوماً خوفه، وهو يخاطب الطيرين اللذين علَت أصواتهما: «قرين.. يُلو.. لا بأس.. سنكون بخير.. لا تخافا.. سنكون بخير».

لم تسمع العجوز تمتمته، ولم ترَ وجههُ الوَجِل، وهي تسرع لتُغلق درف الشرفة التي واصلت اصطدامها بالحائط إثر الرياح..

فيما ظل المسن عاقداً حاجبيه بغير فهم!! أليس كبيراً كفاية على الذعر من صوت الرعد؟!

زفرت العجوز بتعب، وسحبت لحافًا ثقيلًا لتغطي ظهر المسن، وقد لاحظت نحوله المتزايد وشحوب وجهه الشديد: «نادر محق.. عليك الذهاب للمستشفى».

التقط كوب ماء شربه بهدوء: «لا تبالغي مثله.. إنه كبر السن ليس إلا..».

عبست بشدة لعناده قبل أن يشدهما صوت فارس المكتوم من أسفل البطانية: «برونو.. هل سيكون بخير؟! جدتي اسحبيه للداخل».

أطبق المسن شفتيه عن تفلّت ضحكة وجلة، مستنكراً، هل هو يأمر جواهر الآن؟!

وكما توقع: تلك العلاقة الجيدة بينهما البارحة نسفتها عبارته، فهي

الحال سحبت جواهر عصاها لتطرق رأسه من فوق البطانية فصرخ ألماً..

«هل أنا خادمتك؟! اخرج أنت لجلبه.. أم أنك تظن أنه مع كل طبيب تُمنح خادمة مجاناً؟!».

فرك رأسه وبرز وجهه من بين ثنايا البطانيه مُظهراً تقوس شفتيه.. هل يخبرها أنه خائف من الجو العاصف؟!.. بالتأكيد لا!!.. فهو يعلم عاقبة ذلك..

ندّت عن شفتيها تنهيدة ضجر وعيناها تنتقلان لتحدقا بالباب المغلق.. متى سيستيقظ هو الآخر؟! هل من الصواب أن تقوم هيَ بكل هذا العمل وهو نائم!!

تحركت نحو حجرته مؤرجحة عصاها فالكلب كلبه..

«كلا!»

صدمها وقوف فارس المفاجئ أمامها، يتدلى طرفا البطانية عن جانبيه، مبتسماً بارتباك: «دعيه ينمْ.. أرجوكِ!».

«ألم تتذمر بالأمس لأنك الوحيد من تعمل؟! هل تتلاعب بي؟!!».

التصق ظهره بالباب مبتعداً عن عصاها ومجيباً: «لا.. اليوم فقط دعيه».

عقدت حاجبيها: «لماذا اليوم بالذات؟!».

فتح شفتيه أراد إجابتها.. وثوانٍ وأطبقهما.. لم يعلم ماذا يقول وما زالت صورة نادر الأخيرة عالقة بذاكرته..

«جدتي أنا سأقوم بعمله» قال والبطانية تسقط جوار قدميه متحركاً نحو باب الخروج.. هل هو قادر على الخروج في الجو العاصف؟!.. لا يعلم.. ولكنه سيحاول على الأقل؛ فربما إن نام نادر جيداً سيستيقظ بخير.

لم يُعجب العجوز ما تراه أبداً، واستشعرت والمسن شيئًا مقلقًا بدفاع فارس المبالغ فيه عنه، فجذبته من ياقة قميصه من الخلف قبل خروجه سائلة: «ما به ابني؟!».

«لا أعلم» أجابها صادقاً.

«هل أزعجته البارحة؟!.. لم تدعه ينام صحيح؟!!».

تأفف محنقاً من تفكيرها، فلو كان هو من أزعجه فلِمَ سيدافع عنه!.. فيما تجهم وجهها غضبًا لصمته دون إجابة، فلوَّحَت بعصاها، فصرخ فزعاً، وفُتح باب الحجرة ليطلّ من خلفه رأس نادر بوجه عابس ومزاج متكدر، ونعاسه بالكاد يبقيه واقفاً، وهو يتذمر: «أمي.. ألا يمكن أن ينام أحد في هذا المنزل بسلام؟!».

«عن أي سلام تتحدث؟! في هذا الجو العاصف؟! بل ومع هذا المخبول الذي جلبته أنت؟!».

لفظتها وكفاها تشتدّان على خصرها، فتحركت عينا نادر المحمرتان لتستقرا على فارس مستنكراً.. ألم يكونا منسجمين البارحة؟!

فيما بادره فارس بابتسامة مشرقة، وهو يراه أفضل حالاً: «برونو.. برونو علينا إدخاله قبل أن يؤذيه البرد والمطر».

جثم ضيق شديد على قلب نادر، وهو ينقل بصره بين الثلاثة دون

أن ينعكس على وجهه شيء يُذكر، ثم استحثته العجوز هيَ الأخرى: «نعم اذهب وأدخل كلبك».

دلّك جانبي جبهته مجيباً: «برونو في المستشفى البيطري».

اتسعت أعين العجوزين، فيما صاح فارس بقلق: «هل هو بخير؟! هل أصابه شيء؟!».

«اخفض صوتك»

ويخه بانزعاج، فقد أعاد بصراخه الصداع إليه، رغم أنه لم يهدأ إلا مُنذُ ثلاث ساعات فقط..

ثم تحامل على نفسه، ليقول لوالديه مطمئناً لهما: «هو بخير.. فقط أُصيب بمرض البارفو الذي يصاب به دائماً وأظنه سيتجاوزه ككل مرة».

بدا الحزن في عينْي جواهر فيما تنهد المسن وقد أدركا معنى قوله، فالكلاب بالنادر أن تعيش مع هذا المرض حين تكبر بالسن وبرونو قد تجاوز بعمره الثلاثة عشر عاماً.

«إذًا هذا ما عكر نومه.. قلقه على برونو» قالتها العجوز بإشفاق، وقد أدركت سبب شفقة ذلك المجنون عليه..

الوحيد فقط الذي ما زال لم يُدرك سبب حزنه هو فارس الذي حمل قلبه مثل حزنه فراح يسأل: «هو سيشفى بالتأكيد؟! متى سيعود؟! هل يمكنني اللعب معه قبل رحيلنا؟! و..»

«انسَ أمره الآن»

ردّ نادر بحزم مغلقاً باب النقاش كي لا يدرك والداه شيئًا.. رده الحازم أجبر فارس على العودة نحو الأريكة ليحتضن قفص طيوره وقد بدا كئيباً.. فهو بالكاد أصبح صديقاً لبرونو ليفقده بهذه السرعة.

«أظن أنه يمكنني الآن النوم بسلام» تمتم بها ساحباً نفسه إلى الداخل، ولكن فات أوان حظه حين قالت العجوز: «أحضر دجاجة».

التفت نادر وفارس في آن واحد.. نادر متجهم وفارس مندهش فماذا تريد بالدجاجة؟!

«أُمي الجو عاصف.. سأتبلل».

«أعلم.. ولكن الحساء هو الوحيد الذي نحتاجه ليشعر الجميع بالدفء».

والجميع هنا قصدت بها والده الذي انشغل بإسدال أطراف اللحاف على كفيه في برد واضح.

طحنت أضراس نادر بعضها بعضًا، شاتماً نفسه على مغادرته السرير، ولكنه لم يعترض وأومأ لها برأسه، ثم عاد إلى حجرته ليستبدل ملابسه.

لم يرغب بالخروج! ليس لأنه يكاد يسقط نائماً من شدة النعاس فهو لم ينم إلا لثلاث ساعات فقط..

بل لأن دماءه تغلي غضباً لمقتل برونو.. مزاجه معكّر.. ولا يريد لوالديه أن يلحظا شيئًا عليه ويقلقا.. أو أن يعكّر مزاجهما.

إنها مشكلته ومحنته وهو البالغ الوحيد هنا لذا عليه التصرف بتعقل.

تنهد فجأة بكآبة، وذاكرته تسترجع عواءه المحتضر مستنجداً به، وهو عاجز عن إنقاذه، فقط ظل يمسح على رأسه حتى سكنت جثته وغادرت روحه.

لم يبكِ أبداً.. فهو مجرد كلب.. مشاعره هذه بالتأكيد مجرد أسف من أجل الطريقة الشنيعة التي قُتل بها؟!

بل من يخدع؟! هو يخدع نفسه بالتأكيد لأنه يعلم أن هناك اثنين في آخر عمرهما بحاجته.. هو لا يملك رفاهية الوقت للحزن ولا للنحيب.. ولا حتى لتفريغ غضبه، أو أخذ حقه بأدق تعبير.. فلن يقف أحد إلى جوار مجرم سابق إن قدم شكوى من أجل مقتل كلبه؟!

لقد نجحوا وانتهى الأمر بإصابته بجرح لن يلتئم سريعاً..

«مرور الزمن كفيل بجعله يلتئم».

قالها وقد عقد العزم، سيخبر والديه بعد عدة أيام بأن برونو مات في المستشفى البيطري لكبر سنه، ومن الجيد أنه قد مهّد لذلك حتى لا يستاءا كثيراً.

تبدّلت ملامحه تماماً، وهو يغادر حجرته، ورأى فارس ينتعل حذاءه..

«لن تخرج معي» قالها آمراً.

«أرجوك!».

«لا.. فلو كنت ستخرج أنت.. فما الداعِي لخروجي أنا؟!».

توقف فارس مذعوراً فشجاعته الزائفة في هذا الجو العاصف سببها أنه سيرافق نادر ليس إلا، وحين غاب نادر خارجاً تحركت شفتا المسن بـ: «هل تظنينه سيموت؟!».

سحبت العجوز سكينها لتقطع الخضروات مجيبة: «لا أظنه سيعيش.. فمُنذُ ثلاثة أشهر وأنا ألحظ وهنه».

وتنهدت: «عليّ أن أُشغل هذا العنيد بالعمل بدلاً من مجابهته للوساوس بشأن موته».

أومأ لها المسن مؤيداً دون أن يدركا أن كلًّا منهم يعتني بالآخر بطريقته الخاصة!!

كان المطر لا يزال ينهمر عند خروج نادر، فحمل مظلته ومشى نحو قفص الدجاج، وبالطبع لم يكن ليختار، بل سحب أقرب دجاجة إلى يده شاتماً نفسه فكيف نسي رائحتها التي ستعلق به، وبالتأكيد غمره الندم لأنه لم يسمح لفارس بالخروج معه ليحملها بدلاً منه.

ورغم نقيق الدجاجة بين ذراعيه لم يتمالك نفسه عن النظر إلى الخلف إلى إحدى زوايا حقل التفاح حيث حفر بنفسه وأهال التراب على جثة برونو..

وسرعان ما شدَّ على أضراسه بقوة ووخزات مؤلمة تسري في معدته فجأة..

كبته للإساءَة والظلم الواقع به دون أن يفرغه في مستحقه، ما دام لن يدمر شيئًا بالخارج فهو بالتأكيد سيدمر شيئًا في الداخل، وذلك لن يكون إلا جسده وصحته..

«لولا العجوزان لجددتُ لكم مأساتكم» تمتم بها والحقد يُغرقه.

وفجأة التقطت أذناه صوتًا عنيفًا لتحطم زجاج صادر من خلف بوابة الحقل ذات الأسوار الحديدية، مشى سريعاً ليقف أمام البوابة فرأى مراهقيْن يقفان أمام سيارته، وأحدهما يواصل دكّ المرآة الجانبية اليمنى لسيارته بهراوة..

اتسعت عيناه غير مصدق، أفلت الدجاجة في الحقل وفتح البوابة وخرج إليهما، فركضا سريعاً مبتعدين، ووقفا أمام باب ضخم يقابل منزله.. باب يعرفه نادر جيداً.. باب جاره ثابت..

ثابت الذي عُطبت ذراعه بسببه.

ظل أحدهما يضحك فيما حرك الآخر هراوته بغضب؛ فقد اكتشفهما قبل أن يحظيا بتحطيم باقي زجاج السيارة.. فمن كان يظن أنه قد يخرج في هذا الجو الماطر؟!

لم يُظهر وجه نادر أي مشاعر تُذكر، وهو يتفحص مرآته الجانبية المتدلية للأسفل، وقطع زجاجها المهشم قد انتثرت على الأرض المبتلة..

الآن علم من قتل كلبه برونو..

رفع بصره نحوهما لتتجمّد ضحكاتهما، وخيّل إليهما من نظرته المحتدة التي طالت أنهما سيلحقان بأخيهما لا محالة، وطال ذاك الصمت منه، وعيناه تتأرجحان بين أعينهما بغرابة وغموض، ولم ينجحا بمعرفة ما يدور داخله قبل أن: «كيف حال ثابت؟!»

صُعق الاثنان من سؤاله، وهو يستدير نحوهما داسّاً كفيه في جيبي

بنطاله، ومقترباً منهما ليظهر طوله الفارع مقارنةً بهما.. بل ما كل هذا؟!.. شفتاه تحملان ابتسامة رغم مقتل كلبه وتحطيمهم لسيارته!

«أما زالت يده معطوبة؟!»

قال ليتنفض الاثنان من وجومهما، بل تحرك أحدهما نحوه بهراوته لولا إمساك الآخر به ناهياً له عن افتعال شجار مع مجرم..

«ألستما صغيرين كفاية لتحملا الضغينة بدلاً منه؟!».

هو يستفزهما بالكامل.. بل يُفترض أن من يشتعل غضباً هو لا هما!.. ولكنه واصل تقدمه نحوهما مثيراً ذهولهما بتماسكه..

«كما قيل عنك.. أنت أوقح مما سمعت، بل وتتجرأ على السكن جوار منزلنا بعد ما فعلته بأخي!» لفظ الأعزل بكلمات متلعثمة تعكس خوفه.

«ذكراني.. أي ذراع أفقدته اليسرى أم اليمنى؟!»

مجدداً يتجاهلهما.. ولا يتحدث إلا عن أخيهما ثابت المعاق..

«تباً!.. سأقتله وليحدث ما يحدث» صاح حامل الهراوة، وتقدم، ولكن نادر لم يتزحزح عن موضعه.

رفع هراوته وهمَّ بإيذائه، ولكن أخاه سحبه بقوة للخلف حتى ارتطم به؛ فهو لن يخاطر بسمعة أخيه ليكون كنادر (مجرم قريتهم الشهير).

«طارق دع هذا اللقيط وشأنه.. أتريد أن تكون أنت مجرم القرية بدلاً منه؟!».

حديثه أيقظ أخاه ليُسقط الهراوة، ولكنه غيّب وعي نادر بنطقه لأبغض كلمة على قلبه! وممّن؟!

من مراهقيْن بالكاد رآهما لأول مرة في حياته!!

قتلا كلبه وتجرأا على سيارته العزيزة على قلبه والتي اشتراها بعرق جبينه.

شيءٌ ما سمعاه يصدر من جيب نادر المندسة فيه قبضته، فتراجعا للخلف بخوف وذعر واضح، فهما ليسا إلا صبيين لم يتجاوزا السابعة عشرة من عمرهما، وصرخ أحدهما: «ماذا ستفعل؟! ستطعننا».

أراد ذلك، ولكن معارك البالغين التي استقى منها الخبرة في السجن لا تشابه أبداً معارك المراهقين، فنطق بأسف، وهو يدفع بأعصابه لتهدأ: «حسناً.. أريد فعل ذلك، ولكن للأسف لا أملك شوكة».

اتسعت أعينهما حقداً، وهو يذكرهما بأداة جريمته.

«اللعنةُ عليك!» صرخ الأعزل فيما انحنى الآخر لالتقاط هراوته شاتماً بدوره: «أيها السافل الوضيع!.. سنتان لم تكونا كافيتين لتأديبك.. لم يكن على القرية قبول لقيط مثلك بلا أخلاق، بل كيف رضيَ عبد المجيد بك لتحلّ بدلاً عن ابنه الميت.. و..».

واستمرا بهذيانهما، مطلقين مخزونهما من حديث الكبار، ونميمتهم عنه وعن والديه.. صحيح هو بالغ.. وقد احتمل.. ولكن هذا بالفعل فوق احتماله.

فوجئ قبل أن يبدر عنه شيء بتفجر شيء ما في وجه الاثنين، شيء

مستدير أصفر ذي زلال شفاف جعلهما يبلعان باقي حديثهما بتقزز ويسيل من ذقنيهما خيوط من الهلام.

لم يستوعب نادر ولا هما قذائف البيض التي استمرت تُقذف عليهما من داخل الحقل وصاحبها يصرخ: «اخرسا!.. أنتما السافلان الوضيعان.. لا شأن لكما به.. جدّي عبد المجيد يُحبه».

تعالَت صيحات الاثنين، وهما يغطيان وجهيهما بكف، ويصفعان ملابسهما بكف أخرى، ليزيحا ما علق بها من بقايا البيض، ولكن رغم حركتهما ففارس كان يملك تصويباً أذهل نادر نفسه.

ما يحدث الآن نجح في جعل نادر يركل فكرته بإيذاء الاثنين لينتبه لفارس الذي يقف كاشفاً وجهه دون وشاح أو قبعة.

هو يدرك أن حياته معقدة دون فارس، ولكن هذا الغبي بفعله هذا سيجعلها أكثر تعقيداً.

«توقف!» صاح نادر وهو يعود أدراجه للمنزل.

ولكن فارس لم يتوقف، رغم نبرته العصبية الآمرة التي اعتاد الإذعان بعدها إلا أنه لم يتوقف، بل استمر بقذف البيض من السلة الحامل هو لها حتى تاهت كفه في قاعها ولم يجد شيئاً لرميه، وحين رآهما يجريان إلى داخل منزلهما هرباً من قذائفه أسرع يلتقط بعض الحجارة، ولكن قبل أن يرميهما بها كانا قد أغلقا بابهما.

«لو معي مضرب بيسبول لأصبتكما جيداً»

صاح محنقاً، وهو ينحني للأسفل ليأخذ عصًا سيستخدمها

كمضرب للحجارة ويرمي بابهما، ولكن سقطت عيناه بدلاً من ذلك على ذلك الحذاء الذي يعرف صاحبه جيداً.

«لقد أخبرتك أن تتوقف»

كرر نادر بحزم، ولكن فارس رفع رأسه لتلتقي زرقاواه الثائرتان بالعسليتين المحتدتين.

«لا!» نطقها مفاجئاً نادر، وهو يستقيم واقفاً ليرى نادر وجهه المحمر وأنفاسه المتسارعة!.. المرةُ الأولى التي يراه فيها بهذا الغضب، بل ويجرؤ على عصيانه!!

«عد للمنزل.. سأتفاهم معك فيما بعد».

«كيف يجرؤان على شتمك بأنك سافل ووضيع؟!».

«أخبرتك أنني هكذا هنا» بصرخة عصبية ألقاها في وجهه.

«لا.. لا.. لا!» رددها وصوته يفقد قوته فجأة ليهتز بحزن؛ فسماعها من نادر نفسه جعل وقعها على قلبه أشدَّ ألمًا.

غضبه، حزنه، وعيناه المهتزتان بدمع يكبته، جعلت نادر يُشفق عليه بدلاً من إشفاقه على نفسه فزفر قائلاً: «ألست تخاف الجو العاصف؟! لماذا لحقت بي؟!».

بلغ احتقان وجه فارس أقصاه ومع ذلك تمالك نفسه ليقول بتأثر: «لهذا لم تسمح لي باللحاق بك إلى الخارج؟». وأشار للسماء مطمئنًا له: «لا تقلق.. لقد توقف المطر».

صُدم نادر واستغرب أنه لم ينتبه لذلك، فما فعله أخوا ثابت شغل عقله بالكامل، وانتبه لتلك الابتسامة المتعجرفة المبتهجة، فصاح بحرج: «الحق بالدجاجة».

أمره السريع صرف بال هذا المشاكس عما حدث ليسمعا معًا صوت نقنقتها الصادر من آخر الحقل..

«حسنـــاً»: وركض للحقل وقد عادت له طبيعته.

فيما أخرج نادر ريموت سيارته المهشم من جيبه، والذي أفرغ فيه غضبه بدلاً من ذراع حامل الهراوة، والتي كانت ستُزين بثقوب من مفتاح السيارة مشابهة لثقوب ذراع أخيه ثابت من الشوكة، لولا قذائف البيض التي أنقذته..

قاد نادر سيارته إلى داخل الحقل بعيداً عن منزل ثابت ثم أغلق البوابة..

مشى نحو المنزل ليجد في طريقه السلة فالتقطها، ونظر إلى الخلف وأذناه تسمعان صوت فارس مطارداً الدجاجة.. ليس من الحكمة دخوله دون الدجاجة، لذا سينتظره، فوقف محدقاً بسلة البيض.. ثوانٍ وتفلّتت ضحكة خافتة من بين شفتيه.

يُفترض الآن أن يبكي فراقه برونو!!.. يشتم من أجل سيارته!.. عدم نومه على الأقل.. بل وجرأة ذينك الطفلين عليه.. لكن بدلاً من ذلك لا ترى عيناه سوى صورة زلال البيض، وصفاره السائل من ذقني الاثنين للأرض..

تلك الضحكة تبعتها ضحكات وصورة فارس لا تغادر مخيلته وهو يلتقط البيض من السلة ثم يرمي به بوجه غاضب عابس..

«أخرق!» نطقها بصوت أجهده الضحك، وهو يستند بكفه على حائط المنزل مفكراً.. ذانك الاثنان انتصرا لثابت لأنه أخوهما، ولكن ما بالُ فارس؟!

على أيّ حال هذا المشاكس قام بدوره من الانتصاف له والتصدي لهما كما لو كان أخاه.. الآن فقط فهم حديث والدته بتمنيها لو أن أخاه الأكبر نادر لم يمت ويشاركه كل شيء.. كان يفكر حين مر فارس من أمامه مصارعاً الدجاجة، ثم دخل إلى المنزل فابتلع باقي ضحكاته وأسرع خلفه خوفًا من أن يخبر فارس والديه بما حدث في الخارج.

****

(11) خطة التوءمين

لثلاث ساعات متواصلة لم تتوقف سيارة بيضاء صغيرة شاقة الطريق السريع إلى حيث العنوان الذي تلقاه نواف على هاتفه النقال من سامي القابع في العاصمة، متلقياً البلاغات بدلاً منهم، يساعده (سعد) في فرزها والتحقق من صحتها.

تثاءب أكرم الجالس جوار نواف الذي تولى قيادة السيارة، ثم تمتم بخفوت: «ما نفعله جنون بحق؟!».

«بل الجنون يا أكرم هو معطيات هذه القضية؛ ففي كل تفصيل جديد نكتشفه نجد أنها تزدادُ غرابةً!!».

ضحك أكرم: «صحيح.. نحن لا نسمع في كل يوم عن فتًى يستيقظ من الموت لنجده يقطن مصحة نفسية يرعاه فيها مجرم ويختم الأمر باختطافه دون طلب فدية! بل والأغرب عمُّ مايا ينشر رسمًا له كمطلوب بمبلغ زهيد مخفياً الأمر على ابنة أخيه الحبيبة».

«ما قلته الآن محضُ تخمينات ليس إلا!.. وما قصدته هو الدلائل الملموسـ..».

«تخمينات مجنونة نجري خلفها كالمعاتيه» بنبرة متهكمة نطقها ثم نادى فجأة: «هاي نواف!».

«ماذا؟!» بتبرم أجابه ناقماً عليه أنه لم يمنحه الفرصة ليُكمل حديثه.

«هل شككت للحظة أن بسام قد يسجن ابنه، ويتركه يلقى حتفه في السجن وسط الوباء، على الرغم من أنه هو السبب في ارتكابه للجرائم فقد أعاق كل تجارة نفتتحها ورشا التجار كي نخسر؟!».

تنهد نواف: «كلا.. بل ولشدة غبائي رضيت بحمل أمجد للجرائم بدلاً منا لأني ظننتُ أن والده حين يكتفي من عقابه سيُخرجه». وارتخت عيناه حزناً مردفاً: «كما ظنّ أمجد هو الآخر».

«إذًا لا تستغرب إن ظهرت هذه التخمينات حقيقية.. فهذه العائلة مجنونة بالكامل».

تنهد الاثنان معاً قبل أن يُلقي أكرم نظرة مشفقة على الخلف حيث توسدت مايا الأوراق كوسادة لها وكفها معانقة هاتفها، نائمة بعمق، وشخير خافت يصدر من بين شفتيها المنفرجتين.

«من الجيد أنها نامت أخيراً» قال نواف الذي شارك أكرم النظر إليها من المرآة الأمامية.

«ستُفيق كالمجنونة؛ فالنوم هو الشيء الوحيد الذي تغلب عليها» ومطّ شفتيه: «وبحق لا أرَى داعِيًا لمرافقتها لنا».

ابتسم نواف: «غبي.. هيَ ترى أننا المرافقان لها لا العكس.. لم تكن لتتنازل عن أن تشهد الموقف بنفسها وتتيقن إن كان ذاك الطبيب يختطف أخاها أم لا».

«أخاها؟!» قالها أكرم وقبضته تشتد.. هم يتبعون وهمًا ليس إلا!.. مستحيلًا إن صح التعبير! والمتضرر الوحيد هيَ مايا إن خاب ظنها.

«لا أريد أن أرى انهيار أمجد آخر»

عبارته حملت مشاعره لنواف الذي اشتدت قبضته على مقود السيارة مجيباً: «ولهذا نرافقها.. لن نتركها لحظةً واحدة في كلتا الحالتين سواء صح ظنها أو خاب».

وصمت ليضيف: «وكوني شرطيًّا فأنا أؤمن بالحقائق وجميعها تشير لشيء غريب بشأن الفتى وفاضل.. ولن يهدأ لي بال حتى أكشف عنه!».

لم يملك أكرم نفسه فأطلق صفيراً معجباً: «يا رجل لقد تغيرت.. أتذكر سرقتنا لخزنة بسام ثروت؟.. خمسون ألف دولار وكان نصيب كل منا عشرة آلاف».

«إذًا فقد تلقيتم أجركم لمساعدتي مسبقًا!».

صدح صوتها الأنثوي التعب من خلفهما، فشحبت أوجههما؛ فهي آخر من قد يرغبان بأن تسمع تفاخرهما حول جرائمهما مع والدها، والذي تلقى عقابها وحده دونهما.

«إذًا لن تزعجاني بأني مدينة لكما يوماً ما»

أردفت وهي تستقيم جالسة لتتساقط الأوراق من حولها وحركت رقبتها مصدرة فرقعة عالية، ولكن الاثنين ظلا على صمتهما.

«عم نواف.. هل اقتربنا؟!» سألت بتململ.

«لا، بقي الكثير» قال أكرم ثم تذمر: «لو انتظرنا إلى الغد لكان الأمر مريحاً باستقلال الطائرة بدلاً من السيارة».

تأملت مايا السماء الملبدة بالغيوم: «العاصفة لن تتوقف عن قريب

وتأخر الرحلات سيمتد لفترة أطول، كما أن الأجواء العاصفة تزداد كلما توغلنا نحو الجنوب».

ويبطء تابعت: «وأنا لن أستطيع الانتظار أكثر للتيقن من صحة ما توصلنـ...»

صمتت فجأة.. وقد انتبهت (لِمَ هيَ بحاجة لتبرر له؟!) فأردفت محنقة: «كان يمكنك البقاء في العاصمة بجوار زوجتك».

حكّ مؤخرة عنقه مغتاظاً.. ألم يكن من الأفضل لو بقيت نائمة؟!

على حين عادت هيَ لما كانت تفعله قبل استسلامها للنوم وبدأت بقراءة ما تبقى من الأوراق وتفحصها..

ومرت نصف ساعة قبل أن يشدّها أحد البلاغات لامرأة تقول إنها التقت بهذا الفتى في نزل قريب من قرية السنابل وكان برفقته رجل وقح تملأ جسده الندوب.

ارتفع أحد حاجبيها عن عدم فهم! هل هو بلاغ كاذب!؟

فالمدينة التي أرسلهم سامي إليها تبعد عن أرض السنابل بكثير! ولكن (وقح تملأ جسده الندوب) لم تغادر رأسها.. أليست تلك خصال رواد السجون؟!

الأمرُ غريب؟!

ولغرابة هذه القضية منذ البداية فقد نجحت هذه المعلومة بإثارة اهتمامها فأخذت الورقة وطوتها لتضعها بجيب سترتها دون تردد.

****

«أمسكها جيداً»

صاحت العجوز وهيَ تحدُّ سكينها، فيما أرجح فارس نظراته بين الدجاجة المحتضن هو لها وما تفعله العجوز منذ وقت طويل، ثم رفع بصره ليبتسم ببراءة لنادر المتجه للحمام والذي بادله ابتسامته، وهو يحلق بين إبهامه وسبابته كناية عن أنه لا يزال على اتفاقه معه بحفظ السر عن العجوز..

زادت ابتسامة فارس الممتنة اتساعًا لأنه لم يخبر العجوز بأنه قد استخدم بيضها كقذائف بدلاً من الحجارة.

«هاتها»

انتبه لأمر العجوز فنهض عن الأريكة مسرعًا، ثم مدّ إليها بالدجاجة يدفعُهُ فضوله لمعرفة ماذا تريد منها.

«أمسك ساقيها».

«أنا أُمسكها جيداً جدتي».

«حسناً سأسحب رأسها للمغسلة».

اتسعت عيناه عن غير فهم.. هل تريد غسلها بالماء؟! واشرأب بعنقه ناظراً للعجوز التي سحبت سكينها وثوانٍ فقط وأصبحت الدجاجة دون رأس والدم يغطي حوض المغسلة.

«حسناً.. يتبقى لنا الآن نتف ريشها».

ولم تتلقَّ ردًا من المتحجر جوارها دون صوت أو نَفَسٍ، بل وما زال ممسكًا بأرجل الدجاجة.

«لم يعد هناك حاجة لإمساكها.. أفلتها»: نطقتها بحدة، وهي ترفع بصرها نحوه لترى عينيه الجازعتين وشفتيه المنفرجتين بصدمة.

تلعثم بكلماته: «لقد قطعتِ رأسها؟!»

أجابته ببرود: «لا.. لقد ذبحتها».

«لم يعد لديها رأس» كرر، وقدماه تجدان مشقة بحمل جسده الواهن من هول صدمته.

استشاطت غضباً لعدم فهمها ما خطؤها، بينما نقل المسن عينيه بينهما، وقد استشعر بشيء قادم.

«لقد أحضرتها بنفسي إليكِ»

قال بنبرة مثقلة بتأنيب الضمير، ولكن تلك العجوز راحت تنتف ريش دجاجته دون أدنى شعور بالذنب.

«ليس وكأن نواحك عليها سيُعيدها!؟» ثم تجهم وجهها لفكرة فقالت: «لا تخبرني أنك لم تر دجاجة تُذبح من قبل!؟».

حرك رأسه نافياً بصدق، وعيناه تحرقانه وأحاط لون الغروب بؤبؤيها الأزرقين..

«ولا حتى خروف عيد الأضحى؟!».

«لا» أجابها، فكل ما يعرفه حين كان في الثامنة أن سفرة طعامهم يوجد عليها شتى الأصناف من اللحم.. من أين؟! لا يعلم.. وليس مهتمًا بأن يعلم.

شعر بوخز ألمّ قلبه وتلك العجوز تواصل نتف الريش غير مهتمة به ولا بمعاناته.

جرّ قدميه المثقلتين ليدخل الحجرة وقد تعاظمت الغصة في حلقه وصورة الدجاجة لا تغادر عقله.. هو حقاً لم يكن يظن أن العجوز بهذه القسوة بل وأن تشركه بجريمتها.. هذه الدجاجة أم لأربعة صيصان.. يا للشناعة؟!

مرت ثلث ساعة فقط ليدخل نادر مغلقاً باب الحجرة ومنشفة ملتفة حول وسطه والأخرى يجفف بها شعره..

تحرك نحو خزانة الملابس ليخرج ملابس له، ولكن لمح فجأة حركة غريبة من خلفها جعلته يرتد بوجل.

«فـــارس»: بعصبية قال، وهو يُبصر ساقيه الممتدتين من الفرجة بين الخزانة والجدار، هيئته هذه ذكرته بالمستشفى حين كان يحشر جسده بالزاوية نفسها يؤنب نفسه لتأذي نادر وفقدانه لوعيه.

سحب فارس ركبتيه ليضمهما لصدره وواصل إطباق شفتيه يقاوم الغصة العالقة في حلقه إلا أن عينيه اللتين اشتد احمرارهما فضحتا حزنه.. حاله هذا أقلق نادر الذي انحنى على إحدى ركبتيه سائلاً: «أنت بخير؟! هل تشعر بأي توعك؟!».

لم يرغب بالرد لأنه يعلم أن تماسكه سينهار، وبالفعل مع أول انفراج لشفتيه انحدرت دمعات من حدقتيه الهائجتين، واهتزت شفتاه بكبت عالٍ نبأ نادر أنه ليس بخير، بل راح يشكو بكلمات متلعثمة لم يفهم نادر منها سوى: «دجاجة.. دون رأس».

ولكن تلك الكلمات كانت كافية جدّاً لتتسع عينا نادر.. كيف تركه مع والدته؟! كان يعلم أنها ستقطع رأس الدجاجة، ولكن بالتأكيد هيَ لم تخبر فارس بذلك كأول مرة فعلتها معه.

«هيَ لم تخبرك بأنها ستقطع رأسها؟».

«لا».

«وأنها ستصنع منها حساء!».

«لا».

«فجأة رأيتها دون رأس؟».

«نعم».

«هل رؤية الدم ما يُفزعك الآن؟!»: سأله خشية ارتباط المشهد في ذهنه بمقتل أخته لمى، ولكن..

«لا.. بل من أجل الدجاجة.. أنا من أحضرتها لها..» وازداد صوته تهدجاً.

«ألم تأكل لحم دجاج من قبل؟!».

«بلى..».

«ألم تكن تعلم أنها تُذبح من أجل أن نأكلها ويصنع بلحمها شرائح برقر أيضًا؟!».

«بلى.. ولكن..» وصمت، هو يعلم أنها تُذبح، وتموت، ويأكلون لحمها بتلذذ.

«ولكن ماذا؟! ..» قال نادر ببرود، وهو يقف ليفتح باب الحجرة صارخاً: «أمي.. فارس يبكي من أجل الدجاجة».

صاح فارس مفزوعاً؛ فذلك ليس نوع المواساة التي انتظرها منه، وأسرع ليمسح وجهه بكلتا كفيه بعشوائية وقفز واقفاً.

وثوانٍ فقط ودخلت العجوز التي تمتمت مصدومة مخاطبة ولدها: «أنت تمزح؟!».

فسح لها نادر المجال لترى فارس الذي اغتصب ابتسامة من أعماقه المضطربة وهي تتفحص وجهه المحمر وقبل أن تنطق منتقدة جبنه، صرخ: «إن كُنتِ تحتاجين دجاجة أخرى فسأحضرها!».

كتم نادر ضحكته غير مصدق أن من أمامه هو فارس، فيما تراجعت العجوز للخارج مردفة: «حسناً.. وساجعلك أنت من تذبحها في المرة القادمة».

عادت شفتاه للارتجاف، ولكن متحجر القلب ذاك لم يتعاطف معه، بل أطلق ضحكته وهو يدفعه للخارج كي يرتدي ملابسه.

ونصف ساعة فقط وكانت العجوز تُقرب من فارس طبق حسائه الممتلئ باللحم قائلة بلطف: «تناول اللحم فبنية جسدك ضعيفة».

رفع فارس زرقاوين رأتا ست أعين محدقة به، وأراد الرفض، ولكن وجه العجوز الذي انعكس عليه شكها بما قاله نادر سابقاً جعله يقتطع اللحم بشوكته، ثم لاكه بمشقة في فمه قبل أن يبتلعه، فتنهدت العجوز براحة.

فيما احمرَّ وجه نادر، وهو يكبِت ضحكه، فغصّ باللحم، وسعل عدة مرات.

«كُل ببطء وامضغ جيداً» وبخته وهيَ تناوله كأس ماء.

شربه ولم يكد ينهيه حتى طرقت العجوز رأسه بملعقتها: «أنت مستمتع بما يحدث له؟».

«ليس وكأنك لا تستمتعين أمي».

ابتسمت بخبث لتكشف عن عدد قليل من أسنانها ليبتسم هو الآخر، ليبقى الوحيد المشفق على فارس المسن الذي قرّب منه طبق السلطة.

****

«هو هنا بالتأكيد»

تصاعد بخار من بين شفتي ياسر الجافتين المتشققتين، وهو يمشي في ممرات القصر الباردة والمظلمة، وغاص حذاؤه صانعًا أثرًا في طبقات الغبار التي تلقتها أرضية القصر المهجور لسنين.

ورغم آلام ذراعه التي لم تطب بالكامل بعد العلاج فقد واصل انتقاله من حجرة لأخرى باحثاً عن فارس..

«ذلك اللعين يجب أن يموت!»

تلَفَّظ بها وأضراسه تطحن بعضها بعضًا متفقداً الحجرة الأخيرة ليجدها حجرة فارس.. الحجرة التي رُسم فيها مستقبله بدءًا بحادثة قتله للَمى وانتهاءً بربط مصيره بفارس في المستشفى لسنوات.

أخذ يبحث في كل زواياها، في الخزانة، أسفل السرير، ولكن لا أثر.

استشاط غضباً وكشر عن أسنانه.. فمن المستحيل ألا يكون هنا؟!.. إن هرب بمفرده من المستشفى فلا مكان يعرفه فارس غير هذا المنزل الذي قضى فيه سنوات طفولته الثماني.

وإن كان شكه غير المنطقي بنادر صحيحاً، فمجرم مثل نادر يستحيل أن يتنقل بالفتى بسهولة بين المدن دون هوية.

«أين ؟!.. أين سيكون؟!»

صرخ بها راجّاً قصر راكان عبد السلام وعقله لا يهديه لجواب.. هو يشعر أن لنادر دخلًا، ولكن لا يجد له سبباً!!

أفكاره لا تزيده إلا غرقاً في حيرته ليخضع أخيراً لفكرة واحدة وهو أن هذا القصر هو المخبأ الآمن الوحيد الذي لن يجده فيه فاضل.

كما أن فارس مهما ابتعد فلا بد وأنه قد يضطر للعودة إليه، لذا فلا بأس من انتظاره هنا عدة أيام وإن صادف وجاء فهو سيمزق جسده كما مزق جسد لَمى.

جرّ خطواته ليسحب مقعدًا خشبيًّا قديمًا، حطمه بضربة واحدة، ثم رمى خشبه في الموقد، ورمى فوقه عود ثقاب ليشتعل الخشب ويمنحه الدفء، وأشعل سيجارة دخنها بشراهة وهو يتذكر سجنه في سقيفة فاضل.

لم يغضبه ضرب الحارس المبرح له! ولا تجويعه ومنع الماء عنه! ولا حتى تشكيك فاضل بإخلاصه في خدمته لعشر سنوات!..

بل ما أغضبه ما قاله له فاضل وهو يصفعه، تلك الكلمات أفقدته صوابه، وجُن جنونه معها، وأقسم أن يقتل فارس إن لم يكن اليوم ففي الغد.

وأخرج من جيب بنطاله صورة تأمل فيها جمال الفتاة المتوسطة لها لتزداد ضغينته ويشتعل قلبه حقدًا.

«إذًا لم تكن لتعطيني حصتي من الثروة ولا لتزوجني بها.. كُنت فقط تخدعني وتستغلني لعشر سنوات!».

واشتدت أصابع كفه لتجعّد الصورة المأسورة بينها، ثم رماها لتلتهمها النيران، وقد تيقن أخيرًا أنه قد فقد حلمه وهدفه.

هذه الحادثة جعلته يدرك نية فاضل بالغدر به، ولذا لن يسمح له بأن ينال قرشاً واحداً ما دام حُرم هو من مبتغاه.

****

- الواحدة ظهراً -

«إنه حساء.. مجردُ حساءِ دجاج.. فلماذا ينامون وكأنني دسستُ منوماً فيه؟!».

تسأل من؟! وتتهم من؟! وترجو الإجابة ممن؟! جميعهم نائمون!

نادر على الأريكة في صالة الجلوس، وفارس فوق الحصير المفروش قرب الموقد، والمُسن في كرسيه المتحرك المنحني ظهره للخلف.. هيَ الوحيدة الشابة بينهم، وجميعهم تهالك بهم العمر لأرذله!

نفخت صوتاً من بين أسنانها المتبقية وهي تتقدم لتطمئن على أكبرهم سناً.. (علي عبد المجيد).. تفحّصت حرارته وتفقدت تنفسه.. ما زال حيّاً.. ثم تخطت بلا مبالاة الاثنين الآخرين الساكنيْن كالحجارة، لتتفقد حجرتهما إن كان بها ملابس تحتاج للغسيل.

وطال نومهما.. فارس كعادته بعد كل ليلة يتناول فيها الأدوية.. ونادر لعدم قدرته على النوم في الليلة الماضية بعد مقتل كلبه.

وفي المنزل المجاور لهما لم تهدأ ثورة أي من التوءمين، وكلاهما يجلس لدقائق ولا يلبث أن يعود راكضاً للاستحمام من جديد، فرائحة البيض العالقة بهما لم تزُل مهما اغتسلا ومهما استخدما من شامبوهات وسوائل صابونية معطَّرَة.

«سأقتله.. سأكسر أصابع كفيه.. كيف يجرؤ ذلك الغريب عليّ؟!» صرخ بها صاحب الهراوة وهو يُلقي منشفته على الأرض.

«طارق.. يكفي ما فعلناه بسيارته وكلبه» صاح أخوه محاولاً تهدئته كي لا يجذب بصراخه والدهما.

«لا.. يا ثامر.. لا!» وصمت، وصدره يعلو ويهبط في نوبة غضب عنيفة، ثم صاح: «ألم ترَ وجه ذلك الحقير؟! هو لم يعبس حتى.. لم يثُر.. بل ابتسم بعجرفة وكأننا لم نقتل كلبه أو نحطم مرآته أمام عينيه.. رؤيته بذلك الحال لم تشفِ غليلي أبداً، بل زادته استعاراً».

«الجميع يعلمون أنه مجرم، وقد أُشيع من قبل أنه من الصعب إخراجه عن طوره بعد خروجه من السجن، حتى راجح نفسه خطيب

أختنا سمية يقول إنه مهما استدعاه إلى الشرطه للتحقيق معه يبقى هادئاً متغطرساً».

«كلا.. كلا!.. لم نُفلح بمسّ أمر مهم له يفقده صوابه، وإلا لثار كما ثار على أخينا ثابت من قبل..»

فغر ثامر فاه متعجباً فماذا بعد كلبه وسيارته قد يُفقده صوابه؟!

«ثامر لن أطيق بقاءه جاراً لنا.. يجب أن نعيده للسجن بأي طريقة» صرخ بها وأنفه يلتقط مجدداً رائحة البيض فوق شفته العلوية الممتدة تقززاً.

«كيف؟!».

«بذاك الفتى الغريب» وابتسم بخبث.

«أنت.. ما الذي تخطط له هذه المرة؟!».

«أن نضربه في الحقل حتى لا يقوى على الوقوف ثم نصور مقطع فيديو له وننشره متهمين فيه نادر أنه من اعتدى عليه».

«غبي، ولكنه سيعترف للشرطة أننا من اعتدى عليه وليس نادر».

«هل نسيت أن راجح في صفنا نحن؟!»

أنزل ثامر عينيه مفكراً بمنطقية حديثه فزادت ابتسامة طارق الشيطانية اتساعاً: «ثم ألم تسمع ما يدور في القرية عنه بعد اعتداء العامل عليه؟.. كل العاملات يقلن إنه خضع له كالطفل.. بل وطريقته في عراكنا؟! بالبيض؟!».

ذلك الحديث أخذ منحىً خطيراً يُغذيه حقدهما القديم وضغينتها الجديدة ولم يكبحه عقلهما الغض القليل التجارب..

مُخيف ما يصنعه البالغون بالصغار حين يرضعونهم الضغينة مُنذُ نعومة أظفارهم ليكبروا وكأن الحرب حربهم وكأن الماضي ماضيهم..

****

أخفى أحمد كيسًا شفافًا مغلقًا بإحكام خلف ظهره، وعيناه ترقبان من فرجة الباب الموارب الاستشاري بقسم المختبرات الذي راح يشرح لعدد من المتدربين أساسيات التحاليل الطبية.

وظل ينتظر انتهاءه لنصف ساعة، وعقله يستحثه أن يتوقف عمّا هو مُقدم عليه، وقلبه ينهاه عن تهوره الذي قد ينتهي بنتيجة عكسية تجرحه وتؤذي مشاعره.

«أحمد»

تردد اسمه قاطعاً حِصَار عقله وقلبه له، فالتفت لينظر إلى صديقه مازن المتدرب في قسم طب المختبرات.

قاوم أحمد توتره وحرجه، وهو يمدُّ له الكيس، قائلاً: «أعلم أن ما أفعله خاطئ، وأنك لست إلا مُتدربًا مثلي، وقد يعود عليك طلبي بالسوء لو اكْتُشِف أمرك».

وتباطأ صوته: «ولكن.. أريدُ فقط.. أُريد معرفة الحقيقة.. الحقيقة التي تؤرقه ويتهرب منها طوال حياته».

لم يفهم مازن شيئًا من حديثه سوى أنه يتوسله من أجل مطلبٍ ما، فسحب الكيس ليرى محتوياته (بضع شعرات قصيرة ومتفرقة على قسمين)

رفع بصره المتسع سائلاً: «تريد تحليل تطابق DNA؟».

لم تُخفِ عيناه توتره وهو يومئ إيجاباً ليبتسم مازن: «لا عليك.. ظننتُ في الأمر مصيبة».

«ولكن.. لا أريد أن أتسبب لك بمشكلة».

«أخبرتك.. لا تقلق.. ثم من منا يجرؤ على رفض طلب لأحمد؟!».

وهز كتفيه بجذل: «اختبار أبوة.. ستكون تجربة حقيقية بالنسبة لي فلا تهتم».

منحه أحمد ابتسامة ممتنة، وهو يعود أدراجه، متيقناً أنه قد أوقع نفسه في كارثة لو علم بها نادر فقد تُضاف لسجل صداقته السيئ معه ليقاطعه مدى الحياة.

أخفى كفيه في جيبي معطفه الطبي متنهداً بإرهاق.. لمَ هو لا يفكر إلا به؟! لا ينشغل قلبه إلا بالقلق عليه؟! وعلى ذاك المسكين برفقته؟

«أرجو أنهما بخير في قريتنا.. بجوار أسرة ثابت»

قالها محاولاً تهدئة نفسه، وذاكرته تسترجع مشهد الشوكة المخترقة لذراع وكتف ثابت مرات ومرات..

تمنى لو أنه يومها كان قريباً منه ليمنعه..

لو أخرس فم ثابت قبل أن تمتد يد نادر إليه، ويفقد سنتين من عمره، جعلتاه يخرج بغير الوجه الذي اعتاده..

«ليتني لم أُطع جُبني وأبتعد عنه خوفًا من إخوتي الكبار ووالديَّ».

ماضٍ كرهه وآلم قلبه، لم يكن له فيه يد، ولكنه وحده من حمل تبعته بتأنيب الضمير وفقدان أعز وأقرب صديق لقلبه.

«ذلك الفم الكريه ما الذي تفوه به فقط؟!»

للمرة الألف ردد عقله هذا الاستنكار كما رددته ريم، فالجميع وبلا استثناء كانوا يُسمعون نادر كلمة لقيط.. لماذا فقط حين قالها ثابت استفزت نادر وجعلته بكل تلك الثورة وتعمّد قتله دون لحظة أسف أو ندم واحدة حتى بعد خروجه من السجن؟!

شيء غُيّب عن أحمد ولم يفصح عنه نادر طوال تلك السنين، حتى ثابت نفسه لم يُفصح عنه ليبقى حبيس قلب الاثنين دون سواهما.

«تلك الغبية (ريم) لمَ تكرر دائماً أنها السبب في إيذائك لثـ...»

قطع حديثه واتسعت عيناه لرؤيته عددًا من رجال الشرطة الذين يزورون المستشفى ما بين يوم وآخر..

ارتدى وجهه ثوب الجمود، وهو يدلف لإحدى حجر المرضى، متهرباً من تحقيقاتهم الباحثة عن الطبيب الذي أكّدَ من قبل أنه رأى فارس يخرج راكضاً من باب المستشفى الخلفي.

****

استمر هاتف نادر المندس في جيب بنطاله بالاهتزاز مما تسبب بإيقاظ وعيه الغائب، وانتشله من خضم كابوسه، فاعتدل جالساً شاهقاً بقوة، وصدره يعلو ويهبط.

ظل يلتقط أنفاسه لدقيقة، ولسانه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فكابوس ماضيه يزوره للمرة الثالثة مُنذُ عودته للقرية..

نظر لكفَّيْه المهتزتين، ووعيه ما زال يُكابد بركان غضبه القديم، الذي فجر بشوكة معدنية دماء كتف وذراع ثابت مرات ومرات.

أطلق نفساً عميقاً ومسحت كفه وجهه نزولاً لذقنه.. فقد كادَ اليوم صباحاً يكرر تلك المأساة ويثكل والديه بفقده، ولكن الله قد سلّم.

تمنت أعماقه أن يكون هذا هو التفسير الوحيد لتكرر كابوسه، وتأمل ألا يزوره مجدداً، ثم ابتسم براحة وقد أدرك أنه قد حظي ببعض النوم بعد سهر البارحة.

جال ببصره في المكان حوله ليفاجئه استغراق المُسِنّ وفارس بالنوم.. بل ويا للعجب والدته مستلقية على سرير الخيزران ونائمة هيَ الأخرى!

تململ: «بالتأكيد.. عجوزان وطفل.. ماذا يُرجى منهم؟!».

هو الوحيد اليافع والصُّلْب بينهم، ألقاها له عقله بغطرسة، وفجأة عاد هاتفه ليهتز في جيبه فسحبه لينظر لشاشته.

«أخيراً» قالها بغيظ، وهو يسحب نفسه بهدوء إلى خارج المنزل ليرد بأنفاس ثائرة: «سجين زنزانة ١٠٩.. أنت تستمتع بتركي منتظراً تنفيذك للخدمات التي أطلبها؟!».

«سجين ١٠٩ تحرر من زنزانته ليُصبح سجيناً لك يا نادر.. ليت من جمعنا في زنزانة واحدة تتهشم عظامه ويصاب بعقم لا شفاء له».

«مهلاً.. مهلاً.. ما دعاء العجائز هذا؟!» قالها وغضبه يتبخر أمام دعائه البائس: «زيد.. هل سطوت على دار مسنين أم ماذا؟!».

«يا رجل.. لقد تبتُ بسببك، بل وعملت بنصيحتك وها أنا سأفتتح محلًا للإلكترونيات قريبًا».

لم يمنع نادر ابتسامة متفاجئة من أن تقفز لشفتيه مستغرباً عمله بنصيحته، ثم انتبه لسبب اتصاله فقطع نقاشهما العقيم بسؤاله: «ماذا بشأن عنوان البروتوكول الناشر لصورة الفتى؟!».

اكتسى صوت زيد هو الآخر بالجدية، وهو يجيبه بفخر: «أنت لا تعلم ولن تعلم أبداً مقدار الجهد الذي بذلته لتتبع الـ IP لأصل للبروتوكول الأول الناشر للصورة والباعث بها لكل مواقع التواصل الاجتماعي».

«المهم هو النتيجة.. هل نجحت بمعرفته؟!».

تحطم فخره لقطع صغيرة بائسة، بعد أن تجاهل نادر مقدمته الاستعراضية، بل ولم يمنحه شكراً أو امتناناً..

«النتيجة هيَ أني بالتأكيد قد عرفت ممتلك عنوان البروتوكول الأول» وصمت منتقماً منه ومستلذّاً بتعذيبه بالانتظار.

«زيد».

«نعم؟».

«فعلك هذا لن يمر عبثاً»: لهجته المهددة أرجفت أوصال زيد ليُسرع مجيباً: «مايـــا أمجد بسّام ثروت».

هذا فقط ما كان ينقص نادر ليتيقن من شكّه، فلم يُخمن عقله من قبل شخصاً سواها، فإيجاد فارس إن لم يصب في مصلحة فاضل فهو لن يصب إلا في مصلحة مايا..

والمبلغ الهائل الذي وضعته مكافأةً لمن يُبلغ عن فارس دليل كبير على أنها تسير في طريق آخر يعاكس عمها فاضل..

فإما أنها قد خانته لتقبض على فارس وتكون هيَ الوصية عليه وتمتلك أمواله..

أو أنها لم تكن تعلم بوجود أخيها أصلاً، وقد علمت مؤخراً وهذا لا ينفي أيضاً أنها قد تحقد على جدها لتسجيله الأموال باسم حفيده فارس متناسياً أمرها كحفيدته، ولذا تريد نهب أخيها قبل أن ينهبهُ عمها..

أو ... وأو.. وأو..

ولم يستسغ عقله التخمين الأخير لتنفرج شفتاه باشمئزاز:

«ذلك الوجه الملون لا يشبه ما يصفه فارس من أنها الوحيدة اللطيفة من قد تنقذه وتهتم لأمره!!».

وزاد من استهجانه أنه بنفسه قد رآها في أحسن حالاتها على حين كان فارس في أسوأ حالاته.. فكيف لم تبحث عن أخيها؟!

ماذا لو أن ذلك كله تخيل من فارس بناءً على سذاجته وسنوات طفولته القليلة التي جمعته بها؟!

تلك التخمينات الثلاثة، وبنسب مئوية شاسعة الفرق، لن يُجيبها إلا مسخ الموضة لذا..

«أريد موقع مايا؟!»

شهقة عنيفة أطلقها زيد لتصحبها شهقتان أخريان بأصوات مختلفة جعلت نادر يعبس بشدة.. هل هما يتواعدان معاً للقاء قبل إجراء أي مكالمة معه؟!

«يا زعيم.. كُنتُ أعلم أنه يستحيل أن تُخرجه بدافع الشفقة.. لقد كسبتُ الرهان»

وتبع صوت حاتم الصاخب المبتهج ضجيج تساقط عملات معدنية بعضها فوق بعض وصوت زيد وتميم الشاتمين.

«على الأقل ظنّ زيد بي خيراً»

قالها نادر ساخراً ليكف عن عزيمته بالإبلاغ عنه لأيمن بعد عبثه معه.

«يا زعيم أُريد حصتي من المليوني دولار حين تُسلم الفتى لها.. ما زلتُ أريد شراء سيارة جديدة» بصوت حاتم خرجت راجة طبلة أذن نادر الذي أبعده بحنق.

«وأنا ينقصني بعض النقود لإكمال محل الإلكترونيات.. أريد حصتي أيضاً». المرةُ الأولى التي يحمل فيها صوت زيد حماسه وطاعته المتناهية.

قفزت ابتسامة غامضة لشفتيْ نادر: «وأنت يا تميم ألا تريد أيضاً حصتك؟!».

وصله صوته من الجانب الآخر متردداً متلعثماً قبل أن يُجيب: «إن.. إن كُنتَ ستمنحني شيئًا فأنا فقط سأتزوج يا زعيم».

رده الوحيد الذي كسر قلبه ليمطّ نادر شفتيه وهو يسمع ضرب حاتم وزيد له ساخرين منه: «سأتزوج.. سأتزوج!».

«حسناً»

سكون حطّ على الثلاثة بعد كلمة نادر غيرَ مصدقين، فيما تابع نادر بجدية: «أريد موقعها بدقة قبل أن تغادر العاصمة إلى لندن ودون أن يُكشف أمركم..».

ثم ابتسم: «وليكن المليونا دولار من نصيبنا».

صيحات مبتهجة أطلقها الثلاثة دون أن يعلموا أنهم يعوّلون على الاحتمال الأضعف الذي وضعه نادر.. فهل مايا تسعى لإنقاذ أخيها حقًّا؟!

أغلق نادر اتصاله غير مُهتم فيما لو خُيّب ظنهم لاحقاً..

ثم نظر للشمس المتوسطة كبد السماء، اليوم ما فعله فارس مع أسرة ثابت لا يُبشر بخير فرغم المسافة التي فصلته عنهما فهذا لا يمنع أن صورة فارس قد انطبعت في ذاكرتهما، وبمجرد رؤيتهما لها في مواقع التواصل الاجتماعي سيبلغان عنه، وعندها سيتدمر فارس تماماً، وسيلحق هو به بجرم أنه خاطفه..

وجود مايا بالعاصمة وقبل الموعد الذي حدده حاتم مسبقاً فرصة ذهبية للتخلص من ثقل هذا الهمّ..

ولكن عليه أولاً وضع خطة محكمة تمكنه من توفير وسيلة آمنة للسفر إلى العاصمة مع وجود تلك الصورة المنتشرة لفارس في كل مكان رغم عدم ثقته بقدرته على إيجاد خطة ناجحة ولو بنسبة ثلاثين بالمئة..

ولكن ماذا لو نجح والتقاها في العاصمة، ما الخيار الذي قد يتخذه إن أدرك فسادها وهو برفقة فارس المطلوب في كل أرجاء العاصمة؟!

انعكس غضب عنيف على عسليتيه وهو يعود إلى المنزل ليحدق مطولاً بفارس النائم براحة وسكينة وكأن لا شيء يهدد حياته.. غمر قلبه شعور غريب.. هو ليس على استعداد لتسليمه لأيٍّ كان ما دام ذلك سيرتد عليه بالأذى..

ضيّق عينيه والهوية المزورة تعطيه خياراً جديداً، فإن تيقن أنه فتى وحيد ومنبوذ من أسرته ولا أحد منهم يسعى لإنقاذه فقد يسمح له بالعيش هنا مع والديه..

هو يعلم أن ما يفكر به جنون وحمق محض، ولكن لعلّ الدفاع الذي تلقاه وللمرة الأولى داخل القرية من شخص غريب ويبيض هو سبب جنونه هذا؟!

«لا بأس.. لكل شيء أوانه».

تمتم بها بحزم، وهو يعيد هاتفه لجيبه ليُقابله نهوض العجوز صائحة بفزع: «إنها الثالثة عصراً.. تباً!.. هل النوم مُعدٍ؟! لم أُجهز الغداء».

نهضت واقفة بصعوبة لتتغير ملامح نادر للطف كبير، وهو يُهدئها: «أُمي تناولوا ما بقي من الطعام.. وأنا سأذهب لأتسوق الآن وطعام العشاء أنا من سأُعده».

رمقته بعينين ساخطتين قبل أن تنبسط أساريرها: «ظننتك لن تقولها؟! لقد تأخرت هذه المرة كثيراً.. لقد كنت تطبخ في اليوم الثالث لوصولك».

«وأنا من ظننتُكِ تُشفقين عليّ بسبب مسئوليتي الكبيرة المتمثلة بالاعتناء بمريضي!!».

«تعتني به؟!.. من؟!.. أنت؟!.. أنت لا تعطيه سوى دوائه والبقية رميتها علينا كما لو أنه طفلنا.. أنا حتى لم أجد الوقت لأكل بسكويتي صباحاً بهدوء وسكينة برفقة والدك».

رفع كفيه، وكأنه يدافع عن نفسه، ونظرة خبيثة تعلو عينيه: «حسناً.. حسناً.. سأطبخ وسأمنحك الفرصة لتجلسي مع زوجك ما دام هذا ما يزعجك».

«أيها القذر لمَ لا تنتبه في حديثي إلا لهذه الأشياء؟» ورفعت عصاها ستضربه، ولكنها انتبهت فجأة لـ (الزواج).. صمتت وتمنّت لو تفاتحه بالأمر.. تُريد الاطمئنان عليه قبل موتها.

ريم فتاة جيدة، تحبه، ولا فتاة غيرها بعد سجنه تقبلته مثلها، هو سيسعد معها بالتأكيد، فلو خالفت أمر المُسن واقترحت عليه التفكير بشأن ريم فهل سيغضب منها؟!.. فتحت شفتيها ليقاطعها: «هل عاد برونو؟!».

أدار الاثنان أعينهما لينظرا للجالس بوهن إثر الأدوية مُحدقاً بزرقاويه الناعستين في الأرض دون النظر نحوهما، منتظراً إجابة سؤاله القلق..

«لا.. لم يعد» ردّ نادر ببرود وهو يتجه ليستبدل ملابسه ثم ارتدى فوقها معطفًا أسود ثقيلًا وسرّح شعره ليبدو بكامل حلّته للخروج..

كان أمام الباب حين جذبته شهقة والدته الواقفه جوار فارس الذي ظل محدقاً بالأرض وسبابته فوقها تصنع دوائر وهمية، فسألت بوجل: «ماذا على الأرض؟! لا أرى شيئاً».

لم يُجبها، بل تنهد بقوة لينقسم ظهر الاثنين غضباً منه..

العجوز لأنها لم تفهمه، ونادر وقد فهمه؛ فهو لا يزال مستاء منهما من أجل الدجاجة ويتعمد تجاهلهما بنظراته وحديثه.. ولولا قلقه على برونو لم يكن ليسأل أصلاً.

وازداد وجه نادر تجهماً حينما رآه يُقلب بصره الحزين مرة نحوه ومرةً نحو الحذاء.. إذًا غضبه وحزنه المبالغ فيهما لم يكونا إلا تمثيلًا حتى يأخذه معه إلى السوق!

«اخدع غيري» همس وهو يتجاهله تماماً ليتحطم أمل فارس.

«تجهز بُني.. واذهب معه».

تصلب نادر بجزع، فيما فغر فارس فاه مصدوماً من قول العجوز المفاجئ، وقبل أن يُعارضها نادر كان قد قفز فارس صارخاً: «للسوق؟!»

«نعم.. أم أنك لا تريد؟!».

«بل أريـــد.. شكراً جدتي» وعكست عيناه امتناناً قوياً سحر العجوز بالكامل.

«أُمي .. أُمي .. أُمي!»

لم تستمع للصائح خلفها، وهي تدفع فارس قائلة بلطف: «اذهب لتستحم، فرائحة الدجاج ما زالت عالقة بك».

علا صوت خطوات فارس الراكضة وهو يتجه نحو الحجرة ليختار ملابس للخروج ثم ركض إلى الحمام وعيناه الممتنتان لا تفارقان الاثنين..

«أُمي.. كان عليكِ أن تأخذي رأيي أولاً».

«ومُنذُ متى تأخذ الأم رأي ابنها؟!».

«لا يصح خروجه الآن..»

«لماذا؟!» سألت بحدة.

هل يخبرها عن صُوَرِه المنتشرة في كل مكان؟! عن حجم المكافأة المُديرةِ للرؤوس؟!.. بالتأكيد لا..

«أُمي.. لقد اقترب من تحقيق توازنه النفسي وبدأ يُصبح طبيعيًا.. لا أريد أن أُعرضه لضغط جديد».

انحنت لتطوي الحصير قائلة: «هل تظنه سيُشفى من خوفه من الناس بمجرد مرافقته لمسنَّيْن مثلنا؟! ثم عن أي ضغط تتحدث وأنت سترافقه بنفسك؟!».

كزّ على أسنانه مغضباً وقد أفحمته.. هيَ تجهل أن خروج فارس خطر عليه هو الآخر!

«إياك أن تقسو عليه» قالتها، ونظرتها المهددة تجتاح كيانه موقفة النقاش تماماً..

زوى ما بين شفتيه محنقاً، وعقله لا يسعفه بحل لهذه المعضلة.. سوى: «أمي أنتِ تعتذرين منه لما فعلته به صباحاً عن طريقي؟».

منحته ظهرها حتى لا تكشف لعينيه وجهها المليء بالذنب: «أعتذر منه؟!.. لماذا؟!.. هو فقط أراد الذهاب معك فلا تحرمه؟!».

تضخم عرق جبينه وبغضب صاح: «إنه يتعمّد بتجاهله لكِ إثارة شفقتك فلا تمنحيه مطلبه.. سيعتاد ذلك».

شخص بصرها للأعلى وهي تتذكر تنهيدته ووجهه الملتف عنها بضيق.. تخدع من؟! .. هيَ أشفقت عليه ولم تطق نظراته العاتبة، فقالت: «لا بأس ما دام سيعتاد عن طريقك».

اشتعل غضبه وكز على أسنانه لتصريحها بأنها تستغله بالكامل: سيطرده بالتأكيد.. سيتركه في الحقل وكأنه أخذه..

«أنا جاهز»

اخترق ذاك الجو المشحون صوت فارس، وهو يقفز ليقف أمامه رافعاً رأسه نحوه، وقد تفرقت خصلات من شعره الفاحم على جبينه وزرقاواه تُشعان حماساً وبهجة..

تأمل نادر بحدة تهيؤه الكامل للخروج من حذائه الجلدي إلى بنطاله الأسود ثم قميصه الأبيض الذي نُقش طرفا كمَّيْه برسم لشخصيات الإنمي الذي يُحبه..

وتجمّدت عيناه أمام تلك الابتسامة الجذلة المتلهفة التي زينت ثغره والتي لم يستطع نادر جعل نفسه سبباً في محوها فاستدار معطياً ظهره له وشاتماً أحمد..

لماذا؟!.. لا أحد يعلم.

«جفف شعرك والحق بي» قال، وهو يلتقط مفتاح سيارته لتبتسم العجوز، ولكن سرعان ما كشّرت حين أكمل: «ولتحظي يا والدتي العزيزة بجلسة رومانسية مع زوجك بمفردكما».

«القذر.. من أين تعلم هذه الألفاظ الجريئة؟!.. عليّ أن أؤدبه جيداً.. حين يعود سأضربه».

تبسّم فارس لشتائمها المتتالية، وهو يفرك شعره بمنشفة صغيرة قبل أن يحذو حذو نادر في تمشيطه ثم التفت إلى العجوز التي مدّت له ثلاثًا من علب بسكوتها قائلة: «تناوله فلقد نمتُ اليوم ولم أصنع لك الغداء».

«شكراً جدتي» قالها بفرحة كبيرة، ثم استدرك: «ونادر ألن تعطيه أيضاً؟!».

تجهم وجهها ليزداد تجاعيدَ ألف مرة: «ألا يكفيك أنني أعطيتك، بل وتجرؤ لتطلب له؟!».

ظل واقفاً رغم تذمرها بانتظار أن تعطيه، فصرخت: «هيا أعد ما أعطيتك أيها الوقح!».

وسحبت عصاها، فكسا وجهه الذعر وخرج من المنزل هارباً بغنيمته.

****

(١٢) السوق

«أريد تأجيل جلسة محكمة الوصايا والإرث لنصف شهر»

نطق فاضل عبارته، وهو يجلس خلف مكتبه الفخم في شركته، لتتسع عينا محاميه غير مصدق أن الجلسة التي انتظروها لتسع سنوات هم مضطرون الآن لتأجيلها.

«سيد فاضل.. ولكنك تعلم سبب اضطرارنا للخضوع لها منذ البداية.. ماذا لو حدث ما نخشاه؟!».

احمرت عيناه، وكز على أسنانه، والماضي يتجسد أمام عينيه، ولكن غياب الفتى لا يمنحه خيارًا آخر، ثم بعصبية صاح وقبضته تدفع ما فوق المكتب ليسقط أرضاً: «ولهذا يجب أن نؤجلها فماذا لو زيفناها ثم عُقدت في يومها دون أي احتياطات منا؟!.. عندها ستذهب الأموال إلى الجمعيات الخيرية.. تدبر الأمر أيها الوغد.. المهم هو أن تتأجل هذه الجلسة اللعينة!».

قفز محاميه بفزع مبتعداً عنه: «حسناً.. حسناً.. سأفعل، ولكن هذا يحتاج العديد من الأوراق والمستندات المبررة لهذا التأجيل».

«خلال يومين فقط».

ازدرد المحامي لعابه برعب، وقد كُلف بأصعب المهمات، ولكن مهمة تجاوز غضب من أمامه لها الأولوية القصوى لذا فقد تراجع مجيباً: «حسناً.. أعدك.. سأفعل ما بوسعي».

وأسرع للخارج تاركاً فاضل الذي انهار على مكتبه يجتاح قلبه وروحه البؤس، حتى صفقات شركته الجديدة مع كبار المسئولين لم يعد يحضرها، بل وتراجع مؤشر أرباح الشركة بسبب إهماله.

كان على وشك الانخراط ببكاء مرير، والغم يخنق أنفاسه، لولا دخول حارسه، فتدفق الأمل مجدداً إلى وجهه فقفز سائلاً: «هل وجدتموه؟!».

لم يُجب حارسه، فقط حرك رأسه يمنة ويسرة ببؤس هو الآخر.

«هل اختفى هو الآخر؟! تبخر كفارس؟!».

«سيدي.. ياسر ليس غرًّا.. هو يعلم كيف يختبئ.. ومهما بحث عنه رجالنا لا يجدوه».

«أخبرتك أنه يرغب بقتل فارس» قالها بنبرة منهارة فعلاً.

«أرجوك تمالك نفسك».

«كيف أتمالك نفسي وما بنيته برفقة أبي لأربعة عقود سيذهب للجمعيات الخيرية إن قُتل الفتى؟!».

لم يُجبه حارسه الذي بدا ساهماً لثوانٍ قبل أن يحسم تردده بقوله: «أعلم أنك تستبعد الأمر.. ولكن قد وصل بلاغ للشرطة من سيدة بأنها رأت فارس في نُزل قريب من قرية السنابل».

اتسعت عينا فاضل: «ماذا تعني بقولك؟! هل عادت البلاغات مجدداً بعد أن فقدناها بسبب مكافأة المليوني دولار؟!».

«هو البلاغ الوحيد الذي تم تلقيه وقد أهملته الشرطة لبعد المكان ولم تستسغ قولها، ولكن..».

«ولكن ماذا؟!».

«أتذكر حين طلبت مني تقصي الحقائق حول الطبيب الجديد؟».

أومأ فاضل برأسه بـ (نعم) ليردف حارسه: «إن الجريمة التي ارتكبها الطبيب نادر كانت في إحدى المدارس بتلك القرية».

فغر فاضل فاه غير مُصدق، فجميع الدلائل يستحيل أن تُشير إليه: «لا مصلحة له بخطفه دون فدية».

«سأكرر طلبي مجدداً.. دعني أذهب خلفه، والرجال سيتكفلون بأمر ياسر».

«أنت إذًا تُصدق ياسر».

«لا أُصدقه.. ولا أُكذبه أيضاً.. ولكن أكرر: لا مصلحة له بإخفاء الفتى بعد صبر تسعِ سنين».

تهاوى جسد فاضل على كُرسيه وذلك الجدال في المستشفى يعود لذاكرته.. ليس من المنطقي إطلاقاً اختطافه لفارس؟! ولكن ليس من المنطقي أيضاً الإبلاغ عن وجود الفتى في موقع إقامته القديم..

«اذهب يا كاظم.. وإن كان هو من اختطفه فاقتله وأعد الفتى».

ابتسم حارسه بقوة، وكأنه أُطلق أخيرًا من سجن شكه، وأضمَر شرًا أعظم في نفسه لنادر، فإن كان هو سبب إرهاقهم وتعبهم كل هذه المدة، بل وتلاعب بهم كما لو أنهم دميته، فهو لن يرحمه أبداً.

****

«أين فقط؟!»

مر وقت طويل ونادر يتجول بسيارته في طرقات القرية، دون أن يحسم حيرته حول اختيار السوق المناسب والأكثر أمانًا.

ثم شقت وجهه أخيراً ابتسامة غريبة، ونظر لفارس الذي انشغل بمراقبة ما بالخارج من أكواخ غريبة وأشجار شاهقة العلو ومزارع مختلفة الثمار وقد غطى أعلى رأسه قبعة محبوكة من الصوف الخفيف تنتهي قمتها بكرة من خيوط الصوف المقصوصة بشكل متساوٍ لتمنحه مظهراً لطيفاً لا يتناسب مع عمره.

لم يرد نادر دسّ رأسه فيها، ولكنها الوحيدة التي أخفت الكثير من ملامحه، بل ولم يكتفِ بذلك فها هو الوشاح السميك يغطي ما تبقى من وجهه لتحظى عيناه فقط وأرنبة أنفه بالظهور وسط كومة الصوف تلك.

ولم يُبدِ فارس أي اعتراض حين أمره نادر بلبسها، بل أسرع بإجابته تدفعه رغبته بالخروج وخوفًا من أن يتركه في المنزل.

فعله هذا جعل نادر يشفق عليه، وللحق فلا ذنب له في هذا الحبس المفروض عليه من الجميع..

الجميع يخرجون حين يرغبون، يتسوقون حين يريدون، يذهبون للتنزه والتمشية إلا هو مقيد برغبات جشعة، أنانية، وقذرة من عمه فاضل، ومايا التي لا يعرف نيتها بعد!

لذا لن يكون مثلهما، سيجيب هو القليل فقط من رغبته بالخروج بشرط ضمان أمنهما معًا.

واصلت السيارة قطعها للطريق مارة ببعض الأزقة الغريبة والمنازل المبنية من الحجر الطبيعي ويعلوها أسقف من القش.

«ها قد وصلنا»

قال نادر وهو يوقف محرك السيارة، فحدجه فارس بنظرة شديدة الاعتراض فهذا لا يشبه أيًا من الأسواق التي زارها من قبل مع أسرته..

لا لوحات مضيئة، ولا كشكات للقهوة، ولا محلات للألعاب الإلكترونية، ولا رائحة أطعمة من كل اتجاه ولا.. ولا..

فهم نادر نظرته فحرك كتفيه: «لست في العاصمة».

«ولكن لا يوجد سوق» قال عابساً وكل ما يراه مبانٍ قديمة.

«لا يمكن أن نُدخل السيارة، الأزقة هنا ضيقة لذلك سنكمل طريقنا مشياً».

(مشي)، تلك فقط نجحت بإعادة الحماس للعينين الزرقاوين..

أن يتجول في هذا المكان الغريب وبرفقة نادر.. قلبه لم يحتمل روعة ما هو مُقدم عليه فأسرع يفك حزام الأمان وحمل مغلفات البسكويتات الثلاثة ليضعها في الخلف..

«مستحيل»

رددها نادر ذاهلاً، وعيناه تُحدقان في المغلفات الثلاثة ثم استنكر: «لقد سرقت مجدداً؟!».

«لم أسرقها.. بل جدتي منحتها لي».

«أنت تمزح؟!».

«أُقسم إنها هيَ من منحتها لي». وعبس بشدة ليدرك نادر أنه صادق، واهتز حاجباه لفكرةٍ ما، فقال بصدمة: «هذا ما كُنتَ تريده منها بتجاهلك لها».

«أجل.. بل لم أعتقد أنها ستجبرك على أن تأخذني للسوق معك.. ظننت أنك أنت من ستفعل ذلـ..» بتر حديثه المتهور بوجل، وقد أدرك أنه فضح نفسه، وزاد من رعبه تانك العسليتان اللتان أظلمتا.

«كُنتُ أعلم أنك تتعمّد ذلك» بنبرة تتّقدُ شرّاً نطق نادر، وذاكرته تسترجع بسرعة جنونية مواقفه الماضية التي استغفله فيها.

قفزت ابتسامة متورطة لشفتي فارس، وتراجع للخلف ليلتصق بالباب ذعراً، وقبل أن يمدّ نادر يده ليضرب رأسه كعادته، أسرع هو يمدُّ كفه المبسوطة حاملة فوقها مغلف بسكويت.

أرجح نادر بصره بين المغلف ووجه فارس المُعتذر ليُمتص غضبه بالتدريج ثم اختطفه بحدة ليبدأ بفتحه و..: «أعطني الآخر أيضاً».

«لماذا؟!».

«لأني قُلتُ ذلك».

«إنه لي».

«هو لوالدتي».

«نعم لجدتي وقد أعطته لي».

«جدتك هيَ أمي».

«جدتي وأمك أعطتني أنا».

«فارس.. كفّ عن التلاعب بالكلمات وأعطه لي».

«لقد بذلتُ جهداً للحصول عليه وأنت فقط واقف وتراقب».

حسناً.. قوله هذا استنفد صبره بالكامل ليدحرج كرتين ناريتين نحوه.. كيف يجرؤ على الافتخار أمامه بإثارة شفقتها التي لم تجر ويلات إلا عليه؟!!

«بالمغلف الثاني ستدفع ثمن مسكنتك التي جعلتها تجبرني على أخذك معي».

«ألا يكفي البسكويت الأول ثمناً لذلك؟!» فاوضه برعب، وقد استشعرت حواسه غضبه العنيف.

«انزل من السيارة».

«لا. لا أنا موافق!» ومدّ المغلف الثاني وعيناه المذعورتان تُحدقان في اللامكان الذي سينزله فيه.

تلك اليد الممتدة بإجبار، والعينان المرتجتان بحزن، أشعرت نادر بالسوء وبعد مصارعته لذاته الرافضة التنازل، قال: «حسناً سنقتسمه بيننا بالنصف».

لم يكن قد أتم حديثه بعد حين فاجأته ضحكات فارس، وهو يسحب المغلف ليفتحه وقسمه بينهما بالتساوي، ليشعر نادر بالغباء.. هل هو استغفله مجدداً؟!

ولكن لم يفصح عن ظنه.. فقط.. من هذا الشخص الجالس أمامه؟!
فيما استمتع فارس بقضم البسكويت وذوبانه في فمه وعيناه تُحدقان

بالخارج.. الاثنان جائعان.. هذا ما اتفقت عليه معدتاهما وهما ينهيان أكلهما ويستعدان أخيراً للنزول.

«فارس»

تجمدت يد فارس فوق مقبض الباب، وصوت نادر الجاد يثير غرابته، فالتفت نحوه ليرى وجهه يكتسي بجدية أشد: «إنها المرةُ الأولى التي ستختلط فيها بالكثير من الناس بعد أكثر من ثمانِي سنوات احتُجِزت فيها بحجرة واحدة بمفردك».

قلقه انعكس مثله على عيني فارس، فأضاف محذراً: «لا تظن الأمر سهلاً».

ارتخت عيناه غير مستوعب قلقه، فهو لم يعد يشتبه بالناس بكونهم المجرم، والأدوية ذات أثر جيد عليه.. بل ونادر أخبره أنه قد حقق الوعي الكامل بمرضه وعكست تصرفاته توازناً نفسيّاً كبيراً..

«هل سأنتكس إن خالطت الناس؟! ألهذا ترفض اصطحابي للسوق؟!».

«ليس بالضرورة أن تتأذى بسبب المتلازمة» قالها، وهو ينزع مفتاح سيارته ويرميه في جيبه، وذاكرته تسترجع مقاساته للسجن الانفرادي..

«ماذا إذاً؟!» سأله فارس.

«أريدك أنت من تلاحظ.. لذا احرص على بقائك قريباً مني ولا تبتعد».

كلماته تلك سرقت جزءاً من فرحة فارس، ويده تمتد لتفتح الباب بوجل، تزامناً مع ترجل نادر خارج السيارة لتحرك الرياح نهاية معطفه..

ترجل فارس هو الآخر وأغلق باب السيارة ونبضاته تعلو بتوتر، ولكن لم يحدث شيء!.. أسرع ليقف جوار نادر مشاركاً له مشيته بين الأزقة ليصلا إلى نهايتها..

وانحنى فجأة للأسفل شاهقاً بقوة، وكفاه تضبغطان على كلتا أذنيه، وقد اتسعت عيناه بألم، لم يميّز عقله حجم ذاك الضجيج الذي هز طبلتي أذنيه بعنف، أصوات متداخلة لعربات صغيرة يدفعها أصحابها نحو السوق.. أبواق دراجات من كل مكان انطلقت ناقمة على المارين الذين علَت أصواتهم هم الآخرون شاتمين وساخطين.. أصوات الباعة الذين يدللون على بضائعهم والمتسوقين المساومين لينقص قرش أو قرشان من حساب شرائهم.. وصوت حيوانات صدر عن كل زاوية في السوق..

«فارس.. فارس.. فارس» بالكاد ميّز سمعه صوت نادر من بين كل تلك الأصوات ليرفع له عينين ملؤهما الألم.

«أعلم أنه مؤلم، ولكنك ستعتاد.. وقت فقط وستعتاد»

على الرغم من كلمات نادر المشجعة، ووقوفه أمامه، إلا أنه لا يثق بقدرته على تحمل خمس دقائق حتى!

عضّ على شفته السفلى بألم وبوق سيارة مارة يتسرب إلى الزقاق ليشعره وكأن طبلتي أذنيه على وشك الانفجار.

رفع عينيه الشاكيتين لتستقبلهما عينا نادر الهادئتان..

«احتمل.. سيهدأ بالتدريج إلى أن تعتاده فحتى نحن الأصحاء ننزعج من ضجيج السوق.. فما بالك بك وقد أمضيت سنوات دون أن تسمع صوت نفسك حتى؟!».

عبارته الأخيرة انتزعت وعي فارس من فوضى الأصوات الصاخبة ليبدو التأثر على وجهه، وقد أدرك أن الواقف أمامه هو الوحيد من بادر بالتحدث إليه بعد كل تلك السنين، فابتسم رغم تألمه، وقلبه يغزوه شعور جميل نحوه.

ومر الكثير من الوقت قبل أن يلحظ نادر هدوء فارس فقال: «ثلاثُ ثوان فقط وأبعد كفيك عن أذنيك.. اثنتان.. واحدة.. الآن».

«حسناً»: ثم ببطء وعيون نصف مغمضة راح يُبعد كفيه ليؤلمه الضجيج مجدداً فتأوه قليلاً وهو يُعيدهما، ولكن عيون نادر المسمّرة عليه جعلته يخفضهما ويعيدهما عدة مرات قبل أن يُحرر أذنيه بالكامل فاتسعت شفتاه بضحكة صاخبة مبتهجة.

«لا تفضحنا»: همس نادر وهو يدير بصره نحو نهاية الزقاق بحرج.

«لم يعد مؤلمًا كثيرًا كما قُلتَ»: بضحكة كادت تمزق شفاهه قالها.

«ومُنذُ متى كُنتُ مخطئًا؟!» وطرق بطرف أصبعه جبينه ليتجهم وجهه.

وظل لوقت في الزقاق حتى تيقن من أنه اعتاده تمامًا، ثم تحرك نحو السوق هاتفاً به: «سر جواري».

أسرع فارس ليحاذيه بمشيه وقلبه يملؤه الشغف لرؤية ما بخارج الزقاق، واتسعت شفتاه بتفاجؤ وعيناه تنظران إلى كل ما حوله، المحلات الصغيرة وعربات التسوق المصطفة على جانبي الطريق وجموع الناس بمختلف أشكالهم وملابسهم.

ولكن ليس أعمارهم؟! فجميعهم من كبار السن ممن لا يملكون هواتف، ولا يحسنون استخدامها.

ابتسامة جانبية زينت شفتي نادر لذكائه وأدار بصره ينظر إلى فارس وقد خمن أنه بالتأكيد مستاء وخائب الظن، ولكن أدرك خطأ توقعه حين رأى السعادة تُشع من عينيه وقد غمرت قلبه، بل وسبح فيها حتى انتشى عقله الذي لم يستوعب هذا الكمّ الهائل من البضائع.

بضائع لم يعرفها لأنها قديمة جدّاً، وأخرى جديدة على قاموسه فقد ظهرت خلال احتجازه بالمستشفى، ولم يكُفَّ عن التحديق في هذا وذاك، بل وتحرك ليقف أمام عربة ارتصّ فوق لوحها أنواع من الحلويات القديمة بألوان وأحجام مختلفة.

ثم رمق نادر بنظرة مسكين لتلتوي شفتاه بحنق.. كيف نسي ذلك؟! كان عليه أن يأخذ من العجوز مالًا قبل أن يسمح له بمرافقته.

«كم ثمنها؟!»

وأشار للمغلفات التي اختارها فارس لتسقط عيناه على البائع.. (ساري) زميله في المرحلة الإعدادية.. وجد الأمر غريباً، ولكن حين رأى كبير سن إلى جواره علم أنه يُساعد والده..

هل تحدثا؟!.. لا.. هل ادعى أحدهما معرفته بالآخر ؟!.. بالطبع لا.. فقط سحب ساري المغلف ومنحه لفارس وقبض ثمنه من نادر ليغادر الاثنان..

الجميع يتجاهلون معرفتهم به، ولم يزعجه ذلك!.. لأن شعوره قد تبلَّد.

أكثر من ثماني سنوات كابد فيها هذا التجاهل بصورة يومية، وسمع معها بعض الهمسات العائبة خُلقه وسلوكه.. بالتأكيد منحه ذلك مناعة ضدها.

«انظروا.. فتًى يرافقه؟!».

«وجهه لا يظهر.. لا يبدو أنه من مدينتنا وإلا ما ارتدى وشاحًا يغطي حتى شفتيه».

«يبدو أصغر من المجرم؟!».

«من هو؟! ومن أين جاء به؟!».

«الغبي كيف يرافقه؟ ألا يعلم أنه خريج سجون؟!».

«بل ألا يعلم حقيقته بأنه لقيط؟!»

«لا أريده أن يشتري من بضاعتي سيُصيب تجارتي الشؤم».

«وجود مثله هو الشؤم نفسه».

همسات ناقمة سقطت في أذنيه بتعدد قائليها من مسنين ونساء، ولكنه لم يكترث وراح يُقلب قطعة لحم كبيرة لتخرج إحدى العاملات: «إنه أنت نادر.. ومن هذا معك؟! هل هو ذاك الصغير؟!».

حرك نادر بصره مستغرباً هدوء فارس، فرآه ساكناً جواره، وقبضتاه مشدودتان، وعيناه تُحدقان بالأسفل.

«أنت بخير؟!» سأله نادر وحاله قد أثار قلقه، فرفع ذراعه بسرعة ماسحاً عينيه ثم رفع رأسه قائلاً: «أنا بخير».

بالتأكيد يكذب عليه، هذا ما أحسَّ به نادر وهو يرى زرقاويه تعكسان احمرارًا خفيفًا.

«فارس.. إن ظننت أحدهم المجرم فعليك أن تخبرني» بلهجة شديدة قالها وكفه تربت على كتفه.

«أنا حقاً بخير» وابتسم بسرور كبير: «أنا سعيد لأني هنا في السوق».

شيء في نبرته لم يُرح نادر أبداً، ولكن وقبل أن يصدر عنه شيء كان قد تحرك فارس ليشير نحو العاملة بسبابته ضاحكاً: «المرأة التي ساعدتنا في جني محصول التفاح».

«إنها هيَ» أجاب نادر وقد أراحه أنه تعرّف عليها، فيما اقتربت هيَ من فارس سائلة: «كيف حالك؟!».

«بخير».

«ذلك الرجل الذي آذاك في الحقل قد رُمي به في السجن».

«حقاً؟!».

«نعم فلا تقلق».

«هذا جيد».

احمرَّ وجه العاملة للطافته فيما حول فارس نظراته لنادر وهو يحشر قطع الحلوى بين أسنانه سائلاً بحزن: «متى سيعود برونو؟!».

«أنت في السوق فلم تفكر ببرونو الآن؟!».

«هو من أنقذني من الرجل.. ما رأيك أن نزوره بعـ..».

بتر عبارته حين رماه نادر بنظرة مهددة: «لا تتحدث حتى تبتلع ما بفمك وإلا لملأ معطفي بصاقك».

رفع كفيه وأقفل فمه دون أن يُدرك أثر سؤاله عن برونو على نادر، فيما انشغل نادر باختيار اللحم متجاهلاً أن يجيبه..

اشترى قطعة كبيرة، سيطبخ وجبة مُغذية لوالديه والتفت إلى فارس.. ببيض العجوز ودجاجها بنيته قد تحسنت كثيراً لكنه ما زال يحتاج لعناية أكبر.

«اتبعني» قالها وأشار بأصبعه لعربة حُملت بمختلف الأواني الخزفية سيشتري لجواهر زهرية بدل التي كسرها ولم ينتبه إلى فارس الذي لم يلحق به منشغلاً هو الآخر بالنظر لخراف حُبست داخل مساحة صغيرة أحاط بها أسوار حديدية..

«نادر.. لنشترِ لجدتي واحدًا تضعه مع دجاجها»

بتهكم قالها، والتفت نحوه لتتلاشى ابتسامته حين أبصر مكانه الفارغ.. انقبض قلبه، وبحثت عيناه عنه يمنة ويسرة، ناداه، ولكن لا أثر له، عندها مشى مخترقاً جموع المتسوقين وأنفاسه تتسارع بفزع.

الكل حدّقوا به، وانزعجوا من صياحه وابتعدوا عن طريقه بسبب ارتطامه اللامسؤول بهم.. هو حتى لم يعتذر!

«ما به؟!» نطقتها عجوز باستهجان شديد، وهي تفسح له الطريق مع رفيقاتها ليمر.

وفجأة وجد نفسه يقف وسط السوق بوجه شاحب، والناس يتفرقون عنه يمنة ويسرة، والأعين مسلّطة عليه من كل اتجاه لتزيد من

رعبه وارتجاف جسده، وزاد من سوء الوضع سماعه لبعض الهمسات والضحكات.. لقد جعل من نفسه عيّنة للتندر والسخرية فتصاعدت الدماء لتغزو عينيه بلون محمر.

(سيعود للسيارة) فكّر وقدماه تتحركان، ولكن من أي اتجاه جاء؟!

وأين أوقفا السيارة؟!

بل أين هو؟!

لم يعلم أن السجين إذا ما خرج فأول ما يفقده هو حسّه بالاتجاهات.

وعندها تفجر ذاك الشعور في أعماقه مجدداً.. شعور الوحدة الذي يكرهه..

بحثت عيناه الباهتتان عن مصدر أمانه في كل ما حوله، وشفتاه تُناديان بهلع (نادر) علّه يسمعه فيغيثه، أو يعيد له اتزانه.

«إنه أنت»

ذلك فقط ما كان ينقصه ليستفيق من جموده، ويركض نحو أحد الأزقة هارباً من أحد الأخوين اللذين ضربهما ببيضه صباحاً.

تجاوز بجريه شابتين إحداهما شيعته بنظرة متسعة مستغربة، فيما لم تهتم له الأخرى، وتوقفت به ساقاه أخيرًا في زقاق صغير خلا من الناس ليعود إليه بعض الارتياح، فاتكأ بكفيه على حاوية للنفايات ليلتقط أنفاسه التائهة.

«من كان يظن أننا سنلتقي سريعاً؟!»

تلفّظ بها طارق متخلياً عن خطته الأولى، سيكسر أصابعه التي تجرأت على رميه بالبيض هنا، في هذا الزقاق.

ابتلع فارس ريقه بتوتر، والمكان لا يحوي سواهما، فتراجع ليرتطم ظهره بالحاوية من خلفه.. لم يظن للحظةٍ واحدة أن يتحول تسوقه لهذا الكابوس المريع بدءاً بفقدانه لنادر وانتهاءً بحصاره من قبل هذا الفتى الغريب الذي لا يعرفه.. وكل ما يجمعهما ضغينة الصباح!

حوّل نظراته التائهة الوجلة إلى آخر الزقاق وخوفه من ضياعه عن نادر يشغله أكثر من خوفه من طارق الذي تقدّم نحوه يُفرقع أصابعه.

«لم تعد خلف أسوار حقل التفاح.. ولا بقرب بيض دجاجاتك.. لا مهرب لك». عبارته الساخرة أعادت عيني فارس الوجلتين نحوه.

«لن تحول هذه القبعة دون استمتاعي برؤية تعابير الألم على وجهك!»

صاح، وكفه ترتفع لتسحب بعنف قبعة فارس الصوفية فتحرر شعره الفاحم لينتشر فوق جبينه وظهرت من أسفله عيناه المتسعتان بهلع.

صحيح أن طارق مراهق مثله، وربما يصغره بعدة أشهر، وإذا ما تعارك معه فقد يجد طريقة لينجو، ولكنه الآن لا يريد إلا إيجاد نادر.. لا يُهمه غيره.. ماذا لو أنه هُجر مجدداً كما هجرته أسرته؟!

تلك الفكرة فقط جعلت قلبه يكاد ينخلع، فاستدار يريد العودة إلى السوق للبحث عنه مجددًا، وأطلقت شفتاه فجأة آهة ألم بعد أن تلقى فكه لكمة عنيفة أسقطته أرضاً، ونزف معها داخل فمه.

بصق تلك الدماء على الأرض، ورفع عينين مهتزتين بألم، فرأى

طارق يضحك عليه ويهز كفه في آن واحد لألمها هيَ الأخرى من عنف الضربة.

تقوست شفتاه وقد أُضيف لعذابه النفسي ألمه الجسدي وشعر بأنه موشك على البكاء، ولكن..

(لا تُظهر ضعفك لأحد)

صرخة عالية علَت في أعماقه بصوت العجوز جواهر جعلته يكبت دموعه بقوة.. ولوهلة ظنّ طارق أنه سيحظى برؤية تلك الدموع إلا أنه خاب ظنه بسرعة حين عكست عينا فارس نظرة غريبة لم يفهمها.

بل وتفاجأ به يقف هامساً من أسفل الوشاح بكلمات مبهمة وهو يعقد أصابع يُسراه بالتتالي وكأنه يختار.

(لا تظهر ضعفك لأحد، حرك عقللك الفارغ ولا تستفزه، انسحب بهدوء، إن كنت قوياً كفاية فتعارك معه).. ظل يكررها بصوت متوتر يعكس حيرته الشديدة..

ولسوء حظ فارس لم يسمع طارق منها سوى: (انسحب بهدوء)، فانفجر ضاحكاً وردد: «جبان.. أنت جبان!».

توقفت أصابع فارس، وقد أفلحت هذه الكلمة في استجلاب غضب دفين من أعمق أعماق روحه لينعكس على عينيه الزرقاوين، هي الكلمة التي لطالما كرهها والتي نعت نفسه بها لتسع سنوات مُنذُ مقتل لَمى وعجزه عن إنقاذها.

«(انسحب بهدوء).. هل ذلك اللقيط نادر هو من علمك هذه الكلمات؟!» سأله طارق ساخراً وقد شفت لكمته الكثير من ضغينته ضده.

«إياك أن تشتمه»

أنجبتها شفتا فارس بنبرة مهددة، وقد تبدل حاله تماماً، فتوقفت ضحكات طارق ليرتفع حاجباه: «ما زلت تقف في صف ذاك المجرم رغم ما أصابك؟!».

صحيح هو ما زال يتألم، بل ويذوق الدم بين شفتيه.. ومع ذلك شمخ بأنفه للأعلى، ورمقه بنظرة فوقية من رأسه لأخمص قدميه، وسبابته ترتفع بازدراء: «اخرس.. لا أريد سماع صوتك».

ذلك الشموخ والنظرة المزدرية لم تعلّمه إياهما العجوز! ولا نادر حتى! بدا كشخص آخر مختلف..

شخص لم يكن ليعرفه بصورته هذه سوى عائلته..

نبرة صوته الممتلئة غطرسة وكِبرًا أشعرت طارق بالدونية كما لو أنه يُخاطب حشرة، فانفجرت كلماته: «بل سافل وضيع، حقير، مجرم، منحط، حثالة، لقيط، قـ..»

واختنق حلقه بباقي شتائمه، حين اصطدمت بوجهه علبة مشروب معدنية ممتلئة إلى النصف أحدثت شقاً دامياً في وجنته، بل وتاهت كف فارس في الحاوية باحثاً عن شيء آخر يقذفه به.. ألم يكن يتمنى صباحًا لو كان لديه مضرب بيسبول ليخرس به فمهما بدلاً من قذائف البيض؟!

إنها فرصته.

ظل طارق يغطي الشق والدم ينساب من بين أصابعه وعيناه

تعكسان توجعه وصدمته.. ولم يستوعب عقله شخص الواقف أمامه فقد كان قبل قليل كالعصفور المرتعش المبلل.

«أيها الصعلوك القذر!» صرخ بها وهو ينقض على فارس ويتعارك معه.

انقضاضته السريعة سلبت فارس فرصته لأخذ شيء من الحاوية فعقد ذراعيه أمام وجهه متلقياً تلك اللكمات والقبضات الثائرة التي توالت على وجهه وصدره وكتفيه.

وأمام ما يحدث عاد لعقله فجأة خيارات العجوز.. ليختار آخرها.. هو لا يعلم إن كان قويّاً كفاية ليهزمه، ولكن هذا الحثالة لم يترك له خيارًا؟!

واشتبك معه ملقياً بجسده فوقه ليسقطا أرضاً معاً.

توالَت ضرباتهما وكان النصيب الأكبر من الألم لفارس الذي كبَت أنينه وهو يدفع جسد طارق ليرتطم بعنف بالحاوية المعدنية.

ومع تحرر جسده قفز فارس ليسحب عصا مكنسة مكسورة إلى جوار الحاوية وقد أدرك أخيراً أنه لن يستطيع هزيمته.

«فقط لا أصبه بعاهة تدخلني السجن»

تمتم بها، وعقله يدرس حساسية الموقف، فقلب عصا المكنسة ليدافع عن نفسه بطرفها السليم مخمناً أن طرفها المكسور هو ما سيدخله السجن.

وفقط لو أن العجوز هنا لافتخرت به..

«أيها الوغدُ اللعين!»

تفجرت العبارة من خلفهما، ورأى فارس بعدها توءم طارق يجري نحو أخيه، ثم أسنده وعيناه القلقتان تتفحصان جرح وجنته الدامي..

ارتخت العصا من بين أصابع فارس وقد أدرك أنه ليس نداً لهما معاً..

وتوقف عقله عن إجراء عمليات معقدة التفكير من أجل إيجاد مخرج ليشعر مع تشوش عقله بتشوش رؤيته.

«كيف تجرؤ أيها اللعين على ضربه؟!» صرخ ثامر بقوة ليهتز جسد فارس.

«هو بدأ.. لم يكن عليه شتم نادر»

ردّ وساقاه الواهنتان تتراجعان للخلف، وصدره يعلو ويهبط في إرهاق شديد.

ذِكرُ فارس لهذا السبب السخيف أفقد ثامر صوابه ليتجاهل كل تلك الجراح في جسد فارس مقارنةً بأخيه، وصرخ: «طارق.. دعنا نفعلها هنا!».

اتسعت عينا طارق، وهو يشدُّ على ظهره بألم: «ولكن؟!.. الناس سيَرونننا».

«كلا.. رغم عراككما لم أسمع شيئًا، فالسوق صاخب للغاية».

أرجح طارق نظره بين فارس المتسع العينين بغير فهم، وأخيه ثامر، ثم كشر عن أسنانه بحقد: «لنفعلها إذًا!».

ارتد فارس للخلف، وهو يراهما يستقيان أمامه لا يفصل بينه

وبينهما سوى عصاه، هو في ورطة فالزقاق خلفه مسدود بحائط يتجاوز طوله.

«تراجعا!»: صرخ بأعلى صوته، وكفاه تلوحان بالعصا يمنةً ويسرة بلا وعي.. ومع حركته ازداد ارتخاء الوشاح ليكشف عن وجهه المتعب وطرف شفته النازف وكدمة تعلو ذقنه.

ظهورها جعل الاثنين يبتسمان برضًا، ولم يحتج الأمر إلى أكثر من ثلاث دقائق، ليكون فارس ساقطاً على الأرض محتضناً عصاه، وهما ينهالان عليه بالضرب والركل، وهو يحاول حماية رأسه ووجهه.

تأوه، زرقاواه غشتهما الدموع، ولكنه ظل كالأبله متشبثاً بالعصا دون دفاع لتزداد ضحكاتهما المستهزئة.

«ثامر.. فلنجعله يعوي كما عوى برونو البارحة وهو يحتضر»: ألقاها طارق ضاحكاً وحذاؤه يدوس ساق فارس فشهق بتوجع.

«كي نحصل على ذلك الصوت نحتاج إلى الهراوة لنمزق جسده كما مزقنا جسد الكلب، بل هل سيتجاوز راجح عنا إن فعلنا ذلك معه فهو بشـ..»

والتقم فم ثامر فجأة جزء العصا المكسور ليسيل الدم غزيراً من بين شفتيه.. صرخ طارق جزعاً على أخيه وفارس يستقيم واقفاً بترنح وقد حملت عيناه نظرة خاوية وكفاه تحملان العصا.

فارس نفسه لا يعلم كيف استطاع الوقوف؟!.. ولا كيف حرك العصا ليضربه؟!

ولكن لعلّ الضغينة التي اشتعلت في أعماقه من أجل برونو - الذي مُزق جسده كما مُزق جسد أخته - قد منحته دافعاً حقيقيّاً للعنف..

عنف أشبه بالعنف الذي تركه قبل أقل من ستة أشهر..

صرخ بأعلى صوته صرخة رُجّ معها جسد الاثنين والعصا تنزل مراراً وتكرارًا على جسد ثامر لتكسر شيئًا من عظامه.

وتوقف فارس فجأة عن جعل العصا أفقية، ثم لفها متعمدًا ليسقطها رأسيًّا على ساقه كي تُحدث ضررًا أعظم وشهق ثامر بعنف وانتحب والألم يفقده صوابه.

وتخاذلت كفا فارس فجأة لتسقط العصا من بينهما إثر ركلة طارق المذعور على أخيه والتي اختارت جزءًا من جسد فارس لطالما تلقى فيه الضربات.

سقط فارس على الأرض، وأطلق صرخة عالية، وكفاه تعتصران خاصرته متلوياً بألم، حاله ذاك أفزع طارق أكثر مما أفزعه تغير شخصيته الغريب، فحاول إيقاف ثامر الباكي كي يهربا متخليين عن خطتهما بتصويره بالهاتف.

ولكن صرخة العذاب التي أطلقها فارس نجحت بطريقةٍ ما في جذب ذلك الجزء في طرقات السوق يبحثُ عنه.

لم يُكمل التوءمان وقفتهما بعد حين رأياه يقف بقامته حاجبًا مدخل الزقاق متصلباً وعيناه مسمّرتان على فارس..

أراد الاثنان رؤية ذلك التعبير في وجهه صباحاً، ولكن الآن هما تمنيا الموت قبلها..

لم ينطق، فقط أسقط أكياس مشترياته بإهمال، وتحرك نحوهما ماشياً بهدوء، وعيناه تتلونان حمرةً كالدم القاني..

لم يملك ثامر نفسه أن بكى بصوتٍ عالٍ وقد أدرك نيته..

فيما لم يستطع طارق الدفاع عن نفسه وكف نادر اليمنى تمتد لتُطبق فجأة على عنقه بعنف مما جعل عينيه تجحظان، ورفعه حتى لم تعد تلامس قدماه الأرض، ثم دفع جسده بقوة ليصطدم رأسه وظهره بالحائط من خلفه بقوة، ليبقى معلقًا في الهواء، واقترب وجه نادر من وجهه الشاحب خوفًا وألمًا حتى لم يعد يفصل بينهما سوى إنشات: «تلك اليد المعطوبة التي كررتها صباحًا عن عمْد لم تكن كافية كعظة لتتوقفا عن استفزازي؟!».

واعتصرت أصابعه عنق طارق ليتحشرج صوته وتبرز عيناه أكثر هاذياً بكلمات لا تُفهم.. وإلا لأدرك نادر أنها قد عبّرت عن أسفه وندمه الشديدين..

«توءمان أحدهما جثة سيكون ذلك أكثر من كافٍ كعبرة.. أليس كذلك؟!» وضغطت أصابعه أكثر ليبكي ثامر المرمي أرضاً هلعاً على أخيه، وصارخاً بأهل السوق أن ينجدوه من تجدد مأساة عائلته.

«ذلك الكابوس سأجعله واقعًا وليحدث ما يحـ..»

بتر جملته المثقلة بجنون غضبه فجأة حين تعلقت شابة بذراعه القابضة على عنق طارق، وقد ملأ وجهها الفزع: «نادر.. أرجوك.. أرجوك.. لا تفعل!».

حوّل عينيه الغاضبتين نحوها لتزدادا ظلاماً.. هيَ فقط ما كان ينقصه ليكتمل المشهد القديم.. (ريم).

لم تملك نفسها أن فجرت دموع جزعها عليه، ويداها تسحبان ذراعه القابضة على عنق طارق صارخة: «دعه أرجوك!.. لا تدخل السجن.. هما مجرد مراهقيْن لا يستحقان.. دعه يا نادر.. أرجوك!».

هيَ تزيد من غضبه أكثر من نجاحها في تهدئته، ولكن تشبثها بذراعه أفلح بتخفيف الضغط على عنق طارق الذي شهق بقوة..

«ريم.. دعِي يدي!» صرخ بثورة.

«لن أفعل.. أُفضل الموت على ذلك»

وارتجفت شفتاها ببكاءٍ عالٍ: «لن أتركك مجدداً.. لن أسمح لك بفعلها كالسابق».

واعتنقت ذراعه بجسدها كله ودموعها تتساقط عليه..

كزّ على أضراسه، لا يفهمها؟!، صفعها بالأمس وتتعلق به الآن؟!.. ولكن فعلها هذا لم يكن ذا نفع فقد فاجأها بدفعه لها بذراعه الحرة صارخاً: «لا شأن لكِ.. من الخير لكِ أن تبتعدي!».

حاولت التماسك أمام دفعته، التشبث به أكثر رغم نبرته المخيفة، إلا أنها فشلت مع قوته التي أبعدتها، وأبصرت تينك الذراعين اللتين ارتفعتا فجأة لتلتفا حول ذراعه بقوة، وصاحبهما يُخفي وجهه في ساعده صارخاً بلوعة:

«لا.. لا.. لا تذهب إلى السجن!».

ميّز نادر نبرة فارس الباكية وشعر بدموعه المغرقة ذراع معطفه وهو يضغط وجهه أكثر عليه كي يخفي بكاءه على الجميع عداه..

«لا.. لا تتأذّ أرجوك.. سيضعونك في السجن مثل أمجد.. ستموت هناك.. أرجوك توقف وأنا أعدك لن أطلب الذهاب إلى السوق مجدداً.. وسأبقى بالمنزل.. أنا أسف..»

خفت ذلك الظلام بعينيْ نادر، وفارس يُحمل نفسه مسئولية ما حدث، بل وهمس فجأة بانهيار: «جدتي قالت: نتعارك معهم دون أن نصيبهم بعاهة تدخلنا السجن.. يجب أن تسمع كلامها وإلا فسأخبرها عنك كي تضربك بعصاها».

بالكاد خرجت مع شهقاته الباكية، يصحبها أنين تألمه، ومع ذكر فارس لوالدته ارتخت أصابع نادر من حول عنق طارق ليهوي بجسده أرضاً مستنشقاً هواء الحياة، فيما أخذ نادر نفساً عميقاً هدأ به نفسه.

وثوان وربت بكفه على رأس فارس الذي تشبث به أكثر: «ستشي بي للعجوز هاه؟!».

لم يهتم فارس بالردّ عليه، وبكاؤه يزداد حدة فجأة: «أنا ضعت.. ضعت.. لقد كُنتُ خائفاً ووحيداً دونك».

ارتخى جفنا نادر رقةً له، فهو لم يشكُ إليه من آلام ضرب التوءمين، وكأن جسده قد اعتاد الضرب من سِنِي بقائه مع ياسر..

بل ولم يشكُ من كون دفاعه صباحاً عنه قد جرّ عليه عقابًا لا يستحقه؟!

فقط يشكو إليه وحدته دونه، بل وزالت رغبته بالتسوق..

استسلم نادر ثوانيَ لشكواه ووجهه يحتك بمعطفه ثم: «فارس سأعطيك هذا المعطف حين نعود».

توقف ذاك البكاء ورفع زرقاوين متسعتين وهو يُرخي بصدمة ذراعيه من حول ذراع نادر ثم سأله: «حقّاً؟!»

«نعم فلا حاجة لي به بعد أن ملأه مخاطك ومياه عينيك».

ظلت تانك الزرقاوان تغوصان داخل تينك العسليتين الهادئتين قبل أن يبتسم بتوتر فيما ابتسم نادر بلين..

استقامت ريم مذهولة ممن كبح جنون غضبه، وانتزع ابتسامته في ثوانٍ معدودة، فيما تفحّص نادر ذقن فارس ووجهه وجسده عن أيّ جراح إضافةً للكدمات.

«أنت بخير؟!».

حرّك فارس رأسه بـ (لا) وهو يستند على ذراعه مُجيباً بوهن: «إنها تؤلم بشدة».. وأشار لخاصرته.

رمى نظرة قاتلة نحو التوءمين اللذين حُشرا بين الحاوية وجدار الزقاق الخلفي لا يقويان على المرور من أمامه كي يهربا، وأحدهما ساقه مثنية بكسر واضح، فيما ظل الآخر يفرك رقبته حيث أصابع نادر المطبوعة عليها.

«لا تظهرا أمام عينيّ أبداً وإلا فما فات اليوم قد أكرره لاحقاً»

تهديده بعث الرعب في أعماقهما ليتقلصا أكثر خلف الحاوية مبتعدين عن نظراته.

فيما مسحت ريم وجهها المبلل، ووقفت لتصدمها تلك النظرة من نادر..

نظرة جعلت الدموع تتدفق من جديد إلى مقلتيها.. غير مصدقة! فهل حملت نظرته وداً نحوها؟!

«من هذه؟!»

سأل فارس فجأة، قاطعًا تلك اللحظة، وهو يتحامل على ألمه ليقف بمفرده، مما جعل قلب نادر ينقبض بقلق لعدم معرفته إياها.

«إنها ريم».

أجابه فابتسم فارس وهو يذكر محاولتها منع نادر من قتل طارق ثم سأله: «التي أخبرتني عنها في الحقل؟».

«نعم وقد التقيت بها من قبل».

«لا.. أنا لا أذكر أنني رأيتها سابقًا».

انعقد حاجبا نادر حتى كادا يلتحمان ففارس يذكر حديثه معه عنها، ولكنه لا يذكر رؤيته لها.. تصرفه الغريب هذا دفع نادر ليخرجه من الزقاق بأسرع وقت.

«إنها جيدة.. ربما يكون ثابت أجبرها لتكون واشية».

تفجر قول فارس الغريب بينهما لتنفرج شفتا ريم بغير فهم فيما تضخم عرق جبين نادر بغضب وهو يسنده ليخرجه هامساً: «أنت تحتاج إلى علاج لجسدك ولسانك معاً».

شيعتهما ريم بنظراتها المصدومة، وقد وقع حديثه موقعاً من نفسها..

«ثامر اتصل براجح بسرعة قبل أن يهرب.. يمكننا الآن أن نرمي به في السجن». صاح طارق بغتة وإحدى كفيه تدلك عنقه فيما غطت الأخرى جرح وجنته.

«هاتفي تحطم.. كسره ذاك اللعين بعصاه حين كان يضربني» أجابه ببكاء خالطه دم فمه ويده تقبض على ساقه، وقد أدرك أنه لن يحتمل ألمها أكثر.

أدارت ريم بصرها نحوهما، وقد انتشلاها من شرودها، فرفعت هاتفها قائلة: «طارق لقد صوّرتُ بهاتفي اللحظة الأولى لدخولك الزقاق وتنمرك على الفتى الغريب ومن ثم لحاق ثامر بك ومعاونته لك».

وقرنت قولها بالفعل حين قربت شاشة هاتفها منهما ليريا صدق ما قالته..

«ماذا تقصدين بفعلكِ هذا؟!» صاح طارق مفزوعاً، وهو بالكاد يقف متكئاً على الحاوية.

«إن نشرتُ هذا المقطع فسيعلم الجميع أن أسرة ثابت قد أنجبت مجرمين وسيُنسى عندها جُرم نادر وتنتقل نميمة أهل القرية إليكما».

«أنتِ أيضاً تقفين في صفه؟!، ولكنه كاد يقتل أخي، لقد رأيتِ ذلك بعينيكِ» ردّ ثامر بانفعال وهو يجُرُّ ساقه خلفه.

«رأيت ؟!.. ماذا رأيت ؟!.. لم أرَ شيئًا، بل وتوقف تسجيل الفيديو حين ضرب طارق الفتى في خاصرته ليسقط متلوياً وصائحاً بألم».

«أيتها الحقيرة!» صاح الاثنان.

«إن خرج خبر ولو صغير عمّا حدث في هذا الزقاق فأُقسم إنني سأحرص على أن تدركا عظم حقارتي».

اتسعت أعين الاثنين صدمةً وحقداً وقد أوقعتهما في مصيدتها، فإما يتجاهلان ما حدث وينجو نادر، أو يقدمان شكوى ضده، وعندها سينتشر المقطع وتتدمر سمعة أسرتهما.

«سحقًا لكِ!.. ما زلتِ تحبينه وتدافعين عنه!».

«نعم» قالتها بلا حياء وهي تتحرك إلى الخارج لتقابل شابة أخرى علا وجهها الكدَر والضيق والتي صاحت حين رأتها: «ريم.. أين اختفيتِ؟! لم نختَرْ بعد القماش لحفلة عقد قراني و..».

بترت قولها وشهقت بهلع حين وقعت عيناها على التوءمين، فصاحت: «طارق، ثامر ماذا حدث لكما؟!».

صوّبت ريم نظرة مهددة نحوهما ليبتلعا لسانيهما وأجابت هيَ: «سميّة.. أخواك تعاركا بعضهما مع بعض وقد انشغلت بفكّ شجارهما».

اتسع فم سُمية صدمة والتمعت عيناها بالدموع وحالهما المزري يقلقها، فصاحت بنبرة ثائرة: «يا إلهي.. ألم يكفِ عراككما في المنزل حتى تفضحانا بين الناس؟!».

وانتبهت لخد طارق النازف والأثر بعنقه ثم لساق ثامر الدامية

والمثنية فبكت: «قلوبكما كالحجارة كيف استطعتما إيذاء بعضكما بعضًا إلى هذا الحد؟!».

انتفخت أوداج الاثنين غضباً وقهراً وشفاههما مطبقة فيما سحبت ريم سُميّة من ذراعها قائلة:

«هكذا هم المراهقون.. ما رأيك أن نأخذهما إلى المستشفى وبعدها نركز على حفلة عقد قرانك من أخي راجح؟!».

أومأت سُميّة برأسها موافقة بقلب منفطر على أخويها، وأسرعت لتسند طارق، بينما أسندت ريم ثامر الذي تمالك نفسه عن دفعها، وقد وصله غرضها المقيت بمرافقتهما للمستشفى؛ فهي ستبقيهما تحت عينيها حتى تتيقن أنهما لن يتحدثا بما حدث.

****

(١٣) برونو قد مات..

- السادسة مساءً -

أطلق أحمد زفرة قصيرة، وهو يخلع معطفه الطبي، ثم علقه على مشجب قريب، مط ذراعيه على امتدادهما، وقد أخذ منه التعب، فرمى بهاتفه فوق المنضدة المجاورة للسرير أتبعها برميه لجسده فوق فراشه.

أغمض عينيه، سينتظر فقط صلاة العشاء ويصليها وبعدها سيستغرق في نوم عميق فغداً يوم إجازة.

كان لا يزال يستمتع باستلقائه المريح حين رن هاتفه، فتململ للحظات قبل أن يسحبه ليرى شاشته.

«ريم.. تبّاً!». ورمى الهاتف، لن يرد عليها..

ولكن تكررت تلك الاتصالات فسحبه مغضباً وفتحه ليقابله وجهها فتذمر: «مكالمة فيديو؟! هل أنتِ جادة؟!».

«اسمع ما سأخبرك به».

كبح تأففه بالقوة والنعاس يُغرق عينيه.. ماذا ستقول؟!.. بالتأكيد ككل مرة.. لِمَ نادر لا يعيرني اهتمامه؟!.. لا يمتنُّ لي لرعاية والديه؟!.. لا يغفر لي؟!.. و.. و..

«نادر كاد يقتل خنقًا أحد إخوة ثابت اليوم».

طار النعاس من عينيه، وقفز جالساً والذعر يغطي وجهه: «ريم.. أنتِ تمزحين؟!».

«كلا.. لا أمزح» ردت بنبرة جادة.

«هل هو بخير؟!» سؤاله عكس هلعه الشديد، فقصت عليه ما حدث كاملاً مختتمة كلامها بفخر: «أرأيت؟.. لقد أنقذته!».

لم يُجبها أحمد، بل ظل مُحدق النظر بها، وقد عكست عيناه صدمته الشديدة من تعبير وجهها العاكس لنشوة سعادة عارمة، وهي تتابع بابتسامة متحمسة: «الآن لا يمكنك إلا أن تعترف بأني ذات نفع.. حتى نادر نفسه نظر إليّ بود.. ما زلتُ أملك فرصة معه».

ومجدداً ظل صامتًا لثوان بغيظ، قبل أن ينطق: «هل بقيتِ تصورين ضربهم للفتى وألمه دون أن تتدخلي لتفكّي العراك؟!».

تغيرت ملامحها لانتباهه لهذا الشيء السخيف، فيما نهض حاملاً هاتفه، ودار في الحجرة وغضبه يزداد اشتعالاً، وهو يضيف: «أنتِ أسوأ مما تصورت، بل ومما ظنه نادر عنكِ».

انعقد حاجباها لتحول الحديث ضدها فجأة فصاحت: «كان يمكنني ترك الموضوع بأكمله ولا أتدخل».

«بل كان يمكنك إنقاذ الفتى أولاً وعندها لا حاجة لإنقاذ نادر».

«تبًا!.. لِمَ أنت وهو تضعان لهذا الفتى النكرة قيمة.. لقد رأيته اليوم.. بدا غريباً بتصرفاته، بل ولو رأيت كيف ثار نادر من أجله كما لو أن أخاه الأصغر هو من ضُرب!».

«أنا أيضاً لم أكن لأهدأ»

قاطعها أحمد، لتتسع عيناها غير مصدقة أن أحمد قد يفقد تماسكه من أجل فارس، فيما تابع هو بصرامة: «من الممكن ألا أتصرف بمثل تهور نادر، ولكن لم يكن ليمر الأمر دون تدخل مني».

«على الأقل أنا وُجدت وأنت غائب».

«أنتِ تستحقين صفعة نادر».

بهتت عيناها لقوله، وكأنه كسر شيئًا بداخلها، فلم تظن يوماً أن أحمد قد يكون بهذه القسوة معها.

ازداد كرهها لفارس وأرادت إغلاق الخط في وجهه، ولكن تذكرت ما اتصلت لأجله.. فتحاملت على كرامتها لتسأله: «ليس هذا ما اتصلتُ من أجله».

اصفر وجهه: «هل حدث شيء آخر؟!».

«لماذا نادر يدّعي أني وشيتُ به لثابت؟!».

بصدمة أكبر سألها: «هل فعلتِ شيئًا آخر؟!».

«تباً لك!..» وأغلقت الخط في وجهه ليزداد وجهه شحوبًا دون أن يفهم ما تعنيه..

وجوده في هذا الموقع البعيد عن هذه الأحداث زاد من ضيقه وعجزه.. ولم يملك إلا أن يمارس ما اعتاد عليه فجلس على السرير لتبدأ مهمته بالاتصال بنادر للاطمئنان عليه هو وفارس، وكم تمنى أن يتجاوز نادر عناده، ويرد عليه.

****

- السادسة والربع مساءً -

أُغلق الباب بقوة، تبعه صوت نقاش محتد بين رجل مُسن وزوجته، وهي تُحاول أخذ المفتاح منه إلا أن المسن سحبها بالقوة، ليبقى من خلف ذاك الباب المغلق طارق وثامر مكتئبين حزينين فسجن والدهما لن يُرفع عنهما إلا بعد ما يزيد على ثلاثة أيام.

«تبًا!.. نُضرب نحن ونُحبس نحن وذانك الحقيران يلهوان؟!» قال طارق ويده تفرك عنقه.

«تلك الخبيثة لم تترك لنا أيّ خيار سوى الصمت»

ردّ ثامر وأضراسه تطحن بعضها بعضًا حقداً عليها، بل وسحب جسده ليتكئ بظهره على الحائط مادّاً ساقه الملتفة عليها جبيرة، والتي لم يتوقف ألمها من ضربات عصا فارس، ثم صاح بقهر: «ذلك الحثالة يملك ذراعًا قوية».

«كلا.. فقد تعاركت معه قبل أن تأتي.. إنه أضعف من ذلك بكثير، العصا من جعلت ضرباته قوية».

«ولكنه رمى بك لترتطم بالحاوية».

«حالفه الحظ فحسب».

ردّ طارق بسخط قبل أن يعقد حاجبيه ويردف باستهجان: «ثم هل أنت جاد؟!.. تقول إن أخي ثابت يرغب بالزواج من ريم بعد فسخ أحمد خطوبته منها؟!.. كيف يُعجب بمثلها؟!».

«لا أعلم.. سمعتُ والديَّ يتحدثان الليلة الماضية عن ذلك..

يقولان إنهما سيخضعان لرغبته القديمة حين يفك عنه الحظر ويعود إلى منزلنا بعد رحيل المجرم».

«سحقًا!.. الحكم على أخي ثابت بالنوم في ورشة السيارات حتى يرحل المجرم نادر عن القرية؟!.. هذا ليس عدلاً.. ذلك المجرم هو المخطئ وليس أخي.. لا أعلم كيف يفكر والدي؟!».

«حين زار ثابت والدتي البارحة.. وقف مطولاً ينظر لسيارة نادر وقد بدا مغتاظًا وغاضبًا.. والدي محق.. من الحكمة أن لا يلتقيا».

«أنت أيضًا لاحظت وجهه المتكدر.. لهذا السبب اقترحتُ عليك أن نعكر فرحة هذا الوغد نادر ونقتل كلبه ونحطم سيارته».

ورفع كفه ليلمس وجنته التي غطتها غرزتان فيما حرك ثامر ساقه الثقيلة وقد أدركا أن خسارتهما توازي خسارة نادر.. بل أكثر فقد مُزق كبرياؤهما وتم إذلالهما إلى حد البكاء أمامه في الوقت الذي بقي فيه شامخًا دون أن يذرف دمعة واحدة أو يُظهر كم هو بائس بما فعلاه به.

«ثامر.. أرأيت كيف كان يُغطي الفتى نفسه بالوشاح والقبعة؟» قال طارق فجأة، وما زالت أصابعه تتلمس جرح وجنته.

«حين أتيت لم يكن يغطيه شيء سوى الوشاح».

«بالطبع فقد نزعت قبعته أثناء العراك».

«إلامَ تُلَمِّح؟!».

«أشعر أن وجهه بدا مألوفاً».

اتسعت عينا ثامر متعجباً، وطارق ينزل ليجلس مقابلاً له: «أذكر أني رأيته في موقع ما في هاتفي.. ولكن لا أتذكر أين بالضبط؟!».

«ما الذي سيجعل نكرة مثله ومرافقًا لمجرم مشهورًا على الهاتف؟!».

«أُقسم إني رأيته.. وبالتأكيد غبي مثلك متعلق بكتب الدراسة لن ينشغل بالهاتف مثلي ويعلم كل جديد».

«إذًا أرني صدق ما تهذي به».

تبسّم طارق وكفه تتجه لجيبه ليسحب هاتفه كي يبحث فيه، ثم بسخط صاح: «والدي أخذ هاتفي!».

تنهد ثامر: «بالطبع أيها الغبي!.. الآن أدركت ذلك؟».

«سأُثبت لك ما أقول حين نخرج».

«بعد كم؟!.. ثلاثة أيام؟! .. علينا أن نفكر الآن بطريقة للانتقام من تلك الحثالة ريم».

زفر طارق محنقاً وصورة فارس لا تغادر ذهنه.. هو متيقن أنه رآه.. ولكن أين؟!

****

- ٧:٣٠ مساءً -

ما زالت سيارة نادر تقف في ذلك الزقاق الصغير لثلاث ساعات بأكملها، غارقة في ظلمة المكان؛ فقد حلَّ الليل، واعتمدت المنازل القديمة على القليل من المصابيح الكهربائية لإنارة ما بداخلها فقط.

«في أول يوم جئنا فيه للقرية، تلك المرأة هيَ من استقبلتنا.. أعني ريم».

بهدوء متكلّف سأله نادر، وهو يطبق مرهمًا ومن فوقه لاصقًا على آخر كدمة من جسده، فوق جبينه بالضبط.

«حقًّا؟!.. هل هي المرأة نفسها؟، ولكن أنا لا أتذكر وجهها هي أيضًا». أجاب فارس ببساطة، وقد هدأ اضطرابه وخوفه تماماً، غير مستشعر الخطر الذي تحمله إجابته.

أرخى نادر مقعده ليمنحه استلقاءً مُريحاً، وتفحّص سريعاً اللاصقات الطبية الموزعة بدقة فوق الكدمات في النصف العلوي من جسده المكشوف، قبل أن تتسمّر عيناه بتفكير على أعلى خاصرته اليسرى..

ذلك الموضع يُثير فكرة مقلقة في رأسه يتمنى ألا تكون صحيحة..

«نادر».

«نعم؟».

«الفتيان اللذان تعاركتُ معهما لا أستطيع تذكر وجهيهما هما أيضًا»: قال فارس بغتة باعثاً شعورًا أكثر قلقاً في نفس نادر ليتيقن من شكه.

«هل تحتاج وجهيهما القبيحين في شيء لتذكره؟!».

سؤاله المستهجن جعل حاجبي فارس يرتفعان بدهشة، ثم أجاب: «هذا صحيح».

«وأيضاً توءمان.. الوجه القبيح نفسه ليس إلا».

كلماته الهازئة دفعت بضحكة لشفتي فارس، ولكن سرعان ما

اختفت حين عاتبه نادر بحدة: «ثم ما بال وعدك الغبي ذاك؟! هل ظننت أني تركتك متعمدًا في السوق؟!».

تغيرت نظراته لتعكس حزنًا وألمًا شديدين وشفتاه تنفرجان ببطء: «لا أعلم.. كُنتُ خائفاً فحسب أن تختفي كما اختفت مايا وأسرتي».

إجابته الصادقة عبرت عن تشتته وقتها، ثم حمل صوته امتنانه العميق: «ولكنك عدت من أجلي».

تنهد محنقاً: «متى ستتوقف عن إسقاط هراء عائلتك عليّ؟!».

ثم اشتدت ملامحه: «ثم أيها المخادع أنا من تُركت ولستَ أنت».

اتسعت عينا فارس بغير فهم، فوبخه نادر بلهجة غليظة: «لقد أخبرتك أن تبقى ملازماً لي، بل وناديتك قبل أن أنتقل لعربة أخرى، ولكنك لم تتبعني لذا فأنت المخطئ».

«أُقسم.. إني لم أسمعك».

«حقّاً؟!»

قالها عاقداً ذراعيه أمام صدره، وعيناه تعكسان غضبًا حقيقيًّا؛ ففارس لا يعلم صدمته هو الآخر حين لم يجده.

«أُقسم.. أُقسم.. لم أنتبه.. رأيت خرافًا وأردت شراء واحد لجدتـ..»

«حسناً.. حسناً.. لقد فهمت» قالها بملل ليكفّ عن ثرثرته، فأطبق فارس شفتيه، ثم لم يلبث أن ضحك بسعادة، وقد أدرك بعتاب نادر له أنه هو الآخر قد انزعج بشدة لاختفائه وضياعه، أيْ إنه لم يتخلَّ عنه ولن يتخلى عنه أبداً.

«الآن وبعد أن توقف نحيبك على برونو.. قصّ عليَّ ما حدث».

تقوست شفتاه لتذكره برونو ومع ذلك راح يحكي له ما حدث مُنذُ ضياعه عنه فأصغى له نادر جيداً ليُدرك من حديث فارس أن اتزانه النفسي قد أصابه شيء من الخلل بسبب ما حدث، أو أنه في الحقيقة هناك سبب آخر أعاق انتفاع جسده من الدواء وكان فقط بحاجة لعنف جديد ليطفو على السطح.

«سحقاً لهما ولأخيهما ثابت!».

تمتم بها، وهو يعود بظهره للخلف ليملأ مقعده بكتفيه، وأغمض عينيه وقد ازداد همّه أضعافاً.

عليه العودة للمنزل قبل إبلاغ أسرة ثابت عنه ليستقبل راجح بنفسه بدلاً من والديه..

هذه المرة هو لن ينجو أبداً.. هذا ما وثق منه نادر وهو ينظر للساعة ليكتشف أنه قد أخذ وقتاً طويلاً في تهدئة فارس وعلاج جراحه.

وفجأة مزق شروده نشيج فارس الباكي وللمرة الثالثة والذي بصعوبة أسكته مسبقاً.

«أنتَ.. من أين تأتي بكل هذه الدموع؟! هل تملك مخزونًا احتياطيًّا خفيًّا؟!»: قال نادر بسخط إلا أن فارس لم يُجبه، وهو يُخفي عينيه تحت يُمناه لتنساب الدموع من تحتها باكياً برونو الذي مات.

سخر منه: «لو كان لديه جراء لم يكونو ليبكوا عليه أكثر منك».

تقوّست تانك الشفتان أكثر لفكرة خطرت بباله، فسأل: «لماذا ليس له زوجة وجراء؟!».

جاءه الرد من نادر بصفعة على صدره المكشوف من قميصه جعلته يتأوه، ونادر يأمره بحنق: «ارتده!».

تلك النبرة جعلته يُسرع لارتداء قميصه مخفيًا لصقات جروحه تحته، لكنه لم يلبث أن تأوه بتوجع قابضاً على أعلى خاصرته.

«لم تنفع معها المسكنات؟!» سأله نادر.

«جميع الألم هدأ عداها.. فقط خف قليلاً».

«حسناً.. عد للاستلقاء هذا سيساعد في تهدئتها».

عاد فارس ليستلقي بينما أبقى نادر السيارة في موقعها البعيد الذي ساعده في علاج جسد فارس دون تدخل من متطفلي قريته.

وارتفع النحيب أقوى ليُغمض نادر عينيه بتعب: «ألن تتوقف؟! يجب أن نعود للمنزل».

«هل حقّاً نسيته أنت؟!».

ارتخت ملامحه لثانية فقط قبل أن يعود لها البرود: «بالطبع نسيته».

«كيف فعلت ذلك؟!» سأل متفاجئاً.

«هذا بالبارحة واليوم هو اليوم» رد ساخطاً وكفّاه تعتصران المقود.

عبارته أسدلت صمتًا بسيطًا داخل السيارة قبل أن يسأله فارس: «أنت لم تبكِ عليه؟!».

رماه نادر بنظرة مستغربة.. (ألم يجد سؤالًا أفضل ليسأله؟!).. والأغرب من السؤال أنه أجابه: «لديّ أشياء أهم لأبكِيَ بشأنها».

«يقولان إنهما مزقا جسده وجعلاه يعوي، لقد سمعتُ صوته البارحة، كان يستنجد، ولكننا لم نفهمه مثل ما قُتلت أختي دون أن أنقذها».

«توقف عن تشبيه أختك بالكلب!».

«الكلاب أيضاً تشعر».

«حسنًا.. خطئي».

لم يفهم فارس نبرته الساخرة.. وعاد ليسأله بإشفاق: «أخبرني.. هل تألم كثيراً؟!».

عبارته تلك اخترقت شيئًا في صدر نادر ليشعر بثقل يجثم على قلبه.. هو يُصِرُّ على ذكر برونو أمامه، ولن يتوقف حتى يُسكت فمه بالقوة، أو يخضع هو لما يكبته بصعوبة فينفجر رغماً عنه.. وشعر بالندم لأنه لم يحمل مُهدئًا معه..

«فارس لديّ ما هو أهم لأفكر بشأنه.. والدايَ.. والمصيبة التي ستحل على رؤوسنا بسبب ما حدث في ذاك الزقاق».

وصمت.. والأفكار السوداوية تعود لرأسه..

الآن يمكنهم التنكيل به ورميه في السجن أمام والديه ليعانيا فقداً آخر في آخر عمريهما، بل وفارس إن تم إشراكه في ذلك الاستجواب ستلفق لنادر تهمة اختطافه، وعندها فليهنأ أهل القرية، ولتقم

احتفالاتهم فقد تخلصوا من مصدر شؤمهم، وليحلم هو بأن ترى عيناه الضوء مجدداً..

«نادر».

أفاق من كتل الأثقال التي تزداد فوق كتفيه، فأجاب بحدة: «مــــاذا؟!».

«تعال معي».

اتسعت عينا نادر بغير فهم، وحدق في عيني فارس المحمرتين حزنًا، ثم سأله: «الآن؟.. إلى أين؟!».

«إلى قصر والدي.. وخذ جدي وجدتي».

ازدادت ملامح نادر بلاهةً، فيما سحب فارس مياه أنفه ليجلس متحاملاً على ألمه: «فلنترك هذه القرية.. جميعهم سيئون، لقد سمعتهم في السوق يشتمونك، ولكني لم أُخبرك حتى لا تحزن، هم آذوا برونو لأنهم يريدون إيذاءك أنت بفقده.. لذا تعال معي».

تغيرت تعابير وجه نادر تماماً، وارتخى جفناه متأملاً الساكن أمامه وقد ملأت وجهه عزيمة كبيرة وجفت عيناه من الدموع.

«ولكن هنا تربيت وعاش والداي» قال نادر دون وعيٍ، وكأنه يبثه سببه الوحيد الذي منعه من مغادرتها طوال تلك السنين.

«لا يُهمني».

«أعني أنه سيرفض جداك».

«خذهما بالقوة».

«فارس.. هل ينقص قصركم عمّال؟!» قالها ساخراً مستنكراً إلحاحه.

«نعم».

صدمه رد فارس ليرتفع حاجباه مستهجناً فيما تابع فارس بلهجة مرتجفة:

«ألم تخرجني من المستشفى لأني أتأذى فيه؟!، أنت أيضاً يجب أن تخرج ولا تعود للمكان الذي تتأذى فيه.. لذا دعني أساعدك أرجوك.. فقط تعال معي أنت وجداي.. وأبي شخص طيب جدّاً لن يرفض بقاءكم معنا».

وأخيراً نجح دافعاً بشيء لامع لتينك المقلتين العسليتين، وانفرجت شفتاه بدهشة من تشبيهه لحاله هذا بحاله في المستشفى، بل ما كُلُّ هذا؟!.. قرية بأكملها لم تتسع له، واتسع له فقط قلب هذا الفتى الصغير والوحيد.

زفر بقوة، وتنحى جانباً، مخفياً تأثره، قبل أن ينظر للخلف لأكياس مشترياته، هو حتى لم يُكمل شراء باقي المستلزمات.

«نادر.. أنا لا أكذب».

«أعلمُ ذلك» قالها، وهو يعود نحوه بوجه مبتسم ليربت على رأسه مضيفاً بلطف: «سأفكر بالأمر».

لم يقلها إلا ليصمت، فيما ضحك فارس بسرور، فسأله نادر بابتسامة: «ما الحيلة التي ستبقينا بها في قصر والديك؟!».

ورفع أصبعه محذراً: «وبالطبع ليس كخدم».

«لا يوجد حيلة» وابتسم بحماس موضحًا: «فأنت ستكون زوج أختي مايا.. هل نسيت؟!».

تصلب نادر ثانية ثم ضحك بخفة فها هو يأخذ ما قاله في أول يوم من وصولهما إلى القرية على محمل الجد.

«تبدو تلك حيلة جيدة.. حسناً والآن علينا الذهاب للسـ..» لم يُتم عبارته بعد حين ارتفع فجأة صوت نغمة رسالة من هاتفه فسحبه من فوق تابلوه السيارة مستغرباً ليجده رقمًا غريبًا.

قطب حاجبيه حتى كادا يلتحمان وعيناه تقرأان سطور الرسالة: (ما حدث في السوق قد تكفلتُ به ولن يعلم به أحد أبداً.. أنا لا أفعل ذلك من أجلك، بل من أجل والديك الطيبين فلا أريدهما أن يفقداك مجدداً.. ريم).

لم يستوعب ما قرأه.. ظل ذاهلاً.. هو لم ينسَ بعد تشبثها به، وبكاءها الصادق خوفًا عليه رغم صفعته لها، ولكن هذه الرسالة كانت كالرافعة التي أزاحت عنه الكثير من أثقاله..

وحين تقول ريم شيئًا ففي الأغلب هي تفعله.. هيَ الآن تستحق شكره.. ولكنه لم يفعل ذلك! لماذا؟.. قد يكون السبب خوفه مما نما في أعماقه تجاهها بعد رؤيته حقيقة مشاعرها..

أخذ نفساً عميقاً، ثم رمى هاتفه، ووجهه يشرق بابتسامة جذلة: «سنذهب للسوق».

«لا!» صاح فارس بذعر.

«أنت لم تتسوق بعد».

تدلى فك فارس بغير استيعاب.. هل نادر الآن يعرض عليه شراء ما يريده؟!

«لا أريد أن أضيع» وتسارعت نبضات قلبه عاكسة خوفه.

خوفه المبالغ فيه دفع نادر أكثر ليعيده للسوق حتى لا تتشكل لديه عقدة تُضاف لمرضه.. وهذه المرة قرر أنه هو من سيبقى إلى جواره ولن يدعه.

«لن تضيع.. ثم إنه سوق مختلف يشبه ما أردته».

وزادت ابتسامته المشجعة اتساعاً لتتغير سحنة فارس وكأنه لمس فيه أنه لن يرفض له طلباً أبداً وعندها أومأ برأسه بـ (نعم)، فذلك الشيء لو كان يملكه لم يكن ليضيع عن نادر.. ولم يفهم نادر سرّ موافقته السريعة وهو يأخذه لسوق آخر.

****

- الواحدة صباحًا -

أطفأ آخر سجائره، ونصب إحدى ركبتيه فوق مقعد الخيزران، وعيناه العسليتان متوقفتان بشرود على الإناء الخزفي الجديد المستقر

لم يقلها إلا ليصمت، فيما ضحك فارس بسرور، فسأله نادر بابتسامة: «ما الحيلة التي ستبقينا بها في قصر والديك؟!».

ورفع أصبعه محذراً: «وبالطبع ليس كخدم».

«لا يوجد حيلة» وابتسم بحماس موضحًا: «فأنت ستكون زوج أختي مايا.. هل نسيت؟!».

تصلب نادر ثانية ثم ضحك بخفة فها هو يأخذ ما قاله في أول يوم من وصولهما إلى القرية على محمل الجد.

«تبدو تلك حيلة جيدة.. حسناً والآن علينا الذهاب للسـ..» لم يُتم عبارته بعد حين ارتفع فجأة صوت نغمة رسالة من هاتفه فسحبه من فوق تابلوه السيارة مستغرباً ليجده رقمًا غريبًا.

قطب حاجبيه حتى كادا يلتحمان وعيناه تقرأان سطور الرسالة: (ما حدث في السوق قد تكفلتُ به ولن يعلم به أحد أبداً.. أنا لا أفعل ذلك من أجلك، بل من أجل والديك الطيبين فلا أريدهما أن يفقداك مجدداً.. ريم).

لم يستوعب ما قرأه.. ظل ذاهلاً.. هو لم ينسَ بعد تشبثها به، وبكاءها الصادق خوفًا عليه رغم صفعته لها، ولكن هذه الرسالة كانت كالرافعة التي أزاحت عنه الكثير من أثقاله..

وحين تقول ريم شيئًا ففي الأغلب هي تفعله.. هيَ الآن تستحق شكره.. ولكنه لم يفعل ذلك! لماذا؟.. قد يكون السبب خوفه مما نما في أعماقه تجاهها بعد رؤيته حقيقة مشاعرها..

أخذ نفساً عميقاً، ثم رمى هاتفه، ووجهه يشرق بابتسامة جذلة: «سنذهب للسوق».

«لا!» صاح فارس بذعر.

«أنت لم تتسوق بعد».

تدلى فك فارس بغير استيعاب.. هل نادر الآن يعرض عليه شراء ما يريده؟!

«لا أريد أن أضيع» وتسارعت نبضات قلبه عاكسة خوفه.

خوفه المبالغ فيه دفع نادر أكثر ليعيده للسوق حتى لا تتشكل لديه عقدة تُضاف لمرضه.. وهذه المرة قرر أنه هو من سيبقى إلى جواره ولن يدعه.

«لن تضيع.. ثم إنه سوق مختلف يشبه ما أردته».

وزادت ابتسامته المشجعة اتساعاً لتتغير سحنة فارس وكأنه لمس فيه أنه لن يرفض له طلباً أبداً وعندها أومأ برأسه بـ (نعم)، فذلك الشيء لو كان يملكه لم يكن ليضيع عن نادر.. ولم يفهم نادر سرّ موافقته السريعة وهو يأخذه لسوق آخر.

****

- الواحدة صباحًا -

أطفأ آخر سجائره، ونصب إحدى ركبتيه فوق مقعد الخيزران، وعيناه العسليتان متوقفتان بشرود على الإناء الخزفي الجديد المستقر

فوق الطاولة المتوسطة للشرفة.. الجميع قد ناموا.. والداه.. وفارس بغنيمته الجديدة.

أخرج زفرة عميقة، هو لا يعلم كيف أطاعه واشترى له هاتفًا؟!

قد يكون السبب قوله بأنه لو كان يملك واحدًا لم يكن ليضيع!.. أو لأنه لم يرد لتلك الفرحة التي خرج بها من المنزل أن يعود دونها.. أو ليشغله عن موت برونو.. أو.. وأو..

«سحقًا!»: تمتم ساخطًا فهو لن يبحث بعد الآن عن سبب لتهاونه معه، لقد وقع في فخه وانتهى الأمر.

عاد الضيق ليسكن ملامحه، ففتح مغلفًا جديدًا، وأخرج سيجارة أخرى ليُدخنها، فيما تلاعبت رياح الخريف بدخانها المتصاعد..

وارتفع مجدداً رنين هاتفه الموضوع فوق الطاولة للمرة.. حسناً هو لم يعد يعُدُّ.. تأفف بقوة وضغط زر الإجابة لتظهر صورة أحمد أمام عينيه.

صمت الاثنان لنصف دقيقة بأكملها يتطلعان بعضهما لبعض قبل أن..

«هل اكتفيت من رؤيتي؟!» قال نادر ساخراً وهو يطفئ سيجارته، فيما عبس أحمد: «جميع مكالماتي لك صوتية، وهذه المرةُ الأولى التي أختار فيها مكالمة فيديو، لقد كُنتُ أجرب ليس إلا.. لذا لم أستوعب حتى أنك قد ترد!».

«جميعنا أخطأنا.. والآن وداعاً» قالها وسبابته تمتد للإغلاق.

«توقـــف!» صاح أحمد فتوقفت سبابة نادر الممتدة، فيما ازداد وجه

أحمد امتعاضاً وهو يقلب بصره في كومة السجائر المتكدسة.. أراد نادر إيقافه قبل أن تنهال نصائحه على رأسه فهو بحق ليس بمزاج جيد..

«أنت بخير؟!».

تجمّد نادر ثوانِيَ أمام سؤاله القلق، وارتخى جفناه، وما يكبته يصارع للخروج، ثم قال: «أحمد.. من الخير لنا أن نتزوج سريعاً».

لم يملك أحمد نفسه أن ضحك، وقد فهم مقصده: «عليك أن تكون شاكراً فمن غيري سيتصل بك في منتصف الليل ويسأل عنك؟».

«شكراً لأنك أشعرتني كم أنا بائس».

ضحكا معاً هذه المرة وقبل أن يتحدث أحمد قال نادر: «أعلم أن وكالة الأنباء قد اتصلت بك وأخبرتك بما حدث اليوم.. لا تهتم.. إلى الآن لم يطرق باب منزلي رجال الشرطة».

ارتخت ملامح أحمد وقد أحزنه حاله.. فهل بقي مترقبًا قدومهم خوفاً من إفزاعهم والديه أو أن هناك أمرًا آخر يشغلُ باله؟!

«تبًّا!.. لا تُظهر مثل هذا الوجه؟!» صاح نادر وقد عادت له غلظته دفعةً واحدة.

«كيف حال فارس؟!» أسرع يسأله خوفاً من إغلاقه للخط، فلا أسوأ من نادر حين يُظهر له أحمد هذا الوجه المشفق عليه، ولكن بدا وكأن سؤاله قد نجح بإصابة سبب من أسباب أرق نادر الذي ملأ وجهه الكدر.

«إنه بخير» ببطء قالها.

تلك الإجابة الباردة لم ترضه فعاد يسأل: «هل تحسّن حاله أكثر بعد العلاج؟!».

«بدءًا من الليلة سأتوقف عن إعطائه الأدوية».

صُدم أحمد من جوابه وظل مبهوتاً ثوانِيَ ونادر يسند الهاتف على الزهرية ليُكمل استنشاق سيجارة جديدة.

«هل فشل علاجه؟! هل انتكست حالته؟!».

«توقف عن الصراخ كالعجائز.. ستوقظ والديّ!».

تجهم وجه أحمد، فيما تنهد نادر بقوة: «علاجه لم يفشل، بل حقق توازناً نفسيّاً عالياً.. وأظن أنه بدأ يوازن بين شخصه القديم والجديد.. فقط.. فقط هناك شيء جديد من الأعراض قد أصابه.. ذاكرته البصرية قد تراجعت بعض الشيء».

بدا الضيق على أحمد فيما حمَل صوت نادر همًّا كبيرًا: «لا أظنه سيذكر صورة الأشخاص الذين رآهم لمرة واحدة بعد الآن.. وقد يستمر ذلك معه مستقبلاً.. ولا أعلم إن كانت ستتفاقم إلى أسوأ من ذلك».

«هل هذا أحد أعراض مرضه؟!».

«نعم».

«ألن يزول بالأدوية؟!».

«بل لصغر سنه فإن استجابته للدواء ناجحة للغاية وسيحقق نسبة شفاء كبيرة».

«إذًا لماذا ستتوقف عن إعطائه الأدوية؟!»

«لأن كمّ الأدوية الكبير التي يتناولها ستتسبب بمقتله قبل أن يتعافى من اضطرابه النفسي لو أن ذلك الوغد قد تسبب بضرر كبير لكليته اليسرى».

حلّ صمت على الاثنين ليظهر على وجه نادر عظم الأزمة التي هو واقع بها، ولثانية فقط أطل من عينيه العسليتين أسفه على فارس، إلا أن أحمد التقط حزنه فسأله بأسًى أكبر: «هل أنت متيقن أنه مصاب بمرض فيها؟!».

«لا.. ولكن تشتته رغم أخذه للدواء يزيد من نسبة هذا الشك».

«ومع ذلك لا يزال محضَ تخمين».

«تخمين لا يمكن تأكيده في أحد المستشفيات ما دامت صورته منتشرة في كل مكان». ثم ابتسم مردفًا: «وهنا يأتي دورك لتجد لي الإجابة».

ضاقت عينا أحمد بغيظ وقد علم الآن أن هذا قد يكون سبب رده عليه ومع ذلك قال: «لا تقلق.. سأسأل طبيبًا مختصًا غداً بإذن الله عن كيفية معرفة ذلك دون خروجه».

«حسناً»: قالها وكأن حاجته منه قد انتهت، ولكن أسرع أحمد يسأله بقلق: «ماذا لو كانت نتيجة المرض إيجابية؟!».

«عندها لن أكون قادراً على مساعدته أكثر.. سيحتاج وقتها إلى العلاج على جانبين.. النفسي والعضوي.. بل وهو بحاجة لأسرته لإتمام إجراءات دخوله للمستشفى ودفع نفقات علاجه».

تمتم أحمد بحزن: «مسكين.. من المحزن أن لديه أسرة تستغله ولا تكترث له».

لم يُجبه نادر.. فقط أطلق زفرة طويلة مشبعة برائحة الدخان وعيناه تضيقان بهمّ.. فهناك مشكلة أخرى أيضًا، ففارس دون دواء يشكل خطرًا على والديه.

«فيمَ تفكر؟!» أطلق أحمد سؤاله دون وعي ليجد نادر هو الآخر يجيبه دون وعي: «لم أعد أعلم.. هناك الكثير والكثير لأفكر بشأنه إلى حد أنني أتمنى لو يتوقف عقلي فقط لعشرِ دقائق أرتاح فيها».

عكس وجهه معاناته الشديدة، وثقل أعبائه، فقال أحمد بتعاطف: «لن يطول.. صدقني.. حين يزداد العسر ويكون أثقل من أن تطيقه فهو إيذان من الله بانفراجه.. هون على نفســ..»

تكلّم كثيراً محاولاً مواساته رغم إدراكه لصعوبة الوضع، فيما أفاق نادر من شروده وغمّه مستنكراً كيف تفلّت لسانه!.. ثم انتبه أنه قد يكون هذا هو السبب الحقيقي لرده على اتصاله، ولكن هل شكره؟!.. بالتأكيد لا، بل نطق: «ستكون زوجة رائعة يوماً ما».

أوقف أحمد مواساته المسترسلة لتهتز أرنبة أنفه بغيظ: «أيها الجاحد!».

ابتسم نادر، فيما أردف أحمد ساخراً: «أظنه الإطراء الوحيد الذي حظيت به منك لذا سأتقبله بنفسٍ طيبة».

«هل أعجبك إلى..»

بتر عبارته، واهتز حاجباه بحنق، ونظراته تتحرك نحو المنزل، وقد التقطت أذناه صوتًا لا يصدر إلا عن لعبة في الهاتف.

«ذلك المشاكس.. هل تظاهر بالنوم؟!»

ونهض حاملاً هاتفه معه، وناسياً أمر أحمد تماماً ليسمع فجأة صوته: «ستكون أمًّا رائعة يوماً ما».

اصفر وجهه، ودون أن ينظر ضغط بأصبعه زر الإغلاق، ليجد فارس على فراشه مغطًّى باللحاف بالكامل، وصوت اللعبة من أسفل اللحاف يملأ الحجرة.. من يخدع؟!

الآن أدرك أنه سيفتقد إحدى الميزات الرائعة للأدوية التي تجعله ينام طويلاً وتُريحه منه.

****

(١٤) اقرأ يا بُني

حلّ صباح اليوم التالي هادئاً جميلاً على عكس الأمس، وارتفع صوت تغاريد طيور الفيشر بصوتٍ عذب، مرافقاً لنسمات لطيفة داعبت وجه فارس الذي فرش ورقة فوق الطاولة الخشبية التي توسطتها الزهرية الجديدة الممتلئة بزهور النرجس، فقرّبت العجوز مقعد الخيزران الجالسة هي عليه لتُحدق بورقته.. فيما أرجح المُسن نظراته الذاهلة بين جواهر والورقة ثم وجه فارس، وهو غيرُ مصدق.

ثوانٍ وأشارت العجوز خلسة لفارس ليُسرع إلى الشرفة ويغلق بابها الزجاجي، مانعاً وصول صوتهم لنادر الذي انشغل بطهي طعام الغداء، فقد أضربت العجوز عن الطبخ بعد ليلتهم الماضية التي مُدح فيها نادر على طبخه من فارس والمسن، متناسيَيْن لها.

«أنت تستهزئ بنا.. أليس كذلك؟!» قالت العجوز وإحدى عينيها تضيق بشك.

انعقد حاجبا فارس بحزن: «لماذا لا تصدقينني؟!».

رمت العجوز نظرة للمسن مفادُها أنها غير مستوعبة ذلك الجنون الذي يقوله، فحرك هو الآخر كتفيه كناية عن أنه يحمل فكرتها نفسها.

«هل تناولت أدويتك بالأمس؟!» سؤالها حمل اتهاماً مبطناً لمرضه بأنه سبب ما يهذي به، إلا أنه فاجأها حين تألقت عيناه الزرقاوان، وهو يُجيبها: «لا.. لم أحتج إليها».

اتسعت شفتاها بصدمة وكأنها أصابت بشكها.. فيما مسّد فارس ظهر أحد طيريه، وقد حملت عيناه نظرة حالمة لمستقبل أجمل، وشفتاه تنطقان: «أخبرني نادر ليلة البارحة بأني اقتربتُ من التعافي لذا لن أحتاجها إلا بعد وقتٍ طويل».

وحملت شفتاه ابتسامة مُلئت إشراقًا وتفاؤلاً يزيد عشرات المرات على ما تحمله ابتساماته القديمة.

«هل سبب تحسّن صحتك لأنك ذهبت إلى السوق؟!»

تساءلت العجوز ذاهلة، وقبل أن يُجيبها رفعت رأسها بفخر: «لقد كُنتُ طبيبة قبله.. بالتأكيد مخالطته لأناس أكثر ستكون ذات فائدة في شفائه».

والتفتت للمسن تخبره أنها من أجبرت نادر على أخذه للسوق..

فيما انتقلت كفُّ فارس لطائره الآخر، ووجهه يعكس رضًا تامًّا، وذاكرته تستعيد وجه نادر المبتسم، وهو يخبره أنه حقق توازناً نفسياً عالياً، وأنه سيعامله من الآن فصاعداً كشخص صحيح، دون أن يُدرك أن نادر قد انتقل مرغماً من علاجه بالأدوية للتركيز على علاجه المعرفي السلوكيِّ باستبدال مشاعره السلبية إلى أفكار إيجابية عن نفسه قد تبقيه بخير لوقت أطول إلى حين التيقن من سلامة جسده.

صرخ فجأة عالياً ليفزع الاثنان اللذان استدارا نحوه، فاستطرد بفخر: «جدتي.. البارحة نادر امتدحني كثيراً.. قال إن لديّ قوة تحمل عالية للألم، وإني فتًى صلب وشجاع، وأيضاً يُعتمدُ عليّ في الوفاء

بالوعد، وأتعلم بسرعة، ومتفائل وذكي ومخلص لمن أُحب، ولم أعد ذاك الشخص الذي التقاه أولاً، بل تصرفاتي أضحت أكثر نضجًا ومكرًا وخب..».

واسترسل بذكر كل تلك النقاط الإيجابية بسعادة مفرطة في الوقت الذي راح فيه وجه العجوز يمتقع ويمتقع ويمتقع.. ثم قاطعته صارخة: «لقد سحر ابني!».

عكست عينا فارس عدم فهمه، فيما تفعّل في أعماقها مؤشر الحماية القصوى للأم، فصرخت بحدة: «لن تخدعني بورقتك هذه! أنت تريد اختطاف ابني للعاصمة لأنك تريد الاستيلاء على أمواله!».

عبس رادّاً: «لماذا تقولين ذلك؟!».

«لأنك طمعت فيه بعد أن اشترى لك هاتفًا بالأمس».

وانحنت نحوه مستطردة بذكاء مُبالغ فيه: «أخبرني.. أنت ضعت متعمّداً ليشتري لك هاتفًا؟!.. لا بد وأنك قد استعطفته بإحدى نظراتك الحزينة تلك».

«جدتي.. أنا..».

أراد أن يُبرر.. أن يخبرها أن نادر من منحه إياه طواعية وأن ضياعه كان سيئاً عليه أشد من نادر، ولكن.. تبّاً!.. هو لا يُنكر أنه منحه تلك النظرة.. وعندها أطلق تلك التنهيدة المليئة بالضجر والتي دفعتها لتسحب عصاها صارخة: «هل تشعر بالملل مني؟!».

«لا.. لا!» صاح بخوف، وهو يسحب كفيه للخلف بعيدًا عن عصاها، فيما تنقلت عيناه بينهما، وأشار للورقة: «انظرا إليها أرجوكما!.. أليست جميلة؟!».

أنزل الاثنان نظرهما مجدداً لرسم الشابة المتوسط للورقة، ثم عادا به نحوه، ممتلئًا بريبة شديدة جعلته يصيح:

«أُقسم إن ما قلته صحيح.. فلتسأليه بنفسك.. هو قال بنفسه أمام المرأة التي التقيناها في أول يوم إني أخ لزوجته المستقبلية في العاصمة».

وحرك عينيه محاولاً بصعوبة تذكر صورة وجهها من الأمس!.. وأيضًا لم يستطع.

«ريم تعلم أيضاً؟!»

صاحت العجوز ذاهلة، وقد خمن عقلها أنها ريم فهيَ الوحيدة التي تتحدث مع نادر من القرية، وأدارت بصرها المتسع إلى المسن لتراه هو الآخر فاغراً فاه بصدمة.

تبادلا نظرات ملأتها الحيرة، ثم حرك المُسن شفتيه للعجوز بكلمات لم يفهم فارس منها شيئًا، ودقائق ونطقت العجوز في وجه فارس بدهاء غريب: «أنت إذًا لست مريضه، وإنما أخ لخطيبته؟!».

«بل أنا مريضه وهو طبيبي وسيتزوج أختي مايا» بعبوس أجاب، وغباؤها يُزعجه.

«هكذا إذًا تعرّف على الشابة.. عن طريق مريضه فارس» قالت العجوز للمسن الذي أومأ برأسه متفهماً لتعود لسؤاله: «ماذا تعمل أختك؟!».

«مُحامية»

لم يكد ينطقها حتى ضربت العجوز صدرها، ووقفت دون وعي فاتحة فمها، ولم تستفق من صدمتها إلا حين أمسك المسن ذراعها لتعود جالسة جواره، فقالت بأعين دامعة:

«أتعلم ما يعني مُحامية؟! ولدي أنا يتزوج امرأة من العاصمة وأيضاً مُحامية؟!.. هذه الوظيفة لم تنلها ولا شابة واحدة من القرية».

سرورها الكبير شجع فارس لينتقل لهدفه الحقيقي: «جدتي حين يتزوج نادر أختي مايا أريدكما أن تسكنا معنا في القصر».

«قصر؟!» صاحت وعيناها تتسعان.. هل هو بهذا الثراء؟!

«نعم جدتي قصر والدي.. وإن لم يعجبكما يمكنكما البقاء في المنزل جوار البحيرة.. كما أن أبي يملك شقة جوار شركتـ..»

راح يهذي بكلام جعل كلَا العجوزين يفغران أفواههما ويشحب وجهاهما.

«كُنتُ أعلم أن ابني عبقري مثلي» قالت العجوز، وطرف وشاحها يمسح دموعها المتتابعة.

«جواهر.. إلامَ تُلمحين؟!»

بشفة ممتدة أومأ المسن، وكأنها تشير إلى زواجها به؛ فهو من أغنى رجال القرية وقتها.

تجاهلته تماماً، وقد استرعى فارس انتباهها بالكامل، فقالت برجاء: «لمَ لا تسكن هيَ معنا هنا؟!.. دعني أتفاخر بها أمام أهل القرية».

فتح فارس شفتيه ليُجيبها بمدى سوئهم وإيذائهم لنادر، ولكن

سرعان ما أطبقهما حين تذكر وعده لنادر بأن يُبقي مقتل برونو وما حدث في السوق سرًّا؛ خوفًا من حزنهما وتكدر مزاجهما..

ونظر نحوهما بشفقة وقد مسّ قلبه هو الآخر شيء من لطف ورحمة نادر بهما.

«تكلّم!» صاحت العجوز منتشلة له من تفكيره، فقال بابتسامة صفراء: «جدتي.. أختي من الصعب أن توافق على العيش هنا».

وحملت عيناه استعطافاً شديداً: «لذا أرجوكما تعالا أنتما معنا!».

«هو مُحق..»

أومأ المسن فأدارت جسدها بالكامل نحوه فأكمل: «لعلّ نادر جاء بفارس هنا ليرى القرية ويُقنع أخته بالمجيء، ولكن ماذا لو رفضت؟!.. سنكون عندها السبب في عدم ارتباطهما لأنه لا يريد تركنا بمفردنا».

هزت العجوز رأسها بفهم، ومثل تلك الشابة الغنية المحامية من الصعب تفويتها لأجل هذا السبب الغبي.

«أنا موافقة»: قالت العجوز ليتسع فم فارس فرحاً، ونظر للمسن بقلق.

«أنا أيضاً موافق».

لم يفهم حركة شفتيه، ولكن هزه لرأسه للأعلى والأسفل جعل ضحكاته تعلو في الشرفة قافزاً من حولهما وقلبه لا يُسعده إلا فكرة أن نادر سيخرج من القرية.

«ما الأمر؟!»

قطع نادر بسؤاله تلك الضحكات الصاخبة، بعد أن فتح باب الشرفة ليتوسَّطَهم مؤتزراً بمئزر الطبخ، وقد حملت كفه مغرفة كبيرة تتقاطر منها بقايا الحساء.

فتحت العجوز شفتيها لتوبخه على عدم مشاركته سره معهما، إلا أن فارس فاجأها حين اختطف الورقة من فوق الطاولة، وتراجع للخلف صائحاً: «لقد هاتفتُ أحمد.. وهو يُبلغك سلامه».

«إذًا فقد سرقت رقمه من هاتفي؟».

ابتسم ابتسامته المشاكسة، أتبعها بصراخه فزعاً، والمغرفة تكاد تدكُّ رأسه، فقفز من على سياج الشرفة هارباً منه..

فيما انفلت لسان نادر شاتماً الاثنين، فقد أبقى له في هاتفه رصيدًا لمكالمته إذا ما تكرر ما حدث بالأمس وضاع، وليس للتسلي مع ذلك الوغد..

زفر بقوة وعاد بنظراته لوالديه ليُصدم من عبوسهما الشديد..

«ماذا؟!» صاح بوجل.

«عامله جيداً» قالت العجوز، وهي تلتقط عصاها فيما حرك المسن شفتيه: «اصبر عليه هو أصغر منك ولا تضربه».

تحول نادر لجدار إسمنتي.. لماذا والده فجأة ينضم هو الآخر لصف فارس؟!

«عد للطبخ!»

قالت العجوز، ومقدمة عصاها تدفعه في ظهره ليعود للداخل دون أن تسمعه ينطق ذاهلاً: «لقد غبتُ فقط لأقل من ساعة.. ماذا قال لهما؟!.. هو ساحر.. ساحر بلا شك!».

عادت العجوز لتقابل المسن الذي هز رأسه لتقترب منه، ثم حرك شفتيه بحذر: «لا يبدو أن فارس يريد أن يعلم نادر أنه أخبرنا».

«أنت محق.. لعلّه منعه من أن يخبرنا حتى يحسم أمره أولاً مع فتاة العاصمة».

«أجل» قال المسن وعيناه تغوصان في عيني العجوز وقد تشاركا تفكيراً واحداً حول مقدار فرحتهما بهذا الخبر، راكلين بعيداً فكرتهما القديمة حول أن نادر لا يجلب إلى منزلهما إلا المساكين كأحمد وريم وبرونو.

«هل وافقتِ حقّاً على الذهاب معه إلى العاصمة؟!» سأل المسن فجأة، فوقفت العجوز ساحبة الزهرية لترتب داخلها المزيد من زهور النرجس، وابتسامة عابثة تعلو شفتيها: «بالتأكيد لا.. سنذهب معهم إلى العاصمة ونتحقق من تزويجهما وبعد خداعهم نعود مجدداً إلى هنا». والتفتت للمسن: «فأنا أعلم أنك لن تترك هذا المكان ولم أكن لأتركك».

ابتسم المسن بحب، وقد اتفقا معاً على الاستمرار بخداع فارس، الذي واصل ركضه وصيحاته في حقل التفاح فرحةً بقدرته على النجاح في ما عجز عنه نادر.

****

- ١:٣٠ ظهراً -

«أبي، أُمي أنتما بخير؟!»

سؤال نادر كان نابعًا من قلق حقيقي، وهو يرمي مئزره فوق الأريكة، ليجلس حول المائدة مجاوراً لفارس الذي بدأ التهام الطعام بنهم.

ولكن لم يُجبه أيٌّ منهما وهما يزيدان من قلقه بتقريب كأس العصير من فارس، وعلبة المناديل، بل إنِ العجوز أسرعت تناوله ملعقته قبل أن يتعب بمدّ يده إليها.

«نادر.. أحضر له ماء»: قال والده فجأة بعد أن غصّ فارس بإحدى لقمه.

هنا فقط دق ناقوس الخطر فقد اشتعلت عينا نادر بشر، وامتدت يده لتضرب كتف فارس: «انهض وأحضر الماء لنفسك».

تأوه فارس، ووقف لتقاطع وقوفه العجوز التي دلكت كتفه: «لا عليك.. إنه يمزح».

ورمت نظرة قاتلة لنادر: «اذهب!».

«فقط أخبروني ما الذي يحدث؟!» صاح مغضباً.

ولكن المسن لوح له بكفه بحزم ليذهب لإحضار الماء، وبالفعل تحرك، وعيناه تقذفان شرراً نحو فارس، ولم يكد يجلبه حتى ركل بقدمه ساق مقعده قائلاً بحدة: «خذ!».

تأرجح جسد فارس وتأرجحت ملعقته لتسقط، ورغم ذلك ألقى نحوه نظرة ممتنة مُلئت تأثراً، وهو يأخذ الكأس منه هامساً: «شكراً».

تنفس نادر عميقاً وأغمض عينيه محاولاً تهدئة غضبه، ثم جلس على المقعد ليرى والدته تسحب طبقه مُبدلة بينه وبين طبق فارس.

«دائماً ما كُنت تتمنى أن أُعطيك الكبير».

«أجل جدتي» بنبرة دامعة قال وعيناه تتدحرجان لتسقطا على تينك العسليتين المظلمتين اللتين نقلتا له تهديده خلسة: (أعده لي وإلا قتلتك!).

«كلا!.. لا أريده» بذعر نطقها، وهو يُعيد الطبق إليه.

ومع كل دقيقة تمر على تلك المائدة كان وجه نادر يزداد امتقاعاً، وقلبه يزداد يقيناً بأن سحرًا ما مسّ والديه.

ومع انتهاء وجبتهما، وانشغال والدته بغسل الأطباق، ووالده بمشاهدة التلفاز، سحب فارس إلى حجرتهما ليُطبق عليه في إحدى زواياها سائلاً بحدة: «ماذا حدث أثناء طهوي للغداء؟!».

«لا شيء» نطق فارس وجسده ملتصق بالحائط، وكفه في جيب بنطاله قابضة بشدة على الورقة.

«لا تكذب!».

«أنا لا أكذب» أجاب وعيناه تهربان لليمين كاشفاً نفسه.

«إذن [illegible] عما حدث البارحة؟!».

«لا.. لقد وعدتك بأن لا أتكلم» بعبوس وعينين ملأهما العتاب أجابه، فانعقد حاجبا نادر وقد صدقه تماماً.

«البارحة كانت غاضبة لأني صرفتُ مالي على شراء هاتف لك والآن هيَ تعاملك بأفضل مني» واستشاط غضباً ووجهه يقترب من وجه فارس لتصله أنفاسه الحارقة: «فارس من الخير لك أن تُخبرني!».

تقوست شفتا فارس خوفاً، وتقلص أكثر في الزاوية، ولم يلبث أن سحبت كفه الورقة بخضوع سيخبره و.. صدح فجأة صوت العجوز، وباب الحجرة يُفتح: «فارس.. أحضرت لك بسكويتًا لتتـ..»

وتلعثمت كلماتها، والاثنان ما زالا على حالهما متصلبين، فصاحت بعصبية: «نادر ماذا تفعل به؟!»

وسحبت فارس من أمامه ليقف خلفها.

«كُنتُ فقط أُعاين حالته»

بارتباك قال، وهو يتراجع للخلف تحسباً لأي عصًا قد تضربه، فيما أدارت العجوز بصرها نحو فارس ليقابلها بابتسامة صفراء مغطياً على متحجر القلب ذاك.

بادلته العجوز ابتسامته، وهي تمنحه خمسة من مغلفات بسكوتها لتحملها ذراعاه، ولسانه لا يكف عن شكرها، ولحق بها إلى الصالة هرباً من نادر.

استحال وجه نادر كتلة كبيرة من الغباء، بل وقد يكون شيء من

الغيرة طرق قلبه.. فهي لم تمنحه هذا العدد الكبير أبداً من بسكوتها العزيز.

«لن تنام الليلة حتى أعلم!».

توعّد في نفسه، وخرج للصالة مُلقياً نظرة ساخطة على فارس الذي يلهو على هاتفه، قبل أن يخرج للحقل لإصلاح مرآة سيارته تهيؤًا للرحيل خلال اليومين القادمين.

ومع انشغاله بسيارته لم يشعر بعينيْ فارس المحدقتين به خلسةً من نافذة المنزل، تسلل بعدها إلى الشرفة، وقد ملأ وجهه الحماس للاتصال بأحمد مجدداً، وإفراغ رصيده بالكامل عليه.

****

تحرك أحمد بهدوء متنقلاً من سرير طبي لآخر، متفقداً المرضى من الأطفال الذين يُشرف على علاجهم.

وعكست عيناه إشفاقًا كبيراً، وهو يمر بطفلة جُرحت ذراعها لسقوطها من نافذة منزلها، فاتجه لتولي حالتها وعلاجها، ومع انتهائه ارتفع صوت جرس في ساعته منبهاً له إلى بدء وقت استراحة الغداء.

ابتسم بلطف للطفلة ومسّد شعرها وهو يشير لإحدى الممرضات بأن تتولى أوراق خروجها، ثم خرج جارّاً ساقيه بتعب ليعلو فجأة رنين هاتفه.

سحبه من جيب معطفه الطبي وشحب وجهه.. مكالمة فيديو! وممّن؟! من فارس!

تنازل عن غدائه تماماً، ليختار أقرب مخزن للأدوية، دخل إليه، ثم أغلقه من خلفه بإحكام، متيقناً بحلول كارثة على رأسه لو شاهد أحد على شاشة هاتفه وجه فارس الذي أصبح مدار حديث المستشفى بأكمله بسبب رجال الشرطة الذين لا يكاد يخلو يوم من قدومهم، بل صورته معلقة في كل مرافق المستشفى وكأنهم يتهمون موظفي المستشفى بإهمالهم له، وهربه من أمام أعينهم.

وابتلع ريقه بتوتر، وهو يذكر محادثته الصوتية الطويلة معه صباحاً.. فهل حدث شيء جديد جعله يتصل به مجدداً؟!

ضغط زر الإجابة ليصك سمعه صوت ضحكات فارس العذبة دون أن يظهر وجهه، وملأت الشاشة صورة طيور الفيشر التي راحت تتحرك، وتغرد بصوتها العالي ليبتسم أحمد بهدوء.

«أرأيت؟! لقد اعتنيتُ بها».

وصله صوته المبتهج ليرتخي جفناه شفقةً.. ألم يُضرب بالأمس ويُتنمر عليه من غرباء دون ذنب؟!

بل وأزاح القفص فجأة ليظهر وجهه، وعلى جبينه لاصق جروح، وعيناه الزرقاوان الواسعتان تُشعان سعادة، وهو يهمس: «أنا يُعتمدُ عليّ صحيح؟!».

«بالتأكيد» تمتم أحمد وعيناه تعكسان سروره لرؤيته تغير حاله؛ فوجهه ممتلئ ومُشرق، بل ونطقه تحسّن.

«نادر لا يعلم أني أتصل بك» بهمس خافت قال، وشفتاه تعكسان ابتسامة مشاكسة.

جلس أحمد على طرف طاولة مُلئت بالأدوية، وبالتأكيد فمتحجر القلب ذاك لم يكن ليسمح بأن يُفرغ رصيد هاتفه عليه، وبابتسامة قال: «فارس لقد تحسّنت كثيراً».

«حقّاً؟!».

«نعم» وملأ وجهه التأثر، وهو يذكر نحول جسده في المستشفى، وخفة وزنه حين أخرجه من سيارة الإسعاف، بل ولهوه بالتراب، وصرخاته المجنونة لملامسة الرياح لوجهه و.. و..

«نادر أيضاً قال إني تحسّنت.. لقد أوقف الأدوية ثم امتدحني كثيراً وقال..» كان يتكلم في الوقت الذي يومئ له فيه أحمد بلطف، وقلبه يُكسر لأجله، فهو يعلم سر إيقافه للأدوية.

ولكن عقله فقط لم يستوعب حجم صلابة نادر وروحه المثابرة؛ فهو بدلاً من أن يخبره بالحقيقة ويزيد من تأزم مرضه قد استبدل بالأدوية مثل هذه الكلمات مدّعياً أنه تحسن، بل وبدا أن كلماته الإيجابية قد رفعت من مستوى تقبل فارس لذاته واعتزازه بنفسه.

«هو يجد حلًّا لكل مشكلة» تمتم بها، وهو يذكر سهره البارحة وتفكيره ومعاناته.

وابتسم لتصرفه هذا الذي ذكره بطبعه القديم، فما دام قد مدّ يده لأحد فهو يستحيل أن يتنصل من مسئوليته تجاهه إلى أن يطمئن عليه..

(ظننتهُ ترك صفته هذه بعد سجنه) فكّر بها في أعماقه نادمًا أنه قد ظن به السوء على حين جذبته فجأة صرخة فارس: «الديك أنت الآخر لحية خفيفة!».

غطى وجهه الحرج على عكس نادر سابقاً، وتانك الزرقاوان تحملان غيرة.

«لا عليك.. فقط سنوات قليلة و ..»

وانتبه عقله لهاجسٍ مخيف فارتجف الهاتف في يده، وذاكرته تسترجع كلام نادر البارحة.. ألم يقل إن فارس ينسى صورة الأشخاص الذين رآهم لمرة واحدة؟!.. ماذا لو كان سببًا لانتكاسته؟!

أسرع يضع شاشة الهاتف مقابلة للحائط، فيما وصله صوت فارس المُحبط من الجانب الآخر: «أحمد.. أنا لا أراك!».

ظل مُبعداً الهاتف، ولسانه ينطق بقلق: «أما زلت تذكر وجهي؟! أنت لم ترَني إلا مرةً واحدة في النزل».

«بالتأكيد.. أنا أذكرك فهاتف نادر مليء بصورك التي أرسلتها وأنا في المستشفى.. هل نسيت؟!». وازداد حماسه: «ثم إننا التقينا مرتين.. أنسيت تلك المرة حين مرض نادر وأصبح وجهه قبيحاً؟».

لم يملك أحمد أن ضحك بصوتٍ عالٍ، وكم تمنى لو يسمع نادر ضحكته، ثم أعاد الهاتف لتلتقي أعينهما، وقد أدرك أن فارس لم ينسه وشعر بامتنان لإرساله تلك الصور.

«أما زال نادر محتفظًا بالصور؟!».

سأل فجأة بصدمة ليجيبه فارس، وهو يجلس على الأرض جوار قفص طيريه، والرياح تتلاعب بخصلاته: «بلى وهي كثيرة ولديه أيضاً صور لك قديمة في حجرته ومعكما فتاة».

تقوست شفتاه، وعكس وجهه التأثر؛ لأن نادر لا يزال يحتفظ بصوره، فيما قفز فارس واقفاً: «أتُريد رؤيته؟!».

وأخرج الهاتف من خلف سياج الشرفة ليرى أحمد صورة نادر البعيدة، وهو منشغل بإصلاح مرآة سيارته الجانبية.

«مغرور.. كان يمكنه أخذها للورشة والتخفيف من أعبائه قليلاً» تمتمت بها نفسه و.. شهق الاثنان فزعاً حين التفت نادر فجأة نحو الشرفة.

اختبأ فارس خلف السياج بسرعة، فيما ظل نادر للحظات يراقب الشرفة مستغرباً، هل رأى حركة ما خلفها؟!، ولم يلبث أن عاد مجدداً لإصلاح سيارته.

«كاد أن يراني؟!» تمتم فارس مرعوباً ليُجيبه أحمد وقد تساقطت الأدوية للأسفل بعد ارتجافته التي لم يعلم لها سببًا: «بل كاد أن يرانا؟!».

ضحكا معاً وقد تشاركا لأول مرة رعبهما منه.. ولم يبدد ذلك الجو إلا صياح فارس فجأة: «أحمد.. لقد أنهيتُ قراءة الكتاب للمرة الثانية.. وقد خضت مع نادر مسابقة فيه وفزتُ عليه و.».

تجاوب أحمد معه برفق: «هذا رائع!».

فيما راح فارس يخبره بأشياء كثيرة مُنذُ خروجه من المستشفى، وطال ذاك الحديث ولم يُنهِه إلا فراغ هاتف فارس من الرصيد.

****

- الرابعة عصراً -

مر الوقتُ سريعاً على نادر الذي أنهى إصلاح سيارته، ثم مارس

رياضة الجري ليستحم بعدها، وحين خرج من حجرته وجد فارس نائماً على الأريكة ووالديه ينظران إليه بإشفاق.

«قال إنه لم يتناول الأدوية ليلة البارحة إلا أن أثرها ما زال يرافقه» قالت العجوز بإشفاق شديد.

«أُمي.. ألم تقولي سابقاً إنه لولا هذه الأدوية لكان أصابك الجنون؟! وإنه الوقت الوحيد الذي تنعمان فيه بالراحة؟!».

«أنا قُلتُ ذلك؟! ما هذا الهراء؟!».

أنكرت تماماً، وهي تضع اللحاف على جسد فارس، ثم نظرت إلى ساعتها، إنها الرابعة والنصف عصراً، التقطت وشاحًا ووضعته على رأسها، ثم اتجهت نحو باب المنزل: «سأزور أهل القرية».

شيعها نادر بعينين رافضتين تماماً، أسقطهما أخيراً على والده الذي شيعها هو الآخر بنظرة مُلئت حبًّا ورحمة.

أراد المسن هو الآخر منعها من الذهاب كي لا تسمع ما قد يؤذيها بعد عودة نادر، واسترجاعهم لحقل التفاح، ولكن هو أيضًا لم يحتمل قتل بهجتها بأن تذهب لأهل القرية لتتفاخر بأن ابنها سيتزوج شابة جميلة من العاصمة، محامية، وأيضًا ثرية.

«أريد التجول في الحقل» حرك بها شفتيه ليجتذب بال نادر المشغول عليها.

أجابه نادر بإيماءة موافقة، ولا يزال قلقه على والدته يؤرقه، ثم اتجه نحوه ليدفع مقعده نحو الحقل مانحين فارس نومة مريحة.

حلّت السادسة مساءً، وما زال المُسن يحدق بالسماء، فيما اقتطف نادر ثمرة تفاح قضمها بصوت عالٍ، وهو يجلس على صخرة كبيرة مواجهاً لوالده.

«تأكل أمام والدك دون أن تمنحه واحدة أيضاً؟!».

«لا تلمني، عليك أن تلوم أسنانك المتقاعدة عن العمل».

«هل هيَ جيدة؟!».

«جيدة جدّاً.. أخبر زوجتك حين تعود أن تصنع لك عصيرًا منها فقد تعبتُ من طبخ وجبتي الإفطار والغداء» وأخذ قضمة أخرى، وعسليتاه تلحظان لون الغروب الذي غزا السماء.

«إن منحتني واحدة.. فلن أُخبر جواهر».

لهجته المُلحة جعلت الجدية تكسو وجه نادر، فأسقط عينيه القلقتين عليه، مُجيباً: «أبي أنت تُعاني من مرض السكر، وإذا ما أُصيبت إحدى أسنانك، ونزفت، فلن تُشفى بسهولة».

«إذًا أنت قلق عليّ فحسب! لم لا تقول ذلك صراحةً مُنذُ البداية؟!».

حرك بها شفتيه بابتسامة ليتجهم وجه نادر.. إذاً بإلحاحه هو كان يهزأ به ليس إلا!!

«ها قد علمتَ الآن» رد عليه، وأسنانه تنهش تفاحته بحرج، ثم خطرت له فكرة فالتفت نحوه سائلاً: «أبي.. ماذا قال لكما فارس اليوم؟!».

«هل ظننتني سوف أشي به؟!» وسلّط عينيه المحتدتين على عينيه المتلهفتين.

«لا!» أجاب نادر مستسلماً، وهو يحك قفا رأسه مبتسماً، فقد استطاع أن يتيقن الآن أن فارس قد قال شيئًا لهما، والليل موعده معه.

«نادر»

«نعم؟» أجاب وعيناه تعانقان الغروب الجميل من خلف والده.

«شكراً».

ارتخت ملامحه، وسأل بتفاجؤ: «من أجل ماذا؟!».

«لأنك اشتريت حقل التفاح مجدداً».

تجمّد للحظة بصدمة قبل أن يُشرق وجهه بابتسامة: «لم يكن شيئًا.. ثم إنك فقدته بسبب دفعك الأموال من أجل العناية بي في السجن».

«هل استعدته لتدفع ثمن عنايتي بك، وأنا لم أرد إلا رؤيتك بخير في السجن؟!».

ارتخى جفناه لعتاب والده، واتجهت عسليتاه للأسفل: «بل لأني أردتُ رؤيتك سعيداً فأنا أعلم كم تحبه، وأُمي أيضاً ستسعدُ بعودتها إليه».

«أرأيت؟!.. بُني الصراحة خيرٌ من الوقاحة» قالها ضاحكاً فعبس نادر بشدة.. ما باله يسعى لإحراجه الليلة؟!

«هذه الليلة جميلة للغاية على عكس البارحة بل وأشعرُ فيها بسكينة واطمئنان».

حرك بها شفتيه براحة لتهتز أرنبة أنف نادر بحنق، هو يمتدحها لأنه يستمتع فيها على حسابه.. (بإحراجه).

«وشكراً أيضاً».

تنهد، وأرخى تفاحته، مستعدّاً لإحراج جديد، وقبل أن يسأله عن سبب شكره الجديد، بادر بقوله: «لأنك لم تُخبر أحدًا بما قاله ثابت.. بل وأوقفته عند حده».

شحب وجه نادر وغزت عينيه حُمرة حارقة.. أراد أن ينطق.. أن يسأله كيف علم!، ولكن الحروف تلعثمت على شفاهه الجافة، وشعور خانق من الذنب يتسلل إلى قلبه، فحنى رأسه بحرج وعيناه لا تقويان على النظر إلى عيني والده.

«بُني لم يكن الذنبُ ذنبك»

حرك بها المسن شفتيه، إلا أنه ظل منكس الرأس يتعذب بندمه، فمد المسن كفه نحوه كي يجبره على النظر إليه، وعندها رأى وجهه المحتقن حزنًا، وروحه تتلوى تحت وطأة ضميره اللائم.

«نادر يا بُني.. ليس خطأك.. حتى والد ثابت الذي أخبرني بما قاله ابنه لم يُرضه قوله».

«الوغدُ الحقير!» صاح فجأة مغضباً، وهب واقفاً، وقد فقد صوابه، مُردفاً بحقد: «لقد أخبرته إن نطقها مجدداً سأقتله، حتى لو كان والده.. ذلك لن يشفع له عندي».

أمسك المسن ذراعه ليوقف جنونه:

«والده قد اعتذر مني بعد سجنك بأيام.. بل وفي المستشفى بعد أن أُصبتُ بالجلطة بكى كثيراً وقال إن تلك الكلمات ستكون حبيسة قلبه وقلب ابنه للأبد».

صاح بثورة: «ولكن..».

«أنت لم تسمعها أبداً حتى بعد خروجك من السجن وإلى الآن.. لقد وفى بوعده».

نقل عينيه المتّقدتين شرّاً من كف والده المانعة ذهابه، إلى وجهه القلق عليه، ثم أطبق شفتيه ثوانيَ وذلك الشعور العنيف يهاجم قلبه مجدداً ليفاجئ والده بانحنائه للأسفل ليغمر كفه المجعدة بقبلات اعتذاره مردداً: «أسف.. أسف.. أسف جدّاً.. أنا السبب في ذلك.. أنا من أدخلتُ ريم إلى منزلنا وعرضتك لمثل هذا القول».

شعر المسن بقبلاته المرتجفة المبتلة فوق ظهر كفه فربت بكفه الأخرى بإشفاق على رأسه مانحاً له ابتسامة دافئة..

وظل نادر على حاله ذاك وقتاً طويلاً لا يقوى على مواجهة والده، ولكنه أجبر نفسه على رفع رأسه أخيرًا حين شعر بكف والده التي ربتت على كتفه بلطف عدة مرات لتستقبل عيناه شفاه والده المتحركة:

«لم يكن خطأك أنك طيب.. وأن قلبك مُلئ رحمةً لأناس لا يستحقون.. وأنا أيضًا لا ألوم ريم فقد كانت في ذلك الوقت طفلة».

ازداد ارتجاف شفتيه، وعيناه تعكسان دمعات أخرى مكبوتة، مما جعل المسن يُمسد له شعره بلطف، بطريقة لم ينتظرها نادر منه يوماً، ولكنها أفلحت في إيصال شعوره نحوه بأنه لا يُجرمه على ماحدث.. بل وقال: «يا بُني إن إخوة يوسف أحد عشر، دمه دمهم، ونسبه نسبهم، ألقوه كيدٍ واحدة في جوف البئر، ولم يكن جُرمه يا بُني ليجتمعوا عليه يؤازر بعضهم بعضًا إلا أنه حظي بما لم يحظوا به».

وزادت حسرته، وهو يستطرد: «لقد نبهني والدي من قبل أن أحذر ممن حولي وألا أستهين بأي شعور جذوة شره غيرة وحسد.. إنها سنة كونية ستتكرر وتتكرر ما دام هناك قلوب مريضة تنجرف خلف هذا الشعور ولا تطفئه.. لقد حظيت بما لم يحظَ به الكثير وكنت رئيس القرية من بعد والدي لذا أحطتُ نفسي بمن أثق به كوليد وكنت حذرًا جدًّا ولم أُهمل نصيحة والدي ونبهت ابني الأكبر رحمه الله، ولكن غفلتُ عن نصيحتك ولم أظن أن تلك القلوب المريضة ستتجرأ لتؤذي طفلًا مثلك.. رأيتُ في أحمد الخير، ولكني أهملت تبيّن تلك الفتاة التي أدخلتها لمنزلي إن كانت ستؤذيك بحسدها وغيرتها وجشعها».

ازداد حزن وندم نادر، فهو المتسبب بإدخالها حين تشبث بوالده وقتها كي يحميها من زوجة أبيها، فربت عبد المجيد على رأسه مواسيًا: «إياك أن تندم على إحسانك إليها.. إياك.. إن لك ربًّا يجازي بالإحسان إحسانًا.. أنت رجل.. رجل طيب يحق لكل أب أن يفخر به».

طفا على وجهه ما قاومه لوقت طويل، وأذناه تسمعان لأول مرة افتخاره به كابنٍ له، بل ووصفه له بطيب للمرة الثانية، فاهتزت عسليتاه بدمع تأثر، كبحه بالقوة.

«بعد هذا كله ما زلتَ لن تبكي أمامي؟!»

تلقت مشاعره الجياشة سؤال المسن المتهكم فهدأت جميعها فجأة، بل ومسح وجهه بحرج: «بالطبع لا».

ابتسم المسن وكما قالت العجوز مهما كبر فلن يرياه إلا صغيراً، غزا

قلبه شيء من الرأفة به فحرك شفتيه بأسف وندم، وكفاه تعتصران مسندي مقعده المتحرك: «كرئيس قرية لقد بنيتُ الكثير من الضغائن في عمري الطويل هذا، وقد مات كل من أثق به ما عدا وليد، لذا الكثير ممن آذوك وخاصة كبار السن كان أذاهم موجهًا لي أنا لا لك.. فاعلم دائمًا أن ما حدث لك كان خطئي حين قُلتُ لك بأنه ليس لدي سوى ابن واحد».

«لا تقل ذلك» ردّ نادر، وقد أثار قول المسن شفقته عليه.

«بل خطئي فأنا من قلته أولاً.. فلا تُحمِّل نفسك ذنب البوح به لريم».

«أنا من أفشيته.. ما يحدث داخل العائلة يجب أن يموت داخلها».

«لأنك غاضب.. فقد تجاهلتك كثيراً وقسوتُ عليك بشأن أخيك الأكبر وكان من حقك أن تخفف عن نفسك أمام أحد».

لوم المسن لنفسه، وفي هذا العمر الكبير، لم يعجب نادر أبداً، بل وغطت وجهه طبقة خفيفة من الغضب: «أبي لقد تحدثنا عن هذا الأمر مسبقاً فأرجوك توقف وإلا فستؤذي صحتك بهذا التفكير.. كما أنه ليس ذنبنا نحن الثلاثة أنك مُسن وأمي عجوز ليظن أهل القرية هذا الظن».

ضحك المسن فابتسم نادر بارتياح، ولكن سرعان ما تغيرت ملامحه وذلك السؤال في أعماقه يصارع للخروج، فارتجفت شفتاه بتردد، وعيناه العسليتان معلقتان بوجه المسن.

لاحظ المسن الغصة العالقة بحلقه، وهو يفتح شفتيه، ولا يلبث أن يُطبقهما، فبادر بسؤاله: «ما الأمر؟!».

أراد سؤاله.. معرفة الحقيقة..

جلستهما هذه معًا بهذا القدر من الصراحة والاقتراب لم تحدث من قبل.. هي فرصته المناسبة لسؤاله عن حقيقة قوله إنه ليس له سوى ابن واحد، فقال: «أُفكر.. لو طُبق الشرع على أول من نطق كلمة لقيط في حقي بأن جُلد بحد القذف، فعندها لم يكن ليتبع أحد خطاه ولأُلجمت أفواه من بالقرية».

«أنت مُحق.. ما عاد هناك إلا القليل من المدن التي تطبق أحكام القرآن»

أجابه والده وعيناه تعانقان السماء غير مُدرك أن نادر يختنق بسؤاله ذاك، ولكنه فضّل كِتمانه لأنه يخشى إجابته.

رفع نادر تفاحته ليُكملها والصمت بينهما يسود ثم رمى بذرها ليجاور أشجار التفاح قائلاً: «سيحلّ المساء وزوجتك ستقتلني لأنك تعرضت للهواء كل هذا الوقت!».

«ليتك تحصل على زوجة مثلها».

«فلتهنأ بها.. فهي لا تُناسب إلا عبد المجيد وحده».

«وعبد المجيد لا أحد مثله حتى أنت».

«أبي لقد كبِرت على التفاخر».

عاد المسن يضحك، ونادر يبتسم له، وقد سره تجاوز المسن ذاك

الشعور، إلا أنه هو لم يتجاوزه، ومع ذلك تهيأ للوقوف، ففاجأه المسن بقوله: «اقرأ من القرآن قليلاً وبعدها سنعود».

«الجو يزدادُ برودة ستتأذى» رد، وقد عكس وجهه قلقه.

«كلا!.. أُريدُ البقاء هنا قليلاً فاليوم قد استقبلت أجمل خبز وأشعر بأني أخيراً قد اطمأننتُ عليك».

«ماذا تعني؟!» سأله نادر باستغراب.

«لا تحتاج لأن تعرف».

عقد حاجبيه بغيظ، وعقله لا يُخمن إلا فارس وجلسته معهما ظهراً، و.. تباً!.. هو يزداد فضولاً لمعرفة ما حدث..

وقبل أن يُلح عليه بسؤاله سحبه المسن في عناق حار جعل وجه نادر يبهت.. عناق لطالما تمناه ابتداءً من والده، ولكنه لم يحظَ به إلا الآن.

«أصبحت رجلاً يُعتمدُ عليه.. هنيئاً لك بُني اختيارك وحياتك الجديدة» قالها وهو يعيده للخلف.

عن أيّ حياة واختيار يتحدث؟!.. ما الذي يهذي به؟!..

الآن تيقن أن هناك شيئًا بالتأكيد لا يعلمه قد أثار عاطفة والده إلى حد تصرفه تصرفات لم يعتدها.. سيسأله إلا أنه تابع فجأة: «هل تظن نادر الأكبر لو علم أنني قد تجاوزت بحبي لك حبه هل سيغضب؟!».

ولم يظن المسن أنه قد يحظى بمثل هذا الوجه الممتلئ سعادة من نادر، وهو يقول بسرعة: «أخيـــراً.. أبي احتفظ بكلمتك هذه وعند التقائنا بنادر الآخر في الآخرة قُلها أرجوك في وجهه فلقد بقيتُ غيوراً منه لوقت طويل وكم تمنيتُ لو ألتقيه وأركله».

عاد المسن يضحك، وهذا الشاب يعود طفلاً أمامه، فحرره من ذراعيه ثم تراجع للخلف قاطعًا أمنياته الغريبة بقوله: «اقرأ يا بني... اقرأ».

«فقط لعشرين دقيقة.. من أجل صحتك ولننجو من بطش جواهر» قالها وهو يفتح هاتفه على إحدى صفحات المصحف ليتلو بصوتٍ عذب.

تلك الدقائق مرت ببطء حلّ فيها الهدوء والسكينة في قلب الاثنين، وحقل التفاح لا يُسمع فيه سوى كلام الله.

«حسناً.. هذا يكفي» قال نادر مغلقاً هاتفه، ثم دسه في جيبه، وهو يقف محدقاً برأس المسن الساكن.

التف من خلفه ليدفع مقعده المتحرك نحو المنزل، سائلاً: «هل تظن والدتي قد عادت؟!».

لم تَبدُر عن المسن حركة تنبئه بسماعه فخمن أنه قد نام..

أوقف المقعد وجلس قبالته ليحرك رأسه الساقط يمنةً كي يمنحه نومة مُريحة و.. عينان شاخصتان وشفة منفرجة وجسد بارد كالثلج.

ظل لوقت يُحدق بمنظره ذاك، ازْدَرِد ريقه، ثم ابتسم: «لم تكن تنام وعيناك مفتوحتان.. لا تفعل ذلك ستخيف والدتي».

مدّ كفه ليُغلق عينيه وثبت رأسه يَمنةً.. ووقف ليدفع المقعد بهدوء.. هو يشعر بشيء، ولكن قلبه يُنكره، وجسده يُطيع عقله الآمر له بمواصلة دفع المقعد.

«أبي.. هل تريد أن أقرأ مجدداً؟!»

هو كاذب.. يُريد سبباً فقط لإيقاظه ويده تمتد ليهز كتفه.

«أبي.. أبي.. عبد المجيد.. زوج جواهر!».

وأيضًا لم يرد، فغزا احمرار عنيف عينيه، وهو يحرك نفسه الرافضة ليجلس أمامه، وامتدت أصابعه لتقيس نبضه..

هو يعلم.. كان مُدركًا لذلك.. ولكنه لم يرد تصديقه.. لم يرد أن يكون حقيقةً..

أطبق شفتيه، وخيط من الدموع المتتابعة يخطُّ على وجنتيه، وأرنبة أنفه تُصبح كالدم القاني حمرةً..

كان يتحدث معه مُنذُ قليل.. يضحك.. ويهزأ به..

تلقى فاجعة موت مفاجئة أوجعته وأذهلته وجعلته كالطفل التائه لا يملك شيئاً سوى الالتصاق به والتحديق في وجهه.

«نادر.. نادر.. أعد أيها الطائش والدك للداخل!».

صدح صوت جواهر من خلفه بغتة، فقفز واقفاً، وسحب المقعد معه إلى خلف إحدى الأشجار..

رآها تبحث بنظرها يمنةً ويسرةً قبل أن تعود إلى المنزل..

انحنى ليحمل جثة والده وتحركت ساقاه راكضاً به نحو سيارته..

جسده يتحرك مطيعاً عقله الذي أطلق صفارة الإنذار.. (يجب أن لا ترى جواهر ذلك)..

تجاهل كل مشاعره وحزنه ليصل إلى السيارة ثم فتح باب الراكب وأرقده على المقعد، وظهر فارس فجأة منادياً هو الآخر له، وكأن العجوز من قد أرسلته.

رآه فارس فجرى نحوه: «نادر جدتي تتوعدك شرّاً لأنك أبقيت جدي في الخارج لوقت طـ..».

تباطأت عبارته وعيناه تُبصران عبد المجيد نائمًا في السيارة، فقال: «هل هو بخير؟!».

تأمل نادر وجهه القلق ثوانِيَ فقط، ولم يكن أمامه خيار آخر سوى: «والدي ليس بخير.. سأنقله إلى المستشفى».

انقبض قلبُ فارس، وهو يُبصر احمرارًا بعيني نادر، ولكنه بأشد مما رآه عند مقتل برونو..

«هل آذوه؟!» صرخ بقوة، والخوف يرجف قلبه.

أسرع نادر يغطي فمه، ثم ألقى نظرة وجلة إلى المنزل ليتيقن إن كانت والدته قد تبعتها أم لا، ثم حمل صوته رجاءه الشديد: «نزلة برد فحسب.. لا تقلق.. أنا بحاجة لك لتبقى مع والدتي وتسليها حتى نعود».

لم يكن ليرفض أبداً تلك النبرة الراجية، فأجابه بطاعة: «حسناً.. ولكن لا تتأخرا».

منحه نادر ابتسامة بالكاد رسمها مردفاً: «يجب أن لا تشعر أمي بالقلق عليه.. فارس أنا أعتمدُ عليك».

فقط (أعتمدُ عليك) جعلت وجهه يُشرق، وحرك رأسه لتهتز خصلاته بـ (ثق بي)، ثم سأل: «ماذا أقول لها إن سألت عنكما؟!».

أجابه بسرعة، وهو يرمي بجسده خلف المقود: «أخبرها أنني أخذتُه لأداء الصلاة في الجامع الذي يُحبه».

«حسناً» قال، ولوح له بكفه ثم عاد للمنزل ليتولى مهمة العناية بجدته فقد قال نادر إنه يعتمدُ عليه!!

****

(١٥) قاسٍ جدًّا..

انحنى شاب في السابعة والعشرين من عمره يتفقد محرك سيارة قديمة وسط ورشة عجت بالكثير من العمال، وقد انشغل كل واحد منهم بإصلاح سيارة أو غسل أخرى.

«أخبرتك لقد رأيته بأمّ عيني يقف أمام منزلك ويتحدث مع ريم»

تحدث الشاب ليصدر عن السماعة المعلقة في أذنه صوت راجح: «الحقير سأقتله!.. ألم يأتِ بسيارته بعد؟!».

جاءه صوت الشاب محبطًا: «لقد انتبه إخوتي لنظرتي العدائية إلى سيارته، وأنا متيقن أن الضرر الذي سيحدثونه فيها يحتاج إلى قدومه إلى الورشة».

«حين يأتي لا تفتعل معه شجارًا صغيرًا، بل اجعله كبيرًا.. واحرص يا ثابت أن يساندك العمال».

«بالتأكيد.. يجب أن يعود للسجن.. ولنجعلها وكأنها امتداد لما فعله بي في الماضـ..».

«ثابت»

صمت بصدمة حين سمع مناداة باسمه من شابة أقبلت من خارج الورشة، التفت نحوها بقامته الشبيهة بقامة نادر، فيما اختلف عنه بذقنه الحليق وعينيه الفاترتين.

ظل مشدوهًا لوهلة قبل أن يقول: «سأكلمك لاحقًا.».. وأغلق الخط ليقول باستغراب شديد: «ريم؟!».

رأى من خلفها أخته سُمية تُشير له بأن ريم هيَ من طلبت لقاءه بنفسها، فمدّ كفه السليمة نحو قطعة قماش قريبة ليمسح منها بقايا زيت تشحيم السيارات.

«أُريد التحدث معك» قالت ريم، وهيَ تعقد كفيها أمام حجرها، وقد بدا توترها واضحاً.

«أنا أسمعك».

«ليس هنا» بحدة قالتها لينعقد حاجباه غير مستوعب.

«وحدنا؟!» سألها ذاهلاً.

«نعم» وسبقته إلى حجرته المكتبية الملحقة بالورشة، والتي يتقاضى فيها أموال الزبائن، ويعقد صفقاته بشراء قطع السيارات التالفة والخردوات.

قفزت ابتسامة متحمسة لشفتي سميّة متمنية أن يكون هذا بداية لعلاقتهما الأبدية، وقطعت بها أحلامها شوطاً طويلاً متخيّلة زواجها هي وريم في يوم واحد.

وفي الداخل جلس ثابت خلف مكتبه يحدق بريم التي تجاهلته لأكثر من عشر سنوات، مُنذُ إصابة نادر له، فيما حدّقت هيَ بذراعه المعطوبة والتي اختفت تحت كُم طويل لم يبرز منه سوى أصابع يابسة متفرقة..

نظرتها جعلته يَدُسها أكثر خلف المكتب وقد حملت عيناه حدة.

«هل تستقلين بي؟!».

«لا.. أُريد معرفة لماذا فعل نادر بك هذا؟!».

عضّ على شفته السفلى بغيظ، وتلك الحادثة تطرق ذاكرته: «لمَ لا تسألينه بنفسك؟! أليس صديقك؟!».

«لو أنه أخبرني لم أكن لأقف أمامك الآن» قالتها باستعلاء كبير مشعلة ضغينتهُ القديمة فهيَ لا الآن ولا من قبل كانت لتلتفت إليه، بل وهيَ في ورشته لأن نادر تجاهل إجابتها..

«غادري.. لديّ عمل كثير لأقوم به» ونهض لتستقبله ابتسامتها الخبيثة وهيَ ترفع هاتفها: «قبل أن تذهب انظر للفيديو الذي صورته».

لم يرتح للهجتها الواثقة فالتقطه منها بحذر، ليمتقع وجهه من مرأى أخويه يعتديان بالضرب على فارس.

«ما هذا؟!» صرخ وهو يُبعد الهاتف عن يدها الممتدة لأخذه.

«اسأل أخويك طارق وثامر».

«بل أسألُكِ أنتِ؟!» وحمّل صوته نبرة عصبية عنيفة.

«بالتأكيد.. أنت لم تستغرب من ضربهما للغريب.. بل تستغرب فقط لمَ صورتُ ذلك واحتفظْتُ به». وأنزلت كفها لتدور داخل الحجرة مستفزةً له أكثر ومتابعة بتهديد: «إن لم تخبرني بما قلت له ذلك اليوم فلن أتردد في نشر هذا الفيديو ليعلم الجميع مدى قذارة أخويك».

«أيتها اللعينة!» صاح بثورة، وهو يرفع كفه على امتدادها ليُحطم الهاتف.

«افعل.. وأنا أقسم إن نسخة الفيديو المحتفظة أنا بها في المنزل سأنشرها دون تردد ودون حاجة لإجابتك للسؤال حتى».

تجمّدت كفه، وعكس وجهه ذعره، فأخواه لن يسلما من نميمة القرية.. بل من هذا الفتى الغريب؟!.. إن وقع الفيديو في يد أسرته فسيكون وسيلتهم الرابحة لمقاضاة أخويه.

«لِمَ الآن وبعد كل هذا الوقت جئتِ تسألين عن تلك الحادثة؟!» صرخ بقوة لتكسو ملامحها الصرامة، وقالت: «لأنني متيقنة أنك لم تقل له ذلك اليوم لقيط، بل شيئًا آخر».

واشتدت يدها في قبضة وهي تذكر نظرته الودود لها، هناك أمل لها معه ولم يعد يقف حائلاً بينهما سوى هذه الحادثة لذا ستحلها.

«هو فقط لم يحتمل أن ثابت منافسه في القرية بالثراء والنسب العالي قد حظيَ بالشرف وجلالة القدر دونه بعد أن علم الجميع أنه لقيط».

وابتسم بعجرفة وهو يضيف: «لذا كانت قاسية على نفسه حين نطقتها أنا من بين الجميع».

«كاذب!» صرخت بحدة.

«أنتِ حرة بعدم التصديق.. والآن غادري».

سحبت هاتفها بجرأة من كفه، وتراجعت مهددة: «لن ينفع تستر أخي راجح على أخويك لأني سأكون الشاهدة ضدهما هذه المرة».

اتسعت عيناه، ونفخ هواء ساخنًا من فمه، واستفزازها يوتره، لتصرخ فجأة بغضب وقد فقدت أعصابها: «قل.. قل أيها اللعين!.. ما هو الشيء الذي يتهمني بأني وشيتُ به لك واستخدمته أنت ضده؟!».

صرختها وانزعاجها أرضيا شيئًا في داخله، بل وواصلت صراخها

فجأة بازدراء: «أنتِ نكرة بالنسبة إلي.. لم أكن حتى أتحدث معك أو أقف إلى جوارك.. بل ولم أمنحك حتى رداً لطلبك صداقتي حين كنا مراهقين.. فما الذي وشيتُ به لك؟!».

«وشيتِ بمقدار المال الذي يعطيه عبد المجيد لوالدك».

تصلبت في موقعها غير مُصدقة معرفته بالأمر، بينما كلامها عن رفضها له خدش كبرياءه وأفقده صوابه فأكمل: «ما حاجة رجل مُسن لدفع مال كي يُبقي فتاة من عمر الثامنة وإلى السابعة عشرة من عمرها في منزله دون أن تعمل؟!».

شحب وجهها وقد وصلها شيء مما يرمي إليه، فتابع مستلذًا بوقع كلماته على وجهها:

«فتاة وحيدة مع مُسِنٍّ ومراهقيْن أحدهما مجرد لقيط قذر.. وعجوز كبيرة لا نفع منها.. لا بد أن المال المدفوع هو ثمن استمتاع عبد المجيد معكِ وبالتأكيد كان للمراهقين نصيـ...».

بتر عبارته لتختلط آخر كلماته بدمائه النازفة من أنفه المكسور بعد ارتطام هاتفها به..

صرخ عالياً متألماً فيما تراجعت هيَ للخلف والدموع تغشى عينيها.. لم يحتمل عقلها صدمة ما قال.. هيَ تُريد قتله.. كاد يلوث شرفها وشرف أحمد وشرف عبد المجيد..

لو انتشر ما قال وشاع لما عاشت مرفوعة الرأس ولتدمر مستقبل أحمد..

ولما استطاع عبد المجيد الذي أنقذها بماله واحتواها في منزله أن يضع عينيه في أوجه رجال القرية ولما استطاع حتى أداء الصلاة في المسجد..

ذلك المسِنُّ كادت تتدمر حياته.. ولكن نادر قتل الشائعة قبل مولدها..

تحمّل وزرها بمفرده وماتت في قلبه ولم ينطق لسانه بها أبداً..

لم ينتقم منها بعد أن أشاعت عنه أنه لقيط، بل حماها وحمى والده وحمى أحمد..

تخاذلت قدماها وهيَ تجر نفسها إلى الخارج، لم تعلم كيف وصلت للورشة ولا كيف تجاوزتها ودموعها تجري أنهاراً لتقابلها سُميّة مفزوعة: «ريم.. أنتِ بخير؟!».

منحتها صفعة دوى صوتها في المكان لتتراجع سُميّة وعيناها تتسعان بدموع غير مُدركة جُرمها فهيَ الوحيدة التي بثتها سرها بأن عبد المجيد يدفع مالاً لوالدها كي يبقيها في منزله كعاملة حمايةً لها من ظلم زوجة أبيها..

صرخت ريم بأعلى صوتها باكية ليجتمع عمال الورشة مُحدقين بها باستغراب، ولم تقوَ على الوقوف فسقطت على الأرض باكية تفلّت لسانها..

نعم هيَ من وشت به.. وهو من حماهم..

تقبل مسئوليتهم حين احتاجوا.. ولم يتنصل منها حتى بعد أن أداروا ظهورهم له.

****

مرت ثلاثُ ساعات انتشر فيها خبر موت عبد المجيد في قرية السنابل انتشار النار في الهشيم، مستثنياً منها منزلًا واحدًا فقط رُصف أمامه عدد هائل من شجر التفاح، ولم يُعكر سكون داخله سوى صوت الأطباق المتكسرة واحداً بعد الآخر.

دحرجت العجوز عينيها المتَّقدتين عن المقلاة الموضوعة فوق الموقد لتُحدق بحدة بفارس المجاور لها أمام المغسلة وشظايا الطبق أمام قدميه.

هل وبخته؟!.. لا.. ألقت شتائمها عليه؟!.. أيضاً لا.. بل والأغرب لم تسحب عصاها لتضربه؟!

«لن أُفسد عُرس ابني.. لن أُفسد زواجه بضرب صهره».

تمتمت بها محاولة تصبير نفسها عن قتله، فيما ازدرد فارس ريقه بخوف، وأعماقه تضجُّ بالدهشة.. لِمَ هيَ لا تضربه؟!

أراد إشغالها وتسليتها كما وعد نادر، ولكن الخدمة الوحيدة التي يُجيدها.. هيَ (إزعاجها).

«فارس».

«نعم.. جدتي؟».

«لِمَ لا تذهب لمشاهدة التلفاز حتى أنتهي من تحضير العشاء؟!».

«لا يصح.. يجب أن أُساعدك».

(ما هذا الأدب؟!).. استشاطت غيظاً وعدد الأطباق المتكسرة يزداد.

«أطعم طيريك».

«أطعمتهما قبل ساعة».

«العب إذاً على هاتفك».

تقوست شفتاه، لِمَ هيَ تُغريه بالشيء الوحيد الذي يجد معاناة في تركه؟!

«لقد فرغت بطاريته».

قالها كاذباً، وعيناه الزرقاوان تتلألأان، وذاكرته لا ترسم أمامه سوى وجه نادر المعتمد عليه.

«اشحنه إذاً»: صرخت وقد فقدت صبرها تماماً لتسحب ملعقة ضخمة جعلته يفرّ هارباً للصالة وبقايا الصابون ملتصقة بكفيه.

«بلا شك.. الخطأُ ليس عليّ إن فسد زواجه».

وتنهدت بعصبية، وهيَ تعود لتُكمل الطبخ وعيناها محدقتان بالأطباق المتكسرة، ثم نقلتهما إلى الساعة الجدارية، مستغربة فقد مرّت ثلاثُ ساعات!!

هل عبد المجيد أدى صلاة العشاء أيضاً في الجامع؟!

شعور غريب تسلل لقلبها، وهي تكنس بقايا الأطباق، ثم وضعت غطاء القدر عليه واتجهت إلى الصالة لتتصل بهما وتتحقق.

«جدتي ابحثي معي عن هاتفي».

ضاقت عيناها بحنق، وهذه المصيبة ملتصقة بها مُنذُ عودتها من زيارة جاراتها.

«أين وضعته آخر مرة؟!».

«لا أعلم» قال ورأسه محني للأسفل مُثيراً شفقتها.

تنازلت تماماً عن أخذ هاتفها والاتصال بنادر لتبحث له عن هاتفه.. علّها ترتاح منه.. فبحثت تحت الأريكة.. خلف التلفاز.. في حجرة نادر وأخيراً المطبخ ثم أدارت بصرها المتسع نحوه صائحة: «لماذا لا تبحث أنت أيضًا عنه؟!».

امتقع وجهه وهو يقف وسط الصالة كالأبله.. لماذا يبحث عنه وهو في جيبه؟!

ولسوء حظه أبصرت هيَ ذاك الانبعاج البارز من جيب بنطاله، وقبل أن يبتعد عنها كانت قد سحبته من جيبه بصدمة، قائلة: «كان هنا طوال الوقت؟!».

لم يستطع فارس كبح فزعه وهو يومئ بـ (نعم)، فابتسمت أخيراً بعد وقت طويل: «المهم أننا وجدناه».

وأعطته له ليستحيل صنماً غيرَ مصدق أنها لم تضربه، بينما أسرعت هيَ لهاتفها وعقلها مشغول بتأخر الاثنين.

فُتح باب المنزل فجأة ليبرز من خلفه نادر، فتنفس فارس الصعداء لانتهاء مُهمته، ثم مشى إلى جواره محلقاً بين إبهامه وسبابته بفخر كناية عن أنه تكفّل بأمرها.

ولكن لم يُفلح ما فعله في اجتذاب شكر أو مدح من نادر الذي تجاهله تماماً، وعيناه تنظران إلى أمه المعلق بصرها بما خلفه، سائلة: «أين والدك؟!».

بلل شفتيه الجافتين بلسانه، وما هو بصدد نقله إليها يُثقل قلبه.

«لِمَ لا ترد؟!» قالت، وهيَ تُسرع إلى الباب مستطردة بحنق: «ما زال يريد البقاء في الحقل؟! ألا يشبع منه؟!».

«هو ليس في الحقل أمي».

تجمدت خطواتها، وعبارتهُ تُثير ذعرها: «ليس في الحقل؟! ماذا تعني؟! ألم تعد به معك؟!».

منحها ظهره، وهو يغلق الباب فلم تُبصر ارتجاف شفتيه مقاومًا غصة عالقة بحلقه، لا هو قادر على ابتلاعها، ولا أزمته الآن تسمح له بإخراجها فيرتاح.

«نــادر» نادته بوجل بعد تأخر إجابته.

استدار نحوها ليُمسك بكلتا ذراعيها فجأة، وسحبها لتجلس على الأريكة مقابلة له، ولم تعارضه جواهر وهيَ تتأمل وجهه المصفر، والذي بذل نادر جُهداً مضنياً ليبقيه هادئاً: «أبي مريض».

اتسعت عيناها بهلع ورعب، فيما ترك فارس هاتفه، وذلك النقاش يجذبه ليقف أمامهما.

«هل هو في المستشفى؟!».

«نعم».

«خذني إليه!» صاحت ملتقطة وشاحها من فوق مسند الأريكة، ولكن نادر لم يُفلت ذراعها أبداً ليُبقيها جالسة.

«أمي من الصعب بقاؤك معه الآن».

«لماذا؟! دائماً ما كُنتُ أرافقه حين يمرض».

«ليس هذه المرة» بالكاد نطقها وعيناه تحمران.

«هل هو في العناية؟!».

ذلك هو التفسير الوحيد الذي أسعفها عقلها به؛ فهي الحجرة الوحيدة التي لا يُسمح لأحد بمرافقة المرضى فيها.

«بُني خذني إليه.. سألوح له من خلف زجاجها فقط.. صدقني هو بحاجة لي الآن ولن أدعه».

عبارتها المتوسلة دفعت بالدموع لعينيْ نادر الذي كبتها بقوة ليشعر بحرقتها وهيَ تحاول التحرر، ولكن حُرقة قلبه عليها أشد.. يُريد إخبارها، ولكن خارت قواه أمام جزعها هذا.

فيما أرخى فارس الهاتف من يديه، وقلبه هو الآخر يُكسر لأجلها، فقال: «جدتي.. إنها مجرد نزلة برد».

كلا الاثنين لم ينتبها لعبارته المواسية، ونادر يعتصر كفيها المجعدتين بين كفيه وكلماته تخرج مرتجفة من بين شفتيه:

«هو ليس بحاجة لأحد بعد الآن.. لا لي.. ولا لكِ.. ولا لأي أحد من الدنيا».

هنا وصلت عبارته كسكين حاد اخترق قلبها الهش ليتجمّد وجهها ثوانِيَ قبل أن تبرز أسنانها ضاحكة بإنكار وعينا نادر يزداد ارتخاؤهما قاتلاً ضحكتها.

«مات؟!»

فوجئ بسؤالها لتجوب عسليتاه المتسعتان بصدمة عينيها المتلهفتين وقد نطقت بما عجز هو عن نطقه.

غشي قلبه التردد والخوف والإشفاق عليها، ولكنها الحقيقة فأومأ برأسه بـ (نعم).

هل بكت كما توقع؟!.. صرخت؟!.. ولولت وناحت؟!.. لا.. فقط ظلت صامتة محدقة بعينيه قبل أن ترفع كفها المجعدة لتربت على خده:

«هل تناولت عشاءك بُني؟!».

«لا» أجاب ذاهلاً لتُبعد كفيه عن ذراعيها.

«سأضعُ لك العشاء».

«أُمي.. أنتِ بخير؟!».

«أنا بخير».

قالتها بابتسامة خفيفة زادت من انخلاع قلبه، وهيَ تقف، غير منتبهين لفارس الذي تهاوى جسده أرضاً بعد أن عجزت ساقاه عن حمله، والدموع تتدافع لتُغرق زرقاويه غيرَ مصدق ما سمعه، وأطبق شفتيه المرتجفتين ثوانِيَ قبل أن يُطلقهما باكياً بصوت مرتفع، وعيناه تُعاتبان نادر الذي خدعه.

منحه نادر أثناء لحاقه بوالدته تمسيدة خفيفة على شعره كانت مواساته الوحيدة له.

«أُمي.. لستُ بحاجة للعشاء الآن» ثم أوقفها فجأة بعناقه الشديد لها من الخلف وذراعاه تشدَّان على جسدها بقوة.

«كلا!.. يجب أن تأكل».

عضّ على شفته لينساب دم خفيف منها مانعاً نشيجًا يكاد يخونه فيلحق بفارس.

صدمتُها أكبر مما توقع.. هيَ غارقة في صدمتها إلى حد عجزها عن التعبير عن مشاعرها.. زاد من احتضانه لها محاولاً منحها مواساة قد تطلق مشاعرها التائهة وهو يجرّ لسانه من بين شفتيه المطبقتين ناطقاً: «أُمي.. أبي مات وسيُدفن في الغد بعد صلاة الفجر.. لقد اتفقت مع إمام المسجد».

«هذا أفضل.. من السنة التعجيل بدفن الميت»

صدمته مجدداً، محطمةً أمله بأن تُفيق إذا ما جعلها أمام الأمر الواقع..

كلاهما واقف الآن، وصامت، بلا دموع، مُثيرين الصدمة في قلب فارس الذي علا صوت بكائه.. إما أن يكون هو المجنون أو هما؟!

ألا يشعران؟! أليسا حزينين؟! لِمَ هو الوحيد الباكي بينهما؟!

بل كيف تركت العجوز نادر لتفرش سفرة الطعام، ثم رتبت عليها أطباقها الخزفية، لتسكب من الحساء هنا وهناك..

مهلاً.. ألا يدركان أن هناك طبقًا مفقودًا؟! مقعدًا فارغًا؟!

زاد بكاؤه، دون أن ينتبه لمراقبة نادر لوالدته وقد تضاعف قلقه

عليها مئة مرة ليعلو وجهه الوهن، ثم أمسك بيدها متوسلاً: «لا تفعلي ذلك بنفسك.. ابكِي!.. أرجوكِ ابكِي!.. أنا ما زلتُ هنا معكِ».

دفعته برفق: «وما يُفيدُ البكاء؟!.. هل سيعيد عبد المجيد؟!.. هل سيحييه؟!».

«لن يحييه، ولكنه سيخفف عنكِ».

«تتحدث وكأنك من تبكِي الآن».

رمتها في وجهه ببرود مخيف ومقلتاها تتنقلان لتنظرا لفارس الذي تتابعت ذراعاه تمسحان عينيه الهائجتين ونحيبه يملأ المنزل.

«أخبرني.. كيف مات؟!»

انقبض قلبه، ولكن عينيها المعلقتين به جعلتاه يُجيب: «بنوبة قلبية».

«هل طال الأمر كثيراً؟! هل تعب أثناء موته؟!».

«لا.. مات أثناء قراءتي القرآن عليه في الحقل ولم يتعد الأمر ربع ساعة».

ابتسمت، في الحقل.. المكان الذي يحبه فقالت: «هذا جيد».

ما هو الجيد؟!.. تماسكها هو غير الجيد.. دلّك جبينه وعسليتاه تتبعانها في حركتها وقلبه يرجفه الذعر.

لا مبالاتها، نظراتها الفارغة هنا وهناك، وهيَ تضع الملاعق ولا تلبث أن ترفعها لتضعها بموقع آخر.. تعكس حزناً عنيفاً لا تكفيه الصرخات ولا الدموع.

«أُمي.. ما رأيك أن آخذك للمستشفى؟!»

قالها بتردد قلق، ولكنها بدلاً من إجابته تركته خلفها لتدخل إلى حجرتها.. جلست فوق السرير واتكأت بظهرها على حاجزه من الخلف.. فقدت ابنها الأكبر والآن فقدت من كان كل شيء في حياتها..

لقد عمروا كثيراً ليموت كل أحبائهم، ولكن ذلك الرجل هو كل شيء بالنسبة لها..

عاشت معه، قاومت من أجله، بل صباحاً كان يضحك فرحةً بزواج نادر..

«هو لن يحضر زواجك حتى».

قالتها مبتسمة لنادر الذي شعر بالعجز لأول مرة في حياته.. وجد نفسه يفكّر كيف استطاع والده إخراجها من حزنها حين مات ولدها الأكبر؟! تمنى لو سأله عن ذلك ليتبع نهجه، ولكنه ليس هنا ليسأله!

«ستحضرينه أنتِ»

هذا ما هداه إليه قلبه ليهدئها به، وكفَّاه تعتنقان كفيها ليدلكهما بلطف.

هو الآن يصمد لأجلها.. ليمنحها القوة.. لتستند عليه، ولكنها لا تُظهر حاجتها إليه حتى!

«قهوة الصباح من سيشاركني إياها؟!» تساءلت ببرود مُعذبة نادر.

«أنا»

بنبرة ملأتها العبرة أجابها ليشعر بها تسحبه فجأة، ثم قبلت جبينه قبلة طويلة لم يفهم لها سببًا.

شعر بنفسه كطفل تائه، أراد أن يبكي في حضنها، أن يبثها شكواه، كيف أفزعه شخوص عيني والده وكفّهُ عن الحركة بعد أن كان يُمازحه.

أراد أن يصرخ مخبراً لها كيف لم يُطعهُ قلبه أن يراهم يضعون جثته في ثلاجة الموتى مغلقين عليه بابها، حابسين له في تلك الفجوة الضيقة..

بل كيف سيقوى في الغد على إهالة التراب على جسده ووجهه؟!!

هو بحاجة إليها.. لضمتها.. لتهدئه، ولكنه أيضاً يعلم حاجتها له..

«حبيبي.. أُريد النوم» قالت فجأة فرفع رأسه بصدمة ليظهر لها عينيه القانيتين حمرةً وقد بلغ كبته لشعوره أقصاه.

صمت، لا يعلم ما يُجيبها، ولكنها استلقت أمامه على السرير وسحبت الغطاء لتتدفأ به مبقية رأسها مكشوفاً وعيناها تُحدقان بالمساحة الخالية جوارها.

بماذا تفكر؟!.. ما الذي تسترجعه ذاكرتها؟!.. كيف تشعر؟!.. كل ذلك أبقته داخلها دون أن تعي جلوس نادر معها فوق السرير إلى جوار قدميها.

ومرّ الوقت لا يكدر هدوء المنزل سوى نحيب فارس الذي جرّ خطواته ليجلس هو الآخر مستنداً على حافة الباب، وحال الاثنين أمامه لا يُجرئه على الاقتراب منهما.

ومر الوقت بطيئاً عليهم، وكانت الثانية فجراً حين استشعر نادر حركة جواره جعلته يفيق مفزوعاً، فجلس ينظر لجواهر الجالسة على السرير..

لا يعلم كيف غفا بعد أن ظل مراقباً لها طوال تلك الساعات، وهو يكبت مشاعره!

«أحضر لي كأس ماء»

قالتها بصوت خافت بالكاد التقطتها أذناه، أراد أن يخبرها بأن عليها أن تأكل أولاً، ولكن خروجها عن صمتها أفرحه.

«حسناً»

استقام، وخرج للمطبخ مارّاً بفارس المستند على حافة الباب، وقد بدا أنه نام بعد أن أجهده البكاء.

هل هو بخير؟!.. لا يعلم.. كل ما يعلمه أن هناك عجوزًا هي بحاجته الآن أكثر من كل من في العالم..

دقيقة فقط حرص فيها أن يجلب ماء دافئًا في هذا الجو البارد، ثم عاد نحوها، وجلس على السرير أمامها، ومدّ نحوها بالكأس.

لم تمد يدها، ولم تأخذه، ظلت عيناها فقط محدقتين بالفراغ، بنقطة خلفه.. سحب كفها ليضع الكوب بين أصابعها، ولكنها لا تلبث أن ترتخي.

ارتفع صوت أنفاسه عالياً، وهو يرفعه ليقربه من فمها: «سأساعدك.. اشربي ببطء».

لم تتحرك شفتاها رغم ضغطه لحافة الكوب بينهما.. ارتخت ملامحه.. نظر يمنةً ويسرة غير مصدق عقله ولا مستوعب فكرته الغبية..

«استلقي إذًا»

واستقام واضعاً كفيه على كتفيها ليساعدها على الاستلقاء، ولكنها لم تتجاوب معه.. ظل جسدها متصلبًا..

«أمي.. هذا قاسٍ جدّاً»

من يُحدث؟!.. يحدث تينك العينين اللتين لم ترمشا وظلتا جاحظتين محدقتين بلا شيء وكأنهما تنقلان له خبراً جديداً خلال أقل من يوم واحد..

شعر بجسده يثقل والأرض من أسفل منه تدور.. هو تحمل، ولكنه بشر.. غالَب نفسه ليمسّ عنقها لتنقل له أصابع كفيه ما أراد قلبه نفيه..

تهاوى ساقطاً على الأرض وعيناه تحدقان في الفراغ أسفله، وظل على ذاك الحال وقتًا طويلًا قبل أن يُبصر تينك القدمين الحافيتين تقفان أمامه..

رفع عسليتيه لترتطما بتينك الزرقاوين المحدقتين به بتعب بعد طول بكاء..

ابتسم نادر ابتسامة جوفاء خاوية: «هيَ الأخرى ماتت.. حزناً على والدي!».

لم يستوعب فارس قوله، ولا حاله الغريب وهو ينقل عينيه ليرى سكونها المشابه لسكون عبد المجيد عصراً.

ثم عاد بنظره لنادر وانفرجت شفتاه.. هو سيحتمل موت برونو.. موت المُسن.. ولكن ليس موتها..

زاغت عيناه ليسقط أرضاً عند قدمي نادر الساكن.. أرجح نادر بصره بين أُمه وفارس وقد اسودّت عيناه.

ثم ألقى له عقله فجأة بفكرة.. أليس من الأفضل لو تُدفن والدته مع والده؟!.. نعم.. توقيت جيد لموتها..

تلك لم تكن أفكاره أبداً..

استعار ثوب لا مبالاة والدته وعكست عيناه بروداً مخيفاً وهو ينحني ليحمل فارس لينقله لحجرته.. ثم عاد نحو والدته ليحملها إلى المستشفى هيَ الأخرى وقد جفّت عيناه تماماً، هو حتى لم يعد يشعر برغبة في البكاء.

****

(٤١) حُمّى

١٤ أكتوبر - ٦ صباحًا.

لم تبكِ السماءُ يوماً موت أحد ولا هيَ باكية..

فقط صادف أن تُغطي شمس قرية السنابل غيوم متراكمة زادت من برودة طقسها، وحجبت أشعة شمسها عن تدفئة ذلك العدد المهول من الأجساد الماشية..

امتلأت الطرقات بالبشر حتى لكأن منازلها قد لفظت كل ساكنيها..

ومن خلفهم علا ركضُ الأطفال وهم يشيّعون مع الحشود جسديْ عبد المجيد وجواهر..

تلك الفاجعة أذهلت القلوب..

ناموا على خبر تشييع جنازة عبد المجيد، وأفاقوا على مشهد تشييع جسد جواهر برفقته.. (اثنان مرةً واحدة!).. مصيبة أجرت دموع أغلب الناس إن لم يكن كُلهم.

وبين تلك الحشود وقف بقامته العالية مترئِّسًا لهم فهو وصيّهما بالأوراق والمتكَفِّل بإنهاء مراسم جنازتهما.

أهالت كفَّاه التراب فوق جسديهما ولم تجُد عيناه ولو بدمعةٍ واحدة.

ومن حوله علا نشيج خافت لبعض الرجال والنساء رقةً لحال العجوزيْن اللذين لم تطق قلوبهما فقد بعضهما بعضًا ليزور الموت حقل التفاح مرتين..

وقد يكون نشيجهم الباكي رحمةً بذلك الشاب الذي أضحى وحيداً دون سند أو مواسٍ في أقل من بضعِ ساعات.

عيناه الباردتان وحاله الهادئ فطّرت قلوب النساء وأوّله البعض بأنه لا يزال في ذهوله وصدمته..

بينما تشبثت بقايا قلوب مريضة بسوادها لتستنكر.. من أين استقى صلابته؟!.. وممَّ صُنع قلبه المتحجر؟!.. بل وتهامست بعض الأفواه مؤكدة شكها بأنه ليس ابنهما وإلا لبكّاهما.

أَتمَّ أخيراً واجبه الأخير تجاه وَالِديه فنفض التراب عن كفَّيْه وعاد ماشياً نحو حقل التفاح..

ومن خلفه سارت الحشود لتتوقف حين توقف، ساهماً، ناظراً لبوابة حقل التفاح والرياح تتلاعب بأوراق أشجارها المتناثرة لتمرّ من حوله أو تحطّ أمام قدميه..

هل من الممكن أن الأشجار قادرة على البكاءِ أيضاً؟!

أأوراقها المتساقطة هيَ دُموعها؟!

هنا عاش عبدُ المجيد ثمانين سنة، وانضمت إليه جواهر سبعة وخمسين عامًا بعد زواجهما.. ولم يخرجا منه إلا تسعِ سنين حين سُجن نادر.

تأمل البوابة العالية، وأطرافها المسننة وتلك الأسوار الممتدة لمدًى بعيد والمنزل الريفي المتوسِّط لها.. أدرك فجأة أنها قد أضحت في هذه اللحظة له، ولكن ثمن امتلاكه لها أن تستقبله خاوية من أهلها.

فتح البوابة ودخل لتسمع أُذناه صوت الحشود الهامّة بالدخول من خلفه..

«أين؟!»: نطقها بلا أدنى احترام لمختلف الأعمار أمامه.

«لنقوم بواجب العزاء في والديْك»: ردَّ كهل يتوسط الحشود.

جال بعسليتيه الباردتين تلك الحشود من أولها إلى آخرها ثم: «والدايَ؟! أأَملكُ والِدَين؟!».

أُخرسوا جميعاً وكأن سؤاله قد صعقهم.. ألم يحكموا عليه سابقاً أنه لقيط؟!

«هذا الواجب قد أُعفيتم منه.. فلا ابن لهما لتُعزّوه»: أردف بجرأة، وكفّاهُ تندسان في جيبي معطفه، واقفاً أمامهم بوجهٍ جامد.

لم يتزحزحوا أو يرحلوا.. وشيءٌ من الذنب ينهشُ قلوبهم فقد قصروا في حق عبد المجيد وجواهر وأرادوا بوقوفهم جواره وتعزيته التخفيف من عذاب ضميرهم اللائم.

ولكنه لم يمنحهم أمنيتهم تلك وهو يدخل ليُغلق بوابة الحقل في وجوههم..

«لو كان عبد المجيد حيًّا لما أُغلق بابه دوننا» صاح رجل من بين الحشود بغضب..

«لم تطرق هذه الحشود بابه المفتوح وهو حيّ فلا حاجة له بهم الآن وهو ميّت».

كلماتُهُ غُرست كخنجر في قلوبهم، ألم يهجروا هذا المنزل مُنذُ عشر

سنوات؟!، مُنذُ أخذ والد ثابت الصدارة ووجاهة القرية بدلاً من عبد المجيد.

بل وهجرهم لعبد المجيد ليس لأنهم يبغضونه، أو لأن ولده لقيط.. فقط لأن حاجتهم إليه بعد اعتزاله ونفاد ماله قد انتهت.

ولكن صفعة موته الآن لأوجههم العارية أعادت لذاكرتهم ماضيه، رأفته، رحمته بهم، بل وصدقاته عليهم بماله و.. و..

وبصوت عنيف أغلق نادر مزلاج البوابة العالية ليسكن قلوبهم اليأس من سماحه لهم بالدخول..

«بُني.. دعنا نقف جوارك أرجوك.. فلا يصح أن تمكث وحيداً في المنزل». قالتها امرأة من خلف الأسوار ووقوفه وحيدًا أمامهم يُثير شفقتها.

«لستُ موجودًا، هكذا تصرفوا كما اعتدتم.. وكأن المنزل لا أحد به»

ببرود نطقها صافعاً كفوف تعاطفهم الممتدة نحوه، وأدار ظهره لهم لتدمع مُقل النساء، فيما تجهمت أوجه الرجال.

هم عذبوا والديْه به، والآن يأتون وكأن لا شيء قد كان؟!

بل وحين رحل والداه أبدوا رحمةً له وتنازلوا لتطأ أقدامهم منزل عبد المجيد؟!

قانون من هذا؟!

قانونهم!

قطعاً.. هو مجرم.. والقوانين لا يخرقها إلا المجرمون مثله..
لذا لن يدخلوا أبداً..

تحرك بخطوات ثابتة دالفاً إلى المنزل ليغيب جسدهُ عنهم، وظلوا لوقت لا يعلمون ما عليهم فعله إلا أن السماء التي ازدادت غيومها مُنذرة بعاصفة عاتية أجبرتهم على جرّ أقدامهم إلى منازلهم..

فيما توسّط نادر صالة المعيشة الملحقة بمنزله ليبقى واقفاً بلا هدف..
شعر بالخواء يحتويه من كل مكان، ما هو عمله التالي بعد دفن والديه؟!

لا شيء..

نزع معطفه ورماه على الأريكة لتقرص البرودة الشديدة جسده..
«تبّـــاً!» نطقها متأففاً فوفاة والدته ستزيد من أعماله المنزلية.
حمل كومة من الحطب وقذف بها في الموقد وأشعلها ليعمّ الدفء في أرجاء المكان.

«نقف جوارك؟!»

كرر كلمة المرأة ساخراً، وهو يحرك قطع الحطب وسط النيران..
فيمَ يحتاجهم؟!

هو لم يعترض على وجودهم للصلاة على والديه وتشييع جنازتهما؛ لأنه فقط يريد لوالديه الخير بإصابة شفاعة الأربعين من المصلين، وقد ينالهما بعض الدعاء من أهل القرية والاستغفار.

ابتسم ببرود.. (لقد استغفل أهل قريته واستغلهم وهم لا يدركون).

شارك جمود عينيه، وركود شعوره، نعاس شديد، فنهض متجهاً إلى حجرته ليفاجئه ذلك الجسد النائم فوق سريره فقطب حاجبيه وكأنه للتو تذكر وجوده.

تأفف بتعب، ودخل ليأخذ لحافه، وعيناه الفاترتان تُحدقان بمغلف الحقنة المجاور لفارس، لقد تكَفَّل بأمره بأن منحه حقنة مُهدئ تُغيِّب عقله وتُسَهِّل عليه القيام بواجبه تجاه والديه.

«لقد قُمتُ بذلك كُله رغم موت والديّ.. فلا تستخفوا بي.. لستُ بحاجة لأحد» ألقاها بحدة وكأنه يُخاطب المرأة، وأهل قريته بالخارج.

خرج من الحجرة ليُبصر الصالة الفارغة..

الأريكة الفارغة..

تجاوزها نحو المطبخ الفارغ ليفتح الثلاجة ويشرب من قارورة المياه وسقطت عيناه على قدر الحساء المكشوف..

هو لا يشعر بالجوع حتى!

غادر المطبخ ماراً بالمائدة التى ارتصت عليها الأطباق والملاعق التي وزعتها جواهر بالأمس والتي لم تُمس.

دخل حجرة والديه فهيَ الوحيدة بها سرير لا يحتاجه أحد..

اقترب منه وعيناه تريان أوشحة العجوز المعلقة وصندوق أعشابها الطبي فوق أحد الرفوف..

جلس على السرير بكل جرأة وكأنه لم يدفن صاحبيه للتو..

وانعكس على عسليتيه مُصحف المُسن وأقراص الدواء الموضوعة فوق المنضدة المجاورة له.

لم يلحظ وهو يستلقي أن بقايا الغبار ما زالت عالقة بيديه وملابسه..

لم يستحم كعادته..

فقط أبقى على جسده ملابس الأمس التي ما زالت رائحة والديه عالقة بها بعد أن حملهما إلى خارج المنزل.

غاص رأسه فوق وسادة والدته وامتدت كفاه لتسحبا وسادة والده اعتنقها بين ذراعيه وتدثر باللحاف..

لم تُوبخه ذاته لتلويث سرير والديه..

ولم تشمئز نفسه منه لإهماله مظهره..

بل هو حتى لا يلوم نفسه لتركه لهما بقبرهما دون أن يرافقهما ولو لساعة واحدة يدعو لهما..

عقله الذي لم تتوقف طاحونته لثانية واحدة عن طحن الأفكار وتمحيصها قد توقف أخيراً..

هو فقط الآن.. لا يشعر.. قلبه خاوٍ من كل المشاعر..

قد يكون هو الآن تحت وطأة أشرس أنواع الاكتئاب.. هو بحاجة لطبيب..

ولكن هو الطبيب!

أغلق عينيه الجافتين من الدمع لتغرق روحه في فراغ..

فراغ من كل شيء..

****

- التاسعة صباحاً -

«ريم.. ريم»

لم تفتح باب حجرتها رغم طرقات والدها وراجح المتواصلة، فمُنذُ ليلة البارحة واكتشافها لحقيقة تلك الحادثة، وهي تُغلق على نفسها، حتى جنازة عبد المجيد وجواهر لم تحضرها..

بل كيف ستمتلك الجرأة لتشييع جنازتهما بعد أن كادت بتفلت لسانها تلوث شرف عبد المجيد؟!

والأسوأ أنها في السنين الماضية ظلت تدخل وتخرج من منزلهما، وهما يستقبلانها بترحيب وود دون أن تُدرك أنها كادت تلطخ سمعتهما..

هيَ الآن أدركت لماذا لم تستطع أن تحظى بغفران نادر؛ فوالداه الخط الأحمر الذي لن يصفح عن أيٍّ كان حين يتعداه..

عاد هاتفها للرنين مجدداً للمرة الثلاثين فأطلقت نفساً طويلاً، ثم فتحته ليصلها صوت أحمد البح المُتعب: «ريم.. أُمي تقول إن نادر طرد أهل القرية.. أتعلمين ما معنى أن يبقى بمفرده بعد موتهما؟!».

«ألن تتوقف عن الاتصال بي؟! لقد أخبرتك.. لا أستطيع الذهاب إليه» بنبرة باكية أجابته.

«لماذا؟! لقد كُنتِ تتباهين دوماً بأنكِ من سيخرجه من حزنه!.. والآن تتخلَّيْن عنه» عاتبها بشدة، وبُعده عن نادر يُجبره على اختيارها هيَ من بين الجميع.

«لو كُنتَ في القرية لما احتاج لأحد»: ردت هيَ الأخرى معاتبة له.

حمل صوته عجزه وحزنه: «نعم أنا لستُ في القرية.. وأنا أطلب منكِ مواساته لأنه الآن بحاجة لأي شخص أيًا كان هذا الشخص.. وأنا أعلم أنكِ دوماً ما تبقين حوله مهما حدث».

وتغيّر صوته: «ولكنكِ تفاجئينني الآن بتركك له وحيداً! ماذا حدث لكِ أنتِ أيضاً؟!».

هل هو قلق بشأنها هيَ أيضاً؟! هل يُظهر الآن بعضَ مودتهم القديمة؟!

ذرفت عيناها الدموع: «أخبرتك لا أستطيع مواجهته».

وأغلقت الخط في وجهه، فلو تابع إلحاحه فقد يتفلت لسانُها وتخبره بما قاله ثابت وعندها قد يكرهها هو الآخر مدى الحياة..

بل كيف سيشعر لو علم أن نادر قد حماه هو الآخر من مصيبة كادت تُدمر سمعته!

ولأنه حزين على موت العجوزين، وقلق على نادر، قررت ألا تُثقل كاهله بشعور أسوأ.. فيكفي ما تشعر هيَ به الآن..

****

- الواحدة ظهراً -

انطفأت نيران الموقد ليغادر الدفء منزل عبد المجيد، وتحلّ فيه برودة تقرص الأجساد.. لا حركة.. لا صوت.. سوى صرير درف الشرفة المتحركة على استحياء بفعل نسمات الهواء المعتدلة السرعة.

أنّة خافتة تحررت من بين شفتيه المنفرجتين بتعب، ليتبعها تحرر جفنيه كاشفين عن زرقاوين ممتلئتين بالخمول والوهن.. سبح وعيه العائد ببطء وسط صور ومشاهد لم يفهم منها شيئًا سوى الشتات.

«نــادر» بهمس ناداه وجسده لا يقوى على الحركة، كحاله حين يُفيق في المستشفى بعد حقنة المُهدئ.

ظلّ لخمس عشرة دقيقة يُعاني برودة الحجرة، وكفه الثقيلة لا تقوى على سحب لحافه ليغطي به نفسه.

نافذته مفتوحة!.. وباب الحجرة مفتوح!.. بل ويسمع من الخارج صوت درف الشرفة!

أين العجوز لتغلقها؟! أو ترمي ببعض حطبها في الموقد لتُدفئهم؟!

عبس بشدة، سينهض بنفسه، ويضع بعض الحطب، حتى لو صرخت به ككُلِّ مرة بأن لا يقترب من الموقد وأنه وظيفتها هيَ..

انتبه فجأة لنومه فوق سرير نادر!.. كيف سمح له نادر بالنوم عليه؟!

حرك عينيه ليرى فراشه على الأرض فارغًا! إذًا نادر لا يرافقه في الحجرة!

تساؤلات كثيرة داهمت عقله المشتت، هل حدث أن سقط ونادر حمله؟!

هل أفاق من وعيه الغائب بمساعدة نادر ليجده يغرس نصل حقنة في ذراعه سريعًا، وقبل أن يفيق بالكامل حتى؟!

بدا له ذلك الواقع وكأنه حلم أو من نسج خياله.

نظر للساعة ليجدها الثانية ظهراً.. مُصيبة!.. ستقتله العجوز فهو لم يجمع البيض، ولم ينظف قفص الدجاج، بل ولم يضع البذور لطيريه قرين ويُلو.

نهض جالساً وقد تحرر جسده إلا من بقايا نعاس وخمول لا يزال عالقًا بعينيه.. هو يكره هذا الدواء المُهدئ فهو يُفقده صفاء عقله ونشاط جسده لوقت طويل.

اتكأ على حافة السرير وتحامل على نفسه ليقف متجهاً إلى الموقد.

وأنجبت شفتاه ابتسامة مُشاكسة، وهو يضع كل الحطب، ثم أشعله لينعم جسده والمنزل بالدفء مجدداً، ثم تحرك إلى الخارج ليجلب قفص طيوره وأغلق أبواب الشرفة.

تلك العجوز تركت الكثير من مهامها على عاتقه.

تأفف، وهو يُغلق جميع النوافذ أسوةً بها، ورأى من خلف الزجاج الشفاف غيومًا سوداء متكدسة، بدت السماء مُظلمة رغم أن الغروب بقي عليه الكثير.

أبصر خلف إحدى أشجار التفاح مقعد المُسن الفارغ.. هاجم قلبه شعور خانق وذكرى الأمس تتهافت على ذاكرته كحبات المسبحة التي انقطع خيطها.. موت برونو.. موتُ المُسن.. بكاؤه عليه.. جمود نادر والعجوز..

وأخيراً موت العجوز..

كيف امتلك هذه القوة رغم آثار المُهدئ؟!

لا يعلم.. ولكنه جرى بجزع إلى حجرتها، فقد رآها ساكنة هناك، ونادر يجلس أرضاً عند سريرها..

سقطت عيناه على ذاك الجسد المسجى تحت اللحاف، فابتسم بفرحة.. هيَ حية! قد يكون ما رآه بالأمس مجرد حُلم!

قرّب كفه ليُبعد اللحاف عن وجهها ليقابله ذاك الوجه الهادئ الساكن الذي لطالما امتلأت عيناه به، واختزنته ذاكرته من بين الجميع.

كان مُغلق العينين ويتنفس ببطء، تقوست شفتا فارس ثوانِيَ، ثم انهار أرضاً.. إذًا فهما قد ماتا حقّاً؟!

سكبت تانك الزرقاوان أنهاراً من الدموع.. هل لهذا لم يُلقِ أحد الحطب في الموقد!!

أو يُغلق الشرفة والنوافذ! بل ولم يوبخ لطول نومه؟!

مشى على ركبتيه مقترباً من نادر كي يوقظه.. سيسأله هل ماتا حقّاً؟!

لم يُرد إجابة بقدر رغبته بوجوده معه الآن ليُهدئ من شعوره المضطرب، بل وتاقت روحه لردوده المعتادة التي تحوّل في ثانية بكاءه لضحك..

مدّ يده وهز كتفه صائحًا: «نـــادر!».

بنبرة باكية تكشف احتياجه الشديد إليه.. ولكنه لم يُجبه رغم عنف هزته، فقط أغلق عينيه بقوة وكأن نداء فارس يُزعجه.

وازداد حزن فارس وبكاؤه لتلتقط أذناه فجأة ذلك الأنين الخافت الصادر من بين شفتي نادر، صوت لم يسمع مثله يصدر عن نادر من قبل.

تجمدت دموعه وغزا الشحوب وجهه بالكامل، وهو يصعد على السرير هازّاً له بقلق: «نادر.. أنت بخير؟!».

مجدداً لم يُجبه وتقلصات وجهه المُتعب تعكس ألماً كبيراً..

«نادر!» صاح وقلقه عليه ينتصر على باقي مشاعره، ومد كفه لتلامس وجهه المتألم ليحسَّ باطن كفه بحرارة جسده المشتعلة.

«حُمى.. حُمى» تمتم بها مفزوعاً وكل مشاعره الحزينة تُنحى ليحتلها نادر فقط.

قفز من على السرير، وركض إلى المطبخ، وضربت قدماه بتتابع أرضيته..

«ماء بارد.. منشفة.. بارد.. ثلج.. منشفة» ظل يكررها بجَزَع، وعيناه تبحثان عن إناء في أدراج المطبخ ورأى واحدًا، أخذه، ثم ملأه بماء بارد، وأسقط فيه قطعًا من الثلج، وسحب منشفة على طريقه ليعود راكضاً نحوه.

جلس جواره، ووضع المنشفة المبتلة على جبينه الممتلئ بعرقه، وظل مثبتاً لها بكفه رغم تعبير الانزعاج الذي أظهره وجه نادر.

انتقل من جبينه إلى ذراعيه، مسحهما بالمنشفة كما فعل نادر معه حين أُصيب بالحمى في المستشفى، بل ولو كان يملك قوة لحمله ووضعه في حوض استحمام..

ولكن هذا المنزل القديم لا يحوي حوض استحمام!

ظل ينقل منشفته المبللة الباردة من جزء لآخر، ولكن تلك السخونة لا تنخفض أبداً.

ابتلع ريقه بهلع، وسحب اللحاف من فوقه: «نادر.. أنت لست بخير.. انهض.. يجب أن تفعل شيئاً.. حرارتك تزداد».

جاوبه أنين توجع أعلى جعل وجهه يعلوه فزع أشد، وكفَّا نادر تنتقلان إلى معدته ليعتصرها بشدة..

بل وتكوّم أكثر على نفسه مسقطاً المنشفة من على جبينه..

اصفرّ وجه فارس، وتانك القوة والصلابة اللتان اعتادهما منه تتحولان إلى هذا الشكل من الضعف والعجز..

وقفزت فكرة مخيفة لرأسه.. هل نادر هو الآخر سيموت مثل العجوزين؟!

تلك الفكرة وحدها جعلته يثب كالمجنون تاركاً نادر خلفه، ليخرج من المنزل سيحضر له الإسعاف.. كلا.. بل سيصرخ على أهل القرية ليساعدوه رغم سوئهم.. وقد يطرق باب منزل أسرة ثابت ويتوسل لإخوته أن يعالجوه، أن يحرروه من ألمه..

أن ينقذوه وكفى..

داست قدماه الحافيتان أرض حقل التفاح ووصل لبوابته ليفتحها..

(فارس إن خرجت من المنزل ورآك أحد فسأُسجن مجدداً)..

تصلبت كفَّاه الممتدتان نحو المزلاج وهو يذكر تحذير نادر له، تحرك

في موقعه بجنون، بكى بصوتٍ عالٍ والعجز يغرقه دون أن يعلم ما يفعل..

لا يُريده أن يُسجن.. أن يموت مثل أمجد!.. أن تزداد ندبات جسده المؤلمة!

ولا يريده أن يموت أيضاً من المرض؟!

عاد راكضاً إلى المنزل وقد تذكر فجأة هاتفه.. سيتصل بأحمد مثل تلك المرة وهو سينقذه بالتأكيد..

انعكس الأمل بالعينين الزرقاوين، وهو يأخذ هاتفه ليجد ثلاثة وخمسين اتصالًا من أحمد..

ابتسم بحماس، وهو يضغط رقمه و.. رصيد هاتفه فارغ!

كره نفسه لإسرافه، وتمنى لو أن نادر ضرب رأسه بشدة، بدلاً من فقدانه للرصيد في هذه اللحظة الحرجة.

تذكر فجأة هاتف نادر فاتسعت شفتاه بسعادة، قلَّب عينيه فيما حوله فرأى معطفه المرمي فأخرجه منه و.. البطارية فارغة.

كان ذلك أكثر مما احتمله عقله الذي لهث بحثًا عن حلول عدة!

شعر بساقيه تتخاذلان عن حمله..

هل سيتركه يموت كما ماتت أخته؟!

هل هو دوماً عديم الفائدة؟!

فكرة أخيرة صغيرة، وعاجزة، قفزت لرأسه فعاد للحجرة ليتمسك بذراع نادر الضاغطة على معدته، وصرخ بقوة: «نادر!.. أفق أرجوك.. أخبرني ماذا أفعل.. أنا لا أعرف ماذا أفعل.. أنت مريض».

هزه المجنون لذراع نادر نجح بطريقةٍ ما في إيقاظ جزء من وعي نادر ليفاجئه بانتزاعه لذراعه بعنف من بين كفيه، بل وانكمش أكثر على نفسه ووجود فارس يضايقه..

«اخرج!» نطقها بحدة لتُصدم تانك العينان القلقتان عليه، ورغم ذلك بقي في موقعه متجاهلاً طرده له، وكفه تمتد ليأخذ المنشفة مجدداً، ويبللها ووضعها على جبينه.

«سحقًا!» صرخ بها، وعيناه تُفتحان، راميًا المنشفة على امتداد يده وقد أزعجته برودة مائها.

أجفل فارس بقوة، ونطق بقلق: «أنت مريض».

تحامل نادر على نفسه ليهتف، وهو يحدق به بعسليتين كساهما الوهن، وحبات العرق تلتمع على وجهه، بل وخصلات شعره الكستنائية التصقت بجبينه المشتعل: «إذًا؟!».

«عليك أن تتلقى العلاج».

«لقد اخترتُ البقاء هنا مبتعداً عن إزعاجك فلحقت بي.. عُد إلى حجرتك».

«لا» بكل حزم نطقها، وهو ينهض ليأخذ المنشفة مجدداً، مردفاً: «إن لم تتلقَّ العلاج فستموت».

«دعني أمتْ إذًا!» رماها ببرود، وكفه تسحب اللحاف ليغطي به نفسه متجاهلاً ذاك المتجمد صدمةً، وعقله لا يستوعب ما نطق به..

(كيف له أن يتحدث عن موته وكأنه شيء لا قيمة له؟!)

تحوّل كل ذاك الحزن والقلق لغضب عنيف: «لا.. لا تمت!».

صرخته العنيفة جعلت نادر يتأوه عالياً وصداع قوي يتفجر نابضاً على جانبي جبينه، فرفع كفه ليضغط على رأسه، فيما امتقع وجه فارس وعاد نحوه هامسًا بندم: «أسف.. أسف.. أسف.. لم أقصد.. أنا أسف».

ظل يكررها قبل أن يتحول صوته لبكاء عالٍ: «فقط لا تمت.. أرجوك!».

فحتى لو مات الجميع فهو لن يحتمل أن يُصدم قلبه بموت نادر..

فيما بدا ذاك الوهن يعود مجدداً إلى مقلتي نادر وهما تُغلقان..

أراد النوم؛ فهو الوحيد القادر على تغييب وعيه عن حقيقة لا يريد مواجهتها، ولكن تلك الوخزات المتفجرة في معدته ما بين حين وآخر لم تُرحه..

بل وجسده يثقل ويثقل..

الحمى هيَ الوحيدة الجيدة فقد أرسلت خدراً لطيفاً لكل جسده..

بل وشتتت صفاء عقله لينعم بهذيان جميل لم يعكره إلا صوت فارس الذي هتف مجدداً بفزع، وهو يرى خمول عينيه: «نادر.. نادر!».

«سحقاً!» بالكاد أخرجها، وحرك عسليتيه نحو تينك الزرقاوين: «لقد أغلقتُ الباب أمام المئات ونسيتُ أمرك.. تباً!.. ليتني لم أجلبك من المستشفى إلى هنا».

لو اجتمع أذى العالم بأكمله لم يكن ليُعادل أذى تلك الكلمات الأخيرة التي هشمت قلب فارس ونثرته لأجزاء صغيرة متفرقة..

لو كان هناك معنًى لكسر القلب فهو هنا..

نُشرت الكآبة لتغلف وجهه المتجمد وساقاه تنزلان من فوق السرير..

جرّ خطواته ليشغل بجسده إحدى زوايا الحجرة حاشراً جسده بها..

جفّ دمعهُ وتلك الكلمات تعبث بمشاعره فآخر من توقع قلبه أن يجرحه هو نادر..

ومن أسفل اللحاف راقبته تانك العسليتان لثوانٍ وجفناهما يضيقان ولم تلبثا أن أُغلقتا بالكامل لتُغيّب الحمى وعيه تحت رحمتها..

كم مر من الوقت؟!.. من الساعات؟!.. لا يعلم.. ولكن مجدداً ها هو يشعر بتلك المنشفة الباردة تمسح جبينه، وجهه، ذراعيه، بل وواحدة أسفل رقبته واثنتان باردتان أحاطتا بقدميه باعثتين وخزًا مزعجًا في جسده.

فتح عينيه مجدداً فرأى فارس قد ترك زاويته ليخفف حُماه وكأن قلقه عليه قد تغلب على جُرح قلبه، بل ولسانه ينطق ببكاء: «إن كان هناك من يستحق أن يموت فهو ليس أنت».

همسهُ الكئيب والحزين كان كدبوس غُرس ببطء في قلب نادر..

بل واشتم أنفه شيئًا محترقًا فحرك رأسه فرأى طبقًا فوقه كومة من رماد محترق.. هل هو بيض؟!

هل طبخ له؟!

بل وسمع مع توسلاته له بأن لا يموت أنين تألمه، فانتبه لاحمرار شديد على طول ذراعه..

هل أحرق يده وهو يطبخُ له؟!

بل هو يشعر بين شفتيه بمذاق تلك الكومة المحترقة.. هل تجرأ وحاول إطعامه؟!

هو لا يُبغضه ولا يكرهه بما قاله له سابقاً.. بل ولم يقصد كسر قلبه..

هو فقط لا يشعر بأي رغبة في العيش..

«فارس» بالكاد نطقتها شفتاه ليلتفت نحوه وقد شعّت عيناه بالحماس لإفاقته.

«أُريد ماء».

«حسناً» بابتسامة سعيدة أجاب وهو ينزل راكضاً نحو المطبخ ولم يفعل كنادر بالحرص على جعل الماء دافئًا، فقط أخذ أقربها ليده وعاد راكضاً نحوه ليجد باب الحجرة مُغلقًا.

«نـــادر!» ردد مراراً وتكراراً ويده تطرق الباب.

«لقد جلبتُ لك الماء».

ولكنه تجاهله، وهو يتكئ على الحائط بعد أن أغلق الباب ليرمي بنفسه على السرير مجدداً..

تخلص منه أخيراً..

كان عليه أن يفعل ذلك مسبقاً..

كما فعلت والدته..

فقط تذكره لوالدته جعله ينظر ليرى كل ما يحيط به من بقاياها..

فسحب اللحاف وعاودته تلك الآلام أعنف من السابق..

جسده يتألم كما لو أنه سقط من طابق عالٍ.. نعم العقل قد يكذب مدّعياً القوة، ولكن الجسد لا يستطيع.

وفي الخارج ظل فارس يطرق بابه، وأصابعه تُعانق قارورة الماء، وشفتاه تتوسلان له أن يفتح له قبل أن يموت تحت وقع تلك الحمى القوية.

«أعدك لن أتحدث أبداً.. فقط دعني أجلس عندك» صرخ بإلحاح، وهذا المنزل الواسع يلتهمه بفراغه.

عادت الدموع تغشى عينيه حين رأى عصا العجوز.. لو كانت هنا فستضربه بها بالتأكيد، بل وستعالجه رغمًا عنه بأعشابها الطبية.

وارتفع رنين هاتفه..

ارتفع ليعود الأمل معانقاً قلبه فركض نحوه ليصدُقَ تخمينه.. إنه أحمد.. بل وبمكالمة فيديو.

بكى قبل أن يرد على اتصاله حتى، فيما قابلته عينا أحمد المحمرتان هو الآخر، بل ووجهه شاحب كما لو أنه لم يذق طعاماً أو شراباً مُنذُ وقت.

لم ينتبه فارس لذلك كله، وبكاؤه يحجب كلماته عن فهم أحمد الذي اغتصب ابتسامة من أعماقه الحزينة ليقول:

- أعلم.. أعلم موتهما قاسٍ ليس عليك وحدك، بل عليَّ أنا أيضاً وعلى ريم و.. نادر.

أراد السؤال عن نادر بعد استفتاحته تلك علّ فارس يهدأ، ولكن عيني فارس المتسعتين فجأة نبأتاه بخطئه، بل وراح فارس يسأله:

- إذًا.. فقد ماتت جدتي أيضًا؟

غطت عينيْ أحمد صدمة كبيرة، وتانك الشفتان تعودان للارتجاف، فقال بندم: «أنا أسف لم أكن أظن».

واتسعت عيناه فجأة، ليستدرك بخوف: «ولكن ألم يُخبرك نادر بذلك؟!».

فقط ذكره لنادر جعل فارس يصيح به كالمستنجد: «أحمد.. نادر.. نادر.. مريض جداً ويتأوه بقوة ولديه حُمى وأغلق باب الحجرة على نفسه».

فقط كلمة (مريض) جعلت عينيْ أحمد تحمَرّان أكثر وأكثر.. أن تكون بعيدًا كل هذا البعد، وعاجزًا أيضًا عن مساعدة أقرب صديق لك، ذلك أشعره بأنه عديم فائدة بالكامل..

هو فوّت حتى جنازة عبد المجيد وجواهر.. ليس وكأنهما لا يُهمانه.. بل كل هذا البكاء الذي بكاه كان من أجلهما، من أجل من استقبلاه بمنزلهما لسنواتٍ عدة..

ولكن..

هو يُدرك الآن أن نادر من بقي.. والوقت ليس مناسبًا لحزنه عليهما لذا..

«فارس» بهدوء ورفق قالها لينتبه فارس من بكائه..

«نعم لقد مات عبد المجيد وجواهر»

رأى احمرارًا أشد يغزو بياض عيني فارس فتابع: «الحمد لله».

اتسعت عينا فارس مصدوماً فالحمد لله لا تُذكر إلا للنعمة، فيما زينت وجه أحمد ابتسامة متأثرة: «لقد ماتا معاً بعد أن عاشا معاً لوقت طويل وهما يُحبان بعضهما بعضًا».

وملأ وجهه الرضا مُردفاً: «ليس وكأننا لن نموت نحن أيضاً ثم نلتقي بهما».

كلام غريب! لم يسمع مثله من قبل، هو يعلم أنه سيموت يوماً ما، ولكن!

«هل تأذيا قبل أن يموتا؟!»: سأله أحمد برفق.

«لا».

«إذًا الحمد لله فقد ماتا موتة طبيعية».

حديثه غير المألوف تسلل إلى قلب فارس مانحاً له ارتياحًا غريبًا وأردف بلطف: «هل كانا غاضبين منك قبل أن يموتا؟!»

«لا.. بل وعاملاني جيداً».

«رائع.. لا أفضل من ذلك.. ولكني بعيد جداً، تمنيتُ لو أني معكما حظيت برؤيتهما قبل موتهما».

نقطة لمصلحة فارس شعر بها لتتوقف الدموع بعينيه، بل وابتسامة راضية راحت تقاتل لتقفز إلى شفتيه..

«فارس.. من مات ذهب إلى الله وهو أرحم به منا وألطف.. فلا تكن جازعاً وكأنه انتقل لمكان أسوأ».

تجمّدت ملامحه ثوانيَ، ثم هتف بحزن: «ولكن أنا أفتقد جدتي».

«بالتأكيد ستفتقدها.. غير الطبيعي هو ألا تفتقدها.. لقد بكيت ويمكنك الآن أن تبكي أيضاً».

عادت الدموع لتخطّ على وجنتيه، فيما سأله أحمد: «هل أحببتها؟!».

«كثيراً.. هيَ طيبة جدّاً» وراح يقصُّ عليه ما حدث مُنذُ وفاة المُسن وحتى لحظة إغلاق نادر للباب، وبكاؤه يتخلل كلماته مخرجًا كل حزنه وصدمته إلى أحمد الذي أنصت دون أن يقاطعه.

«أتشعر الآن أنك بخير بعد أن تحدثت؟» سأله أحمد لتنتصر تلك الابتسامة أخيرًا: «نعم».

«إذًا افعل ذلك مع نادر».

بلهجة راجية قالها، وكأن هذا ما يهدف إليه مُنذُ اتصاله به.. نادر فقط..

وقف فارس حاملاً الهاتف، وذلك الباب لا يزال موصدًا فقال: «ولكنه يُغلق الباب.. وأنا لا أُجيد قول ما قلته».

«هو يُغلق الباب لأنه لا يُريد أن يتحدث عن والديه.. لا يُريد أن يعترف بموتهما».

«سيتألم إن تحدث عنهما».

«بل سيرتاح.. ألم تقل لي بالأمس إنك حين تحدثت معه عن أختك ارتحت؟».

هو لا يُذكِّره إلا بما فعله نادر من أجله، بماضيه معه، خدماته التي لا تُعد، ولكن: «أنا لستُ مثل نادر».

«ألم يقل عنك إنك لم تعد مريضًا؟! بل وصلب وقوي ولديك قوة تحمل عالية؟».

«بلى».

«نادر لا يكذب».

«ولكنه قال: ليته لم يجلبني من المستشفى.. لا بد أني كُنتُ سيئاً معه».

ألقاها بحزن عميق ونبرة نقلت إليه كآبته.. لتتسع عينا أحمد مفكراً.. (نادر ليس بخير بالتأكيد).. فهو يستحيل أن يقول مثل هذا الكلام الجارح له بعد أن سعى لعلاجه كل ذاك الوقت.

«فارس.. هل ستأخذ بكلماته وهو مُصاب بالحمى؟!»

تصلبت ملامح فارس بغير فهم، فيما استعار أحمد أسلوب نادر ليكمل: «ألم تعلم أن المُصاب بالحمى يقول كلمات لا يعنيها، بل يعاكسها أحيانًا؟!».

انفرجت شفتا فارس بصدمة وعقله يعكس العبارة لتُشع زرقاواه ببلاهة وبهجة.. فيما انتبه أحمد لتهلل وجهه فرجاه بقلب ملتاع: «نادر بحاجة إليك.. ساعده أرجوك!».

كلماته شعر بها تُغير شيئًا في أعماقه، تُحمله المسئولية، بل وتجعله يكبر عن عمره عشر مرات.. فطرق الخوف قلبه: «ولكن قد أفشل».

«إن فشلت فسيتأذى نادر.. سيبقى ذلك الألم حبيس صدره.. إن لم يفرغه الآن فهو لن يتحدث لاحقًا أبدًا.. وقد تبقى جرحًا في قلبه يعاف معه الحياة أو قد لا يتجاوزها أبداً و..»

«ويموت مثل جدتي».

بفزع صاح فارس، وهو يذكر جواهر الساكنة على السرير بعد أن تلقت خبر موت زوجها.. بل ونادر الآن يحتلُّ سريرها، والأسوأ أنه قال بأنه لا مشكلة معه بأن يموت..

امتقع وجهه، وعاد يطرق الباب صارخاً باسم نادر، ولكن صوت أحمد المشفق اجتذبه مجدداً: «فارس.. لا تفزع».

«كيف لا أفزع.. أخبرني.. ماذا عليّ أن أفعل؟!»

تانك الزرقاوان الجادتان عكستا حبًا عميقًا، هلعًا لا حدود له، عدم تحمل لفقد جديد قد يكون في شخص نادر..

نسيَ العجوزين تماماً..

ابتسم أحمد ابتسامته الدافئة وقال: «أتظن الله وضعك معه في هذه اللحظة الحرجة دون حكمة؟!.. حُبست معه في منزلٍ واحد وأنا

بعيد عنه لأميال عدة.. أتظن ذلك دون هدف؟!.. بل وجميع خطوط الطيران مُغلقة بسبب العاصفة».

وتهدج صوته: «ولم أجد رحلة سفر إلا بعد ثلاثة أيام».

سكن كُلُّ ذلك الاضطراب ليعلو وجه فارس الهدوء والسكينة فيما تابع أحمد: «لقد تم اختيارك أنت لتكون معه».

جفّت دموعه هذه المرة تماماً، فيما أضاف أحمد: «لم يكن الله ليكلفك فوق طاقتك باختياره لك معه.. وأنت أكثر من عانيت من الفقد لتدرك الآن قدر حاجته إليك كما احتجته أنت من قبل».

ألقى هذا الحمل الثقيل بالكامل على كتفي فارس..

أحمد يدرك أنه يُثقل عليه.. ولكنه يعلم أشياء لا يعلمها فارس.. نادر فقد وظيفته.. عائلته.. لم يعد يملك شيئًا.. ولن يوظف أحد خريج سجون مثله..

قد يتملكه اليأس والحزن ويكرر ما فعله في السجن الانفرادي فها هو يعزل نفسه في حجرة والديه منفرداً بحزنه..

«ماذا أفعل؟!» سأله فارس وقد تهيأت نفسه بالكامل وعيناه تعكسان تصميماً قويّاً..

صمت أحمد، أراد أن يعطيه حلًّا، ولكن هو حقاً لا يعلم فلفظ بعجز: «افعل ما تُجيده».

وهزّ كتفيه بقلة حيلة لتصدمه تلك الابتسامة من فارس، وهو يسأله: «هل عليّ فقط إخراجه وجعله يتكلم؟!».

«نعم» أجاب أحمد وتلك الثقة الغريبة تبعث شيئًا من القلق في نفسه.. وكأنه يُحدث نادر نفسه..

«حسناً» رد فارس ليبتسم أحمد شاكراً استجابته، وأراد إخباره أنه سيتصل بعد ساعة ليطمئن عليهما، ولكن فارس أغلق الخط في وجهه..

فقط ما الذي فكّر به ليكون بكل هذا الحماس والثقة؟!

****

(١٧) لن يعودا..

-٦ مساءً-

«هل أنا واقع في مشكلة؟!»

تأفف الشاب، وعيناه تحدقان بشارة الشرطة التي أبرزها له نواف، فيما أغلق أكرم باب السيارة على مايا، وثبته بجسده كيْ يمنعها من النزول، ووجهه يعكس ارتباكه.

«أما زلتَ مُصرّاً على أن العنوان مُزيف؟!»

سأله نواف، ولكنه أمال رأسه ينظر لمايا التي عكس وجهها غضبًا عنيفًا، فيما اندست كفها في جيب جاكيتها لتخرج مفكرة سوداء صغيرة راحت تخربش فوقها بقلمها الذهبي اللامع.

«تلك الحُلوة.. لمَ تقول إنها سترفع عليّ قضية؟!.. أنا لا أكذب.. هذا ليس منزل الشاب نادر عبد المجيد، هو منزلنا قبل أن أولد، أي مُنذُ سبعين عامًا»

قال، وما زالت عيناه تشردان في تفاصيل وجهها، فاتجهت عيناها نحوه بحدة، مستنكرة كيف عرف أن نادر شاب!

أغلق نواف الطريق أمام عينيه مردداً بحدة:

«دعك منها.. أنا هو صاحب الأمر هنا وليس هيَ.. نريد تفتيش منزلك».

حسناً.. كان ذلك فوق احتمال الشاب فوقف حاجزاً أمام باب

الدخول، قائلاً بحدة: «ليس لأنك شرطي سأسمح لك.. هل تملك أمرًا بالتفتيش؟!».

أطبق نواف شفتيه بقهر، فيما رمى أكرم بنظراته بعيداً، ليُدرك الشاب أنهما يخدعانه ليس إلا فقال بتذمر: «من هذا الرجل الذي تبحثون عنه؟! يبدو مهمًا للغاية». وابتسم ابتسامة لم تُرح الجميع ليزداد شكهم فيه ألف مرة.

وفجأة تحول إلى ساخط بصورة أغرب: «إذا كان مطلوبًا للشرطة فهل تظنونه يختبئ في عنوان المنزل الذي زيفه بنفسه؟!».

هنا، أُخرس نواف وأكرم أمام كلامه المنطقي، وصدقا قوله بأن العنوان مُزيف، ولكن من سيُقنع تلك النمرة المحتجزة في السيارة، والتي تكاد تفقد أعصابها، وتدفع الرجل كي تبحث عن أخيها في منزله؟

«إنها المرةُ الثانية التي يأتي لمنزلنا أشخاص يسألون عنه» هتف بلا مبالاة.

(المرة الثانية!).. شدت انتباه مايا لتتجمد ثوانِيَ، ثم رفعت صوتها من النافذة المفتوحة: «هل هناك أحد آخر سأل عنه أيضاً؟!».

عبارتها حملت رعبها خشية أن يصل رجال الشرطة إلى فارس قبلها، إلا أن الشاب أجابها بلطف: «رجل من العاصمة بحث عنه.. يقول إنه قد يهمه عقد صفقة معه» وهز كتفيه: «تكلم بكثير من الهراء لم أفهم منه شيئًا».

دفعت مايا باب السيارة بقوة، ليندفع جسد أكرم حتى كاد يقع أرضاً، ولم تهتم إطلاقاً به وعيناها تعكسان فجأة نظرة حزينة حالمة

ووقفت أمام الشاب: «هل.. هل أنت حقّاً لا تعرف نادر هذا؟! وعنوانه مُزيف؟!».

نظرتها الحزينة الساحرة أرجفت قلب الشاب، فحك قفا رأسه: «إنه يكذب وإلا لكُنتُ ما ترددتُ لحظة في إخبارك».

«حقّاً؟!»

«نعم يا آنسة.. فقط ماذا فعل ليجعلكِ بهذا الحزن؟!» وأطبق شفتيه بقوة أمام نظرتها البائسة.

«هو قد اختطف أخي وأنا أريـ..»

واستدارت للخلف تُخبئ عينيها اللتين تكادان تبكِيان شعورها بالذل والإهانة لادعائها الانكسار أمامه.

فيما صُعق أكرم ونواف ظنّاً منهما أنها تبكي، وارتبك الشاب بشدة، فأسرع أكرم يربت على كتفها محاولاً مواساتها، وقبل أن يلمسها انتفض الجميع بفزع حين استدارت بقوة، شامخة برأسها، تنظر بنظرة فوقية لذاك الشاب، وهي تشتمه: «وغد عديم الفائدة!»

ثم بصقت إلى جواره، وعادت لتركب السيارة.

والتفتت للاثنين المتصلبين: «ماذا؟! هل تنتظران واجب الضيافة؟!.. تحركا».

أفاقا من صدمتهما فأسرعا ينفذان أمرها، فيما تراجع الشاب ليغلق بابه خوفاً، وعقله لا يتساءل إلا عن ماذا سجلت في مفكرتها السرية عنه، واتجه على الفور إلى هاتفه.

احتلّ نواف وأكرم المقعدين الأماميين، ليسأل نواف ولا يزال مدهوشاً منها: «إلى أين؟!».

صمتت للحظة قبل أن تُخرج ورقتها: «إلى قرية السنابل».

اتسعت عينا أكرم: «هل جُننتِ؟! هيَ تبعد سبع مئة كيلو متر.. سيكون مضيعة للوقت ما دمنا نتبع شكًّا ليس إلا».

صمتت وأغمضت عينيها دون رد.. ويدها تعتصر ذاك البلاغ، وارتفع رنين هاتفها فجأة لتلتقطه بسرعة: «هاه.. عم سامي أخبرني!».

أتاها صوته ذاهلاً: «كما ظننتِ تماماً.. الجريمة التي ارتكبها في حق زميله كانت في قرية السنابل».

صرخت بقوة مظهرة سعادتها ليغطي أكرم ونواف آذانهما، أما سامي فقد أُصيب بالصمم بالتأكيد..

«الآن تيقنت!»

وقصّت لهما ما قاله سامي، فسأل نواف بحيرة: «نحن لن نطرق منازل تلك القرية سائلين عنه أليس كذلك؟!».

قطبت حاجبيها الرقيقين.. نعم.. ما ينقصهم فقط هو عنوان منزله.. صحيح هيَ مُحامية لذلك انتبهت إلى أنه لا بد وأن يكون لأيُ مجرم موقع لجريمته، ولكن بالتأكيد المدرسة التي ارتكب فيها جريمته ليست منزله.

«مايا» أتاها صوت سامي الذي بدا وكأنه قد استعاد سمعه مجدداً وهو يردف: «سعد يريد التحدث معك».

ومرر الهاتف لسعد الذي حيّاها أولاً، ثم أخبرها بانزعاج: «هناك فتًى مُزعج اسمه طارق من قرية السنابل يُصِرُّ أنه رأى الفتى المطلوب في المنزل المقابل لهم.. وقال إن ذلك المنزل يملكه نادر عبد المجيد.. فهل أمنحه رقم هاتفك؟!».

ارتخت عيناها بتفاجؤ.. هل تبكي سعادةً لقوله إنه رأى الفتى بخير؟! أم تصرخ بهجةً لحصولها على العنوان! أم تغضب وتقلق لأنها تيقنت أن أخاها في منزل ذاك المجرم؟!

كُلُّ تلك المشاعر نحتها جانباً: «أعطه إياه وإن صدق فالمليونان من نصيبه».

«حسناً» قال سعد بطاعة، وأغلق الخط فيما سألت نواف بحدة: «متى سنصل لهذه القرية؟!».

نظر لساعته: «إنها السادسة والنصف مساءً.. إن تابعنا بحذر دون استراحة ومع هذه الأجواء المتقلبة فقد نصل في صباح الغد».

«إذًا لا تتوقف!» قالتها، ليحزم الاثنان أمرهما ويتجها إلى قرية السنابل، فيما خالط فرحتها شيء من القلق باقترابها..

فهل من تسعى إليه هو أخوها فارس حقّاً؟!

****

- ٦:٣٠. مساءً -

في العاصمة، داخل شاحنة كبيرة امتلأ حوضها الخلفي بعدد كبير من أسطوانات الغاز، ظل زيد وتميم وحاتم محشورين بمقعدها الأمامي يراقبون منزل أكرم.

زاد تأفف حاتم أضعافاً مضاعفة، وزيد يُمسك منظاره ليُحدق بباب المنزل مُحللاً ما يراه: «ليومين بقينا هنا.. لا يخرج من هذا المنزل إلا مُسنّة! ولكني متيقن أن موقع عنوان الـ IP هنا.. فلِمَ لا تخرج تلك المايا؟!».

«شابة تعرض مليوني دولار من أجل فتًى مختل لا حاجة لها بالتأكيد للخروج.. فالمال هو من يأتيها وليست هيَ من تذهب إليه» ردَّ حاتم وقد بلغ صبره أقصاه.

فيما حنى تميم رأسه على المقود، وقد تلاعب النوم بعينيه: «لا تنسيا: هناك بائع الحليب وموصل البيتزا يمران على منزلها».

حدق به الاثنان بسخط.. ما نوع هذه المعلومة الغبية؟! وفيمَ تخدمهما؟!

ابتلع لسانه وقرر النوم فهو أسلم له من سخريتهما، ولكن خرج فجأة رجلان من المنزل، فأسرع تميم يُخبئ وجهه بطرف قبعته، فيما أسقط زيد منظاره للأسفل، وحاتم وحده من دفع باب السيارة، وقفز من فوق زيد ليخرج.

شحب وجه تميم وزيد، فيما تحرك حاتم ليقف أمام الاثنين: «لدينا أسطوانات للغاز ممتلئة.. هل أنتم من اتصل بنا؟!».

صمت الاثنان، ونظرا باتجاه الشاحنة ليفرّ اللون من وجهي تميم وزيد.. ولم يسمع حاتم شتم زيد البذيء له.

ثم أعاد أحد الرجلين نظره لصاحبه سائلاً: «هل أنت أكرم هي من طلبتها؟!».

«لا أظن.. فأكرم لم يكن ليتركها ويغادر مع مايا دون أن يؤمن ذلك لها» أجابه سعد، ومدّ ذراعيه للأعلى دليل تعبه، وتجاوزه بمشيه مضيفاً: «سامي.. سنحظى بالنوم أخيراً بعد انتهاء مهمتنا».

ابتسم سامي بدوره، وهو يتبعه بالمشي تاركين حاتم خلفهما والذي تصلّب كالتمثال.. ولم يلبث أن عاد راكضاً نحو الاثنين اللذين استقبلاه بشتائمهما فسألهما بذعر: «هل توقف الـ IP عن العمل؟!».

سؤاله دفع زيد لينظر إلى لابتوبه المفتوح فصاح بصدمة: «نعم».

«هذان الاثنان من كانا يستخدمانه، بل وقالا إن مهمتهما قد انتهت.. مالنا!.. المليونان ذهبا لغيرنا» أخرج كلماته الأخيرة بنواح.

اتسعت عينا زيد: «مستحيل.. هو مع نادر فمن سيُسلمه لها غيره؟! بل وكيف سيعرفان موقعه؟».

«لا أعلم» تمتم حاتم، وقفزت لرأسه فجأة عبارة سامي..: (إن زوج تلك المسنة مع مايا).

عكست عيناه نظرة خبيثة، ووقف أمام مرآة السيارة ليرتب شعره، وأنزل بعض الخصلات لتُزين جبهته، ورتب قميصه، ثم..

«تبًّا لا.. سَتُفسد عملنا بالكامل».

صرخ زيد، وهو يفتح باب السيارة ليلحق به، ولكن حاتم تجاهله تماماً، وركض إلى منزل أكرم ثم طرق بابه لتفتح له المُسنة..

«يا آنسة.. هل أكرم موجود؟!».

تلفتت المرأة حولها باحثة عن آنسته تلك، فيما خفض عينيه للأسفل

قائلاً بخجل مفتعل: «أنا صديق أكرم.. ولكن لم يخبرني أن له ابنة جميلة».

هو يقصدها بالفعل.. ذُهلت المرأة وابتسمت بدلال، بينما حك حاتم أنفه: «الجو بارد هل من الممكن أن أحظى بكوب دافئ.. إن لم تمانعي طبعاً يا آنسة؟».

فتحت له الباب على مصراعيه: «ضيوف أكرم هم ضيوفي»

فغر الاثنان بالخلف أفواههما، وقد بلغت نبضات قلبيهما أقصاها.. فقط ما الذي يفكر به هذا المجنون؟!

وفي الداخل شرب حاتم كوبه الذي دفأه حقّاً، وألقى مديحًا مبالغًا فيه للمرأة التي شاركته الشرب، وقلبها يسب زوجها الذي لم يمنحها مثل هذه الكلمات الجميلة.

«ولكن أين أكرم؟!» سألها وسط حديثهما لتُجيبه برفق: «هو مع ابنة صديقه رحمه الله، ذهب للبحث عن أخيها في مدينة في الجنوب على ما أظن».

اتسعت عيناه، إذًا فقد غادرت العاصمة، يجب أن يجعلها تلتقي بنادر بأيّ طريقة كي يحصل على المليوني دولار فقال: «أردتُ فقط أن أفاجئه بقدومي، لا بأس، سأعود مجدداً، ولكن هل لك أن تسأليه عن موعد عودته حتى أُحدد اليوم الذي سألتقيه به؟ ولا أظن امرأة بجمالك قد تُفشي سر قدومي إليه حتى أحظى بمفاجأته [illegible]

ضحكت ببلاهة، والتقطت هاتفها لتتصل به [illegible] الذي أصغى لحديثها، ولم تكد تنتهي حتى [illegible]

إلى قرية السنابل وقد يصلون إليها غداً صباحاً وإذا ما وجدوا بغيتهم فسيعودون مباشرة».

وفكَّرَت لبعض الوقت: «قد تأخذ منهم العودة إلى هنا أربعة أو ثلاثة أيام».

ابتسم حاتم لها، وحفظ توازنه بصعوبة، وهو يمنحها نظرة مسحورة: «ماذا فعل أكرم ليستحق امرأة جميلة مثلك؟!».

ضحكت سروراً، وأكَّدَت عليه أن يزورهم مجدداً، ولم يكد يخرج من منزلها حتى هرع للاثنين صارخاً بانفعال: «اتصلا بنادر وأخبراه.. تلك المايا في طريقها إليه».

لم يخرج زيد وتميم من صدمتهما بعد مما فعله، ولكن صراخه ذاك جعل زيد يُسرع لالتقاط هاتفه ويتصل بنادر.. مرة، مرتين.. وخمسًا.. وثلاثين، ولكن لم يحظَ أحد منهم بأي رد منه.

****

- السابعة مساءً -

لم يعش حياته إلا مقيد القدمين في عصاتين متوازيتين، رسمتا له بينهما خطًّا لا يُسمح له بتجاوزه..

ولكن أن تُكسرا فجأة، العصاتين، كلتاهما، وفي آن واحد، ماحيتين خلفهما ذلك الخط الرفيع، ليجد نفسه تائهًا وسط صحراء مترامية الأطراف، وكأن ليس فوقها أحد غيره..

لقد هُجر..

بقي نادر من الثامنة صباحاً، وإلى السابعة مساءً ملازماً لسرير والديه ووقع الحمى على جسده في ازدياد..

لم تُوبخه إحدى تينك العَصَوَين لطول ملازمته للسرير دون عمل.. دون استحمام، ودون طعامٍ حتى!

حتى الطرقات التي كانت تتردد على باب الحجرة ما بين وقت وآخر قد توقفت هيَ الأخرى، ومر الكثير من الوقت دون أن تسمع أُذناه حسّ فارس في المنزل أو حركته عند الباب.

ذلك أفضل، وأغمض عينيه علّ وعيه يغيب مجددًا، ولكن النوم قد جفاه؛ فقد استنفده كله في ساعاته الماضية.

ظل مستلقيًا والعرق يُغرق رأسه، وسخونته بلغت حدًّا أشعره كما لو أن جسده بأكمله يشتعل..

ومع ذلك لم ينهض..

لا يُريد مغادرة السرير، هو كالقوقعة تختبئ داخل صدفتها من أمواج المحيط العاتية..

إن فتح عينيه فسيرى هذا وذاك، وستهطل الذكريات مزعجة سلام قلبه.. هو يخشى شعور الهجر..

فقد هُجر من قبل من ريم وأحمد.

ولكن ليس من والديه..

ألم يكن كافياً لهما ليعيشا؟!

لماذا ماتت جواهر هيَ الأخرى؟! ألم يكن وجوده بقربها كافياً لها لتعيش؟!

هو فشل تماماً في مواساتها!.. موتها جريمته!

بل ووالده! هل هاجمت النوبة قلبه الضعيف لأنه كابَدَ مجددًا مرارة تلك الحادثة حين استرجع ذكراها معه؟!

أو قد تكون الحقيقة أنه ليس ابنهما! ولذا تركاه معاً ليُضحي وحيداً في ساعاتٍ معدودة..

ماذا يفعل؟ لقد تحرر من قيْد عنايته بهما، ولكنه لا يشعر إلا بالتيه.. بالضياع..

لا هدف له!

ليتهما يعودان فقط ليخبرهما أن قيدهما الذي أثقله هو يحنُّ إليه.. فقط ليعودا وهو لن يلفظ كلمةً وقحة في وجه أيٍّ منهما!

جز على أسنانه، وأنين تألمه يخرج مختنقًا من بينها، والأمنيات المستحيلة تتوالى على قلبه المكسور..

ارتفع صوت رعد صارخ اجتذب وعيه من تقوقعه حول ذاته لينتبه لمحيطه، ففتح عينيه بإرهاق ليُبصر من النافذة تلك الظلمة ووقع قطرات الأمطار الضاربة للنافذة يصكُّ مسامعه..

ظل يرقب بنظرة خاملة وجسد منهك تمايل الأشجار بفعل الرياح العاتية، وضوء البرق يُضيء الحجرة من وقت لآخر..

إن قتلته الحمى فليس ذنبه! وليس مهتمًّا!

ولكن.. من سيتكفل بجنازته؟! من سيدفنه؟!

لا عائلة له بعد الآن!

صحب صوت المطر والرعد في الخارج صوت غريب، صوت بالكاد التقطته أذناه من بين ضوضاء الرياح العاتية..

صوت بدا وكأنه صوت لأداتين معدنيتين تضربان بعضهما بعضًا عدة مرات وبعنف..

ظل ذلك الصوت يؤرق سلامه ويُقلق سكونه أكثر من الجو العاصف بالخارج..

هو يعلم أن البوابة مُغلقة ولا أحد غيره بالمنزل..

«فــــارس»

تمتم فجأة، وجسده يتحرك لا شعوريًّا، ليقف بوهن، بأمر من لا وعيه الذي ذكره بإحدى أولوياته المنسية، استقام أمام النافذة فأبصره من خلفها يقف تحت وقع الأمطار، والرعد يدوي مخفياً صراخه الخائف، وعيناه المغمضتان برعب تظهران مع ذلك البرق الخاطف للأبصار.

«سحقًــــا!!»

صرخ بصوت زلزل به أرجاء المنزل، وتفجر غضب عنيف على وجهه، بل وهرع إلى باب الحجرة ليفتحه..

كوم قبضتيه، وغادر المنزل، وعيناه العسليتان تتحولان إلى جمرتين ملتهبتين.. مرضه ووهنه تضاءلا أمام غضبه العنيف..

هو غاضب ليس لأن فارس خرج وسط الجو العاصف الذي يخافه ويذكره بمأساة أخته..

بل بسبب تلك الفأس التي راح يُحطم بها مقعد المُسن وعصا العجوز..

تسارعت قدماه الحافيتان للخارج ليعلق بهما مزيج الطين وورق شجر التفاح المتساقط.. أغرقت الأمطار جسده لتلتصق ملابسه به وتتبخر حُماه..

«فــارس!»

بأعلى صوته ناداه، ففُتح ذانك الجفنان كاشفين عن زرقاوين مرتجفتين ذعرًا من الجو العاصف.. ولكن وسط ذلك أبصر نادر ابتسامة صغيرة تشق وجه فارس فرحةً لخروجه.

وواصل دكّ العصا بالفأس التي وجدها مُسبقاً في الحقل ليقسمها اثنتين وثلاثًا وأربعًا.. ومسندا المقعد المتحرك قد تحطما هما الآخران وتمزق قماشهما بفعل فأسه..

ولم يوقفه إلا تلك القبضة التي شدّت على ياقة قميصه لترفعه حتى ما عادت قدماه تلامسان الأرض، بل وتأرجحت الفأس في يسراه ولم يُفلتها..

«تُريد الموت؟!» صرخ راجّاً الحقل بأكمله، وأصابعه تشدُّ أكثر على ياقته حتى شعر فارس بالاختناق ومع ذلك..

«لن يعودا» نطقها بهدوء صدم نادر وشحب له وجهه.

«لن يعودا!» صرخ بأعلى صوته لتطحن تلك الأضراس بعضها بعضًا بغيظ.

«لن يعودا.. جدتي وجدي.. قد ماتا ولن يعودا..»

هل يقتله؟!.. يأخذ الفأس من يده ويعيد ضرباته له؟!.. أم يُحطم فمه؟!..

«لن يعودا من الموت أبداً مهما حزنت ومهما مرضت»

لفظها بشفاه مرتجفة حزينة لتشاركه شفاه نادر هي الأخرى بالارتجاف.

«لم يعودا يحتاجان إليك.. ولا للمقعد ولا للعصا.. ولا لأي شيء من الدنيا.. لأنهما ميتان». أعاد له شيئًا من كلماته التي قالها للعجوز ليشعر بها تطعن قلبه مثلها.

هما حقّاً ليسا بحاجة إليه.. تركاه خلفهما..

تشاركا حفرةً واحدة وتركا له أرضًا بأكملها..

شعر بشيء يُغرق عينيه.. لعلها مياه الأمطار.. أو ربما هيَ دموع حزن.. فقد هُجر..

رأى تينك الزرقاوين تهيجان هما الأخريان بالدموع، ورغم اختناقه عاد يُكرر: «لقد رحلا ولن يعودا.. لن يعودا من أجلك..»

كلمته الأخيرة أوجعته، لامست ألماً في قلبه، فزاد من شدّ قبضته على الياقة ليُغلق فارس إحدى عينيه ألماً ولسانه يُردف فجأة: «ولكنك لست وحيدًا.. أنا معك».

تجمدت كفه فجأة و.. (أنا معك).. [illegible]

(أنا معك).. وقعها اختلف عن.. [illegible]

نعم هو معه في حب العجوزين، في الحزن عليهما، هو لا يقف جواره، هو يشاركه الحزن نفسه..

ارتخت ملامحه وكفه ترتخي ليقف فارس على الأرض..

رفع زرقاويه نحوه ليرى عسليتيه الخاملتين، وملامحه المرتخية بكآبة، فهتف مواسيًا: «لقد ماتا ميتة طبيعية.. ماتا وهما يُحبانك، بل جدتي قبلت رأسك طويلاً.. هما ذهبا إلى الله.. وهو أرحم بهما منا جميعاً.. ثم إنهما لم يموتا مقتولين أو متأذيين مثل أختي أو برونو.. لذا..»

كيف له أن يواسيه بمقتل أخته؟!!

ثم.. الكلبُ مجدداً!.. يُشركه في حديثه المواسي كما لو أنه بشر!

«هما الآن بعضهما مع بعض سَعيدان بعد أن عاشا حياة طويلة.. ألا يكفي ذلك؟!.. ليس وكأننا لن..».

وأُخرس صوته فجأة حين عانقه نادر بقوة وحطّ رأسه على كتفه، شعر فارس بارتجاف جسده، واهتزاز رأسه.. هل يبكي؟!

عكست زرقاواه إشفاقًا كبيرًا، ورفع كفه ليُمسّد له ظهره قبل أن ينطلق هو الآخر باكياً بأعلى صوته مما زاد من اهتزاز رأس نادر وضغطه لعينيه على كتفه..

ذلك الحزن تشاركاه معاً.. بكيا معاً.. فرغا ألمهما تحت الأمطار..

ولم يشهد ذلك سوى شابة وقفت خلف أسوار حقل التفاح، وقد تورمت عيناها من البكاء هيَ الأخرى، ولسانها ينطق: «كُنتُ أعلم أنه لم يكن بحاجةٍ إلي يوماً.. من الخير لي أن أرحل».

وسحبت قدميها مبتعدة عن ذلك المنزل الذي قلبت جذوة شرها معيشة ساكنيه رأسًا على عقب.

نصفُ ساعة مرت، وجسد فارس ملاذُ نادر لتفريغ حزنه الذي كبته لساعات وساعات.. غرقت أوجههما بفيض دمع حكى حبًّا كبيرًا وفقدًا موجعًا.

واستمرا بوقوفهما، واستمرت تلك الأمطار تبلل جسديهما، حتى ما عاد الاثنان قادرين على الوقوف.

رفع نادر رأسه ببطء، وقد هدأ أخيراً، وذاك الجسد لا يزال يُسنده ولم يُبعده أبداً.

رفع فارس بصره المحمر نحوه، ولكن كف نادر غطت وجهه بالكامل، أتبعها بقوله: «لا تنظر!».

تصلب فارس في موقعه لا يفهمه، فيما أسرع نادر يمسح وجهه بطرف قميصه لينتبه لغبائه.. جميع ما فيهما مبلل من المطر ولم يكن ليلحظ عليه أحد شيئًا..

وضرب رأس فارس المحجوبة رؤيته بيده الأخرى لترتفع صرخته بألم.

«هل كان عليك أن تكسر العصا والمقعد؟!» تمتم بها مُغضباً، لما ظلت شفتا فارس ممتدتين، قبل أن يردّ بحماس: «لم أكن أظنها ستنفع ولكنك خرجت من الحجرة وفرغت كل..».

هل يضربه مجدداً؟!.. غطى وجهه الحرج واستدار عائدًا إلى المنزل وشفتاه تنطقان: «لندخل.. الجو بارد».

لم يزل وهن جسده بالكامل، وتصلّب متفاجئاً، حين وقف فارس أمامه ومدّ كفه ليلمس جبينه لبعض الوقت، ثم ابتسم براحة وسرور: «حمداً لله.. لقد خفت حُماك.. علمتُ أن المطر سيخففها ما دام هذا المنزل لا يوجد به حوض استحمام».

حسناً.. فكرته كانت صادمة لنادر بشدة.. بل خطته العبقرية هذه لم يكن نادر ليفكّر بمثلها أبداً..

وللحق.. لم يكن ليفكر بها شخص طبيعي على الإطلاق..

ولكنها أفلحت في انتزاع ابتسامة متفاجئة من نادر، وهو يُبعد كفه برفق: «لا عليك.. أنا بخير».

«الآن عليك أن تتناول طعامك بعد أن خفت الحمى» قالها، ووجهه يعكس اهتمامًا كبيرًا.

«لا تعاملني وكأنك ترعى أحد طيريك» وبخه وأفعاله لا تزيده إلا حرجًا.

«ولكنك لم تأكل مُنذُ الأمس ورغم أني طبختُ لك لم..».

بتر عبارته حين أوقف نادر مشيه ليسحب ذراعه، ونظر بقلق لحرق ذراعه المحمَرَّة، ثم قال: «سنضطر لاستخدام أعشاب العجوز».

«لا!» بذعر ردّ وجسده لا يزال يذكر لسعاتها المريعة.

«بل ستفعل.. كما اضطررتُ أنا لتناول رمادك، بل وما زلتُ أتذوقه إلى الآن في فمي».

لم يفهم فارس نيته هل هو يريد عقابه بأعشاب العجوز، أم يشكره

لاهتمامه به، أو هو فقط قلق عليه ويريد علاجه.. ولم يهتدِ عقله أنها قد تكون نية جمعتها كلها.

ولكن بقاء نادر ممسكًا بيده جعل أحد حاجبيه يرتفع باستفهام، فعكس وجه نادر شيئًا من الذنب وهو يسأله بخفوت: «الحمى تجعل الشخص يقول أشياء لا يعنيها فهل قُلتُ لك شيئًا غبيًّا؟!».

سؤاله المنزعج قابله حزن من تينك الزرقاوين.. وظل الصمت بينهما ثوانِيَ قبل أن يتنهد نادر: «إذًا أخبرتك أني كُنتُ أفكر بإبقائك معنا في المنزل بهوية مزورة».

حسناً.. ذلك لم يسمعه فارس إطلاقاً.. ورغم أن عبارة أحمد قد داوت شيئًا من جرحه إلا أن عبارة نادر بددت حزنه بالكامل..

إذًا فهو ليس نادمًا على إخراجه من المستشفى، بل وكان يريد إبقاءه معه في المنزل فحملت شفتاه ابتسامة فاضت نشوةً وسروراً واعتداداً بذاته.

«أعلم.. لا تقلق.. سوف أعيدك إلى عائلتك.. ليس وكأني كُنتُ سأبقيك رغماً عنك» قال نادر وقد سرّهُ رؤية ابتسامته فهو ما زال يذكر تفلت لسانه بشيء لم يعنِه.

«هم عائلتي وإلا لكُنتُ اخترت البقاء معك» أجابه فارس بزهو وتعجرف.

إجابته الممتلئة بغروره استفزت نادر بالكامل وعبثت بكرامته كان يواسيه ليس إلا لأنه أخطأ في حقه، لذا.. حسناً.. عليه تعليمه [illegible] وقبل أن ينطق أمال فارس رأسه مُضيفاً: «هذا قرارك [illegible] جزءًا من عائلتي».

هذه الكلمات نجحت بطريقةٍ ما في لملمة كرامته، ولكنها عبثت بعينيه الحمراوين اللتين بالكاد هدأتا فاهتزتا بتأثر.

«المطر لم يتوقف» قال بارتباك، وهو يدير ظهره بسرعة تاركًا فارس يمشي من خلفه.. وبدلاً من ذلك الحزن حلت الابتسامة بشفاه الاثنين..

عليهما أن يستحما..

بل وما كُل ذلك الجوع الذي هاجم معدتيهما فجأة؟!..

****

(١٨) مايا

١٥ أكتوبر - ٥:٣٠ فجرًا.

تجعدت مفكرة مايا السوداء بين أصابع كفها إثر اضطرابها، بينما حظي قلمها الذهبي اللامع بنصيبه في كفها الأخرى.

ثلاثون مترًا فقط للوصول إلى الموقع الذي أرسلهُ طارق.

ثلاثون مترًا وتتلقى نتيجة بحثها عن الحقيقة المُخَبَّأة والتي امتدت إلى قرابة تسع سنوات.

انعكس توترها العنيف على وجهها، وعجلات السيارة تواصل دورانها لتسقط عيناها أخيراً على حقل التفاح الذي وصفه طارق.

أوقف نواف السيارة في منتصف الطريق الفاصل بين منزل عائلة ثابت ومنزل عبد المجيد.

جَفّ ريقُها، وهيَ تسمع فتح أكرم ونواف لبابيهما، ثم ترجلا خارج السيارة، فضغطت يدها على صدرها الذي يكاد قلبها المجنون يخترقه بنبضاته.

«مايا» ناداها أكرم بتعجب، وهو يفتح لها الباب لتنزل، ولكنها منحته نظرة حملت مشاعرها المبعثرة: «أتظنانِهِ أخي؟!».

صُدم الاثنان من سؤالها المستجدي ردًا منهما يمنحها ببعض القوة للخروج.

«يُمكنكِ البقاء في السيارة ونحن سنتيقن من الأمر» قال نواف بإشفاق، وعيناه تتجهان للنظر إلى حقل التفاح..

ولكن هل هيَ قادرة على البقاء بانتظار إجابة منهما؟!

بالتأكيد لا..

نفضت ذلك التوتر عنها، ثم دفعت بنفسها إلى خارج السيارة، وترجلت فوق أرض قرية السنابل ليعلق الطين من مطر الأمس بحذائها البني ذي الكعب العالي.

لم تهتم وهيَ تقف جوارهما يُغطي ساقيها بنطال أخضر واسع الأرجل، يعلوه قميص أبيض، ومن فوقه جاكيت أسود طويل بأربطة بيضاء ثبتته على خصرها.

«إذًا فقد وصلتِ!»

التفت الثلاثة لصاحب الصوت الأخن، فرأوا توءمين يقفان أمام بوابة منزل عائلة ثابت.

أسرع طارق يقف أمامها مُشيراً لتلك المساحة الشاسعة من حقل التفاح: «هذا هو منزل نادر عبد المجيد خاطف الفتى».

تأملت الاثنين من رأسيهما إلى أخمص أقدامهما.. يختلفان بهيئتهما تماماً عن أهل المُدن.. بل وما زال اللاصق الضخم يُغطي وجنة طارق، فيما سحب ثامر ساقه ذات الجبيرة من خلفه.

«هذا الرجل كاد يقتل أخي قبل عشر سنوات لذا رُميَ في السجن» قال طارق فجأة، ثم أنزل ياقة قميصه لتظهر تلك الخطوط الحمراء

حول رقبته مكملاً: «بل وكاد يقتلني قبل يومين دون سبب.. هو عدائي وعنيف للغاية».

رؤيتها لتلك الخطوط الحمراء جعلتها تشهق، وتبخر توترها لتجري نحو الحقل؛ فإن كان من معه هو فارس، فما نوع العذاب الذي قد عاناه برفقة مُجرم مثله!

فيما صاح بها نواف، وهو يُخرج سلاحه: «مايا.. انتظري في السيارة».

تجاهلتهُ تماماً، وكفاها تدفعان بوابة حقل التفاح، وتعثرت خطاها فوق كتل الطين المختلطة بأوراق شجر التفاح، وقلبها لا ينبض إلا قلقاً عليه، ولسانها لا يُنادي إلا باسمه.

«فــــارس!»

هيَ فقدت عقلها أو على وشكِ ذلك، عاطفتها المرتبطة بأخيها تغلبت على رصانتها..

حواسها لا تريد إلا رؤيته، سماع صوته، لمسه، وحمايته..

وفي الخارج انطلقت ضحكات طارق بزهو لقدرته على إثارة ضغينتها، فصاح بفرح: «ثامر هل رأيت؟! ذلك الرجل يحمل سلاحاً».

بدا ثامر ذاهلاً للغاية لتجول نواف بالسلاح بكل هذه الجرأة، وجرّ خطواته ليقف أمام حقل التفاح، مُحدثاً أخاه: «كما ظننتَ تماماً هو اختطفه».

«بالتأكيد أنا لا أُخطئ.. لقد تحدثتُ أمامها عن أنه اختطفه وهيَ لم تنفِ ذلك».

تمسك ثامر بأحد قضبان أسوار حقل التفاح وأمال رأسه ليرى، ولكن الثلاثة جميعهم قد اختفوا داخل ذلك الكوخ، فتساءل بدهشة:

«ماذا يعني هذا الفتى لها؟! بل ما كُلُّ هذا المال الموضوع من أجله؟!».

قطب طارق حاجبيه ذهولاً فالآن فقط أدرك كم يساوي فارس بالنسبةِ لها، ولكن سُرعان ما انتشله ثامر من ذهوله، وهو يسأله: «ولكن ذلك الفتى لم يبدُ لي كالمخُتَطف! لقد دافع عن نادر!».

سؤاله أزعج طارق الذي لم يجد له إجابة، فقال بانفعال:

«المهم أن نكسب نحن المليوني دولار.. وأن يُقبض على ذلك الحقير نادر ويُعاد إلى السجن مجددًا».

تمتم بها بنشوة وكأن ذلك هو الأمر الوحيد الذي سيشفي جُرح كرامته، ويزيل إهانة نادر له..

أن يراه يخرج من منزله مُكبلًا بالأصفاد.

«من الجيد أن والدي أخرجنا قبل انتهاء الأيام الثلاثة من أجل حضور جنازة العجوزين وإلا لكان سبقنا أشخاص آخرون للتبليغ وكسب هذه المكافأة».

تمتم بها ثامر ليتشارك الاثنان الضحكات فقد نجحا في الثأر من نادر.

وفي الداخل كانت مايا تقف بوجوم، ولقد لزمت الصالة بأكملها

بالطين بعد جريها في كل اتجاه منها باحثة عن فارس وقد شاركها أكرم ونواف بتفقد جميع الحجر حتى دورة المياه..

ولكن لا أحد..

المنزل فارغ بالكامل..

شعرت بشيء يغلي في أعماقها.. أهو غضب؟!.. أم إحباط وخيبة؟!.. أم حُزن؟! .. وقد يكون جميعها.

وقف نواف أمامها قائلاً بتعب: «هناك حُجرة فُرغت خزانتها من الملابس.. لا بد أنه هرب».

فيما انحنى أكرم ليتفقد رماد الموقد، ثم صاح بسرعة: «لا يزال دافئًا.. قد يكون مرَّ على رحيله أقلُّ من أربع ساعات».

حدق نواف في كلِّ ما حوله وسؤال جديد يتبادر لذهنه.. أين هم سيبحثون عنه الآن؟!.. فمَنزلُ نادر كان أملهم الأخير لإيجاد الفتى، وهروب نادر يعني أنه قد أدرك أن أحدًا قد أبلغ عنه، ولذا فهو سيكون أشد حذرًا، وسيُجيد الاختباء.

حول الاثنان نظراتهما نحو مايا ليريا شفتيها المتقوستين قبل أن تخط الدموع على وجنتيها..

تألم قلباهما لحالها، ولكن سُرعان ما شقت تلك الدموع ابتسامة غريبة وهيَ تنحني على ركبتيها أمام الطاولة المقابلة للأريكة محدقة بشيءٍ فوقها.

«لقد فقدت عقلها من الصدمة بالتأكيد»

قال أكرم، وهو يُسرع ليُهدئها، ولكن تحولت ابتسامتها فجأة لضحكة خافتة، ويدها تسحب الورقة التي علاها رسم لوجهها، وهيَ في السادسة عشرة من عُمرها.

وتحولت ضحكتها لبكاء عنيف، ثم ضمتها إلى صدرها صائحة بحب: «هو فارس.. الفتى الذي معه هو أخي.. إنهُ حي!».

صرخت بالأخيرة لتتسع أعين الاثنين بقلق، فبإدراكهما أنه حي هما في مشكلة أكبر الآن..

أين هو الفتى؟! وإلى أين يتجه به المجرم نادر؟!

****

«فُندق ١٠٩»

أجاب نادر بصرامة، ويُمناه تُحرك مقود سيارته الشاقة طريقها وسط الخط السريع، بعيداً عن قرية السنابل بمئة كيلو متر..

«يا زعيم.. أرجوك ابحث عن خطةٍ أُخرى.. فهذا الغبي سيُفسد كُلَّ جُهدنا».

جاءه صوت زيد الجزع من الطرف الآخر للهاتف، فزفر بحدة: «لا يوجد خطط أخرى وإلا لم أكن لألجأ إليه».

سمع صوت زيد وتميم الشاكيين ما فعله حاتم بالأمس، وكيف أفزعهما، وكاد يوقف قلبيهما من التوتر.

«حاتم!» ناداه نادر بحزم.

«نعم زعيم؟» أجابه بحماسة عالية، وكأن ليس هو مدار المشكلة.

«أنت لن تُفسد الخطة.. صحيح؟!».

«بالتأكيد.. اعتمد عليَّ».

«أنا جاد ولا أمزح» بنبرة مُهددة أطلقها مما جعل شفتيْ حاتم تمتدان بحنق: «أعدك.. لن أفعل كالأمس ولن أرتجل أيَّ خطة أخرى وسأنفذ ما قلته بالحرفِ الواحد».

ثم غمغم فجأة مستدركاً: «ولكن ألا يتوجب عليك شكري بدلاً من توبيخي؟!.. فلولا ارتجالي بالأمس لم تكن لتعلم بقدومها».

حسناً.. هو محق بذلك تماماً.. ويستحق شكره!

«لو أفسدت الخطة الآن فسيكون ما عملته بالأمس بلا فائدة».

ردَّ نادر بحدة ليصمت حاتم بسخط، فيما هاجمه زيد وتميم متوعدين إياه شرّاً لو أفسد الخطة الجديدة.

«أعتمدُ عليكم».

قال نادر بسرعة، ثم نظر لفارس المجاور له، وقد كان جفناه يُغلقان بنعاس، ولا يلبث أن يفتحهما ليستكمل الرسم فوق صفحات كراسه، رسمة شبيهة بالتي وجدتها مايا.

«حين رسمتها.. أواثق أن أختك اللطيفة لم تمنحك شيئًا لتتعاطاه؟!» سأله نادر، ووجهه يعكس تقززه.

عكست زرقاوا فارس حُبًّا عميقًا، وقلمه الرصاص يتابع الرسم متجاهلاً الرد عليه، فرمقه نادر بنظرة جانبية غاضبة.. بل وزاد من غيظه أن أعطاه ظهره، جاعلاً وجهه الحزين مقابلاً لزجاج النافذة، ومُكملاً للرسم.

تنهد نادر بقوة: «أكُلُّ هذا الحزن من أجل طيرين؟!».

زاد حزنه، وحنى رأسه: «لقد بعتهما».

«لم أبعهما.. وضعتهما أمانة عند بائع الطيور وسنعود لأخذهما يوماً ما».

«لأنه بائع طيور فهو سيبيعهما» وحمل صوته سخطًا أشد.

«فارس.. لقد أخبرتك عند مغادرتنا أن نضعهما عند باب أسرة أحمد، ولكنك رفضت».

«لأن الكلاب الضالة ستأكلهما وأحمد لا يعلم ولم أستطع إبلاغه لأنك أخذت هاتفي» صاح بالأخيرة بقلب موجوع.

ألقى نادر نحوه نظرة منزعجة فرأى انعكاسه على النافذة، وجه متجهم وعينان غاضبتان.

«لقد أخذتُ هاتفك لأنك.. لأنك..»

وصمت بحنق.. هو لن يُخبره أنه عند لحظة دخولهما إلى المنزل سلبه الهاتف حتى لا يُخبر أحمد بما حدث في الحقل، بل ولو حدثه بمكالمة فيديو فهو بالتأكيد سيسلط الكاميرا على وجهه وعندها سيرى أحمد احمرار وجهه وعينيه إثر بكائه.

«أخذته لأننا معاً ولا حاجة لك به ولن تضيع»

كان أسخف تبرير نطقه بحياته، وبالفعل ذلك لم يُسهم في تهدئة حُزن فارس، وهو يعود للجلوس باستقامة مُكملاً رسم مايا، وشفتاه تمتدان ببؤس.

ولم يلبث أن سمع نادر تنهده بقوة، فنظر نحوه ليرى زرقاويه تكبتان حزنهما بالقوة، وقلبه قد فُطر تماماً على طيريه.

«سأشتري لك أفضل منهما حين تعود للعاصمة».

«لا أريد.. أريد قرين ويُلو فقط».

اهتز أحد حاجبيه بحنق.. أكان على ذلك الوغد أحمد أن يشتري له كائنات حية كهدية!.. ألا يوجد هدايا أيسرُ حملاً وأقلُّ إزعاجاً؟!

هو حقّاً يكادُ يفقد صوابه ويعود أكثر من مئة كيلو متر لاستعادتهما من أجله، ولكن تلك الطيور يُمنع دخولها للفنادق..

وستُصَعِّب عليهما التنقل..

وستزعجهما داخل السيارة..

ورائحتها بغيضة..

ولكن..

رغم هذه المبررات المنطقية هو لا يكف أيضًا عن توبيخ نفسه لبيعهما!

تبّاً وحسب..

«إن أتممت هذه الرسمة فسأُعيد لك الهاتف، وسأقف عند أيِّ محطة لتعبئته بالرصيد وعندها اتصل بأحمد وأخبره بأن يطلب من أسرته استعادتهما والعناية بهما».

رفع زرقاويه نحوه غيرَ مُصدق: «حقّاً؟!».

«نعم».

ابتسم بامتنان وعاد ليُكمل رسمته بحماس أشد.. وللصدق.. ما أسهل إرضاءه!

فيما عاد نادر ينظر إلى الطريق أمامه، وعقله لا يكاد يُصدق حاله الآن مقارنة بحاله قبل تسعِ ساعات.

حاله حين كان منهارًا وسط حقل التفاح بين الأمطار برفقة فارس، بالكادِ تغلب على حُزنه ذاك ليدخل إلى المنزل، ويستحم، غاسلاً عن جسده الغبار العالق به من قبر العجوزين.

واستبدل بملابسه أخرى أكثر راحة كي يطهو طعامًا طازجًا، تناوله مع فارس بنهم شديد، وكأنهما لم يأكلا مُنذُ زمن.. بل ولم يتحدث أيٌّ منهما عن العجوزين وكأن ما ذرفاه من دموع في الخارج كان كافياً..

وطوال ذلك كُله ظل فارس مُلاصقاً له في طهوه، في جلب الحطب، وتنقلاته في المنزل بين الحجر، بل وفي الخارج حين جمع البيض، يدفعه قلقه عليه من أن يُكرر ما فعله سابقاً بإغلاق الباب على نفسه..

وللحق.. فهو لم يعد يملك عصًا أو مقعدًا جديدًا يحطمهما بفأسه كي يجبره على الخروج.

والأغرب أن نادر لم يزجره، أو يُبعده، وكأنه يُدرك أنه ليس من الجيد بقاء فارس هو الآخر بمفرده.

ومع حلول الساعة العاشرة واكتمال شحن هاتفه وردته تلك الاتصالات المتتالية من رفاقه ليُصدم بأن مايا تتجه إلى قرية السنابل..

كيف ومتى ولماذا؟!

بدت معلومة مشكوكًا فيها فهو منذ خروجه من السجن لم يسجل عنوانًا صحيحًا لمنزله كي لا يهتدي أحد لماضيه..

هذه المعلومة دفعته لانتشال رقمه القديم من أحد أدراج خزانته وعندها أكدتها تلك الرسالة من الشاب البعيد عن قرية السنابل بسبع مئة كيلومتر..

بل ووضع وصفًا مفصلًا للثلاثة ولم يثر انتباه نادر إلا معلومة واحدة، الشابة يرافقها شرطي وهذا يعني أنها هيَ الأخرى لها من يساندها غير عمها.

هذا الخبر وحده كان كافياً لانتشال نادر من حزنه وانشغال أفكاره بفكرة واحده فقط، كيف ينقذ فارس منها إن كانت تُريد به سوءاً..

حتى عيناه لم تجدا الوقت لتُشبعا حنينهما بتأمل بقايا والديه المحيطة به واسترجاع ذكراهما!

ثلاثَ ساعات أخذ منه الأمر ليُخطط ويتخذ قراره بأن عليه مُغادرة قرية السنابل قبل وصولها.. بل وأمر فارس برسم رسمة إذا ما رأتها مايا فلن ترتاب أبداً بأن فارس معه.. هو يعلم أن تأكيدهُ لها بأن فارس معه جنون!

ولكنه يعلم أن رؤيتها للرسمة ستُثير غضبها.. ستُفقدها صوابها.. سواء كان هدفها جيدًا أو سيئًا، فأن تصل لهدفها ثم يتبخر أمام عينيها، ذلك سيُحبطها بالتأكيد، وعندها سيُمسك هو بزمام الأمور بدلاً منها.

انتبه فجأة لشخير خافت، فشحب وجهه من منظر فارس النائم فوق كراسه، فمد كفه ليفرقع وسطاه وإبهامه بقوة جوار أذنه، فانتفض فزعاً كاشفاً عن عينين ناعستين للغاية.

«أخبرتك ألا تنام».

بدا الإرهاق في كُل ملامحه فهو لم ينم مُنذُ الأمس ونادر يرغمه على ألا ينام.

«نادر.. فقط قليلاً».

«لا».

«أرجوك!».

«حين نصل إلى الفندق يُمكنك أن تنام».

فرك عينيه بقبضتيه، ثم عاد ليُكمل رسمته بوهن أثار تعاطف نادر، ولكن خطته لن تنجح إلا ببقائه مُستيقظاً الآن.

وعكست عينا نادر دفئاً غريباً..

للمرةِ الثانية هو يُسافر به دون أن يُعارضه أو يسأله إلى أين يأخذه..

هو يستأمنه حياته بثقة مفرطة ويستسلم لقراراته المفاجئة..

مسئوليته بالكامل سلمها إليه..

وبحق هو لن يحتمل أن يؤذيه أحد أبداً..

****

- ٦:٣٠ صباحاً -

طرقات مؤدبة تتابعت على باب منزل أكرم في العاصمة، ففتحت زوجته الباب لتقابلها ابتسامة حاتم المُحرجة.

«أنت؟!» سألت باستغراب؛ فهذا ليس موعد لقائه بأكرم.

«تلك الغبية.. أخبرتُها أن الأمر مُحرج» قالها، وأشاح بعينيه للأسفل، وكفاه تعتصران قارورة عطر فارهة مُغلفة بغلاف وردي استقرت أعلاه وردة حمراء.

«ما الأمر؟!» سألته مُشفقة على وجهه الذي عكس ارتباكاً عنيفاً.

«لقد أخبرتُ أختي عنكِ.. هيَ مُقعدة.. حين أخبرتها بنقاء بشرتك ونضارتها، أجبرتني أن أسألك عن سر جمالك و.. أعلم.. من العيب ذلك.. لا أقصد سوءًا.. وصفتك بعفويـ..»

وتعمّد التلعثم، وكأنه مُحرج من وصف ما تبقى من جمالها، ففتحت له الباب على مصراعيه.

«تفضل».

«لا يصح» صاح ملوحاً بكفه، ومدّ لها المغلف لتستقبل كفاها هديته، قائلاً بنبرة ساحرة: «حين مررتُ بالمتجر واشتممتُ رائحته لم يذكرني إلا بك.. حسناً.. قد أكون تجاوزتُ حدي.. يُمكنكِ رميه في أقرب قُمامة».

«حاتم.. تفضل.. ستُصاب بالبرد في الخارج» قالتها ضاحكة، وكلماته تُشبع حاجتها للمدح والتقدير.

دلف خلفها دون تردد، بينما ظل زيد وتميم يفركان أكفهما بعضها ببعض من شدة التوتر، ثم زفر زيد بغيظ: «لقد أفرغ ما بجيوبنا من أجل هذا العطر الثمين.. وإن لم يعوضنا بالمكافأة أُقسم أن أُلبسه دمية دب ويُعلن لشهر كامل أمام محل الإلكترونيات الخاص بي».

«لم أكن أظن أن الزعيم سيسمح له بالتهور هكذا!» قال تميم ذاهلاً.

«هل نسيت السجن؟!.. حين يستنفد الزعيم كافة خياراته يختاره هو؛ لأنه يعلم أن يُجازف به خيرٌ من أن يستسلم للفشل».

«أنت مُحق.. وفي جميعها كان ينجح».

«إلا مرة واحدة حين طُعن الزعيم بدلاً منه».

«آه.. هذا صحيح.. فلندعُ ألا يُطعن الزعيم ولا أحدنا وأن نفوز بالمكافأة».

تضرع الاثنان دقائق قبل أن يشرد زيد ببصره في السماء الزرقاء فالأشدُّ غرابة هو جزء نادر من الخطة.

«نادر يُجازف بنفسه بطيش وكأنه لم يعد يملك شيئاً ليخسره» تمتم مستغرباً قاطعاً دعاء تميم ليسأله: «ماذا؟!».

زفر بقلق: «لا شيء.. فقط تابع ما أنت فيه».

وفي منزل أكرم جلس حاتم على الأريكة بصالة الجلوس، يرتشف من كوب قهوته، وهو يتجاذب معها أطراف الحديث: «يا آنسة.. يقولون إن بالقرب من قرية السنابل فندقًا يُسمى فندق ١٠٩ يقدمون فيه لزبائنهم صابونًا طبيعيًّا يُعيد المرأة كما لو أنها شابة مجدداً».

أصغت له بكل كيانها: «حقاً؟!».

«هل هو ما تستخدمينه؟! فمهما أخبرتها أن جمالك طبيعي لا تُصدقني وتطلب أن أسألك عن حقيقة ذلك».

ضحكت المسنة: «أوه كلا!.. كما قُلت: إن جمالي طبيعي».

ابتسم بدوره: «كما توقعت.. فقط لو أحصل على ذاك الصابون من أجلها».

أسرعت تخفف خيبته: «لا بأس.. سأطلبه لها.. فزوجي الآن في قرية السنابل سأدعه يمر على ذاك الفندق ليشتري لك».

واتسعت ابتسامتها مُخفية أنها ستطلب لنفسها هيَ أيضًا.. وبالتأكيد أيُّ مُسنة غبية هذه التي قد تفوت على نفسها فرصة الرجوع شابة؟!

«هل ستفعلين؟!» سألها حاتم بلهفة.

«نعم».

«أنتِ جميلة من الداخل والخارج».

غزت حمرة خجل خفيفة وجنتيها، وهيَ تسحب هاتفها لتتصل بأكرم وتُجبره على المرور على الفندق، وكم كان أسلوبها مُغايرًا تماماً للطفها مع حاتم..

«ليس لديك موقعه؟!» تكلمت بإحباط فأشار حاتم لها ضارباً على صدره.

«حسناً أكرم.. سأرسل لك موقعه». وأغلقت الخط ثم مدت

بهاتفها لحاتم، أخذه بسرعة، ثم اختار صورة إعلان الفندق من موقع يعرفه جيدًا، وأرسله لرقم أكرم.

«تم الأمر» قالها وضحك للمسنة التي سحبت طبق شطائر لتُقربه منه كي يشبع جوعه تاركاً رفيقيه في الخارج.

وابتسم: «هذا العقد في رقبتك أهو حقيقي؟!».

«بالتأكيد» ونزعته لتُعطيه إياه كيْ يتأمله، وكعادته هو لا يلتزم بأيٍّ خطة.

****

(١٩) فندق ١٠٩

أرخى فارس حقيبة الظهر الجديدة والثقيلة على أرضية حجرة المعيشة بإحدى الشقق بفندق مئة وتسعة، ثم قذف بنفسه فوق أريكة واسعة ليغوص في إسفنجها المُريح وقد وفرت له استرخاءً كاملاً لتُغمض عيناه بنوم، وقد تدلت إحدى ذراعيه للأسفل بإهمال.

بينما أسقط نادر حقيبتيْ سفرهما فوق الأرضية الرخامية بسخط.. إلى متى سيتهاون معه؟!

هو حمل حقيبة سفره حتى!

«انهض».

رفع رأسه ليقابله بعينيه الناعستين: «لقد وصلنا.. ألا يُمكنني النوم الآن؟!».

«بلى.. يمكنك» أجابه فجأة بلا مبالاة، ثم راح يتفحص بدقة حجرات الشقة التي استأجرها، وحماميها، ومطبخها، و.. (مُناسبة جدّاً)..

اهتزَّ حاجبا فارس، ونهض جالساً فجأة، وهو يعبس بشدة: «ماذا سيفوتني إن نمتُ الآن؟!».

حوّل نادر بصره له بتفاجؤ: «لِمَ تقول ذلك؟!».

«لأنك لا تُبالي إن نمت.. لذا أنا من سيخسر لو نمت وليس أنت»

وازداد عبوسه لتقفز ابتسامة منبهرة لشفتيْ نادر.. متى وصل بفهمه له إلى هذا الحد؟!

وبالفعل أخرج هاتف فارس من جيب معطفه، فصاح فارس بسعادة، وهو يقفز ليأخذه منه: «هل أعدت شحنه بالرصيد؟!».

«نعم».

«سأتحدث مع أحمد.. هو قلق عليك مُنذُ الأمس» وفتحه ليُجري اتصاله به، فيما راقب نادر قامته، وهو يقف جواره..

«متى زدت طولاً؟!»

سؤاله الجذل جذب انتباه فارس ليبتسم بفرحة، بل واقترب منه ليجد رأسه يكادُ يصل إلى ذقن نادر..

«لقد ازداد طولي!» صرخ ببهجة أصمَّت أُذنيْ نادر الذي ضرب رأسه بخفة قائلاً: «مع ذلك ما زلتَ قزمًا أمامي».

شدَّ بألم على موضع الضربة قائلاً بتحدٍّ: «انتظر فقط سأطول وأطول وأطول لأضرب رأسك أنا من فوق».

شيء من الكدر الخفيف رُسم فجأة في تينك العسليتين ليلحظه فارس فانخلع قلبه: «أنت بخير؟!».

رفع نادر كفه ليربت بها على شعره الفاحم: «يكفي هذا الطول الذي شهدته».

لم يفهم فارس ما يعنيه إلا أن وجهه الهادئ بغرابة زاد من قلقه،

فقال: «أما زلت مريضًا؟!.. أخبرتك كان عليك الذهاب للمستشفى ثم البقاء بالمنزل حتى تُشفى تماماً».

ابتسم نادر مطمئناً له: «أنا بخير.. ما أصابني لم يكن مرضًا عضويًا يستدعي الذهاب للمستشفى.. هو تعب بسيط قد زال بزوال مُسببه.. لذا لا تقلق».

ظل فارس يتفحصه بشك فهو متيقن من أنه رأى شيئًا في عينيه، ولكن سرعان ما تبدد ذاك الجو حين ارتفع صوت أحمد من الهاتف لينشغل فارس بمحادثته.

فيما تأمله نادر بأسف، فإن كان مقصد مايا ببحثها عنه هو حمايته فهما قد يفترقان هنا، ولن يشهد عندها ازدياد طوله، ولا تحسن صحته، ولا تقدمه في الحياة.

«من يهتم؟! ألم أكن أتوق دومًا للتخلص من وجع الرأس؟» وتحرك ليجر حقيبتهما بهدوء نحو حجرة في آخر الشقة بها سريران مفردان، وارتفع رنين هاتفه فجأة وقد كان حاتم.

أجاب اتصاله ليسمع نبرته المتعجرفة: «يا زعيم لقد نفذتُ جزئي من الخطة.. وخدعت تلك المسنة و.. و..»

كان يستمع له، وهو يتجه ليجلس فوق أحد الأسرة مبادلاً إياه الحديث.

فيما واصل فارس طمأنة أحمد الذي ما زال على حاله مُحمر الوجه والعينين، لم يذق نوماً، ولا طعامًا، والتعب يملأ ملامحه.

«إنهُ بخير!» صاح فارس.

«هل أنت مُتيقن أنه بخير؟!».

«أُقسم إنه بخير».

«ولكن طوال اتصالي بهاتفك أو هاتفه لم يرد عليَّ أحد منكما».

فتح شفتيه يُريد إخباره بأن نادر أخذ هاتفه ومنعه من مكالمته، ولكن هو لا يُريد أن ينِمَّ به فشقت وجهه ابتسامة لطيفة بلهاء.

«حسناً.. حسناً.. ولكن.. ما هذا؟!.. أين أنتما؟!».

سأل بصدمة، وقد انتبه أخيراً أنه يتحدث معه من مكان آخر غير منزل عبد المجيد.

«لقد سافرنا مجدداً» أجابه، وراح يحكي له ما فعله نادر مع طيريه كي يشتريهما مجدداً من أجله، فيما عقد أحمد حاجبيه، فبالتأكيد نادر ليس بخير، وإلا فكيف يُغادر القرية بهذه السرعة بعد وفاة والديه؟!

«فارس.. أُريد رؤيته»

قاطع بها ثرثرة فارس ليطيعه مُباشرة دون تردد، فتحرك نحو الحجرة ليُسلط كاميرا هاتفه على نادر وهو يجلس بهدوء فوق السرير متحدثاً في الهاتف مع رفاقه، بل ويبتسم لشجارهم الذي لا ينتهي.

انتبه نادر لشاشة هاتف فارس المسلطة عليه فرأى وجه أحمد المرهق المتوسط لها، وقد بانت عليه الصدمة، ولكن ما عكسته عيناه المحمرتان كان الأسوأ..

بدت نظرة عتاب تحمل الكثير والكثير من الانكسار، صحيح هو

قد أخطأ في حقه يومًا ما، ولكن أكان يستحق أن يتجاهل مكالماته القلقة التي فاقت بأرقامها العد ليتحدث مع غيره بكل هذا الانشراح والانبساط دون أن يبعث ولو رسالة صوتية واحدة تخفف من قلقه عليه؟..

أكان رخيصًا عنده إلى هذا الحد دون أن يعلم؟!

فيما هدأت ملامح نادر، وأغلق الخط في وجه رفاقه، وقفزت ابتسامة متورطة إلى شفتيه فنهض ليقابل شاشة هاتف فارس، ثم لوح بكفه له فأغلق أحمد الخط في وجهه.

اهتز حاجباه بإهانة وحنق.. ومع ذلك حال أحمد المُتعب ونظرته المنكسرة تلك أشعراه بالذنب..

المرةُ الأولى التي يجد فيها نفسه هو المخطئ في حقه.

«أكان عليك أن تجعله يراني وأنا أتحدث في الهاتف؟!» وبخ فارس الذي ظل مدهوشاً ينظر للشاشة السوداء ولسانه يرد:

«هو أصَرَّ على رؤيتك ليطمئن عليك.. وحين رآك أغلق الاتصال!».

ورفع بصره المتسع: «لِمَ هو غاضب؟! أنا حتى لم أخبره بأنك من أخذت هاتفي ومنعتني من مكالمته».

كلماته زادت من ذلك الشعور المُزعج في أعماق نادر فحك قفا رأسه بضيق.. هل عليه أن يتصل به ويُطيب خاطره؟!

دقيقة فقط، فكَّر فيها بإمعان، ثم نظر إلى ساعته، جزؤه من الخلفة على وشك البدء، لذا الوقت ليس مناسبًا للاتصال به، وعندها حسم الموقف بقوله: «لا عليك.. بعد أن تنام سنتصل به».

«معاً؟!» صاح فارس بسعادة.

«معاً» أجابه بانزعاج.

«حسناً» وركض إلى الخارج ليجلب حقيبة ظهره.

تأمل نادر حقيبة الظهر بحيرة، ففارس حين غادرا المنزل، وابتعدا لمسافة طويلة، صنع ضجة كبيرة، وكاد يفقد صوابه، مما أرغمه على العودة إلى المنزل من أجل أن يأخذ هذه الحقيبة فقط التي قال إن جواهر أحضرتها له كهدية حين عادت من السوق.

«ألم تجلب لي هدية أيضًا؟!»

صرح بسؤاله في غيرة واضحة جعلت عيني فارس يغشاهما الحزن، وهو يذكر تردد العجوز جواهر بعد خروج نادر وعبد المجيد للمستشفى، ثم حسمت فوضى مشاعرها بأن سحبته فجأة من يده وجرته معها ليدخلا معًا تلك الحجرة المحرمة التي لم تدخلها منذ وفاة ابنها الأكبر.

أجلسته أمام خزانة قديمة فكت قفلها، ثم وضعت أمامه الكثير من الأشياء، واختتمت ذلك بأن فتحت كيس مشترياتها لتمنحه حقيبة ظهر كهدية من أجل مدرسته التي حُرم منها منذ تسع سنوات دون أن تعلم، ورغم أن الحقيبة ذات طراز قديم وعتيق إلا أنه قبل بها أمام ابتسامتها المتحمسة تلك.

نظر لنادر المنتظر إجابته بلهفة، فتذكر حزنه ومرضه ثم..: «لا.. جدتي لم تجلب لك شيئًا».

اهتز أحد حاجبيه بغيظ، ومع ذلك لم يستغرب فهو قد رأى بنفسه تعاملهما المبالغ فيه مع فارس في يومهم ذاك.

«ولكن ماذا يوجد بها؟!» سأل بفضول، فرفعها فارس عن الأرضية، واحتضنها بين ذراعيه ورمى بجسده على السرير الآخر.

«إنه سر.. لن أخبرك» بابتسامة كبيرة أجابه.

«دجاجة مثلاً؟!» سأل ساخراً.

ضحك بقوة: «لا».

«إذًا ماذا سيجذبك غيرها من الحقل؟!» وابتسم بدوره.

ولكن فارس حافظ على صمته، وعيناه تعكسان حبّاً عميقاً لما بداخل الحقيبة التي يحتضنها.

«هل أنا أتحسن؟!» سأل فجأة مُغيراً دفة الحديث لتزول ابتسامة نادر، فيما تابع بقلق: «حين أرى الناس لا أظنهم المجرم، ولكن أنسى أوجههم بسرعة.. ألهذا طلبت أن أرسم وجه مايا؟!.. حتى لا أنساها».

ملاحظته الدقيقة صدمت نادر، ففي الحقيقة هو بصدد الانتكاسة إن لم يعد لأدويته.. ولكن هدفه من رسمها هو أن يُشتت مايا، ولكن فهم فارس جعله يسأله بذكاء: «هل تظن أنك قد تنسى وجهها؟!».

«بالتأكيد لا!» صاح فارس بثقة مما صرف عقله عن التفكير بشأن مرضه، فأشار نادر إليه لينهض، فقفز على السرير جواره، فأمسك نادر بذراعه، وبدأ بفك الشاش عن موقع الحرق.

«أما زال يؤلمك؟!».

«لا» وتجهم وجهه، وهو يذكر تألمه الشديد من أعشاب العجوز.

«لقد تماثل للشفاء.. دعه مكشوفًا الآن».

أومأ فارس إيجاباً، ثم سأله: «هل ستنام أنت أيضاً؟!».

أدرك نادر سبب سؤاله فابتسم؛ هو يخشى أن ينام فينفرد نادر بنفسه، ويحزن كالأمس.

«نعم سأنام».

ابتسم فارس، وقفز فوق سريره ليستلقي دون لحاف، وظل مقاوماً نعاسه ثوانيَ قبل أن يُغلق جفنيه، ويَغُطّ في نوم عميق.

وعندها نهض نادر مُغلقاً باب الحجرة عليه ليستعد لتنفيذ جزئه من الخطة، قدوم مايا بدلاً من رحيله هو للعاصمة لم يحلم بذلك حتى، وقد وفر عليه الكثير من العناء، ونظر إلى حجرة فارس، لم يمر يومان حتى على دفنه لوالديه، لقد ترك قبرهما، ولكنه يدرك أيضًا إن كانت نية مايا جيدة فعليه ألا يتأخر وأن يستغل ما تبقى من اتزان فارس؛ فقد يفقد فرصته بجمعه بأسرته للأبد حين يتكالب عليه المرضان معًا، النفسي والعضوي.

اتجه للخارج، وهو يفكر: بعد أن يُنفذ خطته سيتصل بأحمد المخاصم له.. هو غاضب، ولكنه سريع التسامح..

ومع تذكره لوجه أحمد الحزين..

تذكر فجأة ريم..

لِمَ هيَ لم تحضر لمنزله؟!

هيَ حتى لم تحضر الجنازة؟!

ليس وكأنه يشتاق لها، فقط ذلك ليس من طبعها.. تذكر تشبثها به في السوق وبكاءها، بل وتكفلها بأمر أخوي ثابت.

«هل تغطيتها عليّ أوقعتها في مشكلة؟!»

تساءل عقله بحيرة، فهو لا يُنكر أنه رغم سوئها هو ممتن لها؛ لأنه لو انتشرت حادثة السوق وما فعله بأخوي ثابت لم يكن عندها ليتمكن من حضور جنازة والديه، وقد يكون هو المتسبب بإصابتهما بنوبة قلبية حين يُقاد للسجن مجددًا.

تردد دقائق قبل أن يسحب هاتفه ليخطَّ بعض السطور على شاشته بعث بها إليها، ثم غادر الشقة بالكامل مُغلقاً بابها على فارس.

****

«لا يُهم»

هتفت بعد ساعة من جلوسها بعقل شارد وحائر في منزل عبد المجيد، ثم قفزت لتمسح وجهها المبلل، وكفها تُعانق الورقة.

تأملها أكرم ونواف ببعض الوجوم، وقد تحوّل حالها بالكامل، ثم قال أكرم بانفعال: «كيف لا يُهم البحث عنه ما دام يختطف أخاك فارس؟!».

رنّ قلبُها بمحبة للاسم الأخير الذي نطقه، وكأنها أخيراً حققت نتيجة بحثها، فابتسمت: «سأطلب من العم سامي البحث عن أسرة المجرم نادر.. عن أصدقائه».

«هل تحاولين جعلنا مُجرمين؟!» قال نواف بجبين مقطب.

«ألستما كذلك؟!» وأشارت بعينيها للسلاح الذي يَشهره.

«أمجد ضحى من أجلنا وأنتِ تُريدين التضحية بنا!» صاح أكرم بهلع، وهو ينظف حذاءه من الطين فوق مسند الأريكة.

«سنعمل بإنصاف.. يسلمني أخي وأُسلمه الشخص الذي يُهمه أمره.. واحدة بواحدة».

«فقدت عقلها بالكامل» صاح أكرم، وهو يصفع كفيه بعضهما ببعض، فيما وقف نواف أمامها مُهدئًا لها: «يا ابنتي.. لا ذنب لأسرته بجرمه».

احتقن وجهها الناصع البياض بحمرةِ غضب: «أعلم أنك شُرطي.. وتقف مع العدالة، ولكن أنا لستُ قادرة حتى على الاستعانة بالشرطة لأنهم سيسلمونه لعمي بدلاً مني».

«وماذا لو سلموه لعمك؟! ألستِ قادرة على الذهاب إليه وأخذ أخيك من عنده؟!» سألها نواف باستنكار.

فتحت شفتيها لتُجيب.. كلماته منطقية، ولكن لماذا أخفى فاضل أمر فارس عليها طوال الوقت؟!

بل وزيَّف موته؟!

«لا» قالتها بحدة رافضة تماماً تدخل رجال الشرطة، فقال نواف: «حسناً.. أنتِ لم تنامي ليومين.. وبالأمس واصلنا السفر دون توقف.. يا ابنتي عليكِ أن تحظيْ ببعض النوم، وبعدها يمكننا التفكير إما بخيارك أو خيارنا»: التحم حاجباها الرقيقان بسخط، وركلت الطاولة

لتنقلب جوار الموقد، صارخة: «سأقتله.. سأُحرقه.. سأُعذبه.. ذلك الوغد القذر يجب أن أقبض عليه بنفسي قبل الشرطة!».

«حسناً.. حسناً» تمتم نواف، ودفعها للخارج نحو السيارة، وهو يلحظ إرهاقها الواضح من قلة النوم وكثرة التفكير.

«ألم تجدوه؟!» صرخ طارق جزعاً، وعيناه تُشيعان الثلاثة الخارجين بمفردهم دون نادر.

فيما أدار ثامر بصره في حقل التفاح، فانتبه لفراغه من سيارة نادر، فصاح: «الوغد!.. لقد هرب.. أُقسم إنه حتى منتصف ليلة البارحة كان هنا فلقد رأيتُ سيارته بنفسي».

تأملتهما بنظرة عصبية: «كيف علم بقدومنا ليهرب؟! ألم آمرك بمراقبته؟!».

ووجهت نظرتها المتقدة شرًا لطارق، وبحق لولا والدهم وإجباره لهما على أن يناما لما تركا مراقبة حقل التفاح..

صعد نواف للسيارة، فيما انشغل أكرم بالرد على اتصال زوجته، على حين قفزت ابتسامة مُخيفة لشفتيْ مايا الورديتين، وهيَ تسأل التوءمين: «هذا المجرم نادر.. أين هم أسرته؟!».

لم يفهما مغزى سؤالها، ولكن أجاب ثامر سريعاً: «لديه والدان ماتا بالأمس».

فغرت فاها لسوء الحظ، فيما وكزه طارق بمرفقه: «ليسا والديه.. هو لقيط.. أنسيت؟!».

في جميع الأحوال لم تكن تلك إجابة مفيدة، فعادت تسأل بلهفة: «أقرباء.. زوجة.. خطيبة؟».

«ريم!» صاح ثامر مجدداً، فقاطعه طارق بغيظ: «تلك البغيضة تُحبه من طرف واحد، وهو لا يكترث لها».

مجدداً إجابات عقيمة جعلت وجهها يشتعل، لتسأل آخر سؤال، وإن كانت إجابته كالسابقين فستصفعهما بالتأكيد: «ألديه أصدقاء.. يُهمه أمرهم؟».

«أحمد» صاح طارق، فابتسم ثامر مؤيداً له.

«هل هو مُقرب منه؟!».

«نعم.. حتى أنه لحق به إلى العاصمة ليُكمل دراسته هناك كيْ يبقى قريباً منه.. بل وتنازل عن أن يكون مُحققًا من أجله؛ لأنه حُلمهما معاً ونادر لم يستطع تحقيقـ..».

«أليس هذا أشبه بريم، حب من طرف واحد؟!» قاطعته باستياء.

«لا.. لا.. إن والدته تقول إن قوة علاقتهما تسوؤها بالكامل» قال طارق بثقة.

هنا ابتسمت، وأخرجت من جاكيتها مفكرتها السوداء: «اسمهُ بالكامل.. وحتى ولو معلومة تافهة قد لا تراها مُفيدة ستفيد».

أسرع طارق يمنحها اسمه بالكامل، والجامعة التي درس فيها، ومجال تخصصه، فهذه القرية بكل ساكنيها لا تبقى نميمة ولو صغيرة إلا وتحملها كل الصدور.

«جيد.. جيد» وراحت تخط بقلمها الذهبي فوق أوراق مفكرتها، وهواء الصباح يتلاعب بخصلات شعرها الطويلة، والفاحمة، من حول وجهها المبتسم بشراسة.

«أحدهم أطلق شيطانها» تمتم أكرم فجأة، وهو يبتلع ريقه، فرد نواف بارتباك: «ومن غيره ذلك المختطف نادر؟!».

«نواف.. ألا تظن أننا سددنا الدَّيْن؟!».

«لن نسدده حتى تُدخلنا السجن كما دخل والدها السجن».

واصلت مايا التسجيل، ولسانها يسأل كحال المحاميات الفضوليات: «درسا معاً.. هذا جيد، وتربيا معاً أيضاً.. يا للحظ و..».

«إن كُنتِ بحاجة لمعلومات أكثر فسأكون أكثر إفادة منهما»

التفتت بسرعة للخلف فرأت ريم تتقدم نحوها، وعينها تغمز بإشارة خفية أرعبت التوءمين.

«ولماذا قد أهتم بما عندك؟!» سألتها مايا، وكفها تُعقد على خصرها.

«لأني كُنت خطيبة أحمد هذا!».

تفاجأت مايا، وصمتت بحذر، فيما صاح طارق بذعر: «ريم.. كُنا نتحدث عن أحمد ليس إلا.. نحنُ لم نتطرق للحديث عن نادر أبداً»، ذعره المُبالغ فيه بسبب خوفه من نشرها للفيديو، على حين أغلقت مايا مفكرتها ناطقة: «إذًا هذه هيَ مُطاردة نادر، وهيَ أيضاً خطيبة لصديقه المُقرب.. يا للعار!».

اشتعلت عينا ريم بغضب، واستشعر الأربعة تلك الشرارة المتفجرة بينهما.

«خطيبة سابقة» ردت ريم بحدة.

ظلت مايا واقفة برأس شامخ مُخفية قلقها؛ فريم عالقة بين الشابين، ولو أدركت أنها تُريد اختطاف أحمد لتستبدل به أخاها فقد تُبلغ الاثنين وتتسبب بفشل خطتها.

«أأنتِ شابة العاصمة أُخت ذاك المتطفل؟».

سألت ريم فجأة بصدمة، وهيَ تتأمل ملامحها الشبيهة بملامح فارس.. عينان زرقاوان.. شعر أسود فاحم.. وبشرة بيضاء صافية.

«من تقصدين بالمتطفل؟! أهو أخي؟! هل رأيته؟!»

تغيرت سحنتها تماماً، وصوتها يحمل لهفتها، فأشارت ريم نحو التوءمين مجيبة: «أنا لم أتحدث معه أبداً أو أقابله ولستُ مهتمة أيضًا.. ولكن اسألي هذين الاثنين عنه.. فقد وجدتهما مرة يضربانه في السوق حتى كاد يفقد حياته».

شلّت الصدمة لسان مايا، وقذفت عيناها شررًا كالجحيم نحو الاثنين اللذين فتحا أفواههما للإنكار، إلا أن ريم قالت بابتسامة خبيثة: «لا أملك دليلًا وإلا لأثبتُّ لها ذلك».

فأطبقا شفاههما مرغمين، فيما ارتفعت كف مايا الحاملة لفكرتها السوداء الثقيلة لأعلى امتداد، وهي تقترب منهما.

«لن تنجوا.. سنجركما للمحاكم!»

صرخ أكرم بالتوءمين قبل انفجار مايا، فيما سحب نواف مفكرتها من كفها، وهو يصيح: «الديكِ اسماهما، لا عليكِ سترفعين قضية عليهما».

لم تُفق بعد وظلت تلوك شفتها بغيظ وأعماقها تغلي.

«مايا بعد أن نلتقي بأخيكِ سيتلقيان أشد العقاب.. لا وقت لدينا لمشكلات أخرى.. فالضحية ليس موجودًا أصلاً»

شارك أكرم في محاولة تهدئتها لتزفر بشدة، وسحبت مفكرتها السوداء من نواف، وبالفعل وضعت إشارة فوق اسميهما قبل أن تشدَّ قامتها، وتنظر لهما بنظرة فوقية لم تذكرهما إلا بنظرة فارس في الزقاق.

«إياكما أن تنسيا وجهي.. انتظراني.. سأعود هنا من أجلكما يومًا ما، ولو بعد مئة سنة، فما دمتُ حية أُقسم أن أحرص على أن تُعطب أيديكما الممتدة عليه».

من أخبرها أنهما لا يُعانيَان إلا من فوبيا فقدان الأذرع؟!.. عادا جرياً للمنزل ليغلقا البوابة، متنازلين تماماً عن المكافأة..

فإن كانت تسعى خلف مُجرم لتُنقذ أخاها، فلماذا تُهددهما بمثل جريمته؟!

أغلقت مفكرتها، وعادت نحو السيارة، وقد شحذت عقلها لينشغل فقط بخطتها الجديدة.. اختطاف أحمد.

بينما ظلت ريم واقفة أمام بوابة حقل التفاح تُشيعها بنظرتها المُستغربة..

هل نادر قاسٍ معها هيَ الأخرى؟!

هل قدمت لتعزيته من أجل والديه وهو غادر قرية السنابل دون أن ينتظر وصولها؟!

بل هل بلغ حُبها له أن تتقصى حول أصدقائه؟! وبالذات حول أحمد؟!

ثم أخرجت هاتفها لتنظر بحب لسطور الرسالة التي بعث بها نادر إليها يُخبرها أنه سيترك حقل التفاح في رعايتها، وأنه ترك لها المفتاح في المكان المُعتاد..

فعلهُ هذا نجح بجبر شيء من خاطرها، وأزال شيئًا من حرجها..

(صديقته).. سيكون ذلك كافياً لها طوال حياتها..

****

- ٨:٤٥ صباحاً -

«إنه رائع.. أتريَان؟!» صاح أكرم بارتباك، وهو يوقف السيارة أمام فندق مئة وتسعة المكون من أحد عشر طابقًا، لينعقد حاجبا نواف بسخط: «ما الرائع فيه؟! يبدو لي قديماً ورثّاً».

«مُتسرع كعادتك.. لا تحكم على الكتاب من غلافه».

وألقى نظرة وجلة للخلف خشية رد مايا، ولكنها لم تكن مُهتمة أبداً، وهيَ تواصل حديثها مع سامي عبر الهاتف: «هذه كافة معلومات أحمد.. نعم.. أجل هو عندك في العاصمة.. يمكنك من خلال خبرتك في الحاسوب تبيّن موقعه.. نعم اختطفه أنت وسعد.. ماذا؟! ليس

وكأن البراءة والطهر يتلبسانكما مُنذُ مولدكما.. لقد كنتم تسطون على أموال بسام ثروت لسنوات هل نسيتما؟!.. لا تهتم سأكون أنا المسئولة بالكامل إن قبضت عليكما الشرطة كوالدي.. و ...».

تابعت حديثها الغاضب، ليتنهد أكرم مُحدثاً نواف بخفوت: «ألم يكن تجولنا بالدراجات النارية ورفع لوحة (من أجل أمجد) كافياً للتكفير عن ذنبنا تجاهه؟!».

أجابه نواف بتعب، وهو يدفع باب السيارة للخروج: «هيَ تتبع خطا أبيها أمجد فحين أغضبهُ بسام باتباعه لطرق غير مشروعة في تدمير تجارته هو اتبع طرقًا غير مشروعة للانتقام منه.. وهيَ الآن تُقلد المختطف باتباعها طرقه غير المشروعة لاستعادة أخيها».

ثم أردف: «لا عليك.. لن يُطيعها سامي فهو أجبن من أن يفعل ذلك».

تنهد أكرم براحة، والتفت نحوها يحدثها بلطف: «هيا.. عليكِ استبدال ملابسك الملوثة بالطين ثم نالي قسطاً من النوم قبل أن نقرر خطتنا الجديدة».

لم تنتبه لكلمته الأخيرة لأنها بالفعل قد وضعت خطتها، فأخرجت الورقة من جيب جاكيتها لتتأمل رسم فارس لها بعيون لامعة ملؤها الوَله والشوق، فيما نسجت ذاكرتها تفاصيل تلك الحادثة وكأنها تحدث الآن.

كان في السابعة من عمره بينما هيَ في السادسة عشرة، قبل رحيلها للدراسة في لندن بثلاثةِ أشهر..

«مايا.. أنتِ لم تحضري مباراة البيسبول الخاصة بي!»

تمتم فارس بغضب وخصلاته الفاحمة تهتز أمام زرقاويه المرتجفتين بحزن، ثم قفز فوق سريره ليجلس عليه، معطيًا ظهره لها..

«بل حضرت، ولكنك لم تَر ذلك بسبب كثرة الجماهير»

قالتها كاذبة، وربتت على كتفه من الخلف مضيفة: «ثم إن التقاطاتك للكرة كانت مُذهلة للغاية».

عبس بشدة، وأدار وجهه نحوها: «أنتِ لم تحضري؛ فأنا ضارب الكرة لفريقي ولستُ مُلتقطها».

ابتلعت شفتيها الورديتين بتورط، قبل أن تتنهد بتعب: «ألم يكفِ حضور والدك راكان؟!».

«كلا!.. أُريدكِ أنتِ أيضاً.. جميع من بفريقي لديهم أُمهات يشجعنهم دائماً، ولكن أُمي لا تحضر مهما طلبتُ منها.. لذا تعالي أنتِ».

«أيُّها المُحتال.. إذًا أنت تُريد بديلًا لأُمي ليس إلا.. كم هذا مُحزن.. وأنا من ظننتك ترغب بوجودي أنا.. حسناً من الجيد إذًا أنني لم أحضر»

وقوست شفتيها لتُشعره بالذنب، فأسرع يمسح بكفه على وجنتها المنتفخة معتذرًا: «أنا أسف.. أسف.. بل أردتك أنتِ مع أبي وأمي.. وغضبت لأن أبي هو من حضر فقط».

وكادت زرقاواه تفيضان بالدموع، فضحكت صائحة: «خدعتك.. لستُ غاضبة!».

مطّ شفتيه بغيظ، فيما طرقت بسبابتها أرنبة أنفه: «يبدو وجهك ممتعًا في كل مرة أخدعك».

عبس بشدة، ثم قام مغضبًا ليسحب كُراسه كي يفرغ غضبه بالرسم كعادتِه، فيما استلقت على سريره: «فارس.. ارسمني جميلة جدّاً يزين شعري طوق من الزهور.. أُريد أن أتباهى بها أمام رفيقاتي في المدرسة».

توقف عن الرسم ليُفكر.. هل يرسمها؟!.. فشجعته بهز حاجبيها، فقفزت ابتسامة مُشاكسة لشفتيه وهو يسحب مقعدًا ليُقابلها، ويبدأ بالرسم، وظلت متصلبة من أجله علَّ ذلك يخفف من غضبه عليها.

وبمجرد انتهائه، مدَّ لها بالورقة، فأسرعت تنظر إليها بابتسامة سُرعان ما تحطمت، وضاقت عيناها لمرأى رأسها الأصلع وثلاث زهرات نابتة منه فقط..

رفعت عينيها الساخطتين نحوه لترى ابتسامته المستفزة وانطلقت ضحكاته عالياً وهو يهرب بعيداً عنها قبل أن تلحق به).

نزلت دمعات من عينيها الواسعتين، وتلك الذكرى تُشعرها كما لو أنها حدثت بالأمس، رفعت كفها لتمسحها، وحلّت بوجهها عزيمة قوية: «أعلم أنها رسالتك السرية لي يا فارس كي أُنقذك.. لا تقلق أختك قادمة من أجلك ولو أحرقت الجميع».

«أنتِ لا تقصدينا بحرق الجميع؟» سأل أكرم، فرمقته بنظرة لا مبالية، وطوت الورقة ثم وضعتها في جيب جاكيتها.

ترجلت خارج السيارة ليمتقع وجهها من مرأى هذا الفندق

القديم، ولكن هيَ ليست بمزاج جيد للحظِّ من قَدْرِه، أو قَدْرِ من اختاره وهو أكرم الذي تنفس الصعداء من خلفها؛ فالآن يُمكنه شراء صابون إعادة الشباب لزوجته دون قلق.

كان نواف قد سبقهما باختيار الحجر، حجرة واحدة له هو وأكرم، وأخرى مجاورة لهما لمايا لمدة يوم واحد فقط.

«بالطابق التاسع» قال مسئول الفندق مانحاً له مفاتيح الحجرتين.

وقفت مايا جواره، وعيناها تُحدقان بدهشة بمرتادي الفندق، جميعهم رجال ذوو وشوم غريبة، وعضلات مُبالغ فيها، إضافة إلى أوجه عابسة وكئيبة.

«لا شيء طبيعي بهذا الفندق».

تمتمت بها لنفسها دون أن تنتبه لعامل حمل الحقائب بالفندق، والذي شيعها بنظراته الجازعة، فمن الغباء أن ترتاد شابة جميلة وعاقلة هذا الفندق الغريب!

ووسط صالة الاستقبال ظل ذلك الشاب مُخفياً وجهه خلف جريدة الصباح، ثم ابتسم بعبثية لنجاح حاتم فيما كلفه به.

رفع كمامة سوداء ليُغطي بها النصف السفلي من وجهه، وتحقق من أن قفازاته الجلدية السوداء مغطية لكفيه جيداً، ثم نهض متجهاً نحو المصعد.

وقف أمام المصعد المُغلق ناظراً لمايا التي أخذت مفتاح حجرتها من نواف، وسبقته نحو المصعد، فيما تكفل نواف وأكرم بنقل حقائبهم إلى عربة نقل الحقائب الفندقية.

ضغط الشاب زر فتح المصعد ليدلف قبلها، ووقف داخله فاسحاً لها المجال لتدخل بكُلِّ أدب، بل ولم يضغط زر الطابق.

تأملت شعره المندس بالكامل تحت قبعة سميكة، ونصف وجهه المغطى بالكمامة، وقفاز كفيه، ثم قميصه ذا العنق الطويل أسفل المعطف الفاخر.

«موسوس»

تمتمت بها بخفوت، وهي تدلف إلى المصعد معه ضامنة أنه لن يلمسها، وضغطت زر الطابق التاسع قبل أن يضغط هو زر طابقه؛ فهيَ من شدة تعبها لن تحتمل توقفه من أجله في أيّ طابق.

ثم شهقت بعنف حين ارتفعت كفه فجأة يهز بين سبابته وإبهامه ورقة رُسم عليها رسمتها نفسها، تراجعت للخلف وسحبت ورقتها من جيبها لتُدرك أنه لم يسرقها..

هيَ ورقة أخرى من رسم فارس..

هو خاطفه!..

صرخت بقوة، وكفها ترتفع لسحب الورقة منه، جاذبة بصوتها أكرم ونواف، اللذين تخليا عن الحقائب، وجريا نحوهما..

«أيها الحقير أعد أخي!»

منحها رغبتها باختطاف الورقة، ولم تكد تأخذها حتى سحبها بعنف من ذراعها الممتدة، وأدارها ليكون وجهها مواجهاً لأكرم ونواف.

كان المصعد في طريقه ليُغلق، وكادت تصرخ مجدداً لولا كفه التي غطت فمها، فمدت كفّاً مستنجدة بأكرم ونواف، ولكن درفتي المصعد أُغلقتا لتتبدد استغاثتها بهما..

«اللعين!» صرخ أكرم.

«إنه يتجه للطابق التاسع.. لنلحق به عبر السلالم!» صاح نواف وهو يتجه لمدخل السلالم.

«حسناً» صاح أكرم بدوره فيما تابعهما موظف الاستقبال بتعب.. ألم يُخمنوا أن هذا ما قد يحدث؟!

وداخل المصعد أدرك نادر خطأهُ تماماً حين ظن أنها قد تخضع له؛ فها هي تُذيقه عضة عنيفة على كفه المطبقة على فمها، فتأوه بألم وهو يُبعد كفه صارخاً بغضب: «تبًا!.. أنتِ أعنف من فارس!».

فقط ذكرهُ لاسم أخيها جعلها تلتف نحوه، وركبتها تتجه نحو معدته، ولحسن الحظ لاحظ ذلك فأوقفها براحة يُمناه، إلا أن ما تلقته قدمه تالياً من كعب حذائها جعله يضغط أضراسه وجعاً وفقد صوابه بدوره فدفعها بقوة ليرتطم كتفها بجدار المصعد..

وهل أوقفها ذلك؟!.. بالتأكيد لا..

سحبت من شعرها الململوم للأعلى دبوسًا معدنيًا طويلًا ذا نمط صيني ليغرق جانبا وجهها وكتفاها وسط شعرها الأسود المتموج والمنسدل لآخر ظهرها..

«أعد لي أخي!» صرخت بقوة ودبوسها يتجه نحوه لطعنه.

ذلك الإحباط الذي ظنّهُ هو بشأنها تلاشى تماماً من عقله فأمسك ذراعها في منتصف المسافة قبل أن يلمسه دبوسها، ولكن كفها الأخرى الحرة تحركت لتسحب الكمامة ليظهر وجهه.

«أنت هو نفسه رجل المصعد الوقح!».

«الوقاحة هي تنسيقك لألوانك يا مسخ الموضة!».

ردَّ إهانتها، وملابسها تستفزه بالكامل، وقد اكتفى من مقاومتها، فسحبها من ذراعها بعنف، ثم أدارها بقوة لتعطيه ظهرها، ورغم حركتها وصراخها أخرج شريطًا لاصقًا ليلفه حول رسغيها.

«أيها الوغد.. كيف تجرؤ؟! سأشويك حيّاً!»

صراخها سيجلب أنظار نصف رواد الفندق، لذا وضع قطعة من اللاصق فوق فمها، ووضع كمامته فوقه..

وابتسم (تمت المهمة).

تمتمت بصوت مكتوم وشتمت، ولكنه لم يهتم فلم يكن لأنثى غير مُدربة على القتال أن تتغلب على قوة رجل مُدرب أبدًا.

أوقف المصعد قبل وصوله للطابق التاسع وضغط زر الطابق الأرضي، وفي ممرات السلالم كاد أكرم ونواف يُصابان بنوبة قلبية ورئاتهما بالكاد تلتقط أنفاسها..

إلا أنهما ظلا متحفزين وهما يصلان للطابق التاسع ليتجمدا عند رؤيتهما للوحته الرقمية المنذرة بنزوله للطابق الأرضي.

«بؤسًا له!» صرخ الاثنان، وركضا للأسفل، رغم ثقتهما بعدم لحاقهما به؛ فرحلة صعود السلالم قد أخذت كل طاقتهما.

دقائق تأخيرهما تلك كانت كافية ليصل المصعد للطابق الأرضي، فدفعها نادر خارج المصعد، ثم جرها نحو مصعد آخر.. المصعد المخصص للحقائب، أدخلها معه فيه، واختار الطابق السابع من الفندق نفسه.

وصل أكرم ونواف ليجدا المصعد الأول مفتوحًا وفارغًا، بحثت أعينهما في كُلِّ ما حولهما، جريًا بجنون بين السيارات، وتجول نواف بسلاحه وهو يناديها، ولكن المكان كان فارغًا تماماً.

وفي الطابق السابع أخرج نادر رأسه يمنةً ويسرةً لينظر للممر الفارغ، ثم جذبها معه نحو باب الشقة المقابل للمصعد رغم حركتها وذعرها وهي تراه سيختلي بها في شقة بمفردهما.

فتح باب الشقة، ودفعها للداخل، وجابت عسليتاه كل زوايا الشقة بتوتر.. (جيد لا يزال فارس نائمًا).

سحب القبعة لتتحرر خصلات شعره الكستنائية القصيرة فانسدلت حول وجهه وأسفل رقبته، ثم رفع سبابته مُهدداً: «إن أبقيتِ فمكِ مُغلقاً فلن أوذيكِ».

تراجعت للخلف بفزع، وكفه تمتد نحوها لتسحب الكمامة عن وجهها، فيما أبقى الشريط اللاصق على فمها، لتظل ظاهرة فقط عيناها

الواسعتان العاكستان ذعرها واستهجانها، لقد أرادت إنقاذ أخيها المختطف، فكيف لها أن تكون هيَ الأخرى مختطفة!

وعلى يد الرجل نفسه؟!

****

- لندن -

امرأة في العقد الرابع من عُمرها، نزلت درجات السلم بخفين من القطن يتهادى حول جسدها الممشوق فستان منزلي يصل لمنتصف ساقيها.

«مساءُ الخير راكان».

«مساءُ الخير فاتن.. هل حظيتِ بقيلولة جيدة؟!».

أومأت برأسها إيجاباً، وهي تحتل مقعدها جواره حول المائدة، ثم سألت بنبرة ممتلئة بشوقها: «ألم تأتِ مايا؟».

تنهد راكان بتعب: «مُنذُ عودتنا، في المطار بالتحديد، فارقتني وذهبت لموقع عملها.. صديقتها سلوى تقول إن لديها الكثير من العمل المتراكم لذا ستستمر بالنوم في شقتها حتى تُنجزه بالكامل».

«قد أزورها لاحقاً» تمتمت بلطف، وهيَ تسحب شوكة وسكيناً لتبدأ بالأكل، فيما تردد راكان ثوانِيَ قبل أن تنتصر بعض الشجاعة على خوفه، فنطق: «ما رأيك أن نعود إلى الوطن؟!».

توقفت شوكتها في منتصف المسافة لفمها، ثم سألته: «لماذا الآن؟!».

«ألا تريدين البقاء قريبة من مايا؟! هيَ وافقت على أداء عمل

لفاضل، ورغم رفضي لستُ متيقنًا من طاعتها لي.. ولن أكون مرتاحًا أيضًا لابتعادها».

وضعت الشوكة والسكين، واستدارت نحوه: «راكان.. مايا لا تسعى للعمل عند عمها، هيَ تسعى للشيء نفسه مُنذُ تسع سنوات وحين تيأس ستعود».

«لقد سلمتُ ابني فارس لفاضل ومات، وأنا لا أريد أن أسلمه مايا أيضًا» قال بوجل.

«أمجد كان مُعتزًّا بأخيه فاضل وهو عطوف جدّاً على مايا فلا تقلق».

أجابته بلا أدنى قلق ليعود لتناول طعامه، فيما ابتسمت وهيَ تضع قطعًا من اللحم على طبقه متمتمة:

«توقف عن القلق على كل شيء وإلا فستسوء صحتك».

لم يرد عليها وكفَّاها العطوفان تُقربان منه الطعام لترتخي عيناه بأسىً مُتذكراً الماضي، قبل عشرِ سنوات بالتحديد، حين كانت مائدته عامرة بمايا وفارس ولَمى.

كانت كفُّ فاتن تضع قطع اللحم في كل الأطباق متجاوزة طبقًا واحدًا فقط، تحثُّ الجميع على الأكل والمضغ جيداً دون أن تَسقط عيناها ولو خطأً على تينكَ الزرقاوين الصغيرتين المتلهفتين لاهتمامها.

بل وإذا ما تأخر أحد عن تناول وجبة الغداء فسيجد طبقًا مُحبباً له ما عداه، أكياس مشترياتها العائدة هي بها من السوق لا تحمل شيئًا ولو صغيرًا ورخيص الثمن من أجله، حتى حديثهم العائلي تتجاهل صوته المشارك فيه وكأنه ليس ابنها!

«من الجيد أنه قتل نفسه!»

تمتمت بها فجأة ممزقة ذكريات راكان الذي شحب وجهه، فسألها: «ماذا؟!».

«مايا.. ألن تُدرك أنه من الخير له وللجميع أن قتل نفسه بعد قتله لأخته لَمى؟!».

«فاتن.. هو مريض ولم يقصد ذلك».

«وأنا أقول ذلك لأنه مريض.. أليس موته خيرًا من حياته بهذا المرض الذي لا شفاء له؟!».

ازداد اتساع عينيه، هو لا يُنكر أنه غضب وحزن من أجل ابنته، ولكن فارس هو بمثابة ابنه أيضاً وإن لم يكن من صُلبه، فهو أول من استقبله بين يديه عند ولادتها له، ورباه بنفسه وكبِر أمام عينيه..

ومهما حدث هو لا يراه إلا كابنٍ له، ولذا نطق باستنكار: «لماذا تبغضينه كل هذا البغض؟!».

«أنا لا أُبغضه.. هل نسيت كيف هاجمنا بسكين بعد علاج رأسه في المستشفى؟!».

وهزت كتفيها: «هو شؤم حتى يوم مولده يوافق يوم موت والده أمجد».

«أستغفر الله العظيم.. لا يجوز لكِ التشاؤم بهذا».

تجاهلته تماماً، وهيَ تتابع طعامها: «حسنتهُ الوحيدة أن مات وإلا لم أكن في وجوده لأطمئن على ابنتيَّ فقد يقتلهما».

لم تكن قد أنهت حديثها بعد حين دخلت فتاتان توءمتان في الرابعة من عمريهما بشعر بنيّ قصير وعينين زمرديتين لتدورا حول المائدة وتلعبا.

«لين، لينا.. تعالا لتتناولا الغداء»

قفزت لينا فوق والدها فيما سحبت فاتن لين لتبدأ بإطعامها.

ظل راكان يسترق النظر نحوها مُخفياً ذعره منها.. هو حمى فارس من جده بأن نسبه لنفسه..

ولكن ما لم يوصِه به أمجد أن يحميه من فاتن!

بل هل (الحماية) ليست إلا مُرادفة لـ (الأُم)؟!.. فكيف تحمي طفلًا من أُمه؟!

****

تمت بحمد الله

على فارس أن يختار بين

منقذه وعائلته..

من سيبقى ومن سيرحل!

(متلازمة فريجولي ٣)